من أخلاق الرسول ﷺ

تأليف

محمد عبد العاطي بحيري

ضياء سعيدة

المكتبة التوفيقية

من
أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم

بقلم
محمد عبد العاطي بحيري



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

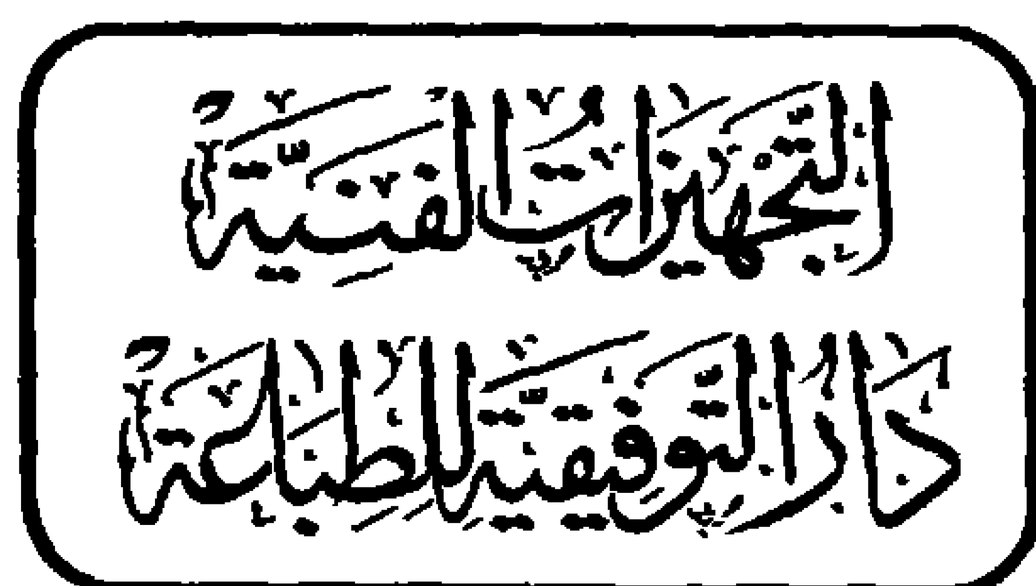
المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo - Egypt
Add : in front of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 -5922410
Fax : 6847957

إشراف
توفيق شعلان



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله...

إلهي..

أنت الذي صورتني وخلقتني ... وهديتني لشرائع الإيمان
أنت الذي علمتني ورحمتني ... وجعلت صدري واعي القرآن
أنت الذي أطعمتني وسقيتني ... من غير كسب ولا دكان
وجبرتني وسترتني ونصرتني ... وغمرتني بالفضل والإحسان
أنت الذي آويتني وحبوتني ... وهديتني من حيرة الخذلان
وزرعت لي بين القلوب مودة ... والعطف منك برحمة وحنان
ونشرت لي في العالمين محاسنًا ... وسترت عن أبصارهم عصياني
وجعلت ذكري في البرية شائعًا ... حتى جعلت جميعهم إخواني
والله لو علموا قبيح سريرتي ... لأبى السلام عليَّ من يلقاني
ولأعرضوا عني وملوا صحبتي ... ولبؤت بعد كرامة بهوان
لكن سترت معايبي ومثالبي ... وحلمت عن سقطي وعن طغياني
فلك المحامد والمدائح كلها ... بخواطري وجوارحي ولساني
ولقد مننت عليَّ ربِّ بأنعم ... مالي بشكر أقلهن يدان

أحمدك يا رب أن جعلتني من أمة خير الأنام، وجعلت ديني الإسلام، أحمدك يا رب أن جعلت قرآننا ودستورنا مرجعًا للأعلام، عند تفاوت الأفهام، وتباين الأقدام، فهو العروة الوثقى التي من تمسك بها فاز بدرك الحق القويم، والجادة الواضحة التي من سلكها

فقد سلك الصراط المستقيم وأشهد أن لا إله إلا الله.. وحده لا شريك له.. أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله.

سعدت ببعثة أحمد الأزمان وتعطرت بعبيره الأكوان

والشرك أنذر بالنهاية عندما جاء البشير وأشرق الإيمان

وأشهد أن سيدنا وحبيبنا محمدًا عبد الله ورسوله.. النبي المصطفى، والرسول المجتبى، سيد الأولين والآخرين، وشفيع المذنبين، وقائد الغر المحجلين، نبي أعطاه الله صفوة آدم، ومعرفة شيث، وخُلة إبراهيم، واستسلام إسماعيل، وصوت داود، وحلم يعقوب، وصبر أيوب، وقوة موسى، وشفقة هارون، وزهد يحيى، وبشرى عيسى، وأمر سليمان، وحكمة لقمان، وجمال يوسف، ووضع لواء الحمد بين يديه، وأكثرت الملائكة من الصلاة والسلام عليه.. سيدي يا رسول الله..

عذرًا رسول الله إن قصرت في وصف فإن جمالكم لن يوصفا

جاءت قديمًا ذرة من نوركم قد جمل الرحمن منها يوسفا

تالله لو جدَّ العباقر كلهم في وصف أفضال له لن تعرفا

تالله لو أن ماء البحار بجمعها كان المداد لوصف أحمد ما كفا

والله لو أن قبر النبي تفجرت أنواره للبدر ولى واختفا

تكفيه لقيا في السموات العلا وبحضرة المولى الكريم تشرفا

يكفيه أنَّ البدر يُخسف نوره لكن نور محمد لن يخسفا

اللهم صلِّ وسلم وبارك على طب القلوب ودوائها، ونور الأبصار وضيائها، وعافية الأبدان وشفائها، وذهاب الهموم وجلائها.. يا من أتيتنا بكتاب كالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، فمن سار في ضوء الكتاب والسنة، صار في ضوء النهار إذا جلاها، ومن أعرض عنهما، تخبط في ظلمة الليل إذا يغشاها قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها.. وبعد:

أخي المسلم.. أختي المسلمة..

ها أنا أطوف في بستان أخلاق سيد المرسلين، فأقطف لك ثمارًا يانعة، وزهرات وارفة[1]، لأكون لك باقة عبقة، عبيرها فواح، لنضعها على قبر إمام المجاهدين، وقائد الغر المحجلين، ورحمة الله للعالمين لعلها تكون لنا ذخرًا عند الله يوم القيامة، وتجعل لنا عند المصطفى شفاعة؛ إنما أخلاق أطهر المطهرين.. أخلاق خير أسوة للفرد في قبيلته، والزوج مع زوجته، والأب مع ولده، والمربي مع تلميذه، والواعظ مع مستمعيه، والجندي في حومة الوغى، والقائد في تدبيره، والقاضي في قضائه، والسياسي في حكومته، والملك في رعيته، والمسلم لأوليائه، والمحارب لأعدائه، والعابد في محرابه، والزاهد في قناعته، كل أولئك يجدون من حياته الأخلاقية مُثلاً يحتذونها، وإمامًا يسيرون عليه في تحقيق مآربهم، ومردًا يرجعون إليه عند حيرتهم.. ولا أجد أعظم ولا أحسن من قوله جل في علاه في وصف أخلاق هذا المثل الكامل للإنسانية أجمع:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤].

قال الحليمي: وإنما وصفت خلقه بالعظم، مع أنَّ الغالب وصف الخلق بالكرم، لأن كرم الخلق يُراد به الدماثة والسماحة، ولم يكن خلقه مقصورًا على ذلك، بل كان رحيمًا بالمؤمنين، رفيقًا بهم، شديدًا على الكفار، غليظًا عليهم، مهيبًا في صدورهم، منصورًا بالرعب منهم على مسيرة شهر، فكان وصف خلقه بالعظمة أولى ليشمل الإنعام والانتقام.

وقال الجنيد: وإنما كان خلقه ﷺ عظيمًا، لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى.. وقيل: لاجتماع مكارم الأخلاق فيه[2].

وقد قال عن نفسه: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وفي رواية: «**صالح الأخلاق**»[3].

---

(١) وارفة: أي: ناضرة شديدة الخضرة.

(٢) «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/١٠١، ١٠٢) ط. التوفيقية.

(٣) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (٤٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٠٧)، بتحقيق الألباني وصحيح الجامع (٢٣٤٩)، و«المشكاة» (٥٠٩٦)، ومالك في «الموطأ».

فجميع الأخلاق الحميدة كلها كانت فيه ﷺ لأنه تأدب بآداب القرآن، وتخلق بأخلاق القرآن، كما قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها - : «كان خُلقهُ القرآن»، وكأنه كان قرآنًا يمشي على الأرض.

قال بعض العلماء: إن القرآن كلام الله تعالى، وهو عين الأخلاق الربانية، فاحتشمت السيدة عائشة أن تقول: كان متخلقًا بأخلاق الله تعالى، فعبرت عن المعنى بقولها: «كان خلقه القرآن» استحياء من سبحات الجلال، وسترًا للحال بلطف المقال، وهذا من وفور عقلها، وكمال أدبها..

فكما أن معاني القرآن لا تتناهى، فكذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى.

فلما كانت أخلاقه بهذه العظمة، بعثه الله تعالى إلى الخلق كلهم، ولم تقتصر رسالته على الإنس حتى عمت الجن، ولم يقصرها على الثقلين حتى عمت جميع العالمين..

ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء
لو لم تقم دينًا لقامت وحدها ... دينًا تضيء بنوره الآناء
زانتك في الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماء
أما الجمال فأنت شمس سمائه ... وملاحة الصديق آياء
والحسن من كرم الوجوه وخيره ... وما أوتي القواد والزعماء

فماذا أستطيع أمام هذا الخلق العظيم أن أكتب؟! وماذا يستطيع القلم أن يخط.. إنني لو منحت ريشة من الجنة، لأصور هذه الأخلاق السامية العالية، ما استطاع القلم ولا اللسان ولا البنان أن يفي بكمالاته ﷺ .

فمن أين للقطرة أن تصف البحر الخضم؟!

وأنّى للهباءة أن تصور الشمس في ضحاه؟!

وأنّى لذرة الرمل أن تصور الصحراء البيداء الشاسعة؟!

فمعذرة يا سيدي يا رسول الله إن عجز القلم أن يصورك في سمو أخلاقك..

وعفوًا إن تطاولت إلى مقامك الأعلى، فما قصدت من وراء هذه القطوف من أخلاقك، إلا أن أذكر قومك بأخلاقك المثلى، في زمن طغت فيه الماديات على القيم والمبادئ.

سيدي يا رسول الله:

لمـــــا أراد الله جـــــل جلالــــــه أن يـــنقذ الدنـــيا مــــن العـــثرات
أهـــداك ربـــك للـــورى يـــا سـيدي فيضًـــا مـــن الأنـــوار والـــرحمات
يـــا صـــاحب الخلـــق الكـــبير عرفته وبســـــطته في حكمـــــة وأنـــــاة
وطلعـــت في اللـــيل البهـــيم مؤذنًـــا بـــــالحق والأنـــــوار والصـــــلوات
ودعـــوت لـــلخيرات قومًـــا ضـــللوا مـــا كـــان أبعدهـــم عـــن الخـــيرات
ودعـــوت حـــتى كنـــت أصبر من دعا وأقمـــــت بـــــين إســـــاءة وأذاة
فصـــبرت ثم رحلـــت ثم ضـــربت في أعـــــناقهم في عـــــزة وثـــــبات
فحظيـــت بالنصـــر المـــبين مـــؤزرًا وأقمـــت حقـــك خـــافق الـــرايات
وضـــربته مـــثلاً لكـــل مكابـــر لا يســـتوي حـــق بغـــير حمـــاة

أخي الحبيب:

فهذا ما استطاع قلمي أن يخطه، وهذا ما استطاعت يدي أن تقطفه من حديقة أخلاق الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ فيا لها من حديقة فيحاء غنَّاء، كل ما فيها طيب المظهر والمخبر، عبق الشَّذى، حلو الجنى، شهيٌّ إلى كل نفس.

ولست أول من قضى أوقاتًا سادنًا في هذه الحديقة الغنَّاء، وإنما سبقني إليها علماء أجلاء، وأساتذة كرماء، ولكن شاء القدر أن أكون خادمًا للسنة المطهرة، فإن أك قد وفقت فمن الله ﷻ، وإن كانت الأخرى فمني ومن الشيطان..

فيا إلهي..

يـــا مـــنزل الآيـــات والفـــرقان بيـــني وبيـــنك حـــرمة القـــرآن
اشـــرح بـــه صـــدري لمعـــرفة الهدى واعصـــم بـــه قلـــبي مـــن الشـــيطان
يســـر بـــه أمـــري واقـــض مـــآربي وأجـــر بـــه جســـدي مـــن الـــنيران
واحطـــط بـــه وزري وأخلـــص نـــيتي واشـــدد بـــه أزري وأصـــلح شـــأني
واكشـــف بـــه ضـــري وحقـــق توبتي واريـــح بـــه بـــيعي بـــلا خســـراني
طهـــر بـــه قلـــبي وصـــف ســـريرتي أجمـــل بـــه ذكـــرى وأعـــل مكـــاني
أســـهر بـــه ليـــلي وأظـــم جوارحـــي أســـبل بفـــيض دموعهـــا أجفـــاني
أمـــزجه يـــا رب بـــلحمي مـــع دمي واغســـل بـــه قلـــبي مـــن الأضـــغاني

يا رب العالمين...

كتبه الفقير إلى عفو ربه ومولاه

أبو أحمد/ محمد عبد العاطي محمد بحيري

من علماء الأزهر الشريف
ميت برة - قويسنا - منوفية
الخميس ١٨ من صفر ١٤٢٥ هـ
٨ من إبريل عام ٢٠٠٤ م.



التعريف بالأخلاق

الأخلاق في اللغة:

جمع خُلُق، والخُلقُ: اسْم لسجيّة الإنسان وطبيعته التي خُلِق عليها، وهو مأخوذ من مادة « خ ل ق » التي تدلّ على تقدير الشيء.

يقول ابن فارس: ومن هذا المعنى «أي تقدير الشيء» الخُلق، وهو السجية لأن صاحبه قد قُدر عليه.

يُقال: خليق بكذا (أي قادر عليه وجدير به).

والخلاق: أي النصيب ومنه جاء قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، أي من نصيب، لأنه قد قُدِّر لكل أحد نصيبه[١].

وقال الرّاغب: الخَلْقُ، والْخُلُقُ في الأصل واحد لكن خُصَّ الخَلْقُ بالهيئات والأشكال والصّور الْمُدْركة بالْبَصر، وَخُصّ الخُلُقُ بالقوى والسّجايا الْمُدْركة بالبصيرة[٢].

قال تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وذكر القرطبي: أن المراد بالخلق العظيم، أدب القرآن الكريم.. وقيل: هو رفقه بأمته، وإكرامه إياهم، وقيل المراد: إنك على طبع كريم[٣].

وقيل: حقيقته؛ ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب، لأنه يصير كالخلقة فيه.. وقيل: الخلق هو الطبع المتكلف.

(١) « مقاييس اللغة » لابن فارس (٢/٢١٤) تحقيق عبد السلام هارون.

(٢)« مفردات ألفاظ القرآن » للراغب الأصفهاني (ص ١٥٨) بيروت.

(٣)« الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٢٢٧/١٨).

وقال ابن منظور: الخلق هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أن صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه، وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة، وأوصافها ومعانيها، ولهما (أي للصورتين) أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخُلق[١].

أما قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣٧﴾ [الشعراء: ١٣٧]، فالخلق قيل: هو شيمة الأولين، وقيل: عادة الأولين.

أما على قراءة ﴿خَلْقُ﴾ بفتح الخاء وسكون اللام؛ فالمراد به الافتراء والكذب[٢].

الأخلاق اصطلاحًا:

قال الجاحظ: «إن الخُلُقُ هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار. والخُلُق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعًا، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرِّياضة والاجتهاد، كالسّخاء، وكالشجاعة والحلم والعفّة والعدل وغيرها من الأخلاق المحمودة» ا.هـ[٣].

ويعرفها **ابن مسكويه** بأنها: حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين:

منها: ما يكون طبيعيًّا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يُحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب.. ونحوه.

ومنها: ما يكون مستفادًا بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر أولاً فأولاً، حتى يصير ملكة وخلقًا[٤].

---

(١) «لسان العرب» لابن منظور (١٠/٨٦، ٨٨) ط. بيروت.

(٢) السابق.

(٣) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص١٢) ط. دار الصحابة بطنطا.

(٤) «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه (ص٤، ٥)، ط. دار إحياء الكتب العربية ، بيروت.

ويعرفها **الجرجاني** بأنها: عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى فِكْرٍ وروِيّة، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خُلُقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سُمِّيت الهيئة التي هي مصدر ذلك خُلُقًا سيِّئًا[1].

وقد عرّف بعضُ الباحثين الأخلاق في نظر الإسلام بأنها عبارة عن : مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يُحدّدها الْوَحْيُ لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه.



(١) «التعريفات» للجرجاني (ص١٠٤) ط. بيروت.

حث الرسول ﷺ أمته

على التحلي بمكارم الأخلاق

لقد حض النبي ﷺ أمته على التحلي بمكارم الأخلاق، ورغبهم فيها، وحذرهم من التخلق بالأخلاق السيئة، ومن هذه الأقوال:

١- فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

« لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا، ولا متفحشًا» وإنه كان يقول: «**إنَّ خياركم أحاسنكم أخلاقًا**»(١).

والحديث يدل على أن سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين، كان داعية صدق إلى أعظم الأخلاق وأنبلها، قبل أن يكون داعية إليها بمقاله، والأمة مخاطبة باقتفاء نهج نبيها في السلوك الفعلي، كما أنها معنية بامتثال أقواله، لقوله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأقواله ﷺ كثيرة أمرًا، وترغيبًا، وتنويهًا.

٢- قال ﷺ: «**إنَّ من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»(٢).

وفي رواية بزيادة: «... **وخياركم خياركم لنسائهم خلقًا**»(٣).

٣- وقال ﷺ مبينًا فضل وجزاء حُسن الخلق: «**إنَّ المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) صحيح: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وصححه، والدارمي وأبو يعلى، وابن أبي شيبة في «مصنفه».

(٣) صحيح: رواه ابن حبان وأحمد والطبراني بإسناد صحيح.

(٤) حسن: أخرجه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٦٤)، وابن حبان وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٧٩٨).

٤- وقال: «**ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من خُلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء**»(١).

وفي هذين الحديثين السابقين من الدلالة على فضل حُسن الخُلق فله درجة الصائم القائم، لما يناله صاحبه من الأجر العظيم، إذ هو أعظم الأعمال ثقلاً في الميزان، ومن ثقلت موازينه نال الفضل العظيم، والثواب العميم من الرب الكريم، كما قال تعالى:

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٨].

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ ﴾ [القارعة: ٦، ٧].

٥- وصاحب الخلق الحسن أقرب الناس مجلسًا يوم القيامة من سيد النبيين وقائد الغر المحجلين.. كما قال ﷺ: «**إنَّ من أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة: الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون**». قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**»(٢).

والثرثارون هم الذين يكثرون الكلام تكلفًا، وخروجًا عن الحد الواجب، والمتشدقون هم الذين يتكلمون بملء أفواههم تفاصحًا وتعاظمًا.

وإنما كان حسن الخلق سببًا لمحبة الله تعالى، ومحبة رسوله ﷺ لصاحبه، لأن المتحلي به كامل الإيمان، كما ورد قبل ذلك..

٦- وقد سئل الحبيب المصطفى ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة؟ فقال: «**تقوى الله، وحسن الخلق**»، وسُئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «**الفم والفرج**»(٣).

٧- وأحب عباد الله إلى الله، أحسنهم خُلقًا، فعن أسامة بن شريك قال: كنّا جلوسًا عند

---

(١) صحيح: رواه الترمذي وقال: حديث صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٧٩٩).

(٢) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (٧٩١)، و«صحيح الجامع» (١٥٣٥)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠١٨).

(٣) حسن: حسنه الألباني في «الصحيحة» (٩٧٧)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢٤٦) والترمذي (٢٠٠٤).

النبي ﷺ كأنّما على رءوسنا الطير، ما يتكلم منّا متكلم، إذ جاءه أناس، فقالوا: مَنْ أحب عباد الله إلى الله تعالى؟ قال: «**أحسنهم خلقًا**»(١).

٨- وأوصى الأمة جميعها في شخص أبي ذر الغفاري ﷺ فقال: «**اتق الله حيث ما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»(٢).

٩- ووضح الرسول ﷺ أن حسن الخلق يجمع كل معاني البر، الذي هو اسم جامع لكل معاني الخير الاعتقادية، والتعبدية، والتعاملية، قال تعالى:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ..... ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فقد جمع هذه المعاني كلها حسن الخلق، كما أجاب بذلك أعظم أستاذ في علم الأخلاق عندما سئل عن البر والإثم:

«**البرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في النفس، وكرهت أن يطلع عليه الناس**»(٣).

وهذا يدل على أن حسن الخلق هو الدين كله، وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثم.

قال ابن رجب: وإنما كان جامعًا لكل تلك المعاني، لأن حسن الخلق يُراد به التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله تعالى، التي أدب بها عباده في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ فالدين كله خلق(٤).

١٠- وبشر أصحاب الأخلاق بأن لهم بيتًا في أعالي الجنان، فقال ﷺ: «**أنا زعيم بيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء، وإن كان محقًّا وبيت في وسط الجنة، لمن ترك الكذب،**

---

(١) صحيح: رواه الطبراني وابن حبان والبيهقي وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٣٢).

(٢) حسن صحيح: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٣) صحيح: رواه البخاري في «الأدب المفرد» وصححه الألباني (٢٢٦)، والترمذي (٢٣٨٩) ألباني و«صحيح الجامع» برقم (٢٨٨٠).

(٤) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي.

وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حَسُن خلقه»[١].

١١- وقال ﷺ: «**صلة الرحم، وحسن الخلق يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار**»[٢].

فحسن الخلق مثل صلة الرحم في أنه يعمر الديار، ويزيد في الأعمار.

١٢- وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل، فقال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله، وجهاد في سبيله، وحج مبرور**». فلما ولى الرجل قال: «**وأهون عليك من ذلك: إطعام الطعام، ولين الكلام، وحسن الخلق..**»[٣]. فله ثواب عظيم، وجزاء كبير، يقارب ثواب الحج والجهاد.

١٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه، وحسن الخلق**»[٤].

١٤- وبالجملة فإن حسن الخلق لا يعدله شيء، قال ﷺ لأنس بن مالك ﷺ: «**عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلها**»[٥].

ففي هذه الأحاديث العظيمة حث عظيم على التحلي بمحاسن الأخلاق، لما فيها من بيان لفضله وعظيم أجره، ومنزلته عند الله تعالى، ولذلك لا يتوانى المؤمن الحق عند سماعها عن المبادرة إلى التحلي بمحاسن الأخلاق حرصًا على نيل فضلها.. وهذه الأحاديث غيض من فيض مما حث به النبي ﷺ أمته على لزوم مكارم الأخلاق..



(١) حسن لغيره: رواه البيهقي بإسناد حسن، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٩٢٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد والبيهقي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٦٧)، و«صحيح الترغيب» (٢٥٢٤).

(٣) حسن لغيره: حسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٠٧).

(٤) حسن لغيره: حسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٦١).

(٥) حسن: حسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٣٨) و«صحيح الجامع» (٤٠٤٨).

البابُ الأوّل

الأخلاق الإعتقادية

وفيه مباحث:

المبحث الأول: خلق التوكل.

المبحث الثاني: الخوف من الله عز وجل.

المبحث الثالث: الرجاء.

المبحث الأول

التوكل

قال تعالى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾

[الفرقان: ٥٨].

قال ﷺ :

«**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**». صحيح الجامع (٥٢٥٤).



خلق التوكل

ما هو التوكل ؟

للتوكل معنيان: معنى لغوي، وآخر اصطلاحي.

فهو في اللغة:

الاعتماد على الغير، والاستسلام له.

قال الراغب: التوكل أن تعتمد على غيرك، وتجعله نائبًا عنك، وتواكل القوم إذا اتكل كلٌّ على الآخر.. ويقال: اتكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته(١).

والمتوكل على الله: الذي علم أنَّ الله كافل رزقه وأمره، فيركن إليه وحده، ولا يتوكل على غيره. ويُقال: توكل بالأمر، إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان: أي ألجأته إليه، واعتمدت فيه عليه.

ووكل إليه الأمر: أي سلمه إليه.

وفي الاصطلاح:

فقد تعددت أقوال العلماء في تعريف التوكل، لأنه عمل من أعمال القلوب، كما قال الإمام أحمد بن حنبل..

قال الجرجاني: هو الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس(٢).

ومنهم من قال: التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح، ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة.

وسُئل **يحيى بن معاذ:** متى يكون الرجلُ متوكلاً؟ فقال: إذا رضى بالله وكيلاً، ومنهم

---

(١) «المفردات للراغب» (ص٥٣١).

(٢) «التعريفات للجرجاني» (ص٧٠).

من يفسره بالرضا بالمقدور[١].

الفرق بين التوكل والتفويض:

بين التوكل على الله، وتفويض الأمر إليه علاقة العموم والخصوص، إذ التفويض أوسع من معنى التوكل، والتوكل أخص من التفويض.

قال «صاحب المنازل»:

والتفويض: ألطف إشارة، وأوسع معنى من التوكل، والتوكل يكون بعد وقوع السبب، أما التفويض فإنه يكون قبل وقوع السبب وبعده، والتفويض هو عين الاستسلام، أما التوكل فهو شعبة منه.

وقال ابن القيم: يعني بذلك من يفوض أمره إلى الله، يتبرأ من الحول والقوة ويفوض الأمر لصاحب الأمر، من غير أن يقيم المفوض إليه مقام نفسه في مصالحه، بخلاف التوكل، فإن الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام الموكل.

وقال - رحمه الله - :

لو قال قائل: التوكل فوق التفويض، وأجل منه، وأرفع لكان مصيبًا، لأن القرآن الكريم مملوء به (أي بالتوكل) أمرًا، وإخبارًا عن خاصة أوليائه، وصفوة المؤمنين.. أما التفويض فلم يجيء في القرآن الكريم إلا في موضع واحد، حكاية عن مؤمن آل فرعون، وذلك في قوله جل شأنه:

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

منزلة التوكل:

إن منزلة التوكل منزلة عظيمة لا يبلغها إلا المخلصون الصادقون، قال تعالى:

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/١١٥).

وقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

وقاله لرسوله وحبيبه المتوكل ﷺ:

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال ابن القيم - رحمه الله - :

والتوكل نصف الدين، والنصف الثاني: الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلة التوكل، أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين، والكفار، والأبرار، والفجار، والطير، والوحش، والبهائم.. فأهل السموات والأرض في مقام التوكل، وإن تباين توكلهم.. فأولياء الله وخاصته، يتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه[١].

ومنهم من يتوكل عليه في حصول الرزق، أو النصر على الأعداء.. أو نحو ذلك.

الوكيل من أسماء الله الحسنى:

قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقال: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

والآيات في ذلك كثيرة.

قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى «الوكيل» وهو القيم الكفيل بأرزاق العباد

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/١١٣، ١١٤) ط. دار الكتاب العربي.

وحقيقته: أنه يستقل بأمر الموكول إليه[1].

وقد ذكر المفسرون فيه أقوالاً منها: حفيظًا لكم، كفيلاً بأموركم.

وقال الشوكاني: في قوله:

﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝﴾ [الزمر: ٦٢].

هو من توكل إليه الأمور، أو الكافي، أو الكافل.

وقال الطبري: المولى لمن وليه وكفله.

وقيل: الوكيل أي القائم بالحفظ والتدبير من غير مشارك له.

وقيل: المتصرف في الأمور كما يشاء.

وجاء في «لسان العرب»: في أسماء الله تعالى الوكيل، هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقل بأمور الموكول إليه.

من أسماء الرسول المتوكل:

جاء في البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - :

«**أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ...**»[2].

وإنما قيل له ذلك لقناعته باليسير، والصبر على ما كان يكره.

قال سعيد بن جبير: التوكل على الله ﷻ جماع الإيمان.

مواطن التوكل:

إن التوكّل على الله ﷻ مطلوبٌ في كُلّ مجالات الحياة، إلا أن هناك مواطن كثيرة ورد فيها الحضّ على التوكّل والأمر به للمصطفى ﷺ ومنها:

١- إن طلبتم النصر والفرج فتوكّلوا على الله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن

---

(١) «النهاية» (٥/٢٢١) لابن الأثير ط. دار إحياء الكتب العربية تحقيق طاهر الزاوي.

(٢) صحيح: رواه البخاري وأحمد وغيرهما.

يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

٢- إذا أعرضت عن أعدائك فليكن رفيقك التوكّل على الله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١].

٣- إذا أعرض عنك الخلق فعليك بالتوكّل على الله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [التوبة: ١٢٩].

٤- إذا تلي القرآن عليك أو تلوته فاستند على التوكل: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

٥- إذا طلبتَ الصُّلْح والإصلاح بين قوم لا تَتَوسَّلْ بشيء إلاّ بالتوكل على الله: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الأنفال: ٦١].

٦- إذا وَصَلَتْ قوافلُ القَضَاء فاستقبلْها بالتوكل: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

٧- إذا نَصَبَ لك الأعداءُ حِبَالاَتِ الْمَكْر والخداع، فاهرب إلى أرْضِ التوكل: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس: ٧١].

٨- إذا عَرَفْتَ أَنَّ مَرْجِعَ الكُلِّ إلى الله وتقديرَ الكُلِّ فيها لله فَوَطِّن نَفْسَك على فَرْشِ التوكّل: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ ﴾ [هود: ١٢٣].

٩- إذا عَلِمْتَ أن الله هو الواحد على الحقيقة، فلا يكن اتّكالُكَ إلاّ علي، وقل: ﴿ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

١٠- إذا كانت الهدايةُ منَ الله، فاستَقْبِلْها بالشُّكْر والتَّوكُّل: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢].

١١- إذا خشيت بأسَ أعداء الله والشيطان الغادر فلا تَلْتَجِئ إلاّ إلى باب الله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩].

١٢- إذا أردتَ أن يكون اللهُ وَكيلَك في كلّ حال، فتمسّك بالتوكّل في كلّ حال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١].

١٣- إذا أردتَ أن يكون الفردوسُ الأعلى مَنزلَك فأنزل في مَقَام التوكّل: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤٢].

١٤- إن شئتَ أن تنال مَحبّة الله، فأنزل نفسك في مقام التوكّل: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

١٥- إن أردتَ أن يكون الله لك، وتكون لله خالصًا فعليك بالتوكّل: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣] .



مظاهر التوكل في حياة الرسول

لقد وجه الله تعالى لرسوله ﷺ في القرآن الكريم تسع خطابات يحثه فيها على الثبات على هذا الخلق العظيم، وهو خلق التوكل، في سلوكه وحياته الجهادية والدعوية، وأن لا يخشى مع توكله على الله أحدًا، بل يمضي على ما أمره به من البلاغ والجهاد، حتى يتم الله الدين، أو يأتيه اليقين..

١- **فالخطاب الأول:** في قوله جل في علاه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود: ١٢٣].

أي فاعبد ربك، وفوض أمرك إليه، وثق به وبكفايته، فإنه كافي من توكل عليه، وهو معطيك ما تحب، وكافيك ما تكره.

٢- **والخطاب الثاني:** في سورة الفرقان: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

أي اعتمد عليه في استكشاف شرورهم، والاستغناء عن أجورهم، فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون.

٣- **الخطاب الثالث:** في سورة الشعراء: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢١٩].

أي فوض أمرك إليه، فإنه العزيز الذي لا يغلب، الرحيم الذي لا يخذل أولياءه فوض أمرك إليه فهو مؤيدك، وحافظك وناصرك، ومعلي كلمتك.

٤- **وأما الخطاب الرابع:** ففي قوله جل في علاه: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل: ٧٩].

فتوكل عليه، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة، وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون.

٥- **والخطاب الخامس:** في سورة الأحزاب: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣].

٦- **والخطاب السادس:** في نفس السورة في قوله جل في علاه: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

٧- وفي سورة النساء: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾ [النساء: ٨١].

فلا تبالِ بهم، وتوكل عليه في كل أمرك، يكفيك مضرتهم، وينتقم لك منهم، وكفاه دافعًا عنك وناصرًا.

٨- **والخطاب الثامن:** ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦١].

أي إن مالوا إلى مسالمتك، وترك الحرب، إما بدخولهم في الإسلام، وإما بدفعهم الجزية، وإما بموادعة، فمل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه، ثم توكل على الله، فهو كافيك ومؤيدك، وناصرك، وناصر من آمن بك وآزرك.

٩- وقد خاطبه بذلك في سورة آل عمران في قوله: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد طبق هذه الأوامر، وقام بانتهاجها وسلوكها، سلوكًا عمليًّا، فكان في ذلك سيد المتوكلين ﷺ عليه وعلى أتباعه إلى يوم الدين.

١- ففي يوم أن خرج مهاجرًا إلى ربه، من مكة إلى المدينة، بعد أن أذن له مولاه بذلك، لم يكن معه يومها ما يدفع به قريشًا في منعها إياه من الخروج ويرد كيدها التي بيتته له ﷺ للقضاء عليه إلا الله تعالى، فتوكل على الله في تنفيذ مراد الله تعالى في الهجرة. وكان مما قصه القرآن الكريم، وشهد له به في صدق التوكل على الله في هذه الحادثة قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠]. فخرج من بين

أيديهم - وسيوفهم مصلتة إليه - وذرَّ على رءوسهم التراب.

٢- ثم ذهب وصاحبه صديق الأمة الأكبر ﷺ يجتهدان في السير، حتى وصلا إلى غار ثور، فتواريا عن أنظار الباحثين عنهما، وقد جعلوا في ذلك جعلاً عظيمًا لمن يأتي به حيًّا أو ميتًا، حتى وصلوا إلى مكان الغار، وكانوا يقتفون آثارهما، ووقف الجبابرة والطغاة أمام الغار، بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه، لأبصر الصحب الكرام قائد الأمة الأعظم، وصديقها الأكرم، فترتجف نفس الصديق خوفًا على رسول الأمة، أن يظفر به الأعداء، فيطمئنه سيد المتوكلين قائلاً:

«يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما.. لا تحزن إن الله معنا»(١).

وقد قص القرآن الكريم ذلك بقوله:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠].

وتأمل أخي الحبيب .. إن رسول الإنسانية، وعظيم الأمة، وسيد المتوكلين رغمَ هذا التوكل إلا أنه كان يأخذ بالأسباب، ودليل ذلك أنه احتاط في الأمر.. فهذا عليُّ بن أبي طالب ﷺ ينام في بيته وعلى فراشه، ويلتف ببردته.. والطريق يحتاج إلى رجل خبير، لا يعرف الطرق الممهدة فقط بل خبيرًا بصيرًا بالطريق ودروبه، ومسالكه.. فكان عبد الله بن أريقط وكيف يعرف أخبار قريش وخططها التي تدبرها؟

يأتي عبد الله بن أبي بكر بليل لينقل كل ما سمع من أخبار، وقبل الفجر يكون في مكة كأنه بات فيها..

وكيف يتغلب على آثار الأقدام، وأهل مكة يجيدون معرفة الآثار؟ يأتي عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق بأغنامه، فتمحو آثار الأقدام حيطة بالغة، وتوكل عظيم، ودقة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، وهذا هو المعنى الحقيقي للتوكل على الله ﷻ.

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

إنه الاحترام الكامل لقانون السببية، وتنفيذ النبي ﷺ تنفيذًا بليغًا دقيقًا.

٣- وفي غزوة «حمراء الأسد»، وكانت على إثر غزوة أُحُد، وما حل بالمسلمين يومها، من قتل وجرح، ولم يسلم أحد حتى رسول ﷺ فقد أُصيب بجراح في جسده المبارك.. وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله جل في علاه:

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤].

وذلك أن النبي ﷺ جهز نفسه ومن حضر معه في معركة أُحُد للخروج لملاحقة الكفار، ليريهم أنه مازال في قوة ومنعة، ويقدر أن يردهم إلى أنفسهم خائبين، حتى لا يفكروا في الرجوع إلى المسلمين وقتالهم مرة أخرى، وبالفعل كانوا قد هموا بذلك بالفعل، ولما وصل الرسول ﷺ إلى حمراء الأسد، وهو مكان يبعد عن المدينة بثمانية أميال، التقى برجل يسمى «معبد بن أبي معبد الخزاعي» فأسلم(١) هذا الرجل، وكان لرسول الله ﷺ ناصحًا، فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق بأبي سفيان فيخذله.. فلحق به، فقال له أبو سفيان: ما وراءك يا معبد؟ وكان لم يعرف بعد أنه أسلم.. فقال معبد - وقد شن عليه حرب أعصاب ادعائية عنيفة - : إن محمدًا قد خرج في أصحابه، يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط.

ولما علم المولى ﷻ صدق توكل نبيه عليه، كفاه شرهم، وأنزل في قلوبهم الرعب، فأسرعوا إلى مكة راجعين، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ من يخوف المسلمين، حين مر عليه ركب من عبد القيس يريد المدينة.. فقال أبو سفيان: هل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة؟ وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيبًا بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة؟

---

(١) وقيل: لم يسلم.

قالوا: نعم.. قال: فأبلغوا محمدًا أنا قد أجمعنا الكرة، لنستأصله ونستأصل أصحابه، فمرَّ الركب برسول الله ﷺ وأصحابه، وهم بحمراء الأسد، فبلغوا الرسالة فلم يزدهم ذلك الترهيب إلا إيمانًا وتوكلاً، كما قال سبحانه: ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ فكفاهم الله شرهم ومؤنتهم كما قال سبحانه: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

٤- وفي غزوة «ذات الرقاع» وكانت في السابعة من الهجرة، لم يعصمه ﷺ من ضربة السيف الذي كان قد أُصلت على رأسه، إلا لعظم توكله على الله تعالى وثقته به.. فانظر إلى هذا الغادر الأثيم، وهو يريد أن ينفرد بالرسول الأعظم، ليفتك به، وخاصة أنه ليس عليه حراس من البشر.. يروي ذلك جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - وقد كان شاهد عيان على ذلك يقول: ... لما أدركتهم القائلة في واد كثير العضاة، نزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله تحت سَمُرة، فعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا برسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: «**إنَّ هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا**» - أي مصلتًا عليَّ - قال: من يمنعك مني؟ قال ﷺ: «**الله**» فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله، وقال له: «**من يمنعك مني؟**» قال: يا محمد كن خير آخذ قال: «**تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟**» قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله..

فأتى أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس[1]..

وقد ذكرنا ذلك في عفوه، وشجاعته ﷺ..



(١) صحيح: رواه مسلم وغيره وقد تخرج في موضع آخر أكمل منه.

حث الرسول أمته على التوكل

وكما كانت حياته كلها توكل على الله.. في سفر، وفي حضر، في حرب، وفي سلم، في كل أموره كان متوكلاً على الله، كذلك كانت أقواله فيها الحض والحث للأمة جميعها على التحلي بهذا الخلق المبارك، وهو التوكل على الله، ومن هذه الأقوال:

١- عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**»(١).

٢- عن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا**»(٢).

٣- وعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: كنت رديف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «**يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف**»(٣).

٤- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير**»(٤). أي مثلها في التوكل.

٥- وقد قال: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب، هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»(٥).

---

(١) حسن: رواه الترمذي والبيهقي في «الشعب» والطبراني والحاكم وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٨٠٩).

(٢) صحيح: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وأحمد وصححه أحمد شاكر والبيهقي في «الشعب» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» وصحيح سنن ابن ماجه.

(٣) صحيح: رواه الترمذي. وقال: حسن صحيح وأحمد في «مسنده» (٢٧٦٣).

(٤) صحيح: رواه مسلم.

(٥) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

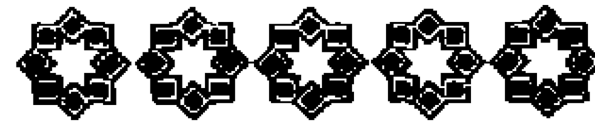
٦- عن عليّ ﷺ قال: كنا في جنازة في البقيع، فأتى النبي ﷺ فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكث به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء، فقال: «**ما من نفس منفوسة، إلا قد كتب مدخلها**». فقال القوم: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء، فإنه يعمل للشقاء؟ قال: «**بل اعملوا فكل ميسرٌ، فأما من كان من أهل السعادة، فإنَّه ييسر لعمل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء، فإنه ييسر لعمل الشقاء**»(١).

وفي رواية البخاري أنه قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار**».

فأراد بعضهم أن يترك العمل اتكالاً منه على ما جرت به المقادير، بناء على خطأ فهمه للتوكل، فقالوا: أفلا نتكل؟ فقال لهم النبي ﷺ: «**اعملوا فكل مُسيرٌ لما خُلق له**»(٢).

٧- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطيرة شرك، وما منّا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل**»(٣).

٨- وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يُقال له حينئذ: هُديت وكُفيت ووقيت، ويتنحى عنه الشيطان، فيقول له شيطان آخر، كيف لك برجل هُدي وكُفي ووقي؟**»(٤).



(١) صحيح رواه الترمذي.

(٢) صحيح رواه البخاري ومسلم.

(٣) صحيح رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد (٢٦٨٧) وصححه أحمد شاكر.

(٤) صحيح رواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب، وأبو داود، وصححه الألباني ورواه ابن حبان في «صحيحه».

التوكل خُلق الأنبياء والمرسلين

١- نوح عليه السلام قمة في التوكل:

لما دعا قومه إلى عبادة ربه، ونصحهم طيلة مدة ألف سنة إلا خمسين عامًا، وقابلوا ذلك بالجحود والنكران، والطغيان، أمره الله تعالى أن يصنع سفينة.. قال تعالى:

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝ ﴾ [هود: ٣٦، ٣٧].

ويمتثل نوح عليه السلام أمر ربه، ويصنع السفينة، ولم يكن لديه علم بصناعة السفن، فجاءه الوحي من ربه.. ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ كل هذا وقلبه متيقن بنصر الله، فكانوا إذا مروا به سخروا منه.

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝ ﴾ [هود: ٣٨].

فلما توكل نوح على ربه، وسلم الأمر لخالقه، كان النصر من عند الله عز وجل وكانت النتيجة:

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝ ﴾ [القمر: ١١- ١٤].

٢- خليل الرحمن: إبراهيم عليه السلام :

وهذا هو خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الذي وصفه ربه بأنه أمة، أي الجامع لصفات الخير كلها ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠].

لما ألقاه النمرود في النار، وسئل ألك حاجة؟ قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وفي رواية: كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار: «حسبي الله ونعم الوكيل».

فماذا كانت نتيجة التسليم والتوكل، وتفويض الأمر لله؟

كانت النتيجة: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ولما أمره الله تعالى أن يخرج بزوجته «هاجر» وولده «إسماعيل» عليه السلام، ليتركهما في مكة، وإذا به يمتثل أمر ربه، ويذهب بهما إلى هناك حيث لا أنيس ولا جليس، حيث لا إنس، ولا أنس.. ويترك معهما جرابًا به تمر، وسقاء فيه ماء.. ويذهب ويتركهما..

وتتعلق به هاجر.. وتقول له: يا إبراهيم، آلله أمرك بهذا؟ فيصمت حتى تكررها ثلاثًا، فيقول بلسان التوكل: نعم.. فتقول وقلبها قد مُلِئ توكلاً وتفويضًا للخالق جل في علاه: إذًا لا يضيعنا، فرفع يديه إلى من توكل عليه قائلاً:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وسرعان ما ينفذ جراب التمر، وسقاء الماء، فعطشت، وعطش ابنها الرضيع فأخذت تسعى بين الصفا والمروة، حتى ظهرت نتيجة التوكل والأخذ بالأسباب فقد أرسل الله عز وجل ملكًا عند موضع زمزم، ضرب الأرض بجناحه ، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، وهو يفور..

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – قال النبي ﷺ: **«يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم.. أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكانت زمزم عينًا معينًا»**[1]. فشربت

(١) صحيح: رواه البخاري في كتاب «المساقاة»، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٦٤).

وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

٣- شعيب عليه السلام قمة في التوكل:

واسمع إليه حين قال: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود: ٨٨]].

رجالٌ تخرجوا في مدرسة التوكل:

وهؤلاء رجال تخرجوا من جامعة المصطفى ﷺ ومن كلية العقيدة قسم التوكل.. رجال تعلموا التوكل من أستاذهم ومعلمهم الأكبر ﷺ ومنهم:

١- أبو بكر رضي الله عنه:

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مني مالاً، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر - إن سبقته يومًا - فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله.. قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**»(١) قال: أبقيت لهم الله ورسوله.. قلت: لا أسبقك إلى شيء أبدًا.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أنفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ أربعين ألفًا(٢).

أبـــو بكـــر حَـــبَا في الله مـــالاً ... وأعـــــتق في محبـــــته بــــــلالاً
وقـــد واســـى النـــبي بكـــلِّ فضـــل ... وأســــرع في إجابــــته بــــلا: لا
لـــو أن الـــبحر يقصـــده بـــبعض ... لمــــا تــــرك الإلــــه بــــه بــــلالا

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح، والدارمي، والحاكم والبيهقي في «السنن الكبرى».

(٢) صحيح: رواه ابن حبان في «صحيحه»، والألباني في «الصحيحة» (٤٨٧).

٢- عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عن معاوية بن قرَّة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقى ناسًا من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون.

قال: بل أنتم المتَّكلون، إنما المتوكل من يلقي حبة في الأرض ويتوكل على الله عز وجل.

ولما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص - حين دخل شهر بؤنة - فقالوا: أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سُنة لا يجري إلا بها، قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت اثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر من أبويها.. وجعلنا عليها الحُلي والثياب كأفضل ما يكون، ثم نلقيها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إنَّ هذا لا يكون من الإسلام، ثم كتب إلى الفاروق بذلك، فكتب له عمر رضي الله عنه:

«من عبد الله عمر بن الخطاب - أمير المؤمنين - إلى نيل مصر العظيم، أما بعد: فإن كنت تجري من قِبلك، ومن أمرك، فلسنا في حاجة إليك، وإن كنت تجري بأمر الله، فإن الله مجريك..»(١) وأمره أن يلقي بها في النيل، فأصبحوا وقد أجرى الله النيل عشرين ذراعًا في ليلة واحدة.. وقطع السنة السيئة ..

٣- حاتم الأصم:

قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك هذا من التوكل؟

قال: على أربع خصال؛ علمت أنَّ رزقي لا يأكله غيري، فاطمئن قلبي، وعلمت أنَّ عملي لا يعمله غيري، فانشغلت به، وعلمت أنَّ الموت يأتيني بغتة، فاستعددت له، وعلمت أن الله مطلع عليَّ ويراني، فاستحييت منه.

ولما سُئل: من أين تأكل؟ قال:

﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٧].

فيا من تود أن تتخلق بأخلاق الحبيب، اجعل للتوكل في قلبك نصيب ففي الأثر

---

(١) أخرجه ابن كثير في «البداية والنهاية».

الإلهي فيما يرويه رب العزة يقول لموسى عليه السلام:

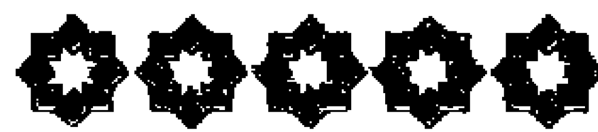
«يا موسى.. ما خافني من خاف الخلق.. وما توكل عليَّ من خاف فوات الرزق..

يا موسى.. وعزتي وجلالي.. ما توكل عليَّ عبد إلا كفيته.. وبيدي مفاتيح الملك والملكوت.. وما اعتصم بي عبد إلا أدخلته الجنة.. وكفيته كل مهمة.. ومن اعتصم بغيري.. أسخت الأرض من تحته، وقطعت الأسباب من فوقه.. ولا أبالي كيف أهلكته..».

فتوكل على الله حتى يكون أنيسك وجليسك، وموضع شكواك: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ فقد أعلمك أنه لا يموت، وأن جميع خلقه يموتون فما ينبغي لك أن تلجأ إلى غيره..

فيا رب ..

نسألك خوف العالمين بك، وعلم الخائفين لك، وتوكل المؤمنين بك، ويقين المتوكلين عليك، وإنابة المخبتين إليك، وإخبات المنيبين إليك، وصبر الشاكرين لك، وشكر الصابرين لك.. يا رب العالمين.



المبحث الثاني

الخوف والخشية

ما الخوف؟ وما الخشية؟

الخوف في اللغة:

مصدر خاف يخاف خوفًا ومخافة فهو خائف..

وهو يدل على الذعر والفزع.. وهو ضد الأمن..

والتخويف والإخافة والتَّخوف: الفزع، والاسم منه: الخيفة وفي التنزيل:

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. والجمع خيف.

وفي الاصطلاح: عرفه العلماء بتعريفات متعددة:

قال الراغب: الخوف، تَوَقُّع مكروه عن أَمَارةٍ مَظْنونَة أو معلومة. ويضادُّه الأَمْن، ويستعملُ ذلك في الأمور الدنيوية والأخرويّة[١].

وقال الجُنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس[٢].

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره[٣].

وقال أبو حفص: الخوف سوط الله، يُقَوِّم به الشاردين عن بابه[٤].

وقال: سراج في القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر[٥].

---

(١) «المفردات» للراغب (١٦١).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/٥٠٨، ٥٠٩) ط. بيروت دار الكتاب العربي.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

فما هي الخشية ؟

وهي تدل على الخوف.. يُقال: خشي الرجل يخشى خشية إذا خاف.

قال الراغب: الخشية هي خوف يشوبه تعظيم.

وقيل: هي الخوف المقرون بإجلال.

وقيل: هي تأمل القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل يكون تارة بكثرة الجناية، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته(١).

الفرق بين الخشية والخوف:

قال الفيروزآبادي: الخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله تعالى فهي خوف مقرون بمعرفة، قال النبي ﷺ: «**إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية**»(٢). فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والوجل للمقربين، وعلى قدر العلم والمعرفة تكون الخشية، قال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله**»(٣). فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما كمثل من لا علم له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء، وكل واحد إذا خفته هربت منه، إلا الله، فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه(٤).

ويشبه هذا كلام ابن القيم في «مدارج السالكين»:

---

(١) «التعريفات» للجرجاني (١٠٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٤) «بصائر ذوي التمييز من لطائف الكتاب العزيز» للفيروزآبادي (٥٤٤/٢)، و«دليل الفالحين» لابن علان (٣٦٧/٢).

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية[(١)].

وقال الكفوي: الخشية أشد من الخوف.. فالخشية تكون من عظم المخشى، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا.

وحاصل الكلام: أنك إذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشيّ وإذا نظرت إلى استعمال الخوف، وجدته مستعملاً لخشية من ضعف الخائف[(٢)].

منزلة هذا الخلق من الأخلاق الإيمانية:

هذا الخلق العظيم مقام عظيم من مقامات الإيمان، ولازم من لوازمه قال تعالى:

﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فالخوف من الله تعالى والخشية منه، يُعد من أعظم مكارم الأخلاق، وهو يجعل المرء ملازمًا للأدب مع الله جل جلاله.. ومبتعدًا عن المعاصي، ورذائل الأخلاق، فيزكو بذلك خلقه، وتهذبُ روحه.

قال ابن رجب الحنبلي: إنّ الله خَلَقَ الخَلْقَ لِيَعرِفوه ويعبدوه ويَخْشَوْهُ ويخافُوه، ونَصَبَ لهم الأدّلة الدّالة على عظَمَته وكبريائه ليهابوه ويخافوه خَوْف الإجلال، ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدّها لمن عصاه ليَتَّقُوه بصالح الأعمال، ولهذا كرّر - في كتابه ذكر النار وما أعدّه فيها لأعدائه من العذاب والنكال، وما احتوت عليه من الزقوم والضريع... ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه والمسارعة إلى امتثال ما يَأْمُرُ به ويحبّه ويرضاه، وإلى اجتنابِ ما يَنْهى عنه ويكرَهُهُ وَيَأْباه[(٣)]..

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٥٠٨/١).

(٢) «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري. ط. التوفيقية.

(٣) «التخويف من النار» لابن رجب الحنبلي.

ما أعده الله للخائفين من الثواب:

لقد ذكر مولانا تباركت أسماؤه، وتعالت عن الأغيار صفاته، فضلاً عظيمًا، وجزاء كبيرًا لمن خشيه واتقاه، وآمن به وبرسوله، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك: ١٢].

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه، إذا كان غائبًا عن الناس، فينكف عن المعاصي، ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى بأن له مغفرة، وأجر كبير، أي تكفر عنه ذنوبه، ويجازي بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: « **سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله..** » وذكر منهم: « **رجلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين..** »[١].

وقال الشوكاني في « فتح القدير »: لهم مغفرة عظيمة، يغفر الله بها ذنوبهم، وأجر كبير وهو الجنة... فأعظم به من جزاء.. وأكرم به من نزل !

وعن أبي الدرداء ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقص على المنبر، وهو يقول:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

قلت: وإن زنى، وإن سرق؟ يا رسول الله! فقال الثانية: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ فقلت في الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال في الثالثة: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

فقلت في الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ قال: « **رغم أنف أبي الدرداء** »[٢].

فقد أعد الله للخائفين جنتين: جنة لخوفهم من ربهم، وجنة لتركهم شهواتهم وقد جاء في الحديث الصحيح أنهما: « **جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب**

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٢) صحيح: صححه الألباني في « السنة » برقم (٩٧٥)، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح، وعزاه السيوطي في « الدر المنثور » لأحمد وابن أبي شيبة.

آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم، وبين أن ينظروا إلى ربهم عز جل، إلا رداء الكبرياء»[(١)].

واعلم أن من خاف الله تعالى في الدنيا أمنه في الجنة يوم القيامة، فهؤلاء أهل الجنة يتذاكرون خوفهم في الدنيا وهم في نعيم الجنة يتقلبون، إنهم يقولون:

﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [الطور: ٢٦].

أي أرقاء القلوب من خشية الله وخوفه.. فماذا فعل الله بهم؟

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ [الطور: ٢٧، ٢٨].

وقال الله ﷻ في حديثه القدسي الجليل:

«وعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي خوفين ولا أمنين، إن أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي»[(٢)].

وقد جاءت خاتمة سورة النازعات ببيان جزاء صنفين من الناس، ثانيهما جزاء الخائفين الخاشعين:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

إنه جزاء عظيم، وأجر كبير، لتذهب النفس في تخيله أي مذهب، فلا تدرك كنهه، ولا تعرف عظمته حتى تلاقيه، إن كانت من أهله..

قال ﷺ: **«إنَّ في الجنة ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»**[(٣)].

قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [السجدة: ١٧].

---

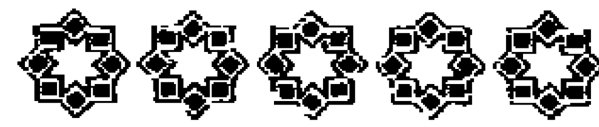
(١) صحيح: صححه الألباني في «السنة» (٦١٣)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٦)، و«صحيح الجامع» (٣١٠١)، و«المشكاة» (٥٦١٦)، وفي «صحيح الترغيب» (٣٧٦٠).

(٢) حسن: حسنه الألباني في «الصحيحة» (٧٤٢)، و«صحيح الجامع» (٤٣٣٢)، ورواه ابن حبان في «صحيحه».

(٣) صحيح: رواه البخاري وغيره.

وقد بين إمام الخائفين، وسيد الخاشعين ﷺ أن النجاة يوم القيامة في الخشية من الله والخوف منه، فقال: **«ثلاث منجيات: خشية الله في السرور والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب»**[(١)].

وفي الأثر الإلهي: **«أخرجوا من النار من ذكرني أو خافني في مقام»**، وقال: **«عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»**[(٢)].



(١) حسن: حسنه الألباني في «الصحيحة» (١٨٠٢)، و«صحيح الجامع» (٣٠٣٩)، و«المشكاة» (٥١٢٢).

(٢) صحيح: رواه الترمذي وصححه الألباني (١٦٣٩)، و«صحيح الجامع» (٤١١٣).

خوف الملائكة المقربين

وخشيتهم من الله وخوف الرسل والأنبياء

أخي الحبيب:

إنَّ الخوف يعتري كل المخلوقين حتى الملائكة المقربين، كما ذكر ذلك القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣].

أي يخافون عقاب ربهم وعذابه، لأن العذاب المهلك، إنما ينزل من السماء.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ليلة أُسرى بي، مررت على جبريل** عليه السلام **في الملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله** عز وجل »[(١)].

ولما اطلع النبي ﷺ على الملائكة في السموات العلا ليلة المعراج وجد منهم القائم، ومنهم الراكع، ومنهم الساجد فلا يقوم، ومنهم المسبح: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ومنهم الباكي، ومنهم الضارع إلى ربه.. ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وما ذلك إلا لخوفهم وخشيتهم من الله عز وجل..

أما بالنسبة للأنبياء والمرسلين فكانوا كذلك من أشد الناس خوفًا لله عز وجل، لأنهم أعرف الناس بربهم..

فهذا سيدنا آدم عليه السلام أبو البشر، حين نزل من الجنة يبكي بكاءً شديدًا خشية وخوفًا من صاحب العظمة والجلال..

---

(١) حسن: حسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٨٩)، و«صحيح الجامع» (٥٨٦٤)، و«السنة» (٦٢١).

فعن **ابن بريدة** قال: لو عدل بكاء أهل الأرض ببكاء داود ما عدله ولو عدل بكاء أهل الأرض ببكاء آدم حين أهبط إلى الأرض ما عدله(١).

وعن **حسان بن عطية** قال: بكى آدم على خروجه من الجنة ستين عامًا(٢).

وعن **ثابت** قال: ما شرب داود شرابًا بعد المغفرة، إلا ونصفه ممزوج بدموع عينيه(٣).

وعن **وهب بن منبه** قال: كان داود عليه السلام يبكي حتى يبل ما بين يديه من دموعه، ثم يبكي حتى تنقطع قوته(٤).

وكان عليه السلام إذا عوتب في كثرة البكاء، قال: دعوني أبك قبل يوم البكاء، قبل احتراق العظام، واشتعال اللحى، قبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم.. ويفعلون ما يؤمرون.

وعن **زيد بن أسلم** قال: كان داود عليه السلام إذا رفع صوته بقراءة الزبور، تركت الطير أوكارها، ثم عكفت عليه حول محرابه، حتى تُصرع من قراءته، وكان يبكي حتى تجري دموعه على الأرض(٥).

وكان **يحيى بن زكريا** - عليهما السلام - له خطان في خديه من البكاء، فقال له أبوه زكريا: إني إنما سألت الله ولدًا تقر به عيني، فقال: يا أبت، إنَّ جبريل أخبرني أن بين يدي الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بَكَّاء.

وعن **مجاهد** قال: كان يحيى بن زكريا - عليهما السلام - يأكل العشب، وإن كان ليبكي من خشية الله تعالى ما لو كان القار على عينيه لخرقه، وكانت الدموع قد اتخذت مجرى في وجهه(٦).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٣٥) (١/٥٠١).
(٢) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.

وهذا هو **سيدنا شعيب** عليه السلام كان يبكي من شدة خوفه من الله رب العالمين فأوحى الله إليه.. يا شعيب، إن كان بكاؤك خوفًا من النار، فقد أمنتك عذابها، وإن كان شوقًا إلى الجنة فقد أوجبت لك نعيمها، فقال: وعزتك وجلالك، ما بكيت خوفًا من النار وعذابها، ولا شوقًا إلى الجنة ونعيمها وإنما بكيت إجلالاً لسلطانك، وشوقًا إلى لقائك، وطمعًا في رضوانك.. فأوحى الله إليه: إن كنت تبكي لهذا، فابك طويلاً، فما لهذا الداء دواء إلا البكاء[1].

وكان **خليل الرحمن إبراهيم** عليه السلام من أشد الناس خوفًا وخشية من الله حتى كان يُسمع لصدره، إذا قام إلى الصلاة أزيز من بُعد خوفًا من الله عز وجل[2]. وكان يبكي كثيرًا من خشية الله عز وجل.



(١) «سمير الصالحين وأنيس المتقين» للشهاوي (١/١١١) ط. دار التأليف.

(٢) «تهذيب موعظة المؤمنين» للقاسمي (٢٠٣).

مظاهر الخوف من الله في حياة الرسول ﷺ

لقد كان إمام الهدى، وسيد الأولين والآخرين، أشد الناس خوفًا من الله، وأعظم خشية لله ﷻ، حتى قال عن نفسه:

«أما والله، إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له»(١).

وقال: **«ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»**(٢).

ووصفه رب العزة والجلال بالخوف والخشية في أكثر من آية..

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [الأنعام: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [يونس: ١٥].

وقد دعم هذه الشهادة القرآنية بالشواهد الكثيرة من السنة المطهرة:

١- فعن مطرف عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز، كأزيز المرجل من البكاء(٣).

٢- وعن حذيفة بن اليمان ﷺ أنه صلى مع النبي ﷺ فما مرَّ بآية فيها رحمة، إلا وقف عندها، ولا بآية عذاب إلا وقف عندها، فتعوذ، وإذا مرَّ بآية فيها تنزيه، سبح(٤).

وفي رواية للبيهقي في «السنن» من حديث عائشة - رضي الله عنها - : «... فإذا

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وابن حبان وأحمد.

(٢) صحيح: رواه مسلم وغيره.

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٨٣٩)، و«مختصر الشمائل» (٢٧٦)، ورواه أحمد في «مسنده» و«صحيح سنن النسائي» للألباني (٢١٤).

(٤) صحيح: رواه البيهقي في «الشعب» (٧٧٤).

مرَّ بآية فيها استبشار دعا ورغب، وإذا مرَّ بآية فيها تخويف دعا واستعاذ».

٣- وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنَّ أبا بكر قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أراك قد شبت! قال ﷺ: «**شيبتني هود وأخواتها: الواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كُورت**»[1].

وكل ذلك من شدة معرفته بالله، وخوفه منه..

٤- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليّ القرآن**» قلت: أقرأ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: «**إني أُحب أن أسمعه من غيري**».

قال: فقرأت من أول سورة النساء حتى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤١، ٤٢]. فرفعت رأسي، فإذا عيناه تذرفان الدموع، فقال: «**أمسك**»[2].

٥- وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء، وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، ولوددت أني كنت شجرة تعضد**»[3].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. إذا كنت تقول ذلك وأنت سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين، وأنت أحب خلق الله إلى الله.. فماذا نقول نحن؟!

٦- وترى السيدة عائشة – رضي الله عنها – في رسول الله ﷺ خوفه الشديد من ربه ومولاه، وتصفه قائلة:

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٧٢٣)، و«الصحيحة» (٩٥٥)، و«صحيح سنن الترمذي» (٣٢٩٧)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٤).

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم.

(٣) صحيح: رواه الحاكم وصححه، وهذا لفظه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب».

كان إذا رأى غيمًا، أو ريحًا، عُرف في وجهه، فقلت: يا رسول الله، إنَّ الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية؟

فقال: **«يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ عُذب قومٌ بالريح وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارض ممطرنا»**(١).

٧- ويراه بعض أصحابه الكرام مهمومًا حزينًا خوفًا من ربه ومولاه، فيسأله في ذلك، فيجيبه بلسان الخائف من ربه:

«كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم قرنه، ينتظر متى يؤمر بالنفخ فينفخ فيه؟»(٢).

٨- وينزل عليه جبريل عليه السلام يومًا، فيجده يبكي خوفًا على أمته، فيسأله: ما يبكيك يا رسول الله؟

فيقول: **«تذكرت قوله تعالى على لسان أخي إبراهيم عليه السلام:**

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقول أخي عيسى عليه السلام:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة: ١١٨].

ثم رفع يديه إلى الله عز وجل، وقال: **«اللهم أمتي أمتي»**، وبكى رسول الله ﷺ.. وإذا بجبريل عليه السلام يجوب الآفاق، ويطوي بأجنحته السبع الطباق، وينزل على رسول الله ﷺ.. فيقول له: السلام يقرؤك السلام، ويقول لك: **«لا تبكي، إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك»** ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ (٣) [الضحى: ٥].

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه وأحمد.

(٢) صحيح: رواه الترمذي والحاكم وصححه، وأحمد في «مسنده» وابن أبي شيبة في «مصنفه».

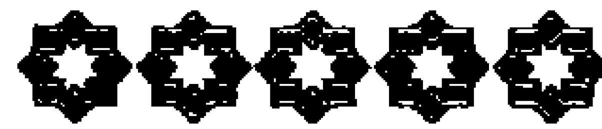
(٣) صحيح: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٢٣٥) والبيهقي في «الشعب» (٣٠٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» والطبراني في «الأوسط» (٨٨٩٤).

٩- ويخرج الحبيب المصطفى ﷺ يومًا ليشيع جنازة أحد أصحابه - رضوان الله عليهم - فيجلس على شفير القبر، ويبكي، حتى ابتل الثرى من كثرة البكاء، ثم توجه إليهم قائلاً:

«يا إخواني، لمثل هذا فأعدوا»[(١)].

رسول الله يخاف من لقاء الله.. رسول الله يخشى مولاه، وهو من هو في العبادة والاجتهاد.. فما بالنا نحن.. ونحن المقصرون! ونحن الغافلون!

١٠- ولما كسفت الشمس في عهده ﷺ فقام للصلاة - وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة - فأطال في سجوده وركوعه.. يقول عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : وجعل يبكي في سجوده، وينفخ ويقول: **«ربِّ لم تعدني هذا، وأنا أستغفرك.. ربِّ لم تعدني هذا، وأنا فيهم»**[(٢)].



(١) حسن: رواه ابن ماجه، وأخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي في «الشعب»، وابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا».

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» والنسائي في «الكبرى» وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» برقم (١٤٩٦)، و«مختصر الشمائل» (٢٧٨).

مواقف إيمانية

في الخوف من الله تعالى والخشية منه

١- أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

لقد أبصر طائرًا على شجرة، فقال: طوبى لك يا طير، تأكل الثمر، وتقع على الشجر، لوددت أني ثمرة ينقرها الطير[١].

وعن الضحاك قال:

مرَّ أبو بكر رضي الله عنه على طير قد وقع على شجرة، فقال: طوبى لك يا طير تطير فتقع على الشجر، ثم تأكل من الثمر، ثم تطير ليس عليك حساب ولا عذاب.. يا ليتني كنت مثلك.. والله لوددت أني كنت شجرة إلى جانب الطريق، فمرَّ عليَّ بعير، فأخذني، فأدخلني فاه، فلاكني، ثم ازدردني ثم أخرجني بعرًا، و لم أكن بشرًا[٢].

وكان رضي الله عنه يقول: يا ليتني شعرة في جنب عبدٍ مؤمن.

وكان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

٢- خوف عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

يقول عمر: يا ليتني كنت كبش أهلي سمنوني ما بدا لهم، حتى كنت كأسمن ما يكون، زارهم بعض من يحبون، فذبحوني لهم، فجعلوا بعضي شواء، وبعضي قديدًا، ثم أكلوني، و لم أكن بشرًا[٣].

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ تبنة من

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٤/١) رقم (٧٨٦).

(٢) المرجع السابق برقم (٧٨٧).

(٣) المرجع السابق برقم (٧٨٨).

الأرض، فقال: يا ليتني هذه التبنة، ليتني لم أكن شيئًا، ليت أمي لم تلدني! ليتني كنت منسيًّا[(١)].

وكان يسير يومًا ويقرأ القرآن، يقرأ سورة الطور، فلما بلغ قوله تعالى:

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ ﴾ [الطور: ٧].

بكى واشتد بكاؤه، حتى مرض وعادوه شهرًا..

وكان ﷺ في وجهه خطان أسودان من البكاء.

٣- خوف عثمان بن عفان ﷺ:

وكان ﷺ إذا وقف على القبر يبكي، حتى تبتل لحيته، ويقول: لو أنني بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادًا، قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

٤- خوف أبي الدرداء ﷺ:

كان ﷺ يقول: يا ليتني كنت شجرة تعضد، وتؤكل ثمرتي، ولم أكن بشرًا.

وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت، لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم..

٥- خوف تميم الداري ﷺ:

قرأ ﷺ ليلة سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية:

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ ﴾ [الجاثية: ٢١] جعل يرددها ويبكي حتى أصبح الصباح.

(١) المرجع السابق برقم (٨٧٩).

٦- خوف أبو عبيدة بن الجراح ﷺ:

يقول ﷺ: وودت أني كبش، فذبحني أهلي، وحسوا مرقي وأكلوا لحمي[1].

٧- خوف الربيع بن خثيم - رحمه الله - :

قال مالك بن دينار: قالت ابنة الربيع بن خثيم لأبيها: ما لي أرى الناس ينامون، وأنت لا تنام؟

فقال لها: يا بنية، إنَّ أباك يخاف البيات - يعني الموت -.

ومشى يومًا مع عبد الله بن مسعود في الحدادين، فلما نظر إلى الأكيار تنفخ وإلى النيران تلفح، صعق، وسقط مغشيًّا عليه، فقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة، فلما لم يفق حمله على ظهره إلى منزله، فلم يزل مغشيًّا عليه، إلى مثل الساعة التي غُشي عليه فيها، ففاته خمس صلوات، وابن مسعود عند رأسه يقول: «والله هذا هو الخوف».

ويُروى أنه - رحمه الله - حفر في بيته بئرًا، فكان إذا وجد في قلبه قساوة، دخل فيه، وكان يمثل نفسه أنه قد مات وندم، وسأل الرجعة، فيقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

ثم يجيب نفسه، فيقول: قد رجعت يا ربيع، قد رجعت يا ربيع..

٨- خوف عمر بن عبد العزيز ﷺ:

كان عمر بن عبد العزيز ﷺ إذا صلى الصبح، أخذ المصحف في حجره ودموعه تبل لحيته، فكلما مرَّ بآية فيها تخويف رددها، فلا يتجاوزها من كثرة البكاء حتى تطلع الشمس.

وعن سفيان قال: كان عمر بن عبد العزيز ساكتًا وأصحابه يتحدثون، فقالوا له: مالك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟

---

(١) «شعب الإيمان» برقم (٧٩٠) (١/٤٨٦)..

قال: كنت مفكرًا في أهل الجنة، كيف يتزاورون فيها؟! وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها، ثم بكى..

٩- خوف الشافعي ﷺ:

لما دخل عليه الإمام المزني وهو علته التي مات فيها، قال له: كيف أصبحت يا إمام؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ولكأس المنية شاربًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى ربي واردًا، ولا أدري نفسي تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها؟ ثم بكى وقال:

ولما قسا [قلبي] وضاقت مذاهبي	جعلت رجائي نحو عفوك سُلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك كان عفوك أعظما
فمازلت ذا عفو عن الذنب سيدي	تجود وتعفو منة وتكرما
فلولاك ما يغوي إبليس بعابد	كيف وقد غوى صفيك آدما



حثه على الخوف والخشية من الله ﷻ

وكما حثنا رسول الله ﷺ على الخوف من الله تعالى، والخشية منه بأفعاله وسلوكياته، حثنا كذلك بأقواله ﷺ وهي كثيرة منها:

١- ما رواه عنه محدث هذه الأمة أبو هريرة ﷺ أنه قال:

«لا يلج النار رجل بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع»(١).

وهذا من باب التعليق بالمحال كقوله تعالى:

﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

٢- وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: يا رسول الله، في هذه الآية:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

يا رسول الله، أهو الذي يسرق ويزني، ويشرب الخمر، وهو يخاف الله؟

قال: **«لا يا ابنت الصديق، ولكنه الذي يُصلي ويصوم، ويتصدق، وهو يخاف الله ﷻ»**(٢).

٣- وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«أسرف رجل على نفسه، فلما حضره الموت، أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في الريح، في البحر، فوالله إن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحد.. قال: ففعلوا ذلك به، فقال الله للأرض: أدِّي ما أخذت، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت، فقال: خشيتك يا رب.. أو قال: مخافتك، فغفر له بذلك»**(٣).

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «سنن الترمذي» (١٦٣٣)، و«صحيح سنن النسائي» (٣١٠٨)، و«صحيح الجامع» (٧٧٧٨)، و«المشكاة» (٣٨٢٨)، و«صحيح الترغيب» (١٢٦٩).

(٢) حسن: حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨) ألباني، و«المشكاة» برقم (٥٣٥٠).

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢٥٥)، والنسائي (٢٠٧٩)، و«صحيح الجامع» برقم (٩٦٥).

إنه وصى بذلك تحقيرًا لنفسه، وعقوبة لها لعصيانها، وإسرافها، رجاء أن يرحمه الله عز جل..

وكان النبي ﷺ يخوف الأمة ويرهبها من عذاب النار، فهي نار الله الموقدة.

٤- ففي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«يعرق الناس يوم القيامة، حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم» ثم يقول: **«ثم يؤتى بالجسر، فيجعل بين ظهراني جهنم»** فقيل: يا رسول الله، وما الجسر؟

قال: **«مدحضة ومذلة، عليه خطاطيف، وكلاليب، وحسك، المؤمن يعبر عليه كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، فناج مسلم، وناج مخدوش، حتى يمر آخرهم يسحب سحبًا»**(١).

٥- وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«يؤتى يوم القيامة بجهنم لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(٢).

٦- واسمع يا مسكين إلى هذا الحديث العظيم، الذي رواه أنس رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال:

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين(٣).

٧- واعلم يا مسكين، أنك واقف بين يدي الله تعالى ليس بينك وبينه ترجمان فمحاسبك، ومسائلك، فأعد للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا..

فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما منكم من أحد إلا وسيكلمه**

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) صحيح: رواه مسلم.

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر من بين يديه، فلا يرى إلا النار، تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[1].

ولله در أقوام أطار ذكر النار عنهم النوم، وطال اشتياقهم إلى الجنان، فنحلت أجسادهم، وتغيرت ألوانهم، فهل تعرف من صفاهم شيء؟

قيل لزيد بن يزيد: ما لنا نراك باكيًا، وجلاً خائفًا؟

فقال: إنَّ الله توعدني، إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو لم يتوعدني أن يسجنني إلا في الحمام لبكيت، حتى لا تجف لي عبرة.

وعوتب عطاء السليمي في كثرة البكاء، فقال:

إني إذا ذكرت أهل النار، وما ينزل بهم من عذاب الله تعالى، مثلت نفسي بينهم، فكيف لنفسي تغل يدها إلى عنقها، وتُسحب إلى النار ولا تبكي؟

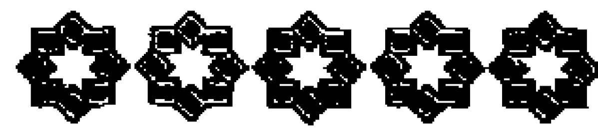
واحســـــرتي واشـــــــقوتي ـــــــن يـــــوم نشـــــر كتابـــــيه
واطـــــــــول حـــــــــزني إنْ أكـــــــن أوتيـــــــته بشـــــماليه
وإذا ســـــئلت عـــــن الخطـــــا مـــــــاذا يكـــــون جوابـــــيه؟
واحـــــــر قلـــــبي أن يكـــــو ن مـــــع القلـــــوب القاســـــية
كـــــــلا ولا قدمـــــــت لي عمـــــلاً لـــــيوم حســـــابيه
بـــــل إنـــــني لشـــــقاوتي وقســـــــاوتي وعذابـــــــيه
بـــــــارزت بالـــــــزلات في أيـــــام دهـــــر خالـــــيه
مـــــن لـــــيس يخفـــــى عـــــنه مـــــن قـــــبح المعاصـــــي خافـــــيه

فيا من يرحل في كل يوم مرحلة، وكتابه قد حوى حتى الخردلة، لا تضيع أيامك، فإنها رأس مالك، فإنك مادمت قادرًا على رأس مالك، قدرت على الربح، وإن بضاعة الآخرة كاسدة في يومك هذا، فاجتهد حتى تجمع بضاعة الآخرة في وقت كسادها، فإنه

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

يجيء يوم تصير هذه البضاعة فيه عزيزة، فاستكثر منها في يوم الكساد، ليوم العز، فإنك لا تقدر على طلبها في ذلك اليوم..

واذكـر وقوفـك يـوم العرض عريانًا   مستوحشًـا قلـق الأحشـاء حيرانًـا
والـنار تلهـب مـن غـيظ ومن حنق   عـلى العصـاة ورب العـرش غضبانا
اقـرأ كـتابك يـا عـبدي على مهل   فهـل تجـد فـيه حـرفًا غـير ما كانا
فـلما قـرأت ولم تـنكر قـرأته   وأقـررت إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نـادى الجلـيل خـذوه يـا ملائكتي   وامضـوا بعـبد عصـا للـنار عطشانا
المشـركون غـدًا في الـنار يلتهـبوا   والموحـدون بـدار الخلـد سـكانا



المبحث الثالث

خُلق الرجاء

ما هو الرجاء:

الرجاء في اللّغة:

الأمل: الذي هو ضد اليأس، يُقال: رجوت فلانًا رجوًا، ورجاءً، ورجاوة، إذا أملته..

وقيل: الأمل أكبر من الرجاء، لأن الرجاء معه خوف..

قال في «اللسان»: وقد يكون الرجو، والرجاء بمعنى الخوف.. قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ ﴾ [نوح: ١٣].

أي تخافون عظمة الله[١].

قال الراغب في «مفرداته»: ووجه ذلك أنَّ الرجاء والخوف يتلازمان.

قال تعالى: ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].

وقال: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٠٦].

ويُقال: أرجت الناقة إذا دنا نتاجها.

وفي الاصطلاح:

تعددت الأقوال في تعريف الرجاء على النحو التالي:

قال الراغب: الرّجاء: ظنٌّ يَقْتَضِي حُصولَ ما فيه مَسَرَّةٌ[٢].

---

(١) «لسان العرب» (٣٠٩/١٤).

(٢) «المفردات للراغب» (ص١٩٠).

وقال الجرجاني: هو تعلق القلب بحصول محبوب مستقبلاً[١].

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه وتعالى[٢].

وقيل: هو الثقة بجود الرب ﷻ[٣].

وقيل: هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى[٤].

الفرق بين الرجاء والتمني:

يقول ابن القيم: إن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، لكن الرجاء يكون مع بذل الجهد، وحسن التوكل.

فالأول (المتمني): كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها، ويأخذ زرعها، **والثاني** (الراجي): كحال من يشق أرضه، ويفلحها ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل[٥].

وقال أبو هلال العسكري:

الرجاء هو الظن بوقوع الخير الذي يعتري صاحبه الشك فيه، إلا أن ظنه فيه أغلب، والرجاء: الأمل في الخير، والخشية والخوف في الشر[٦].

منزلة الرجاء بين الأخلاق:

الرجاء حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة، ويطلب لها السير..

---

(١) «التعريفات» للجرجاني (ص١٠٩).
(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٣٦، ٣٧).
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) «مدارج السالكين» (٢/٣٧) لابن القيم.
(٦) «الفروق اللغوية» (ص٢٥٩) ط. التوفيقية.

وهو من الأخلاق الإيمانية العظيمة التي جعلها الله تعالى زادًا للنفس، وروحًا للقلب، وضياء للسالكين في ظلمة الدنيا، لأنه: «لولا روح الرجاء لعُطلت عبودية القلب والجوارح، وهُدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرًا، بل لولا روح الرجاء، لما تحركت الجوارح بالطاعة»(١).

لأجل هذا اعتنى به القرآن الكريم عناية كبيرة، حثًا عليه، وثناء على أهله، وذمًّا لمن لم يتصف به من الخلق في أكثر من عشرين آية من آيات القرآن الكريم.

لولا التعلق بالرجاء تقطعت نفس المحب تحسرًا وتمزقًا

لولا الرجاء يحدو المطيّ لما سرتْ بحمولها لديارهم ترجو اللقا

قال أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير، وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما، وقع فيه النقص، وإذا ذهبا، صار الطائر في حد الموت.

وعلى هذا فإن الرجاء من أجل المنازل، وأعلاها شرفًا، وعليه مدار السير إلى الله تعالى، وقد مدح الله أهله، وأثنى عليهم، فقال:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

القرآن الكريم يحث على التخلق بهذا الخلق:

ومن أجل الآيات التي حثت العبد على التخلق بخلق الرجاء قوله جل في علاه:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

لذلك قال عنها الكثير من السلف: إنها أرجى آية في كتاب الله ﷻ، لأنها تشتمل على أعظم بشارة للمسلم وذلك من وجوه:

أولاً: أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى نفسه، لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٣).

ثانيًا: وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب.

ثالثًا: أنه عقب على ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة.

رابعًا: أنه بين أنه يغفر الذنوب جميعها، مادام العبد راجعًا إليه، معترفًا بذنوبه، نادمًا عليها.

فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط، الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته، ورحمته على عباده، المتوجهين إليه في طلب العفو، الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم، وما أحسن ما علل به سبحانه هذا الكلام قائلا: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة، عظيمها واسعها.

لذلك قال عنها الحبيب المصطفى ﷺ كما روى عنه ثوبان ﷺ : «**ما أحب أن الدنيا وما فيها بهذه الآية:** ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ »..

فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ ثم قال: «**إلا من أشرك**» ثلاث مرات[(١)].

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء: ٤٨].

وعن **محمد بن سيرين** قال: قال عليٌّ ﷺ: أيُ آية في القرآن أوسع؟

قال: فجعلوا يذكرون آياتٍ من القرآن: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ [النساء: ١١٠].

أو نحوها، فقال عليٌّ ﷺ: ما في القرآن الكريم أوسع من: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية[(٢)].

---

(١) حسن: رواه أحمد في «مسنده» والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧١٣٧).

(٢) حسن: أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (ص٦٨).

ولما التقى عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - مع عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - فقال له ابن عباس: أيُّ آية في كتاب الله أرجى عندك؟ قال: فتلا آية الزمر[١].

فاستبشر، ولا تقنط من رحمة الله بسوء أعمالك، وأحسن الظن بمولاك، وتب إليه، فإنه لا يهلك على الله هالك.

إذا أوجعتك الذنوب فداوها ... برفع يد بالليل والليل مظلم

ولا تقنطن من رحمة الله إنما ... قنوطك منها من ذنوبك أعظم

فرحمته للمحسنين كرامة ... ورحمته للمذنبين تكرم

التنويهُ بأهل هذا الخُلق في القرآن الكريم:

ولقد دل على عظيم منزلة هذا الخلق العظيم تنويه الله جل في علاه بالمتحلين به في آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم.. فقد جعله الله تعالى من أخلاق أهل الإيمان، وصفة من صفاتهم التي يستوجبون بها رحمته وغفرانه قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وأثنى الله تعالى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء فقال سبحانه:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٩].

ونلاحظ في هذه الآية أمرين:

الأول: أنَّ الله ﷻ قرن الرجاء بالعمل الصالح حيث قال: ﴿ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا

---

(١) صحيح الإسناد: أخرجه الحاكم (٧٦٧٠)، وقال صحيح الإسناد (٤/٢٨٩).

وَقَآبِمًا ﴾ بمعنى أنه لا يفتر عن الطاعة.

الثاني: أنَّ الرجاء اقترن بالخوف، لإفادة أن الرجاء والخوف قرينان لا ينبغي أن ينفك أحدهما عن الآخر.. فلا خائف إلا وهو راج، ولا راج إلا وهو خائف، ولأجل تناسب الأمرين، قرن الله تعالى بينهما في غير ما آية من كتابه كقوله سبحانه:

﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

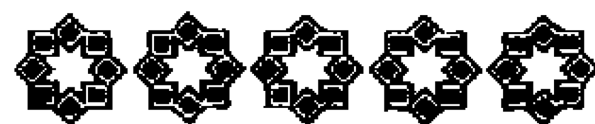
وقال: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال مكحول الشامي: من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد.

وقال بعض السلف: لو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحدًا، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحدًا، لرجوت أن أكون ذلك الرجل..

فأكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب في قلب العبد، فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائق، والله ﷻ هو الموصِّل بمنه وكرمه، فينبغي على المؤمن أن يكون في حال وسط بين الرجاء والخوف، بحيث لو وزن خوفه برجائه، لاعتدلا..

فلا يبالغ في الرجاء فيوصله إلى ترك العمل، فيكون غرورًا وخداعًا للنفس، ولا أن يُبالغ في الخوف، فيوصله إلى القنوط واليأس من رحمة الله، وذلك من أخطر الأمور التي يجب الحذر منها.



مظاهر خُلق الرجاء في حياة النبي ﷺ

لقد كان رسول الله ﷺ سيد الراجين لله ﷻ، وسيد الصادقين في رجائهم، حيث إنه قد برهن على التخلق بهذا الخلق العظيم، بما يستلزمه من صدق العمل، والبعد عن اليأس والقنوط.

وكيف لا يكون كذلك وهو أعرف الناس بالله ﷻ، وأتقاهم وأخشاهم له، وقد شهد له أكرم الأكرمين رب العالمين جل في علاه بعظمة الخلق، حين قال عنه:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم: ٤].

والرجاء في الله تعالى من الأخلاق العظيمة التي عمتها تلك الشهادة.. بيد أن الله جلت قدرته، وتقدست أسماؤه شهد له بهذا الخلق بخصوصه، كما في قوله جل في علاه:

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝ ﴾ [الإسراء: ٢٨].

فقد أخبر المولى تبارك وتعالى أن حبيبه ومصطفاه ﷺ كان يرجو رحمة ربه، وسواء كانت الرحمة المرجوة هنا كناية عن الرزق والتوسعة، أو هي الرحمة بعمومها.. فإن الكل من الله ﷻ.

وقد علق النبي المصطفى، والرسول المجتبى ﷺ رجاءه في الله تعالى فيما لا يقدر عليه غيره، سواءً أكان رزقًا، أم رحمة شاملة، وذلك هو تعلق العبد بجناب الرب سبحانه، وهو طمع العبودية في هبات الربوبية، وأمل المخلوق في كرم الخالق.. وقد جعل الله تعالى هذا الخلق خاصة لرسول الله ﷺ ولا عجب أن يخصه الله تعالى بمثل هذا الخطاب - فكم له من خصائص عظيمة، وعجيبة - فإنه سبحانه جل في علاه قد جعل رجاءه وسلوكه وهديه أسوة وقدوة لأمته في كل تخلقهم بالأخلاق الفاضلة، ومنها خلق الرجاء في جميع شئوهم وأمورهم، قال سبحانه:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢١].

وما ذاك إلا لأنه ﷺ كان على الذروة العليا، والكمال المطلق من التخلق بهذا الخلق.. وهذا ما شهد به الواقع من حياته.

من أقواله ﷺ في الرجاء:

١- يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه جل في علاه: **«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب مني شبرًا، تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليَّ ذراعًا، تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»**(١).

فهذا الحديث القدسي المبارك يفتح للمؤمن باب الرجاء في الله ﷻ، وذلك بأن يحسن ظنه فيه.

٢- وقال في حديث قدسي آخر: **«يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو لقيتني بقراب الأرض خطايا لقيتك بقرابها مغفرة، بعد أن لا تشرك بي شيئًا، يا ابن آدم، إنك إن تذنب، حتى يبلغ ذنبك عنان السماء، ثم تستغفرني، أغفر لك ولا أبالي»**(٢).

٣- وقال ﷺ موجهًا إلى الأمة تعاليمه بأن يحسنوا الظن بالله: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»**(٣).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع في الجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من الجنة أحد»**(٤).

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٢) حسن: رواه الترمذي والدارمي وابن حبان والحاكم وأحمد والبيهقي في «الشعب» والطبراني في «الأوسط والكبير» وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٣٨)، و«الصحيحة» (١٢٧)، و«صحيح الترغيب» (١٦١٦)، و«المشكاة» (٢٣٣٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم (٣٣٨٥).

(٤) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٥٤٢)، و«صحيح الجامع» (٥٣٣٨)، و«المشكاة» (٢٣٦٧).

٥- وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**حسن الظن من حسن العبادة**»(١).

٦- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك؟**»، قال: أرجو الله يا رسول الله، وإني أخاف ذنوبي.. فقال ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو منه، وأمنه مما يخاف**»(٢).

٧- وعن أبي النضر قال: خرجتُ عائدًا ليزيد بن الأسود، فلقيت واثلة بن الأسقع وهو يريد عيادته، فدخلنا عليه، فلما رأى واثلة، بسط يده، وجعل يشير إليه، فأقبل واثلة، حتى جلس، فأخذ يزيد بكفي واثلة، فجعلهما على وجهه، فقال له واثلة: كيف ظنك بالله؟ قال: ظني بالله والله حسن. قال: فأبشر، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن بي خيرًا فله، وإن ظن شرًّا فله**»(٣).

٨- وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قدم على النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي قد تحلَّب ثديها، إذ وجدت صبيًّا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟**»، فقلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(٤).

٩- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم، والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة**»(٥).

فهذه الأحاديث حث من النبي الأكرم، والرسول الأعظم ﷺ لأمته بأن تحسن ظنها بربها، ولاسيما عند القدوم عليه، كي تجد مولاك جل وعلا على النحو الذي ظننته من العفو والمغفرة والرحمة، وهذا هو الرجاء في الله تعالى.

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٩٢٥١)، وصححه حمزة الزين (١٦٠/٩)، وضعفه الألباني، وصححه الحاكم.

(٢) حسن صحيح: رواه الترمذي وصححه الألباني (٣٣٨٣)، ورواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا.

(٣) صحيح: رواه أحمد وابن حبان والبيهقي وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٣٨٦).

(٤) صحيح: متفق عليه، وذكره الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٣٧٠).

(٥) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

من أقواله الدالة على رجائه ﷺ :

١- **منها:** رجاؤه في مولاه أن يكون صاحب الوسيلة في الجنة، وهي المنزلة العظيمة، التي لا تنبغي أن تكون لأحد سواه، كما دل عليه قوله ﷺ : «**إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة، صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله ﷻ لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله تعالى، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله ليّ الوسيلة، حلت له شفاعتي**»(١).

٢- **ومنها:** رجاؤه في أمته أن تكون أكثر الأمم يوم القيامة خاصة كما دل عليه قوله ﷺ : «**ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(٢).

يعني «لأن معجزته العظمى، وهي القرآن الكريم مستمرة إلى يوم القيامة، وهي تشاهد بالبصيرة، فيكون من تبعها أكثر، بخلاف معجزات الأنبياء السابقين، فإنها كانت معجزات حسية تُدرك بالبصر، ثم تنقطع»(٣).

٣- **ومنها:** رجاؤه أن تكون أمته نصف أهل الجنة، كما دل عليه خطابه لأصحابه - رضوان الله عليهم - قائلاً: «**أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟**» قالوا: نعم، قال: «**أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟**» قالوا: نعم. قال: «**والذي نفسي بيده، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أنَّ الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم وأهل الشرك، إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر**»(٤).

٤- **ومنها:** رجاؤه أن يلقى ربه لا يطالبه أحد بمظلمة، كما دل عليه حديث أنس قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ . فقالوا: يا رسول الله، سعر لنا، قال: «**إنَّ الله هو**

---

(١) صحيح: رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

(٢) صحيح: رواه البخاري.

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (٨٠٧/١٩).

(٤) صحيح: رواه البخاري ومسلم وغيرهما وذكره الألباني في «الصحيحة» (٨٤٩).

المسعر، القابض، الباسط، الرزاق، وإني لأرجو أن ألقى ربي وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال»[1].

٥- ومنها: رجاؤه أن يكون أكثر الناس ورودًا على حوضه يوم القيامة، كما دل عليه حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنَّ لكل نبي حوضًا يتباهون أيهم أكثر وارده، وإني لأرجو أن أكون أكثر منهم واردة»[2].

٦- ومنها: رجاؤه أن يكون صديقه وحبيبه أبو بكر الصديق ممن يدعى من أبواب الجنة الثمانية، كما دل عليه حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «لكل عمل باب من أبواب الجنة، يدعون منه، وللجنة ثمانية أبواب» فقال: أبو بكر يا رسول الله، وهل أحد يُدعى من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وإني لأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر»[3].

٧- ومنها: رجاؤه أن لا يدخل الله أحد ممن شهد بدرًا والحديبية النار، كما دل عليه حديث حفصة - رضي الله عنها - أنه ﷺ قال: «إني لأرجو ألا يدخل النار أحد إن شاء الله ممن شهد بدرًا والحديبية» فقالت حفصة: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١].

قال: «ألم تسمعيه يقول:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[4] [مري: ٧٢م].

٨- ومنها: رجاؤه لأبي بكر أن يكون ممن يأكل من ثمار الجنة، كما دل عليه حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ طير الجنة،كأمثال البخث ترعى في شجر الجنة» فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة! فقال ﷺ: «أكلتها أنعم منها» قالها ثلاثًا «وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها»[5].

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٤٥١)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٠٠)، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح، و«صحيح الجامع» (١٨٤٦).

(٢) صحيح بشواهده: كما قال ذلك الألباني في «السنة» برقم (٧٣٤)، و«المشكاة» (٥٥٩٤).

(٣) صحيح: صححه الألباني في «تحقيق السنة» برقم (١٢٣٧).

(٤) صحيح: صححه الألباني في صحيح الجامع» (٢٤٨٢)، و«المشكاة» (٦٢١٨)، و«السنة» (١٨٦٠)، وابن ماجه (٤٢٨١)، ورواه أحمد بإسناد جيد.

(٥) حسن: رواه أحمد بإسناد جيد كما قال المنذري ورواه ابن أبي شيبة (٤٧٢/٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٧٤٠).

حث النبي ﷺ أمته على التخلق بخلق الرجاء:

١- ولقد حث نبي الرحمة ﷺ على التخلق بهذا الخلق الإيماني العظيم في أحاديث متعددة منها قوله ﷺ:

«لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويَّة مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام، فاستيقظ، وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، وعليها زاده وطعامه وشرابه.. فالله أشد فرحًا بتوبة المؤمن من هذا براحلته وزاده»(١).

٢- وعن جندب ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ حدث: **«أنَّ رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى عليَّ أني لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك»**(٢).

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»**(٣).

٤- وعن أبي الطويل شطب الممدود أنه أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت من عمل الذنوب كلها، ولم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجة، ولا داجة إلا أتاها، فهل لذلك من توبة؟ قال: **«فهل أسلمت؟»** قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قال: **«تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن»** قال: وغدراتي وفجراتي؟! قال: **«نعم»** قال: الله أكبر، فمازال يكبر، حتى توارى(٤).

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم واللفظ له ورواه أحمد في «مسنده».

(٢) صحيح: رواه مسلم والألباني في «الصحيحة» (٦١٨٥)، و«صحيح الجامع» (٢٠٧٥)، و«المشكاة» (٢٣٣٤).

(٣) صحيح: رواه مسلم وأحمد والألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٥٣)، و«الصحيحة» (١٩٥٠)، و«المشكاة» (٢٣٢٨).

(٤) صحيح: رواه البزار والطبراني واللفظ له وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٦٤).

٥- وقال صلوات ربي وتسليماته عليه: «**إذا كان يوم القيامة، وفرغ الله تعالى من قضاء الخلق، فيبقى رجلان، فيؤمر بهما إلى النار، فيلتفت أحدهما، فيقول الجبار تبارك اسمه: ردوه، فيردوه، فيقال له: لمَ التفت إليّ؟ فيقول: قد كنت أرجو أن تدخلني الجنة.. فيأمر الله به إلى الجنة.. قال: فيقول لقد أعطاني ربي ﷻ، حتى لو أني أطعمت أهل الجنة، ما نقص ذلك مما عندي شيئًا**»(١).

وكان رسول الله ﷺ إذا ذكره يرى السرور في وجهه.

٦- وعن أنس ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يخرج من النار أربعة، فيعرضون على الله تعالى، فيلتفت أحدهم، فيقول: أي ربِّ، كنت أرجو إن أخرجتني منها، ألا تعيدني فيها، فينجيه الله منها**» وفي رواية لأحمد في المسند: «**فلا نعيدك فيها**»(٢).

رجال أحسنوا الظن بالله

١- قال **بعض العُبَّاد**: لما علمت أنَّ الله ﷻ، هو الذي يحاسبني يوم القيامة زال عني حزني، لأن الكريم إذا حاسب عبده، تفضل(٣).

٢- وقال **سفيان الثوري**: ما أحب أن حسابي جُعل إلى والدي، ربي خيرٌ لي من والداي(٤).

٣- رُئي **مالك بن دينار** في المنام، فقيل له: بم قدمت على ربك؟ فقال: قدمتُ بذنوب كثيرة محاها عني حسن الظن بالله(٥).

٤- ورُئي **حوشب بن مسلم** في المنام، فقيل له: يا أبا بشر، كيف حالكم؟ قال: نجونا بعفو الله.. فقيل له: ما تأمر به؟ قال: عليكم بمجالس الذكر وحسن الظن بمولاكم ﷻ، فكفى بهما خيرًا(٦).

---

(١) حسن: رواه أحمد في «مسنده» وحسنه حمزة الزين (١٧/٨٥)، الأجل رشدين.

(٢) صحيح: رواه مسلم في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة ورواه أحمد (١٣٢٤٦).

(٣) «حسن الظن بالله» لابن أبي الدنيا.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

٥- وعن **محمد بن مطرف** قال: دخلنا على أبي حازم الأعرج حين حضرته الوفاة، فقلت: يا أبا حازم، كيف تجدك؟ قال: أجدني بخير راجيًا لله عز جل حسن الظن به، أنه والله من يستوي من غدا أو راح يعمر آخرته، ويقدمها أمامه قبل أن ينزل به الموت.. ومن غدا أو راح في عقد الدنيا يعمرها لغيره، ويرجع إلى الآخرة، لا حظ له، ولا نصيب.

وفي الأثر الإلهي:

«بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي، وما يكابدون في طلب مرضاتي، أتراني أسيء إليهم، كيف وأنا الرحيم بخلقي، ولو كنت معاجلاً بالعقوبة أحدًا، وكانت العقوبة من شأني، لعاجلت بها القانطين من رحمتي».

فيا إلهي:

حسن ظني بعفوك يا رب ... جميل وأنت مالك أمري
صنت سري عن القرابة والأهل ... جميعًا وكنت موضع سري
ثقة بالذي لديك من الستر ... فلا تخزني يوم نشري
يوم هتك الستور عن حجب الغيب ... فلا تهتكن للناس سري
لقني حجتي وإن لم تكن ... يا رب لي حجة ولا وجد عذر

فيا إلهي: ارحم قومًا أطاعوك في أحب طاعتك إليك، وهو الإيمان بك، والتوكل عليك.. وارحم قومًا أطاعوك في ترك أبغض المعاصي إليك، وهو الشرك بك، والافتراء عليك..

إلهي.. ارحم قومًا لم يزالوا منذ خلقتهم على مثل ما كان عليه السحرة يوم رحمتهم.. اللهم لا تشمت من كان يشرك بك بمن كان لا يشرك بك.. يا رب العالمين.



البابُ الثاني

الأخلاق السلوكية الإيمانية:

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الإخلاص.

المبحث الثاني: الشكر.

المبحث الأول

خُلق الإخلاص

ما هو الإخلاص؟

الإخلاص في اللغة:

مصدر أخلص يخلص، وتدل على تنقية الشيء وتهذيبه.. والخالص كالصافي، إلا أن الخالص مازال عنه شوبه، والصافي قد يُقال لما لا شوب فيه.

والمُخْلصين كما في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص: ٨٣].

أي الذين أخلصوا العبادة لله ﷻ. وبالمُخْلَصين: هم الذين أخلصهم الله تعالى - فالمخْلَصون: المختارون - والمخلِصون: الموحدون، ولذلك قيل لسورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص: ١] سورة الإخلاص، لأنها خالصة في صفة الله تعالى وتقديسه[1].

والإخلاص في الطاعة: ترك الرياء.. وكلمة الإخلاص: كلمة التوحيد.

الإخلاص في الشرع:

قال الجنيد: الإخلاص، سر بين الله وبين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدًا غير الله، ولا مجازيًا سواه.. وقيل: تصفية العمل من كل شوب.

وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

---

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور و«المفردات» للراغب و«مدارج السالكين» لابن القيم.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن.

وقيل: إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقال ذو النون المصري - رحمه الله - : الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه، والصبر عليه، والصدق لا يتم إلا بالإخلاص فيه، والمداومة عليه[١].

وقيل **لسهل**: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال **يوسف بن الحسين**: أعز شيء في الدنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنَّه ينبت على لون آخر[٢].

وقال **أبو طالب المكي** في «قوت القلوب»: حقيقة الإخلاص:

سلامته من وصفين وهما: الرياء، والهوى، ليكون خالصًا، كما وصف الله تعالى الخالص من اللبن، فكان بذلك تمام النعمة علينا، فقال:

﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا ﴾ [النحل: ٦٦].

فلو وُجد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم، لم يكن خالصًا، ولم تتم النعمة به علينا ولم تقبله نفوسنا، فكذلك معاملتنا لله ﷻ، إذا شابها رياء بخلق أو هوى من شهوة نفس، ولم تكن خالصة، لم يتم بها الصدق والأدب في المعاملة، ولم يقبلها الله تعالى منَّا، فاعتبروا[٣].

وقال **حاتم الأصم** - رحمه الله - : يعرف الإخلاص بالاستقامة، والاستقامة بالرجاء، والرجاء بالإرادة، والإرادة بالمعرفة.

وقال **المحاسبي**: الإخلاص، هو إخراج الخلق عن معاملة الرب.

وقال **الفضيل**: كان يُقال: لا يزال العبد بخير، ما إذا قال، قال لله، وإذا عمل، عمل لله[٤].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٣٠٠، ٣٠١) ط. التوفيقية.

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم.

(٣) «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٣٩/١).

(٤) «حلية الأولياء» لأبي نعيم.

منزلة الإخلاص من الأخلاق الإيمانية:

يعتبر الإخلاص جوهر الأخلاق الإيمانية، لما يترتب عليه من الأخلاق الحسنة من المدح والثواب، وعظم المنزلة في الآخرة.

وقد ورد في بعض الآثار: «الإخلاص سر من أسراري، أستودعه قلب من أشاء من عبادي، لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده».

ولأجل ذلك اعتنى القرآن الكريم بهذا الخلق العظيم، أمرًا وترغيبًا، وثناء على أهله، وتنبيهًا على عظيم جزاء المخلصين عند الله تعالى..

ومن عظيم شأن الإخلاص أنَّ القرآن الكريم ينسبه إلى أنبياء الله ورسله - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فموسى عليه السلام من المخلصين قال تعالى:

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾ [مريم: ٥١].

وقال عن يوسف عليه السلام:

﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

وفي كلمة المخلصين قراءتان، الأولى بفتح اللام عند حمزة والكسائي وحفص عن عاصم، ومعناه: أخلصه الله وجعله مختارًا خالصًا من الدنس، والقراءة الثانية بكسر اللام، عن ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر، ومعناه: الذي وحد الله، وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غير دنسه، وهكذا في «مخلصًا».

وفي سورة ص: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦].

و﴿ أَخۡلَصۡنَٰهُم ﴾ أي: اخترناهم واصطفيناهم.

ولجلال فضيلة الإخلاص لا يستطيع الشيطان أن يسيطر على المخلصين من عباد الله تعالى.. قال سبحانه حكاية عن الشيطان:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

وقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وتكرر ذلك في سورة الصافات..

الثمرات الزكيات فيما أعده الله للمخلصين والمخلصات:

ولما كان المخلصون، قد تجردوا من كل شائبة تكدر صفو إخلاصهم، فصفت عباداتهم عن الأغيار، ونياتهم عن التشريك والأخطار، فحققوا مبدأ العبودية الحقة، فصاروا لا يسمعون إلا به، ولا يبصرون إلا به، ولا يتكلمون إلا به، ولا يفعلون شيئًا إلا بالله، ولله، فكانوا أهلاً لما منحهم الله من منح إلهية، ومكرمات ربانية ومنها:

١- **عصمتهم من الشيطان الرجيم**، الذي آلى على نفسه أن يغوي بني آدم، حتى يعم عليهم لعنة الله وسخطه في الدنيا، ونار الله وغضبه في الآخرة، كما بينا في الآيات السابقة.

٢- وثاني هذه المكرمات، والهبات الفاضلات: **قبول الأعمال الصالحات**، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض – رحمه الله – : هو أخلصه وأصوبه.. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا، لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا، لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة[1].

وفي الحديث: «**إنَّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتغى به وجهه**»[2].

٣- وثالث هذه الثمرات: **نصر الله للمخلصين**، لقول النبي الأمين ﷺ : «**إنما نصر الله**

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٨٨) ط. دار الكتاب العربي – بيروت.

(٢) حسن: رواه النسائي وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٥٢).

هذه الأمة بضعفائها، ودعوتهم وإخلاصهم»[1].

٤- ورابعها: **النجاة من عذاب الله يوم القيامة**، كما دل عليه قوله جل في علاه:

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝ ﴾ [الصافات: ٣٩ - ٤٤].

فأي نعيم بعد هذا النعيم؟!

وليس النجاة من عذاب الله للمخلصين قاصرًا على إنجائهم من عذاب الآخرة، بل عذاب الدنيا ينجون منه كذلك، كما دل عليه قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ [الصافات: ٧١ - ٧٤].

٥- **انقطاع الوسواس عن الإنسان**، ولذلك قال أبو سليمان الداراني - رحمه الله - : إذا أخلص العبد، انقطع عنه كثرة الوسواس والرياء.

٦- **تفجر الحكمة من المخلص**، فقد قال مكحول الشامي - رحمه الله - : ما أخلص عبد قط أربعين يومًا، إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه[2].

٧- **زيادة مضاعفة الحسنات**، فإذا كان الله تبارك وتعالى قد وعد - وهو الكريم وصاحب الفضل العظيم - بأن يثيب الحسنات بأضعافها، فقال:

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ووعد بأكثر من العشرة إلى سبعمائة ضعف وكلها بحسب الإخلاص، فكلما زاد الإخلاص، زادت المثوبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم.



---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (٣١٧٨)، و«صحيح الجامع» (٢٣٨٨)، و«صحيح الترغيب» (٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣١/٨) رقم (٤٣).

مظاهر خُلق الإخلاص في حياة الرسول

لقد كان رسول الله ﷺ سيد المخلصين، وإمام المجاهدين، وقائد الغر المحجلين، ورسول رب العالمين.. وقد كان في ذروة الكمال من هذا الخلق العظيم، كما شهد الله تعالى له بذلك.. كما في قوله جل في علاه:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

فهذا توجيه رباني أن يخشع لمولاه بالطاعة، وأن يخلص له الألوهية، وأن يفرده بالعبادة، ولا يجعل له في عبادته إياه شريكًا..

ورسول الله ﷺ أخذ هذا التوجيه الرباني مأخذ الجد والعزيمة، فكانت حياته كلها إخلاص: عمله إخلاص، عبادته إخلاص، دعوته إلى الله بإخلاص، نصيحته لله بإخلاص، وعظه بإخلاص.. فكان يقول ما قصّه الله تعالى على لسانه:

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ ﴾ [الزمر: ١١ - ١٤].

فقد كانت حياته كلها إخلاص، وتأمل:

مخلصًا في دعوته:

ففي دعوته كان يتفانى في الإخلاص لها، لا يتوانى عنها ليلاً أو نهارًا، ولا يدخر في سبيل توصيلها وسعًا أو جهدًا يمكن أن يبذله، مع خلو قلبه من أي غرض نفسي من أغراض الدنيا الفانية، قال تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال سبحانه: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣].

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على ذلك.

وقد دل على إخلاصه في دعوته إلى الله تعالى أمور منها:

١- حرصه الشديد على إيمان الناس جميعًا.. ولقد بلغ من حرصه الشديد مبلغًا كاد يزهق روحه، ويقضي على نفسه الشريفة العزيزة، حتى ترفق الله تعالى عليه في ذلك، وعاتبه على شدة حرصه فقال له: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ ﴾ [الكهف: ٦].

وقال: ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [الشعراء: ٣]. باخع: أي هالك.

وقال له مولاه: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨].

٢- إباؤه ورفضه ما عرضته عليه قريش من المال والشرف والملك ونحوه لكي يتراجع عن دعوته، كما يتضح من الآتي:

- فقد جاءه عتبة بن ربيعة، وهو سيد قومه، وقال له: يا ابن أخي إنك منّا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة - أي وسطيتها - والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا، تنظر فيها، لعلَّك تقبل منها بعضها..

فقال له رسول الله ﷺ : «**قل يا أبا الوليد أسمع**».

قال: يا ابن أخي، إنْ كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا، ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه - أي جنيًا - لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرأك منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمع منه، قال: «**أقد فرغت يا أبا الوليد؟**» قال: نعم. قال:

«فاسمع مني» قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ:

« بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝ ﴾ [فصلت: ١ - ٣].

وظل يقرأ حتى وصل إلى آية السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»(١).

فتأمل إخلاصه، فلو لم يكن مخلصًا لما رفض كل عرض من العروض التي عرضها عليه..

- وتأمل ما قاله لأبي طالب، حين جاءته قريش مرة تلو الأخرى، وكان هدفهم الأكبر أن يتراجع الرسول ﷺ عن دعوته، فقال له عمه أبو طالب: يا ابن أخي، إنَّ قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تُحملني من الأمر ما لا أطيق.. فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته، والقيام معه، فقال ﷺ:

«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته».

ثم استعبر الرسول ﷺ باكيًا، ثم قام، فلما ولى ناداه عمه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا..»(٢).

ثم قال أبو طالب في ذلك:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينًا

فامض لأمرك ما عليك غضاضة ... أبشر وقرَّ بذاك منك عيونًا

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام، و«السيرة» لابن كثير (٥٠٤/١)، وأخرجه ابن أبي شيبة.

(٢) ذكره ابن هشام في «السيرة» (٥/٢)، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٨/٦)، إلى الطبراني في «الأوسط والكبير» وإلى أبي يعلى وقال: رجاله رجال الصحيح.

ودعوتني وعلمت أنك ناصحي فلقد صدقت وكنت قِدْمُ أمينًا
وعرضت دينًا قد عرفتُ بأنه من خير أديان البرية دينًا
لولا الملامة أو حذاري سبةً لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا(1)

فلو بذلوا ما يقدرون عليه، وأتوه بالمستحيل من وضع الكواكب والنجوم بين يديه، فلن يتراجع عن إبلاغ دعوته التي أمره الله تعالى بإبلاغها إلى الناس.

إخلاص عبادته لله تعالى:

وعبادته ﷺ كانت مبنية على كمال الإخلاص، لأنه يعلم علم اليقين أنه سبحانه هو المستحق للعبادة وحده، وقد كان ﷺ ينتقل في العبادة من نوع إلى نوع، ومن حال إلى حال، كما شهد له بذلك ربه جل في علاه بقوله:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقد كان يطبق هذا عمليًا ويوجه الأمة أن تتأسى به عندما كان يقول ذلك في افتتاح صلاته فرضًا أو نفلاً، فكان يقول في دعاء الاستفتاح:

«وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين»(2).

وكان يقول عن الإخلاص في الصلاة: **«ما منكم من أحد يتوضأ، فيحسن الوضوء، ثم يقوم فيركع ركعتين، يقبل عليهما بقلبه ووجهه، وجبت له الجنة وغفر له»**(3).

---

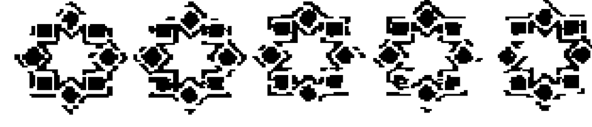
(١) «السيرة النبوية» لابن هشام، و«السيرة» لابن كثير (٤٦٣/١).

(٢) صحيح: رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» وأبو داود وابن حبان والبيهقي في «السنن»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٠٢).

وكان مخلصًا في حجه.. فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال عندما أراد أن يحج إلى بيت الله الحرام: «**اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة**»[١]. وكان مخلصًا في صومه، فكان يقول: «**من صام يومًا في سبيل الله، باعد الله منه جهنم مسيرة مائة عام**»[٢].

وقال: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»[٣].



(١) صحيح: رواه ابن ماجه عن أنس وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣١٣).

(٢) حسن: رواه النسائي عن عقبة بن عامر وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٣٠).

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود وغيرهم.

الرسول يحث أمته على الإخلاص

وكما حث الرسول ﷺ الأمة الإسلامية على الإخلاص بأفعاله، حثهم على أن يتخلقوا بالإخلاص في أقواله ومنها:

١- عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ما ابتُغي به وجه الله**»(١).

٢- وعن أبي فراس - رجل من أسلم - قال: نادى رجل، فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «**الإخلاص**» وفي لفظ آخر قال رسول الله ﷺ : «**سلوني عما شئتم**» فنادى رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «**إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة**» قال: فما الإيمان: قال: «**الإخلاص**» قال: فما اليقين؟ قال: «**التصديق**»(٢).

٣- وعن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبدٌ حقًّا** - أي مخلصًا - **من قلبه إلا حُرِّم على النار**»، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنا أحدثك ما هي؛ هي كلمة الإخلاص التي أعز الله بها محمدًا ﷺ وأصحابه، وهي كلمة التقوى التي ألاص عليها نبي الله عمه أبي طالب عند الموت: «شهادة أن لا إله إلا الله»(٣).

٤- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاث لا يُغل عليهن قلب امرئ مؤمن: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعاءهم يحيط من ورائهم**»(٤).

قال ابن القيم: أي لا يبقى فيه غلٌ، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غلَّه، وتنقيه منه، وتخرجه عنه..

---

(١) **حسن لغيره**: رواه الطبراني وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١/١٠٧)، حسن لغيره.

(٢) **صحيح**: رواه البيهقي وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/١٠٤).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» وصححه الشيخ أحمد شاكر (١/٣٥٣) والهيثمي في «المجمع» (١/١٥).

(٤) **صحيح**: رواه البزار وحسنه المنذري في «الترغيب» وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١/٥) صحيح.

٥- وقال: «**لم تؤتوا شيئًا بعد كلمة الإخلاص مثل العافية، فاسألوا الله العافية**»[١].

٦- وقال: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه - أو نفسه -** »[٢].

٧- وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا صليتم على الميت، فأخلصوا له الدعاء**»[٣].

٨- وعن عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما - قال: كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة يقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون، أهل النعمة والفضل والثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون**»[٤].

٩- وقال ﷺ: «**ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصًا إلا فتحت له أبواب السماء، حتى تفضي إلى العرش، ما اجتنبت الكبائر**»[٥].

١٠- وقال: «**من سره أن يجد حلاوة الإيمان، فليحب المرء لا يحبه إلا لله**»[٦].



(١) صحيح: رواه أبو يعلى في «مسنده» والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٨٦)، وصححه أحمد شاكر.

(٢) صحيح: رواه البخاري وغيره.

(٣) حسن: حسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٧٤٠).

(٤) صحيح: رواه مسلم بنحوه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٣٣٤).

(٥) حسن: حسنه الترمذي والألباني في «المشكاة» (٢٣١٤)، و«صحيح الجامع» (٥٦٤٨).

(٦) حسن: رواه أحمد في «مسنده» وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٨٨)، و«الصحيحة» (٢٣٠٠).

تحذير الرسول أمته من الرياء

وقد حذر إمام المخلصين، وسيد الأولين والآخرين، الأمة من الرياء لأمور:

١- أنهم أول من تسعر بهم النار:

ولو لم يكن للمرائين من الخزي إلا هذا لكفاهم صارفًا لهم عن الرياء:

فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنَّ أول الناس يقضي بينهم يوم القيامة: رجل استشهد، فأُتِيَ به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك، حتى استشهدت قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال: فلانٌ جرئ، فقد قيل، ثم أُمر به، فسحب على وجهه حتى ألقى به في النار.

ورجل تعلم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتِيَ به، فعرّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلَّمت ليُقال: عالم، وقرأت القرآن ليُقال: هو قارئ، فقد قيل: ثم أُمر به، فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه، فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت، ليُقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمر به، فسحب على وجهه، حتى أُلقى في النار»[١].

٢- لأن الرياء يورث أهله الذلة والصغار في الدنيا والآخرة:

قال ﷺ : **«من سمَّع الناس بعمله، سمَّع الله مسامع خلقه، وصغّره وحقّره»**[٢].

---

(١) صحيح: رواه مسلم وأحمد والنسائي.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» وأحمد (٦٥٠٩) وصححه الألباني والمنذري في «الترغيب».

من سَمَّع: أي أظهر عمله رياء، أظهر الله نيته الفاسدة في عمله يوم القيامة، وفضحه على رءوس الأشهاد، فأي ذلة وصغار بعد ذلك؟!

قال **الحسن البصري** - رحمه الله - عن العُصاة والمرائين:

إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

فلا يغرنك ما ترى من المرائين من هالات كاذبة، ومظاهر فارغة، ورئاسات.

٣- لأنهم - أي المرائين - يحرمون من الأجر:

قال ﷺ: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمله لله أحدًا، فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الأغنياء عن الشرك**»(١).

وقال ﷺ: «**قال الله ﷻ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملاً، أشرك فيه غيري، فأنا منه بريئ، وهو للذي أشرك**»(٢).

٤- لأن الرياء يبطل العمل ويمحقه:

لأنه هو الشرك الأصغر، قال شداد بن يعلى عن أبيه: كنّا نعد الرياء في زمن النبي ﷺ الشرك الأصغر.

قال ﷺ: «**إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»(٣).

والأحاديث في ذلك كثيرة والآثار لا تحصى في ذمه، والتنفير منه، فكفى ما ذكرناه.

أخي الحبيب: كن مع المخلصين، وحاذر الرياء والمرائين، وتخلق بأخلاق سيد المرسلين.

---

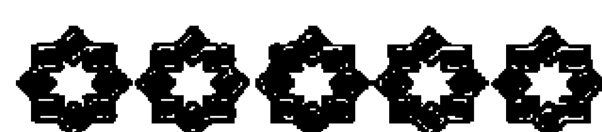
(١) حسن: رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان وحسنه الألباني.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه وابن خزيمة والبيهقي وصححه الألباني.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢٣٥٢٦)، وابن أبي الدنيا وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٥٥).

قال السري: خمس من كن فيه كان شجاع بطل: استقامة على أمر الله، ليس فيها روغان واجتهاد وليس معه سهو، وتيقظ ليس معه غفلة، ومراقبة لله في السر والجهر ليس معه رياء، ومراقبة الموت بالتأهب له[(١)].

اللهم أوصلنا إلى منازل المخلصين، واجعلنا من الذين جازوا ديار الظالمين، واستوحشوا من مؤانسة الجاهلين، وشابوا أعمالهم بنور الإخلاص، يا رب العالمين.



(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم.

المبحث الثاني

خُلق الشكر

ما هو الشكر؟

الشكر في اللغة:

مصدر شكر يشكر شكرًا، إذا عرف النعمة، وقنع بها.

يُقال: فرس شكور، إذا أصاب لسمنه العلف القليل.. لذلك قيل: الشكر هو الرضا باليسير.. وضد الشكر: نسيان النعمة وسترها.

وقيل: الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف[١].

وقال ابن منظور: الشكر عرفان الإحسان ونشره، وهو مأخوذ من قولك: شكرت الإبل تشكر إذا أصابت مرعى فسمنت عليه..

والشكران خلاف النكران.. والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل، ورجلٌ شكور: أي كثير الشكر، وهو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته، وأداء ما وظف عليه من عبادته[٢].

وفي الاصطلاح:

قال ابن القيم – رحمه الله – : الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده، ثناء، واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة[٣].

---

(١) «الصحاح» للجوهري (٢/٧٠٢).

(٢) المرجع السابق، و«لسان العرب» (٤/٢٣٠٥) بتصرف.

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٢٣٤).

وقيل: الشكر: الاعتراف بالنعمة على وجه الخضوع[١].

وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة[٢].

وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه[٣].

وقال المناوي: الشكر شكران؛ شكر باللسان، وهو الثناء على المنعم، والآخر: شكر بجميع الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر الاستحقاق.

وقال صاحب «البصائر»: الشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره، فهذه الخمس هي قواعد الشكر وأساس بنائه، فمتى عدمت واحدة منها، اختل من قواعد الشكر قاعدة[٤].

الفرق بين الحمد والشكر:

الشكر كالحمد في أنهما وصف باللسان بإزاء النعمة، إلا أن الحمد يكون باللسان وبالقلب بخلاف الشكر، فإنه يقع بالجوارح، والنعمة مقيدة في الشكر بوصولها إلى الشاكر، بخلافها في الحمد.

ويختص الشكر بالله تعالى، بخلاف الحمد[٥].

وقال أبو هلال العسكري: الشكر: هو الاعتراف بالنعمة، على جهة التعظيم للمنعم، والحمد: الذكر بالجميل على جهة التعظيم المذكور به أيضًا، والحمد يصح على النعمة وغير النعمة، والشكر لا يصح إلا على النعمة.. ويجوز أن يحمد الإنسان نفسه في أمور جميلة يأتيها، ولا يجوز أن يشكرها، لأن الشكر يجري مجرى قضاء الدين، ولا يجوز أن يكون للإنسان على نفسه دين[٦].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) «بصائر ذو التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (٣/٣٣٩).

(٥) «الكليات» للكفوي (٥٣٥).

(٦) «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري (ص٤٦) ط. التوفيقية.

العلاقة بين الشكر والصبر:

قال ابن حجر: الشكر يتضمن الصبر على الطاعة.. والصبر على المعصية..

وقال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشكر، ولا يتم إلا به، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما، ذهب الآخر، فمن كان في نعمة فواجبه الشكر والصبر، أما الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية، فواجبه الصبر، والشكر، أما الصبر فواضح، وأما الشكر فالقيام بحق الله تعالى في هذه البلية.

فإن لله على العبد عبودية في البلاء، كما أن له عليه عبودية في النعماء(١).

مكانة هذا الخلق بين الأخلاق الإيمانية:

يعتبر الشكر من أعظم الأخلاق السلوكية الإيمانية، والتي ينبغي على المؤمن أن يتصف بها، في جميع أحواله.. والدليل على ذلك أن الله ﷻ قرنه بالإيمان به سبحانه، وبين أنه سبحانه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا بالله تعالى:

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧].

وقد أخبرنا سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته من بين عباده فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقد قسم مولانا الناس إلى قسمين: شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، قال تعالى:

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ٣].

ويدل على عظم هذا الخلق، ومكانته العظيمة بين الأخلاق الإيمانية أن الله تعالى وصف به نفسه، قال تعالى:

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

---

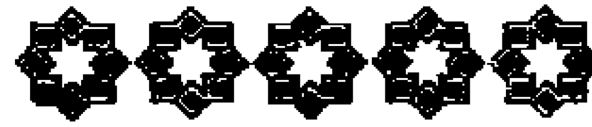
(١) «فتح الباري» لابن حجر بتصرف يسير (١١/ ٣١١).

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى: ٢٣].

والشكور: من أسماء الله تعالى، فهو الذي يشكر القليل من العمل الخالص، ويعفو عن الكثير من الزلل، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة.. ومن شكره أن يجزي بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

قال الغزالي - رحمه الله - :

الشكور: هو الذي يجازي بيسير الطاعات، كثير الدرجات، ويعطي بالعمل في أيام معدودة، نعيمًا في الآخرة غير محدود.. وقد وصفه به أنبياءه ورسله..



الشكر من أخلاق الأنبياء والمرسلين

والشكر خُلق من أخلاق الأنبياء والمرسلين، وصفهم به رب العالمين مثل إبراهيم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فقال عن نوح عليه السلام:

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٣].

وشكور: صيغة مبالغة أي كثير الشكر.

وقد أثنى بهذا الخلق على إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

وسليمان بن داود — عليهما السلام – قال لما سمع النملة تأمر بني جنسها أن يدخلوا مساكنهم:

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: ١٩].

وفي الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب، كيف أشكرك؟ وشكري لك نعمة عليَّ من عندك، تستوجب بها شكرًا؟!

فقال الله له: «يا داود، الآن شكرتني»(١).

وموسى عليه السلام يسأل مولاه قائلاً: يا رب، خلقت آدم بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسجدت له ملائكتك، وعلمته أسماءَ كل شيء وفعلت وفعلت، فكيف أطاق شكرك؟

قال له: «علم أن ذلك مني، فكانت معرفته بذلك شكرًا لي»(٢).

وأمر الله موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال:

---

(١) «الشكر» لابن أبي الدنيا، والبيهقي في «الشعب» وابن القيم في «مدارج السالكين».

(٢) المصادر السابقة.

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وكان داود عليه السلام يقول: إلهي، لو أنَّ لكلِّ شعرة مني لسانين يسبحانك بالليل والنهار، ما قضيت نعمة من نعمك.

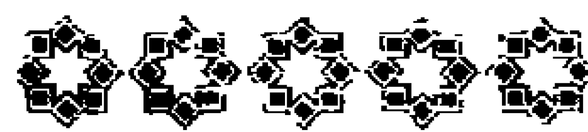
وعن مجاهد قال:

كان نوح عبدًا شكورًا، لأنه لم يأكل طعامًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شرابًا قط، إلا حمد الله عليه، فأثنى الله عليه، فقال:

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [1] [الإسراء: ٣].

وعندما أثنى الله تعالى على نوح وإبراهيم عليهما السلام بخلق الشكر، فإن هذا الثناء المبارك يشمل إخوانهما من أولي العزم، وبقية الرسل عليهم السلام، لأنهم كانوا جميعًا من أهل هذا المقام، حيث إنهم بلا شك يعرفون نعم الله تعالى عليهم، وما يجب نحوها، فيؤدونه على الوجه الأكمل، ولأنهم أكمل البشر عبودية لله رب العالمين، وقد بُعثوا جميعًا بمكارم الأخلاق، وبُعث سيدنا محمد ﷺ ليتمم هذه المكارم، كما جاء في الحديث:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [2].



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٠٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٦٢/٤) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا والبيهقي في «الشعب».

(٢) سبق تخريجه.

أنواع النعم

أخي الحبيب:

الحديث عن النعم يطول، وذلك لكثرتها، واستحالة حصرها، ولكن يمكن تقسيمها من حيث العموم والشمول إلى ثلاثة أقسام:

١- نعم عامة تشمل جميع الخلق.

٢- نعم شبه عامة وتشمل بعض الخلق.

٣- نعم خاصة بالنفس.

أولا: نعم عامة تشمل جميع الخلق:

إن النعم التي يعم نفعها جميع أهل الأرض، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، إنسهم وجنهم، وحتى الكائنات كثيرة ومتعددة:

منها: ما ذكره الله في سورة نوح في قوله:

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

ومنها: ما ذكره في سورة النبأ:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ [النبأ: ٦ - ١٦].

ومنها: ما جاء في بيان نعمة تناسق وانتظام الليل والنهار، وذلك في قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ

ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [القصص: ٧١].

فلو دامت الظلمة، لانطمس نور العيون، وضاقت الصدور، وحرم الناس من نعمة الضياء، ونعمة تمييز الألوان، والتمتع بنعمة البصر، وهكذا العكس:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص: ٧٢].

ولو دام الضياء والصخب، لما هدأت الدنيا، وسكن الناس، بل لأصابهم الجنون، وتوترت الأعصاب، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولكنه فضل الله الواسع، ورحمته الكبيرة التي تستحق أن نشكر الله عليها..

ومنها: الشمس وقربها من الأرض بمقدار، ولو اقتربت أكثر من ذلك، لأحرقت الزرع، ولتبخر ماء البحار، وهلك الخلق، ولو ابتعدت أكثر من ذلك، لمس الناس برد وقرّ، يجمد اللبن في الضرع، والدماء في العروق، ويحرق الزرع من شدة برده وسمومه.. فسبحان الكريم المنان..

ومنها: وضع الجبال، وحفظها لتوازن الأرض أن تميد بأهلها.

ومنها: القمر وضياؤه، وما يحدثه من المد والجزر في البحار والمحيطات، فتتحرك مياه البحار والمحيطات كأن بها أنهارًا من داخلها، لحكمة يعلمها الله.

ومنها: تبخر مياه البحار والمحيطات، وجريان السحاب بأمر الله، ثم نزول الماء حيث يُقدر الله، فتحيا الأرض بعد موتها، ويفيض ما يبقى من الماء، فيشق الله له طريقًا في صخرها، يفيض بالماء العذب الزلال..

ومنها: أنواع الزروع والثمار مما يأكل الناس والأنعام، زرع في الصيف، وآخر في الشتاء، وبين الزرعين زروع تلائم الجو والأرض.

ومنها: البحر وكنوزه، وما يخرج منه من اللحم الطري الشهي، واللؤلؤ والمرجان وما تجري فيه من السفن.. ولله در من قال:

لله في الآفـــاق آيــــات لعـــل أقـــلها أن إلـــيه هـــداك
وكـــم في الـــبحر مـــن آياتـــه عجـــب عجـــاب لـــو تأملـــت عيناك

ثانيًا: نعم تشمل بعض الخلق:

منها: نعمة الهداية، فقد خصك الله يا بن الإسلام، خصك الله بنعم خاصة دون غيرك، فقد هداك لدين الحق، وشرح له صدرك، دون جهد منك.. وقد أضل عنه قومًا آخرين.. فاحمد الله على ذلك واشكر فضله.

وممـــا زادني شـــــرفًا وتـــــيهًا وكـــدت بأخمصـــي أن أطـــأ الـــثريا
دخولـــك تحــت قولـــك يـــا عبادي وأن أرســـلت أحمـــد لي نبـــيا

قال بكر بن عبد الله المزني – رحمه الله تعالى – : من كان مسلمًا، وبدنه في عافية، فقد اجتمع عليه سيد نعيم الدنيا، وسيد نعيم الآخرة، لأن سيد نعيم الدنيا هو العافية، وسيد نعيم الآخرة هو الإسلام.

ومنها: أن جعل بلادك بلاد الإسلام بهذا الدين أمنًا وأمانًا، وفجر لنا من الأرض كنوزًا، فأخرجت من الذهب أصفره وأحمره وأسوده، وجعل الله من الأخير وقودًا يسير دواب الناس، فتحملهم في الأرض، والبحر والجو، بل ويُصنع منه كساء وأواني وآلات يعجز الإنسان عن عدها، فسبحان ذي الفضل والنعمة.

ثالثًا: نعم خاصة بالنفس:

وقد نبه الله على ذلك فقال: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢١].

فإذا اقتربت من نفسك قليلاً، فستجد نفسك أمام نفسك بداية من بدنك الذي تراه إلى فكرك وروحك اللذين لا تراهما، ومن هذه البدائع:

حسن الخلقة: فقد هيأ لك أجمل هيئة، ورزقك أكمل العقول، ولسانك فصيح، وغير ذلك.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار: ٦ – ٨].

وقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨].

وفي النفس أطراف بديعة الخلقة بيدين لهما أصابع مرتبة طولاً وقصرًا، ومفاصل، وأظافر تحمي الأنامل على أجمل ما يكون النسق، وأتم ما تكون الحاجة، فسبحانه الخالق البارئ المصور.

وتأمل الرأس وما فيها من مخ.. وشعر وجلد.. وغير ذلك.

نِعَم دقيقة لا يفطن الكثير إليها:

ليست النعم في الأمور الظاهرة فقط، وإنما في أمور كثيرة، لا يعرفها إلا من منَّ الله عليه بالبصيرة، **ومنها:**

- أن منَّ الله عليك بأن جعلك من أبوين مسلمين يعينانك ويربيانك على البر والتقوى.. وتأمل من أسلم وأبواه على غير دين الإسلام.. أي حسرة تقطع قلبه؟
- **ومنها:** ما أشار إليه شريح - رحمه الله - في قوله: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه منها ثلاث نعم:

١- أنها لم تكن في دينه.

٢- أنها لم تكن أعظم مما كانت.

٣- أنها لابد كانت فقد كانت.

- ومن أراد أن يعرف نعمة الله عليه بالصحة، فلينظر إلى المصابين بالأمراض، وفقد الأعضاء.. اذهب إلى المستشفى لترى: كم من مريض يئن من المرض؟ وكم من جريح مثخن بالجراح؟ وكم من فاقد للسمع أو البصر أو هما معًا؟ وكم من مسكين يتمنى هجعة من نوم، أو هدأة من وجع؟ ساعتها تعرف نعم الله عليك، فتشكرها.

جاء رجل إلى **يونس بن عبيد**، يشكو ضيق حاله، فقال له يونس: أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيدك مائة ألف؟ قال: لا؛ قال: فبرجلك مائة ألف؟ قال: لا؛ قال: فذكره نعم الله عليه.. فقال يونس: أرى عندك مئين الألوف، وأنت تشكو الحاجة.

وجاء عن **الفضيل بن عياض** - رحمه الله - أنه قرأ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ ﴾ [البلد: ٨، ٩]، فبكى، فسئل عن بكائه، فقال: هل بت ليلة

شاكرًا لله أن جعل لك عينين تبصر بهما؟ هل بت ليلة شاكرًا لله أن جعل لك لسانًا تنطق به؟ وجعل يُعدد من هذا الضرب.

ومنها: ما ذكره النبي ﷺ في حديث عبد الله بن محصن ﷺ: «**من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[1] إنما نعمة الأمن والأمان، والعافية والرزق وهي من أعظم نعم الله على عباده.

ومنها: نعمة اللباس والمركب، وتوفر الغذاء ونحوه، فكل الناس يتمتعون لكن غفل عن شكرها كثيرون، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

وسوف يُسأل الإنسان عن هذه النعم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر: ٨]. وقد قال النبي ﷺ : «**إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم، أن يُقال له: ألم نصح لك جسمك، ونرويك من الماء البارد؟**»[2].

قال ابن مسعود ﷺ: النعيم: الأمن والصحة.

وعن **ابن عباس** - رضي الله عنهما - : النعيم؛ صحة الأبدان، والأسماع والأبصار يسأل الله العباد فيم استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم.

قال وهب: عبدَ الله عابدٌ خمسين عامًا، فأوحى الله إليه، أني قد غفرت لك، قال: يا رب، وما تغفر لي، و لم أذنب؟ فأذن الله لعرق في عنقه يضرب عليه، فلم ينم، و لم يُصلِّ، ثم سكن فنام، ثم أتاه ملك، فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق؟ فقال الملك: إن ربك يقول: إنّ عبادتك خمسين عامًا تعدل سكون هذا العرق[3].

فيا رب:

أوليتني نعمًا أبوح بشكرها ... وكفيتني كل الأمور بأسرها

فلأشكرنك ما حييت وإن أمُت ... فلتشكرنك أعظمي في قبرها

---

(١) حسن: حسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٣١٨)، و«صحيح الجامع» (٦٠٤٢)، و«صحيح الترغيب» (٨٣٣)، ورواه الترمذي، وابن ماجه.

(٢) صحيح: رواه الترمذي وغيره وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٢٢)، و«صحيح سنن الترمذي» (٣٣٥٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» برقم (١٤٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦٨/٤).

كيف نشكر الله تعالى على نعمه؟

شكر الله تعالى يكون بكل الجوارح والأعضاء، وتأمل هذا الحوار الذي دار بين هذا الواعظ الكريم وبين سائله.. إنه أبا حازم..

قال له رجل: ما شكر العينين يا أبا حازم؟

قال: إن رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإن رأيت بهما شرًّا سترته.

قال: فما شكر الأذنين؟

قال: إن سمعت بهما خيرًا وعيته، وإن سمعت بهما شرًّا أخفيته.

قال: فما شكر اليدين؟

قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقًّا لله ﷻ هو فيهما.

قال: فما شكر البطن؟

قال: أن يكون أسفله طعامًا، وأعلاه علمًا.

قال: فما شكر الفرج؟

قال: كما قال الله ﷻ: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾ [المؤمنون: ٦، ٧].

قال: فما شكر الرجلين؟

قال: إن رأيت حيًّا غبطته، استعملت بهما عمله، وإن رأيت ميتًا مقته، كففتهما عن عمله، وأنت شاكر الله ﷻ.

فأما من شكر بلسانه، و لم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء، فأخذ بطرفه، و لم يلبسه، فلم ينفعه ذاك من الحر والبرد والثلج والمطر[1].

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٦٤) باب في «تحديد نعم الله» (١٣٤/٤).

١- الشكر بالقلب:

ويكون بمحبة المنعم ﷻ، والانقياد له بالطاعة، إقرارًا وعرفانًا بنعمه.

٢- الشكر باللسان:

ويكون بالاعتراف بنعمة الله، واللهج بذكره وحمده، والتحدث بهذه النعم.

٣- الشكر بالجوارح:

كعمل اليدين والرجلين والسمع والبصر، كما أوضحنا في أثر أبي حازم فشكر نعمة المال - مثلاً - يكون بالإنفاق في سبيل الله.

قال بعض السلف: تمام الشكر بثلاثة أشياء:

أولها: إذا أعطاك الله شيئًا، فلتنظر من الذي أعطاك فتحمده عليه.

والثاني: أن ترضى بما أعطاك.

والثالث: مادامت منفعة ذلك الشيء معك، وقوته في جسدك فلا تعصه[1].

قال السري: من أدى الفرائض، واجتنب المحارم، وشكر النعمة عنده، فما عليه لأحد سبيل..

وقال: الشكر على ثلاثة أوجه:

شكر اللسان، وشكر البدن، وشكر القلب، فشكر القلب تعلم أن النعم كلها من الله ﷻ، وشكر البدن أن لا تستعمل جارحة من جوارحك إلا في طاعته، أن عافاه الله، وشكر اللسان دوام الحمد عليه[2].

ورحم الله القائل:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم.

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (٤٥٦٦).

فكـيف بلـوغ الشـكر إلا بفضـله وإن طالـت الأيـام واتصـل العمـر
إذا مـس بالسـراء عـمَّ سـرورها وإن مـس بالضـراء أعقـبها الأجـر
ومـا مـنهما إلا له فـيه مـنة تضـيق بهـا الوهـام والـبر والـبحر



مظاهر خُلق الشكر في حياة النبي ﷺ

لقد أشرنا إلى حال الأنبياء عليهم السلام في خُلق الشكر، فهم على الكمال والتمام فيه، بدلالة ثناء القرآن الكريم على بعضهم به، وأن هذا الثناء يعمهم جميعًا لما كانوا عليه من المعرفة لآلاء الله تعالى، والقيام بحق عبوديته قيامًا منقطع النظير..

ونبينا محمد ﷺ ممن يشمله هذا الثناء العاطر شمولاً أوليًا، لأنه كان على نهجهم، في كل كمال خُلقي، وسلوك رباني، ألم يأمره مولانا أن يقتدي بهم، ويسير على منوالهم ودربهم؟ قائلاً له:

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ومع كل هذا الكمال الأخلاقي، نجد أن الله ﷻ يسوق إليه توجيهًا ربانيًا، للثبات على خلق الشكر، فيقول له:

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر: ٦٦].

فقد كان صلوات ربي وتسليماته عليه من أعظم الناس شكرًا لله ﷻ، كان شاكرًا لإخوانه من الأنبياء، ولمن حوله من الصحب الكرام، بل لكل من أسدى إليه معروفًا من البشر..

أولاً: شكره لله ﷻ:

١- وتصور لنا السيدة عائشة – رضي الله عنها – هذا الشكر في أجل معانيه فتقول:

«كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر قدماه، فتقول له: يا رسول الله، أتصنع هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول لها: **«يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا!»**[1].

قال أبو بكر: في هذا دلالة على أنَّ الشكر لله ﷻ قد يكون بالعمل له، لأن الشكر

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

كله لله، وقد يكون باللسان، كما في قوله:

﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ ﴾ [سبأ: ١٣].

فأمرهم أن يعملوا له شكرًا، فالشكر قد يكون بالقول والعمل جميعًا، لا على ما يتوهمه العامة، أن الشكر يكون باللسان فقط.

٢- وفي رواية عنها - رضي الله عنها - قالت:

إنَّ نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فتقول له - رضي الله عنها - لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا**».

قالت: فلما كثر لحمه ﷺ صلى جالسًا، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع(١).

فانظر وتأمل أخي الحبيب إلى مبلغ شكره ﷺ لربه ومولاه على جزيل نعمائه عليه بغفران ما تقدم من ذنبه، وما تأخر.. ولما أشفق عليه أصحابه الكرام، وحاوروه في أن يخفف عن نفسه، ظنًّا منهم أن طول هذا العناء في القيام، إنما يكون طلبًا للمغفرة، وأن من تحققت له مغفرة ذنوبه، يكون غير محتاج إلى هذا الجهد في العبادة، وهذا العناء، فبين لهم، ووضح لهم، أن هناك طريقًا آخر للعبادة، وهو الشكر على المغفرة.. فقال: «**أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا**» ولم يرد أن يكون شاكرًا فقط، وإنما أراد أن يكون شكورًا - أي كثير الشكر لله ﷻ - ولقد كان شكره ﷺ لله بكل حواسه وجوارحه، شكرًا يليق بجلال نعمائه في كل حال من أحواله.

٣- كان يشكر مولاه بأن يخر ساجدًا شكرًا له على نعمائه، فعن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا جاءه أمرٌ يسره، أو بُشر به، خرَّ ساجدًا شكرًا لله تعالى(٢).

٤- وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ فاتبعته، حتى دخل نخلاً، فسجد، فأطال السجود، حتى خفت أو خشيت أن يكون قد توفاه الله، أو قبضه..

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه وأبو داود وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٠١).

قال: فجئت أنظر إليه، فلما انتهى من السجود، ورفع رأسه قال: «**مالك يا عبد الرحمن؟**» قال: فذكرت ذلك له.. فقال: «**إنَّ جبريل عليه السلام قال لي: ألا أبشرك؟ إن الله يقول لك: من صلى عليك، صليت عليه، ومن سلم عليك، سلمت عليه.. فسجدت لله شكرًا**»(١).

٥- وكان إذا أكل أو شرب حمد الله وشكره، كما أخبر عن نفسه، حين عرض عليه ربه، ليجعل له بطحاء مكة ذهبًا، فقال: «**لا، يا رب، ولكن أشبع يومًا، وأجوع يومًا، فإذا جعتُ تضرعت، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك**»(٢).

٦- وكان من شكره لله تعالى على طعامه أن يقول ما رواه عنه أبو أمامة رضي الله عنه كان إذا رُفعت المائدة قال: «**الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مكفي، ولا مودع، ولا مستغنًى عنه ربنا**»(٣).

٧- وكان يقول إذا فرغ من الطعام: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين**» وفي رواية : «**وسوغه وجعل له مخرجًا**»(٤) وفي رواية أخرى: «**من أكل طعامًا ثم قال: الحمد لله الذي أطعمنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»(٥).

٨- وكان يقول إذا لبس ثوبًا جديدًا: «**الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة**»(٦).

٩- وكان يقول إذا آوى إلى فراشه: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، وكم ممن لا كافي له، ولا مأوى**»(٧).

---

(١) صحيح: رواه أحمد والحاكم وصححه وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦٥٨).

(٢) حسن: رواه أحمد في «مسنده» والبيهقي في «الشعب» (١٠٤١٠)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٣٥)، كلهم من رواية أبي أمامة وفي إسناد الجميع علي بن يزيد ضعيف والحديث حسنه الترمذي برقم (٢٣٤٧).

(٣) صحيح: رواه البخاري وأبو داود والترمذي وأحمد.

(٤) صحيح: رواه الترمذي وأبو داود وصححه الألباني.

(٥) صحيح: رواه أبو داود (٤٠٢٣) وصححه الألباني.

(٦) صحيح: رواه أبو داود والترمذي وأحمد.

(٧) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» بإسناد صحيح.

ثانيًا: شكره لمن أسدى إليه معروفًا من البشر:

١- من الأنبياء:

ولقد كان من كمال شكره ﷺ أن يشكر الله تعالى حتى على النعم التي أولاها الله تعالى إخوانه الأنبياء، فكان يرى أن ذلك من نعمه تعالى عليه، وذلك لما بين النبيين من لُحمة العلاقة بينهم والتي عبر عنها بقوله ﷺ: «**الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**»(١). ومن مظاهر شكره على هذه النعمة:

١- صومه يوم عاشوراء، ذلك اليوم الذي نجى الله فيه موسى عليه السلام من عدوه فرعون، فماذا حدث؟ لما قدم رسول الله ﷺ المدينة رأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فسألهم قائلاً: «**ما هذا؟**» قالوا: هذا يوم عظيم، نجى الله فيه موسى، وأغرق آل فرعون، فصامه موسى شكرًا لله، فقال ﷺ: «**أنا أولى بموسى منكم**» فصامه وأمر بصيامه(٢).

٢- وكان ﷺ يومًا يقرأ بسورة (ص) حتى جاء عند قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ [ص: ٢٤] فخرَّ النبي ﷺ ساجدًا لله ﷻ، ثم قال: «**سجدها داود عليه السلام توبة، ونسجدها نحن شكرًا لله**»(٣).

ويبدو والله أعلم أن سبب هذه السجدة المباركة، ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، رأيتني وأنا نائم كأني كنت أصلي خلف شجرة، فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، وسمعتها وهي تقول: اللهمَّ اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك زخرًا، وتقبلها مني، كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - فقرأ النبي ﷺ - سجدة أي سورة (ص) - ثم سجد، وقال مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة(٤).

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٣) صحيح: رواه النسائي والدارقطني وصححه الألباني في «المشكاة» (١٠٣٨).

(٤) حسن: حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٤٢٤)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٠٥٣).

وهذا دليل على مكانة هذا الخلق العظيم في نفسه، بحيث أصبح الشكر لله تعالى مطلبًا له، وغاية.

ثانيًا: شكره لأصحابه وغيرهم:

١- وقد ظهر ذلك في تصرفاته وسلوكياته، ومن ذلك، شكره صنيع أبي بكر ﷺ في آخر حياته حين قال: «**إنَّ الله خَيَّر عبدًا بين الدنيا، وبين ما عنده، فاختار ما عند الله**» فبكى أبو بكر الصديق.. حتى قال له الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ: «**لا تبك يا أبا بكر**» ثم قال: «**إنَّ أمن الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً غير ربي، لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُد، إلا باب أبي بكر**»[1].

قال القرطبي: المراد أنَّ أبا بكر له من الحقوق ما لو كان لغيره نظيرها، لامتن بها.. وقد سدَّ رسول الله ﷺ الأبواب كلها الموصلة إلى مسجده المبارك، عدا باب أبي بكر الصديق ﷺ وهذا شكر له على صنيعهُ.

٢- وفي أسارى بدر من المشركين، قال ﷺ فيما رواه عنه جبير بن مطعم: «**لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له**»[2]. أي شكرًا له على صنيعه، لأنه أجار الرسول ﷺ في مكة يوم أن رجع الرسول ﷺ من الطائف ولم يجره أحدٌ من البشر إلا هذا الرجل..



(١) صحيح: رواه البخاري والترمذي وأحمد وابن حبان وابن أبي شيبة.

(٢) صحيح: رواه البخاري وأحمد وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٨٩)، و«صحيح الجامع» (٥٢٨٣)، و«المشكاة» (٣٩٦٥).

حث الرسول أمته على التخلق بالشكر

وقد حث مبعوث العناية الإلهية، وشمس الهداية الربانية أمته المباركة على خُلق الشكر بأقواله، فهو القائل:

١- لمعاذ بن جبل ﷺ: «**يا معاذ، إني لأحبك، أوصيك يا معاذ لا تدعن دُبر كل صلاة أن تقول: اللهمَّ أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»(١) وهو القائل:

٢- للرجل الذي جاء يستشيره في كون الناس يكنزون الأموال وغيرها فأرشده قائلاً: «**ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة**»(٢).

٣- وقال: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا الله له، حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»(٣).

٤- وقال: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، ويشرب الشربة، فيحمده عليها**»(٤).

٥- وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أعطى عطاء فوجد، فليجز به، فإن لم يجد، فليثنِ به، فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه، فقد كفره**»(٥).

٦- وعن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء**

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» والنسائي وصححه الألباني في «سنن أبي داود» و«صحيح الجامع» (٧٩٦٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٧٦)، و«صحيح الجامع» (٥٣٥٥)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٥٦).

(٣) صحيح: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٤٠٨)، عن ابن عمر (١٩٩/٨).

(٤) صحيح: رواه مسلم.

(٥) حسن: حسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٤٨١٣).

صبر فكان خيرًا له»[١].

٧- وقال: **«من أولى معروفًا فلم يجد له خيرًا إلا الثناء، فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بباطل، فهو كلابس ثوبي زور»[٢].**

علامات لمن يتحلى بهذا الخلق:

لقد بين سيد الشاكرين، وإمام المرسلين للأمة علامات يعرفون بها الشاكر من غيره ومنها:

١- شكر الناس على إحسانهم، لأن من كان ذو خلق رفيع، يكافئ الإحسان بالإحسان.. قال سبحانه: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] فإن لم يشكر من أحسن إليه، فهو من مولاه أشد جحدًا.. قال ﷺ مبينًا هذه الحقيقة: **«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[٣].**

٢- التحدث بنعم الله تعالى، لأن ذلك دليل على سروره ورضاه عن صاحب النعمة وهو الله ﷻ، بخلاف من لم يتحدث بذلك مع ما يرى عليه من النعم كان ذلك جحودًا منه للنعمة، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١]، وقال ﷺ: **«من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله ﷻ، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب..»[٤].**

٣- ظهور أثر النعمة على العبد لقوله ﷺ: **«إذا آتاك الله مالاً، فلير عليك، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنًا، ولا يحب البؤس ولا التباؤس»[٥].** وفي رواية أخرى: **«إن الله إذا أنعم على عبد نعمة، يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[٦].**

---

(١) صحيح: رواه مسلم وذكره الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٨٠).

(٢) صحيح: رواه ابن حبان والبخاري في «الأدب المفرد» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٠٥٦)، و«الصحيحة» (٦١٧).

(٣) صحيح: رواه الترمذي وقال: حديث صحيح، والبخاري في «الأدب المفرد» وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤١٦)، و«صحيح الجامع» (٦٥٤١).

(٤) حسن: رواه أحمد في «مسنده»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠١٤).

(٥) حسن: رواه البخاري في «التاريخ» والطبراني وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٥).

(٦) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» عن عمران بن حصين (١٧١٢)، ورواه الترمذي.

عقوبة ترك الشكر

إنّ من ترك خُلق الشكر، وفرط في التخلق بهذا الخلق المبارك، فإنه يعاقب بأمور كثيرة منها:

١- نقص الإيمان:

لأن الشكر نصف الإيمان، وزوال الشكر أو نقصانه ينافي كمال الإيمان، ولذا يوصف تارك الشكر بالكفر، لذا لما أنعم الله على سليمان عليه السلام بنعم كثيرة قال:

﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠].

والمراد بالكفر هنا: كفر النعمة.

٢- رفع النعمة ونزول العقوبة:

فكم من بلاد كانت عامرة بالخيرات، فلما جحد أهلها النعم أزالها الله منهم..

قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل: ١١٢].

قال أهل العلم: لا تزال كل قرية في أمن الله، ما أقامت فروض الله، وما نهت عن المعاصي التي تغضب الله ﷻ، فإذا انحرفت أخذها الله كما يأخذ الظالم، ثم لا يفلتها..

فهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للأمم والشعوب يوم تنحرف.. يوم تنحرف عن منهج الله ﷻ.. يوم تترك طرق المساجد، وتميل إلى الخمّارات.. يوم تترك سماع كتاب الله ﷻ، وتميل إلى سماع الأغاني.

يوم تعكف وتسهر على الأفلام، وعلى الأغاني الماجنة..

يوم تُرخص قيمها ودينها ومبادئها وأخلاقها وسنة نبيها ماذا يصنع الله بها؟ يدمر شبابها، ويبتلي نساءها، فتبقى أمة مظلومة مهضومة متأخرة:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الطلاق: ٨- ١٠].

عذابًا شديدًا في الآخرة، فما كفاها عذاب الدنيا بل أعد الله سبحانه وتعالى لها الخزي والعار والدمار والنار، لأنها كفرت بأنعم الله، وانحرفت عن منهجه وقال سبحانه عن قرى سبأ والتي كانت فيها الأرزاق رغدًا:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ ﴾ [سبأ: ١٥].

كانت مليئة بالحدائق والبساتين، من بين أيديها ومن خلفها أنواع الثمرات، لهم سدٌّ عظيم يختزن المياه الكثيرة.. النعم كانت مغدقة عليهم.. سماؤهم مليئة بالغيوم، لا شمس لديهم تغرقهم، وثمارهم يانعة يقطفونها.. حتى قال الأئمة كابن كثير - رحمه الله - :

كانت المرأة تمر بزمبيلها فيمتلئ مما يتساقط من الأشجار، يشربون ماءً باردًا، يتظللون في ظل وارف، ينعمون في معيشة هادئة ساكنة.. لكن لما كفروا بنعمة ربهم و لم يشكروها، بل جحدوها وأنكروها وتمردوا عليها فماذا فعل الله بهم؟

﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝ ﴾ [سبأ: ١٦، ١٧].

كفروا نعمة ربهم، ورفضوا إخراج زكاة أموالهم، ورفضوا أن يتصدقوا على الفقراء قائلين: ربنا باعد بيننا وبين أسفارنا.. أي اجعل بيننا وبين هذه القرى مسافات حتى لا يأتينا فقير، ولا مسكين، ولا طالب حاجة، فماذا فعل الله ﷻ بهم؟

هل حاربهم بطائرات، أو بجيوش جرارة، أو بدبابات مصفحة! لا والله بل أرسل الله عليهم فأرًا صغيرًا، فنحت في سدهم « سد مأرب » فسقط السد، فاجتاحتهم المياه، فدمّر قُراهم، وبيوتهم بعضها على بعض، واجتاح أشجارهم وأعنابهم، ونخيلهم، ومزارعهم، فبقوا حدثًا بعد عين لكل معتبر..

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾ [سبأ: ١٩].

ولذلك قالوا لرجل من البرامكة الوزراء، لما سُجنوا في عهد هارون الرشيد: لماذا سُجنتم وذهبت دنياكم؟ لماذا أخذت قصوركم؟ لماذا جُلدت ظهوركم؟

فدمعت عينا خالد البرمكي، وقال: بغينا وطغينا، ونسينا الله، وسرت دعوة مظلوم في جنح الليل، فسمعها الله، والناس عنها هجود.

ومروا برجل مقعد قد نهشته الأمراض، وأصابته الأوصاب، وهو في حالة مزرية، لا يستطيع حراكًا، ولا قيامًا، ولا يستطيع أن يمد يده، فقالوا: ما لك؟ قال: كنت في صحة وعافية، وقوة لا يعلمها إلا الله، كنت إذا سمعت النداء أتباطأ، فيقال لي: اتق الله ﷻ وتعالَّ إلى بيوت الله، وأقم فرائض الله، فكنت أقول لهؤلاء، وماذا يصيبني إن لم أفعل؟ فابتلاني الله بهذا المرض.. فاحذروا نزول العذاب.

يقول أبو هريرة ﷺ: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرت سحابة، فقال: «**أتدرون ما هذه؟**» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**العنان وروايا الأرض، يسوقه الله إلى من لا يشكره من عباده**»(١).

فيا من أنعم الله عليه بنعمة الشباب، فما حفظه إلا بحفظ الله تعالى.. ويا من أنعم الله عليه بالمال، احفظ الله فيه..

ويا من أنعم الله عليه بجاه أو بمنصب أو بولد، إن كنت تريد المحافظة على ذلك، فاحفظ الله ﷻ وإلا فانتظر الزوال والنكبة إن عاجلاً أو آجلاً.

قال أبو سليمان الداراني - رحمه الله - : والله إني لأعصى الله عز جل في الليل فأجد ذلك في النهار.

وقالوا لبعض أهل العلم: نحن ما نجد الجزاء في النهار، جربنا أن نعصي الله ﷻ في الليل كثيرًا فلا نجده في النهار؟!

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» وصححه حمزة الزين.

قال: إنكم أكثرتم من الذنوب فما تعلمون من أين تأتون؟

أخي الحبيب:

ما آتاك الله من نعمة فواجبك أن تشكرها بثلاث مقاصد:

١- أن تردد على لسانك «الحمد لله» فإنها تملئ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض.. ويعجب ربك إذا قال العبد: الحمد لله وأول ما يدخل الجنة: الحمّادون لربهم، في السراء والضراء.

ضاع فرس لجعفر الصادق - رحمه الله - فقال: والله لأن ظفرت بفرسي لأحمدن الله تعالى بمحامد ما حمده بها إلا أولياءه وأحبابه.. فلما وجد الفرس، قال: «الحمد لله» فقال أبناؤه: أين المحامد؟ قال: وهل أبقت الحمد بمحامد بعدها، ولذلك قال ﷻ:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١].

البس ثوبك، وقل: الحمد لله..

وكل طعامك، وقل: الحمد لله..

وقم من نومك، وقل: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.. وكل ما لمع لك لامع من النعمة فقل الحمد لله..

قال عبد بن أبي نوح: قال لي رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره، فعاملك بما تحب؟!

قلت: ما أحصي ذلك كثرة.. قال: فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك؟ قلت: لا والله، ولكنه أحسن إليّ وأعانني.

قل: فهل سألته فلم يعطكه؟ قلت: وهل منعني شيئًا سألته؟!

ما سألته شيئًا قط إلا أعطاني، ولا استعنت به إلا أعانني، قال: أرأيت لو أن بعض بني آدم فعل بك هذه الخلال، ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء.

قال: فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره، وهو المحسن إليك قديمًا

وحديثًا.. والله لشكره أيسر من مكافأة عباده فهلا قلت: «الحمد لله خالصًا من قلبك، فإنه سبحانه رضي من العباد بالحمد شكرًا».

فيا رب:

أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد

وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد وأنا الغريب الذي وصيته فلك الحمد

وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد

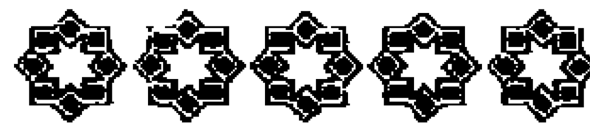
وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد

وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد لك الحمد حمدًا كثيرًا يا رب العالمين

ويا إلهي..

يا من كلما أنعمت عليَّ نعمة قلَّ عندها شُكري، وكلما ابتليتني ببلية قلَّ عندها صبري..

فيا من قلَّ شُكري عند نعمته فلم يخذلني، ويا من قلَّ عند بلائه صبري فلم يعاقبني.. ويا من رآني على المعاصي فلم يفضحني.. اكشف ضري، واغفر ذنبي، وأصلح شأني، ورضني وارض عني، وارفع درجتي، بفضلك وكرمك يا رب العالمين..



البابُ الثالث

الأخلاق السلوكية

وفيه فصلان:

الفصل الأول: الأخلاق السلوكية الذاتية.

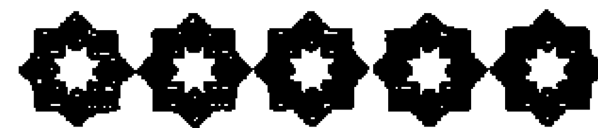
الفصل الثاني: الأخلاق السلوكية المتعدية.

الفصل الأول

في الأخلاق السلوكية الذاتية

وفيه مباحث:

- الصدق.
- الصبر.
- التواضع.
- الحياء.
- الزهد.



المبحث الأول

خُلق الصدق

فما هو الصدق ؟

الصدق في اللغة:

الصدق مصدر قولهم: صَدَقَ، يَصْدُق، صدقًا، وهو نقيض الكذب، يُقال: صدقهُ الحديث: أنبأه بالصدق، وصَدَقْتُ القوم: قلتُ لهم صدقًا، ورجلٌ صدوق، أبلغ من الصادق، والصدِّيق: الدائم الصدق والذي يُصدِّق قوله فعله(١).

والصِّديقون المذكورون في قوله جل في علاه:

﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

جمع صِدِّيق، وهو المبالغ في الصدق، أو التصديق، أو هو الذي يحقق بفعله ما يقوله بلسانه، وقيل: هم فضلاء أتباع الأنبياء الذين يسبقون إلى تصديقهم كأبي بكر ﷺ.

جاء في «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» أن الصدق اسم لحقيقة الشيء حصولاً ووجودًا، والصدق هو حصول الشيء وتمامه، وكمال قوته، واجتماع أجزائه، كما يُقال: عزيمة صادقة، إذا كانت قوية تامة ثابتة الحقيقة لم ينقض منها شيء..

أما في الشرع: فقد اختلفت عبارات العلماء فيها:

قال الراغب: الصدق مطابقة القول، الضمير والمخبر عنه معًا، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقًا تامًا (٢).

---

(١) «المفردات» للراغب (٢٧٧) بتصرف.

(٢) المرجع السابق.

وقال الجرجاني: مطابقة الحكم للواقع، وهذا هو ضد الكذب(١).

وقال الجنيد: حقيقة الصدق، أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب.

وقيل: استواء السر والعلانية.

وقال الخواص: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه، أو فضل يعمل فيه.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الصدق، الوفاء لله بالعمل.

وقيل: الصدق، القول بالحق في مواطن الهلكة.

وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه(٢).

وقال القشيري: الصدق، أن لا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب، ولا في أعمالك عيب.

منزلة الصدق بين الأخلاق:

الصدق أصل أصيل من أصول الأخلاق، وخلة من أهم الخلال، وهو من أهم الفضائل التي تقوم عليها المجتمعات، بل هو ضرورة من ضرورياته، فلولاه ما قامت شريعة، ولا استنارت سبيل الهداية، ولا قام صرح الحضارة، ولا خلدت العلوم والمعارف، ولفسد المجتمع الإنساني من أساسه.

وحسب الصدق من العظمة أن اتصف به الرب تبارك وتعالى، فليس في الوجود كله، من هو أصدق من الله تعالى وعدًا، ولا حديثًا، ولا قولاً، قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧].

وقال: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢] لا أحد.

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]. فليس هناك أصدق من الله قولاً، ولا حديثًا، ولا وعدًا، ولا أدل على ذلك من القرآن الكريم، الذي

---

(١) «التعريفات» للجرجاني (ص ١٣٢).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٢٦٢).

أوحى به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ إذ هو آية الآيات على صدق الله ﷻ في كل كلمه، ولفظه، ومعانيه، وموضوعاته، وأساليبه، وأهدافه، وغاياته، وسائر مجالاته.. قال تعالى:

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

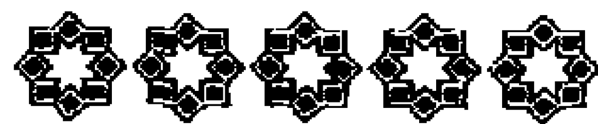
والصدق من أعظم المنازل، وهو الطريق الأقوم، وهو روح الأعمال..

يقول **الإمام ابن القيم** عن منزلة الصدق:

وهي منزلة القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان.. وسكان الجنان من سكان النيران، وهو سيف الله في أرضه، الذي ما وُضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه.. من نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة(١).

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، فقال جل في علاه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩].

ووصف به النبي في قوله: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٢٢].



(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٥٧).

الصدق في القرآن الكريم

وقد أمر الله ﷻ أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، كما أنّه سبحانه قد خصص المنْعَم عليهم بالنبيين، والصديقين والشهداء والصالحين، فقال سبحانه:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩].

فهم أهل الرفيق الأعلى، ولا يزال الله تعالى يمدهم بنعمه وألطافه، ويزيدهم إحسانًا منه وتوفيقًا، كما أن لهم مزية المعية من الله ﷻ فإنه سبحانه مع الصادقين، وقد أثنى عليهم بأحسن أعمالهم من الإيمان، والصدقة، والصبر، وبأنهم أهل الصدق، فقال:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ إلى أن قال جل في علاه: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقسم سبحانه الناس إلى قسمين: صادقين ومنافقين، فقال سبحانه:

﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

والإيمان مبناه الأصلي، وأساسه الصدق، والنفاق مبناه وأصله الكذب، فلا يجتمع إيمان وكذب، إلا وأحدهما يُحارب الآخر.

كما أن الله تباركت أسماؤه، وتنزهت عن الأغيار صفاته أخبر أنّه في القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، فقال تعالى:

﴿ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩]

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يجعل مدخله ومخرجه الصدق، فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٠].

وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه سأله أن يجعل له لسان صدق في الآخرين فقال: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤].

وبشر عباده الصادقين بأن لهم قدم صدق عند ربهم، فقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢].

وبشر المتقين بمقعد صدق فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، ومقعد الصدق، وقدم الصدق، فما حقيقتها؟

١- **لسان الصدق**: فهو الثناء الحسن من سائر الأمم بالصدق، وليس بالكذب، كما قال الله عن بعض أنبيائه: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٠].

٢- **قدم الصدق**: ففسره العلماء بالجنة، وفُسر بمحمد ﷺ، وفُسِّر بالأعمال الصالحة، وحقيقة القدم: ما قدموه، وما يقدمون عليه القيامة، وهم قدموا الأعمال، والإيمان بمحمد ﷺ، ويُقدمون على الجنة، ومن فسره بالأعمال وبالنبي فلأنهم قدموها، وقدموا الإيمان به بين أيديهم.

٣- **وأما مقعد الصدق**: فهو الجنة عند ربهم تبارك وتعالى.

٤- **مدخل الصدق، ومخرج الصدق**: فالمراد أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا لله تعالى ومرضاته، متصلاً بالظفر ببغيته، وحصول المطلوب، وهو ضدُّ مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، فمدخله ﷺ المدينة، كان مدخل صدق، ومخرج الصدق كخروجه هو وأصحابه يوم بدر.



الصدق حلية الأنبياء

أخا الإسلام:

الصدق حلية الأنبياء، وزينة الأتقياء، ولقد وصف الله تبارك وتعالى أنبياءه بالصدق في كتابه العزيز، فقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم: ٤١].

وقال عن إدريس: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ [مريم: ٥٦].

وقال عن إسماعيل: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم: ٥٤].

وقال عن كليمه موسى عليه السلام: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٠٥] أي الصدق.

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف: ٤٦]، وقال في وصفه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ٥١].

وقال في حق حبيبنا وأستاذنا ومخرجنا من الظلمات إلى النور سيدنا محمد ﷺ:

﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقال: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر: ٣٢، ٣٣].

فالصدق واجب في حقهم، لأنهم لو كذبوا في دعواهم الرسالة، أو فيما يوحى الله به إليهم، أو أن ينسبوا إليه ما لم يوح به، للزم الكذب في خبره سبحانه وتعالى، لأنه سبحانه صدقهم بمثل تلك الآيات المتلوة، وبالآيات الحسية، وهي المعجزات الكثيرة، التي أيدهم بها، وهي بمنزلة قوله جل في علاه لهم: «إنَّ رسولي صادق في قوله، بدليل تأييدي له بالمعجزات التي لا يقدر عليها أحد سواي» أو «صدق عبدي فيما يبلغ عني».

فلو كانوا كاذبين لكان الكذب منصبًا على ما أتوا به من المعجزات، والكذب في خبر الله تعالى مُحال، لأن خبره تعالى، إما أن يكون على وفق علمه، وإذا كان على وفق علمه لا يكون إلا صدقًا، فخبره لا يكون إلا صدقًا، فدل ذلك على استحالة الكذب عليهم، ودل على ثبوته لهم.

وما ورد بخلاف ذلك فيؤوله العلماء مثل حديث:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لم يكذب إبراهيم عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار، ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إنّ هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك..**»[1].

قال العلماء:

كان إبراهيم عليه السلام يقصد من قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ الإشارة إلى السبب الرئيسي لعدم شعوره بالراحة، فقد كانت الأصنام مصدر حزنه وسقمه.. شعر بأنه ما لم يهدم هذه الأصنام ويكسرها، فلن يجد طعمًا للراحة وعندما قال لمن حوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ظنوه مريضًا من الناحية الجسدية، فتولوا عنه، إذ كانوا يُصرون على اصطحابه معهم لمشاركتهم في الاحتفال بالأصنام قال صاحب فتح الباري: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أي سأسقم، أو إني سقيم بما قُدر عليَّ من الموت، أو سقيم الحجة على الخروج معكم.

وأما قوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

قال القرطبي: هذا ما قاله تمهيدًا للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة، وقطعًا لقومه في قولهم: إنها تضر وتنفع.

وكان هذا من باب السخرية والاستهزاء بعقول الكافرين، لكن عقولهم كانت مشبعة بفكرة الأصنام، إلى درجة لم يفهموا معها سخريته هذه ..

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم.

وأما الثالثة فقوله: «أختي»:

فلا توجد فيها ذرة من الكذب، لأنها بالفعل أخته في الإسلام، كما في الحديث، فلو قال أنها زوجته ثم تزوجها – أو اغتصبها – فكان هذا الملك إذا علم أن لها زوجًا قتله..

وما قاله إبراهيم عليه السلام مطابق للحقيقة، لأن جميع المؤمنين إخوة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] والإيمان هو الرباط الأول، الذي يربط الإنسان بالآخرين.

ما ورد عن رسول الله ﷺ ما ظاهره يوهم عدم الصدق:

ما ورد في «صحيح مسلم» وغيره من حديث موسى بن طلحة عن أبيه، قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رءوس النخل، فقال: **«ما يصنع هؤلاء؟»** فقالوا: يلقحونه – يجعلون الذكر في الأنثى، فيلقح.

فقال ﷺ: **«ما أظن يغني ذلك شيئًا»** قال: فأخبروا بذلك، فتركوه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: **«إن كان ينفعهم ذلك، فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنًّا، فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا، فخذوا به، فإني لن أكذب على الله ﷻ »**[(١)].

وفي رواية أخرى: لما قدم النبي ﷺ إلى المدينة، وهم يؤبرون النخل فقال: **«ما تصنعون؟»** قالوا: كنا نصنعه قال: **«لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا»** فتركوه، فنفضت، أو نقصت، وفي رواية فشاصت[(٢)].

فذكروا له ذلك، فقال: **«إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم، فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي، فإنما أنا بشر»**[(٣)].

وفي رواية: أنه قال لهم: **«ما لنخلكم؟»** قالوا: قلت: كذا وكذا، قال: **«أنتم أعلم بأمر دنياكم»**[(٤)].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٦١)، وابن ماجه (٢٤٧٠)، وأحمد (١٣٩٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٦٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم والطبراني في «الكبير» (٤٤٢٤).

(٤) صحيح: رواه مسلم في «كتاب الفضائل» [باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا].

وأجيب عن هذا بأنه من قبيل الإنشاء، لأن المعنى كان في رجاء ذلك والإنشاء لا يتصف بصدق، ولا كذب، وعدم وقوع المترجي لا يُعد نقصًا..

قال النووي: قال العلماء: لم يكن هذا القول خبرًا، وإنما كان ظنًّا منه، كما بينت الروايات.. قالوا: ورأيه في أمور المعايش، وظنه كغيره - أي من البشر - فلا يمتنع وقوع مثل هذا، وسببه تعلق همهم بالآخرة ومعارفها[1].



(١) «صحيح مسلم» بشرح النووي. ط. دار الفجر.

مظاهر الصدق في حياة الرسول ﷺ

أخي المسلم:

يقول الإمام ابن القيم: لقد كان ﷺ محفوظ اللسان من تحريف في قول، واسترسال في خبر يكون إلى الكذب منسوبًا، وللصدق مجانبًا.. وكانت قريش تعرف كلها عنه ذلك، ولو حفظوا عليه كذبة نادرة في غير الرسالة، ومن لزم الصدق في صغره، كان له في الكبر ألزم، ومن عُصم منه في حق نفسه كان في حقوق الله أعصم..

فهيا بنا لنقف مع مظاهر صدق رسول الله ﷺ في أقواله، وأفعال، بل وفي حياته كلها..

١- فقد شهدت قريش له بأنه الصادق الأمين.. والفضل ما شهدت به الأعداء، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتفت: يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «**أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيَّ؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»[1].

وفي رواية، قال لهم: «**أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ؟**» قال: ما جربنا عليك كذبًا قط، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذابٌ شديد**».

فقد اعترفوا جميعًا بأنه صادق، وما جربوا عليه كذبًا قبل ذلك، و لم يعثروا على ما يناقض هذا الخلق العظيم منه ﷺ رغم أنهم بذلوا كل جهدهم، ومع ذلك لم ينالوا من صدقه وأمانته وعفافه..

٢- لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة، إنَّ محمدًا ابن أختكم، فأنتم أحق من كف عنه، فقفوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم - أبو جهل - فإن

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

غلب محمدًا رجعتم سالمين، وإن غُلب محمد، فإن قومكم لا يصنعون بكم شيئًا، فالتقى مع أبي جهل، وخلا به الأخنس، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحدٌ غيري وغيرك يسمع كلامنا!

فقال أبو جهل: ويحك، والله إنَّ محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟

فأنزل الله قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] بآيات الله محمد ﷺ[١].

وروى هناد بن السرى أن جبريل عليه السلام، جاء إلى النبي ﷺ ذات يوم وهو جالس حزين، فقال له: ما يحزنك؟

فقال: «**كذبني هؤلاء**» فقال له جبريل عليه السلام: إنهم لا يكذبونك، هم يعلمون أنك صادق، وأنزل الله الآية.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: قد نعلم يا محمد! أنك تصل الرحم، وتصدق الحديث، ولا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله عز وجل قوله[٢]: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

٣- وهذا هو أبو سفيان بن حرب، وكان من ألد أعداء النبي ﷺ، قبل إسلامه يوم الفتح، ومع هذا شهد بصدقه عندما أرسل إليه هرقل، وذهب إليه، ودعاه هو ومن معه إلى مجلسه، وكان حوله عظماء الروم، ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسبًا، فقال: ادنوه، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائله عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه..

---

(١) «تفسير البغوي» (١/١٣٩)، وابن كثير (٢/١٧٦)، والطبري (٥/١٧٥).

(٢) صحيح: رواه الحاكم (٣٢٣٠)، وقال: صحيح على شرط مسلم والبخاري ولم يخرجاه (٢/٣١٥)، ورواه الترمذي (٥٠٥٨)، وصححه الألباني.

ثم كان أول ما سألني عنه: أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلتُ: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قط قبله؟ قلتُ: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلتُ: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلتُ: بل ضعفاؤهم.

قال: أفيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحدٌ منهم سُخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلتُ: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما يقول؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة، لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال أبو سفيان: و لم تمكني كلمة أدخل فيه شيئًا غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلتُ: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلتُ : الحربُ بيننا وبينه سجال، ينال منا، وننال منه.

قال: فماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده لا شريك له، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة!

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟

فذكرت: لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسى بقولٍ قيل قبله، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟

فذكرت أنه لا.. قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب مُلكَ أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت، أن لا؛ فقلت: أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله... [1].

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وابن حبان والطبراني في «الكبير».

أخي الحبيب:

فقد اعترف أبو سفيان بصدق الرسول ﷺ وأنه يأمر بالصدق، وذكر أنه لم يكذب قبل ذلك..

٤- وها هو النضر بن الحارث، وكان ممن يناصب العداء لرسول الله ﷺ وكان مما بالغ في إيذاء الرسول ﷺ يقول:

«يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما ابتليتم بمثله، لقد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم عقلاً، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم: ساحر؟ لا والله، ما هو بساحر، قد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم: كاهن؟ لا والله، ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وحالهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر؟ لا والله، ما هو بشاعر، لقد سمعنا الشعر، وعرفنا أصنافه كلها: هزجه وقريضه، وقلتم: مجنون؟ لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، ثم قال لهم: يا معشر قريش، انظروا في شأنكم، فإنَّه والله قد نزل به أمر عظيم»(١).

يا سبحان الله!

إن هؤلاء لو كشفوا ما ران عن قلوبهم من حجب العناد والضلال، والحرص على منافع الدنيا وشهواتها، لأيقنوا أنه ﷺ يدعوهم إلى الحق، والخير، ولكنهم عموا عن هذا كله، وعموا عن البينات الدالة على صدق الرسول.

٥- إنَّ السيدة خديجة - رضي الله عنها - لم تجد ما تهدئ به روعه، حين أتاها خائفًا من غار حراء، ساعة أن نزل عليه جبريل عليه السلام لأول مرة، إلا أن تقول له: «والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»(٢).

---

(١) القصة رواها ابن هشام في «السيرة» (٢/٣٨) مع الروض الأنف والبيهقي في «الدلائل» (٢/٢٠١).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري وغيره.

صدق الرسول فيما أخبر به من المغيبات

أخي المسلم:

١- كان رسول الله ﷺ يتكلم عن الأنبياء والمرسلين، ويصفهم ويصف ملامح وجوههم، حتى كأنه رسام يرسم اللوحات، وكان أهل الكتاب في زمانه يصدقون كلامه ووصفه، ولا يعترضون عليه، ويقولون: «أجل، هذه هي أوصافهم، كما جاءت في كُتبنا».

أوليس هذا دليلاً قاطعًا لصدق نبوة رجل يصف جميع الأنبياء والرسل السابقين وصفًا دقيقًا، يوافق عليه أهل العلم آنذاك، وأهل الاختصاص دون أن يقرأ كتابًا واحدًا من الكتبِ السابقة، كالتوراة والإنجيل.

٢- وعن عمر بن الخطاب ﷺ يقول: يحدثنا رسول الله عن أهل بدر فقال: «إنَّ رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: «**هذا مصرع فلانٍ غدًا إن شاء الله**»، قال: ويضع يده على الأرض ههنا وههنا، فوالذي بعثه بالحق، ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ»(١).

وفي رواية: «فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ» أجل، فهؤلاء الكفار الذين لم يؤمنوا به في حياقم، كانت أجسادهم الآن وجثثهم تنطق بشهادة صدقه ﷺ.. ذلك لأنه كان يخبر، ثم يتحقق ذلك الخبر بحذافيره.

٣- وينقل لنا الإمام أحمد في «مسنده» وغيره الحادثة التالية:

قال جرير: لما دنوت من المدينة، أنخت راحلتي، ثم حللت عيبتيَ، ثم لبست حلّتي، ثم دخلتُ، فإذا رسول الله ﷺ يخطب، فرماني الناس بالحدق، فقلت لجليسي، يا عبد الله، أذكرني رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم ذكرك آنفًا بأحسن ذكر، فبينما هو يخطب إذا عُرِض له في خطبته فقال: «**يدخل عليكم من هذا الباب، أو من هذا الفجّ من خير ذي يمن، ألا**

---

(١) صحيح: رواه مسلم في «كتاب الجهاد والسير باب غزوة بدر»، والنسائي في «الجنائز».

وإنّ على وجهه مسحة ملك» فحمدت الله على ما أبلاني(١).

٤- وينقل ابن كثير في «البداية والنهاية»، والبيهقي في «دلائل النبوة» الحادثة التالية: رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون عقبه فقال أبو سفيان بينه وبين نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال؟ فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب بيده على صدره، فقال: «**إذن يخزيك الله**»، فقال: أتوب إلى الله، وأستغفر..

وفي رواية: أن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالسًا، فقال في نفسه: لو جمعت لمحمد جمعًا؟ فإنه ليحدث نفسه بذلك، إذ ضرب رسول الله بين كتفيه، وقال: «**إذن يخزيك الله**» قال: فرفع رأسه، فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسه، فقال: «ما أيقنتُ أنك نبي حتى الساعة»(٢).

٥- وعن عروة قال: ولما رجع المشركون إلى مكة من غزوة بدر الكبرى، أقبل صفوان بن أمية في الحجر، فقال: قبح الله العيش بعد قتلى بدر.. فقال عمير: أجل والله ما في العيش خير بعد، ولولا دَينٌ عليَّ، لا أجد له قضاء، وعيال ورائي، لا أجد لهم شيئًا، لدخلت على محمد فقتلته إن ملأت عيني منه، فإن لي عندهم علة.. ففرح صفوان بقوله، فقال: عليَّ دينك، وعيالك أسوة عيالي في النفقة.. فحمّله صفوان وجهزه بسيفه بعد أن صقله وسممه، وقال عمير لصفوان: اكتمني ليالي، فأقبل عمير حتى قدم المدينة، فنزل باب المسجد، وعقل راحلته، وأخذ السيف لرسول الله ﷺ فنظر إليه عمر بن الخطاب، ومعه نفر من الأنصار، فلما رأى عمر، عمير بن وهب، فزع وقال: عندكم الكلب، هذا عدو الله الذي حرش بيننا، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: هذا عمير بن وهب، قد دخل المسجد، ومعه السلاح، وهو الفاجر الغادر، لا تأمنه يا رسول الله، فقال ﷺ: «**أدخله عليَّ**» فدخل عمر وعمير، وأمر أصحابه أن يدخلوا على رسول الله، ثم يحترسوا من عمير إذا دخل عليهم، فدخل عمير ومعه عمر،

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» وابن حبان في «صحيحه» (٧١٩٩)، والحاكم والطبراني في «الكبير» (٢٢٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد».

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (١٠٢/٥)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٣٤٨/٤).

فقال رسول الله لعمر: «تأخر عنه»، فلما دنا منه حياه عُمير، قائلاً: أنعم صباحًا يا محمد، وهي تحية أهل الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: **«قد أكرمنا الله ﷻ عن تحيتك، وجعل تحيتنا السلام، وهي تحية أهل الجنة»**.

فقال عمير: إنَّ عهدك بها لحديث: فقال رسول الله ﷺ: **«قد بدلنا الله خيرًا منها، فما الذي جاء بك يا عمير؟»** قال: قدمت في أسيري عندكم...

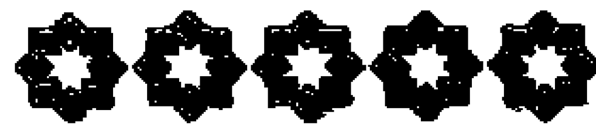
فقال رسول الله ﷺ: **«فما بال السيف في رقبتك»** فقال عمير: قبحها الله من سيوف فهل أغنت عنا من شيء؟!

فقال رسول الله ﷺ: **«أصدقني ما أقدمك؟»** قال: ما قدمت إلا لهذا الأسير.

فقال رسول الله: **«فما شرطت لصفوان بن أمية الجمحي في الحجر؟»** ففزع عمير وقال: وماذا اشترطت له؟ قال: **«تحملت له بقتلي، على أن يعول بنيك ويقضي دينك، والله حائل بينك وبين هذا»**.

الله أكبر..

فقال عمير بن وهب: أشهد أنك رسول الله فوالله إن هذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم أنه ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.. فقال رسول الله ﷺ: **«فقهوا أخاكم في دينه، وأقرءوه القرآن، وأطلقوا له أسيره»**[1].



---

(١) صحيح مرسل: رواه الطبراني في «الكبير» (١١٨)، وقال الهيثمي في «المجمع»: أخرجه الطبراني عن أنس ورجاله رجال الصحيح من حديث عروة بن الزبير.

صدقه في الأخبار المستقبلة وتحقيق نبوءته

١- ها هي السيدة عائشة - رضي الله عنها - تروي ذكرياتها عن الأيام الأخيرة من حياة الرسول ﷺ قالت: كنَّ أزواج النبي عنده لم يغادر منهن واحدة، فأقبلت فاطمة تمشي، ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله ﷺ فلما رآها رحّب بها، فقال: «**مرحبًا بابنتي**»، ثم أجلسها عن يمينه[1].. قالت عائشة - رضي الله عنها - فسارّها بشيء فبكت ثم دعاها فسارَّها بشيء فضحكت، فسألناها عن ذلك، فقالت: سارني النبي أنه يُقبض في وجعه الذي توفّي، فبكيت، ثم سارَّني، فأخبرني أني أول أهل بيته يتبعه، فضحكتُ[2].

فكأنها في بكائها كانت تصف حالها بعد وفاة والدها:

ماذا على مَنْ شَمّ تربة أحمدا ... ألا يشمّ مدى الزمان غواليًا
صُبتْ على مصائب لو أنها ... صُبتْ على الأيام عُدن لياليا[3]

وبعد ستة أشهر من وفاته لحقتْ به فاطمة، وكانت وفاتها تصديقًا لنبوة أبيها رسول الله ﷺ[4].

٢- صعد ﷺ المنبر يومًا، فجاء الحسن بن علي رضي الله عنه فقال لأصحابه - رضوان الله عليهم - : «**إنَّ ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»[5].

وعندما أخبر النبي ﷺ بذلك كان الحسن طفلاً صغيرًا، وربما لم يفهم مراد الرسول ﷺ ولا ما أشار إليه، فماذا حدث؟

كان الحسن حليمًا وفاضلاً ورعًا، دعاه ورعه إلى أن يترك الملك رغبة فيما عند الله،

---

(١) صحيح: رواه البخاري في «الاستئذان»، ومسلم وابن ماجه.
(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم.
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٣٤/٢)، وابن ماجه وأحمد.
(٤) صحيح: روه البخاري ومسلم وأحمد.
(٥) صحيح: رواه البخاري والترمذي وأبو داود وأحمد والنسائي.

لا لقلة، ولا لعلة، فإنه لما قُتل عليٌّ رضي الله عنه بايعه أكثر من أربعين ألفًا، فصار خليفة بالعراق، وما وراءها من خراسان ستة أشهر وأيام، ثم سار إلى معاوية في أهل الحجاز، وسار إليه معاوية في أهل الشام، فلما التقى الجمعان، بمنزل من أرض الكوفة، وأرسل إليه معاوية في الصلح، فأجابه على شروط منها - أن يكون له الأمر بعد وأن يكون له من المال ما يكفيه في كل عام، كذا في «السراج المنير».

أجل.. إنه كريم ابن كريم، وحفيد لسيد الكرماء، وعندما أصبح خليفة ذات يوم تخلى عنها، وعن السلطة، حتى لا يكون سببًا في التفرقة بين أمة الإسلام، وأثبت بذلك أنه سيد، وابن سيد، وقد مرَّ على صدق نبوءة رسول الله ﷺ بهذا الحادث ما يقرب من ثلاثين سنة.

٣- ويروي عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه فيقول: وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي، فقال: «**يعيشُ هذا الغلام قرنًا**»، فعاش مائة سنة، وكان في وجهه ثؤلول، فقال: «**لا يموت حتى يذهب الثؤلول**»(١).

يقول الصحابة: إنه عاش مائة سنة، وذهب الثؤلول عن وجهه.

٤- لما كان يحفر أصحابه - رضوان الله عليهم- الخندق، صعبت عليهم صخرة عظيمة وشكوا إليه أن المعاول لا تأخذ فيها، فنزل إليها، وقال: «**بسم الله**» وضرب ضربة، فكسر ثلثها، وقال: «**الله أكبر، أعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله**» ثم ضرب الثانية، فقطع ثلثًا آخر، فقال: «**الله أكبر، أعطيتُ مفاتيح فارس، والله، إني لأبصر قصر المدائن الأبيض من مكاني هذا**» ثم ضرب الثالثة، فقطع بقية الحجر، فقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة**»(٢).

ولم تمض إلا بضع سنوات حتى فتح الله تعالى بسيوف سعد بن أبي وقاص، وخالد بن

---

(١) حسن: رواه الحاكم (٨٥٢٥) وسكت عنه، والهيثمي في «المجمع» (٤٠٤/٩).

(٢) حسن: رواه أحمد في «مسنده» (١٨٦٠٠) بإسناد حسن (٢٤٤/١٤)، ورواه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٨٥٨).

الوليد، وغيرهما من كبار القوّاد، وكان هذا دليلاً على صدقه، وتحقق كلام الرسول ﷺ كيف لا، وقد قال عن البراء بن عازب ﷺ وهو راوي هذا الحديث المبارك: «... **لو أقسم على الله تعالى لأبرّه**»[1].

فهل يُعطي الله هذا الصحابي تلك الميزة، ولا يعطيها لرسول الله ﷺ؟

٥- روى عَدِيّ بن حاتم ﷺ قال:

بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجلٌ، فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر، فشكا قطع السبيل، فقال ﷺ: «**يا عديّ! هل رأيت الحيرة؟**» قلت: لم أرها، وقد أنبئتُ عنها، قال: «**فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله**».

قلت: فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّار طيِّيء الذين قد سَعّروا البلاد؟

قال: «**ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى**».

قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «**كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحدًا يقبله منه**» إلى أن يقول: «فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «**يخرج ملء كفه..**»[2].

لم ير عدي تحقق النبوة الثالثة، ولكن جاء اليوم الذي تحققت فيه أيضًا، وصدقت نبوءة الرسول الأعظم، والصادق المصدوق ﷺ ففي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، أصبح هذا الأمر واقعًا ملموسًا، حيث كان توزيع الثروة عادلاً ومنظمًا إلى درجة أنه لم يبق فيها فقير واحد.. ولا نبالغ إن قلنا بأن مستوى الحياة الحالية في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي دول الغرب، أقل بكثير من مستوى الحياة آنذاك في تلك الدولة.

---

(١) حسن: رواه الترمذي في «المناقب».

(٢) صحيح: رواه البخاري في «كتاب المناقب - باب علامات النبوة»، ورواه ال (١٠٢٦٣)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦١٤)، و«الكبير» (١٦٩).

هذا علاوة على أن نظام توزيع الثروات في هذه الأمم غير عادل، وغير متوازن، إلى جانب ذلك تجد فئة غنية وموسرة ومرهفة جدًّا، نجد الطبقات الفقيرة التي تعيش ظروف حياة قاسية..

٦- ومن الأخبار بالمغيبات، وقد صدقها الواقع «شهادته لعمّار بن ياسر»:

كان المسلمون منهمكين ببناء المسجد النبوي .. الكل يعمل.. فمنهم من يصنعُ اللبن - أي الطوب المصنوع من الطين - ومنهم من ينقلها، ومنهم من يبني، وكان الصادق المصدوق ﷺ يعمل معهم، فمرَّ به عمَّار بن ياسر وهو يعمل معهم - لكنه كان يحمل لبنتين - بينما الباقون يحملون لبنة واحدة - فقال له رسول الله ﷺ: **«ما دأبك إلى هذا؟»** قال: يا رسول الله، أريد الأجر، فجعل رسول الله يمسح التراب عن ظهره ومنكبيه، وهو يقول له: **«ويحك يا عمار، تقتلك الفئة الباغية»**(١).

وفي رواية: **«أبشر! تقتلك الفئة الباغية»**(٢).

في معركة صفين كان عمار ﷺ في صف عليٍّ بن أبي طالب ﷺ واستشهد فيها، وَعَدّ أصحاب عليٍّ هذه الشهادة دليلاً على أن الطرف الآخر فئة باغية(٣).

إن كل قطرة من دمائه سقطت على أرض المعركة كانت تقول: «صدقت يا رسول الله ﷺ».

٧- كانت أم حرام بنت ملحان خالة رسول الله ﷺ بالرضاعة، كما في بعض الروايات، وفي رواية: أنها قريبة أمه، فكان رسول الله ﷺ يزورها من حين لآخر، وقد يستريح عندها، وفي إحدى المرات استراح عندها رسول الله، ثم استيقظ، وهو يضحك، فقالت له متسائلة: ما يضحكك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي؟ قال: **«رأيت قومًا من أمتي يركبون ظهر البحر، كالملوك على الأسرة»** فقلت: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: **«فإنك منهم»**.

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري في «الصلاة»، ومسلم في «الفتن وأشراط الساعة».

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي في «المناقب» (٣٨٠٠)، وقال: حسن صحيح غريب، ورواه الحاكم (٢٦٥٢).

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٢٩٦/٧).

قالت: ثم نام فاستيقظ أيضًا وهو يضحك، فسألته، فقال: مثل مقالته، فقلت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أنت من الأولين**».

قال أنس - وهي خالته -: فتزوجها عُبادة بن الصامت بعد ذلك، فغزا في البحر فحملها معه، فلما انصرفوا من غزوهم، نزلوا بالشام، فقربت لها بغلة فركبتها، فصرعتها، فاندقت عنقها[١].

قال الإمام النووي:

فيه معجزات للنبي ﷺ منها: إخباره ببقاء أمته بعده، وأنه تكون لهم شوكة وقوة وعدد، وأنهم يغزون البحر، وأن أم حرام تعيش إلى ذلك الزمان، وأنها تكون معهم، وقد وُجد بحمد الله تعالى كل ذلك[٢].

نعم، لقد خرجت مع زوجها عُبادة بن الصامت ﷺ حين ركب المسلمون البحر إلى قبرص، لقد صدقت الأيام والحوادث قوله بكل دقة.

٨- وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ بما يحدث في عصرنا هذا، وصدقه الواقع في أيامنا هذه.. قال ﷺ: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» قالوا: أومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء، كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**» فقال قائل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا، وكراهة الموت**»[٣].

كان الأعداء يخشوننا قبل ذلك، لأننا كنا لا نخشى الموت مثلهم، بل كنا نقبل عليه فرحين مستصغرين الدنيا، ونراها لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، ودليل ذلك ما قاله عبد الله بن جحش يوم أُحُد، فقال: يا رب، إذا لقيت العدو غدًا، فلقني رجلاً شديدًا بأسه، شديدًا حرده، أقاتله فيك، ويقاتلني، ثم يأخذني، فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا

(١) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم في «الإمارة- فضل الغزو في البحر»، وابن حبان وأحمد وأبو يعلى.

(٢) «صحيح مسلم» بشرح النووي (٧/٥٩).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» وأبو داود وصححه الألباني برقم (٤٢٩٧)، والصحيحة (٩٥٨)، و«المشكاة» (٥٣٦٩).

قلت: يا عبد الله، من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقتك. قال سعد: فقد لقيته آخر النهار، وإنَّ أذنه، وأنفه لمعلقتان في خيط[(١)].

أمثل هذا الرجل كانت الدنيا في ذهنه، أو في فكره؟!

أمثل هذا البطل كان يحب الدنيا؟! بالطبع لا.. لا.. لا.

أين مثل البطل المقدام عمير بن الحمام ﷺ حين قال في غزوة أُحُد: بخ بخ! فسأله الرسول: «**ما يحملك على قولك: بخ بخ؟**» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**» فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن حييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم، حتى قُتل[(٢)].

أيوجد بيننا الآن مثل هذا الأعرابي البطل..

ففي غزوة خيبر أو حنين، لما غنم الرسول ﷺ فقسم له، وأمر أصحابه أن يدفعوه إلى الأعرابي، فقال لهم متسائلاً: ما هذا؟ قالوا: قسمٌ لك رسول الله، فأخذه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أُرمَى هاهنا – وأشار إلى حلقه بسهم – فأموت، وأدخل الجنة.

فقال ﷺ: «**إن تصدق الله يصدقك**» فقاتل، فأصابه سهم حيث أشار، فقُتل، فقال النبي ﷺ: «**صدق الله فصدقه**»[(٣)].

أكان مثل هذا الأعرابي يخشى الموت مثلنا؟! أمثل هذا كان يحب الدنيا؟!

لقد أصبحنا الآن نخشى الموت، ونحب الحياة الدنيا، ونتعلق بها أكثر منهم، وهم يعرفون ضعفنا هذا، ويستغلونه أبشع استغلال.

ولقد أصبحت الأمة الآن كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ قصعة مستباحة لأحقر

---

(١) صحيح مرسل: رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه، ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح: رواه مسلم في «الإمارة».

(٣) صحيح: رواه الحاكم (٩٥٢٧)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٦٥٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥٩١٧)، والطبراني في «الكبير» (٧١٠٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٣٦).

الأمم في الأرض، وأذل أمم الأرض، إخوان القردة والخنازير، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لقد أصبحت الأمة الآن غثاء من النفايات البشرية تعيش على ضفاف مجرى الحياة الإنسانية، وأصدق شاهد على ذلك ما نراه الآن في العراق ومن قبلها فلسطين، ولا ندري على من تدور الدائرة..

٩- ومن صدقه ﷺ فيما أخبر به وصدقه الواقع: عدم التوازن في أيامنا الحالية حيث قال:

«إنَّ بين يدي الساعة: تسليم الخاصة، وفشو التجارة، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور القلم»[١].

يصف الحديث الشريف أيامنا الحالية، وصفًا لا يحتاج إلى تأويل أو تفسير، ستروج التجارة إلى درجة أن مقادير هائلة من رءوس الأموال بالملايين، بل المليارات من الدولارات تستخدم فيها، إذ أن الملايين تُصرف في الإعلانات وحدها وغالبها يستخدم فيه المرأة لترويج هذه السلعة، وأحيانًا تكون المرأة شريكة مباشرة في التجارة، فتنزل إلى الأسواق، وإلى المعارض... وقُطعت الأرحام، وانتشرت شهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهر القلم أي التأليف في كل المجالات، وانتشر العلم في المدارس والجامعات، وصدقت نبوءة خير البريات، وسيد الكائنات ﷺ .

١٠- ومن ذلك: اتباع أهل الكتاب: أخبرنا ﷺ وهو الصادق المصدوق بأن العالم الإسلامي سيقوم بتقليد الأمم السابقة - أي اليهود والنصارى - حتى لو أن واحدًا منهم أدخل رأسه في جحر ضب لفعل مثله المسلمون، ويشرح ذلك بكلماته البديعة الصادقة، فيقول: **«لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم»** قلنا: يا رسول الله آليهود والنصارى؟ قال: **«فمن؟»**[٢].

لقد فقدنا شخصيتنا إلا من رحم ربي، وبدأنا نئن تحت أزمات فقدان الهوية، وأصبح المسلمون أشبه بالغنم الحائرة بين قطيعين... قلدنا الغرب في معاملاتهم، وفي ثيابهم وفي كل أمورهم وأحوالهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) صحيح: رواه الحاكم وأحمد في «مسنده»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٤٧)، وفي «الأدب المفرد» (٨٠٥).

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

حضه على الصدق وتحذيره من الكذب

أخي المسلم:

وكما حث القرآن الكريم على التحلي بصفة الصدق، والتخلي عن الكذب، ففي سنة الصادق المصدوق ﷺ ما يشير إلى التحلي بهذا الخلق العظيم، والتخلي عن ضده:

١- بينت أنَّ الصدق طريق الأبرار، الأخيار، إلى الجنة، قال ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإنَّ الصدق يهدي إلى البر، وإنّ البر يهدي إلى الجنة، وإنَّ الرجل ليصدق، حتى يكتب عند الله صدِّيقًا، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب، حتى يُكتب عند الله كذابًا**»(١).

٢- الصدق طريق موصلة إلى حب الله ﷻ، قال الصادق المصدوق ﷺ: «**إنْ أردتم أن يحبكم الله تعالى، فأدوا إذا ائتمنتم، واصدقوا إذا حدثتم، واحسنوا جوار من جاوركم**»(٢).

٣- إذا ضمنت أن لسانك لا ينطق إلا الصدق، فقد ضمن لك أصدق الناس قولاً، دار الصدق، حيث قال: «**اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا عاهدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم**»(٣).

٤- إذا كان الإنسان المسلم صادقًا مع الله، وصادقًا مع الناس، فلا يبالي بعد ذلك. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدق حديث، وحفظ أمانة، وحسن خليقة، وعفة في طعمة**»(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم والبخاري في «الأدب المفرد»، وابن حبان وأبو داود والترمذي وأحمد في «مسنده»، والبيهقي في «الشعب».

(٢) **حسن**: رواه الطبراني وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٠٩)، و«صحيح الترغيب» (٢٩٢٨).

(٣) **حسن**: رواه أحمد في «مسنده»، وابن حبان والبيهقي والحاكم وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٠١٨)، و «صحيح الترغيب» (٢٩٩٣).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» وصححه الشيخ أحمد شاكر برقم (٦٦٥٢)، وحسنه المنذري في «الترغيب» (٥٨٩/٣)، ورواه الحاكم والبيهقي في «الشعب» (٤٨٠)، و«الصمت» لابن أبي الدنيا.

٥- الصدق يُطمئن النفس، ويريح العقل، بخلاف الكذب، قال أعظم من تكلم فصدق: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»**(١).

٦- الصدق يُبارك بسببه للتاجر في تجارته، وللشركاء في شركتهم، بخلاف الكذب، فإنه ماحق للبركة.. قال ﷺ: **«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا، بورك لهما في بيعهما، وإن كتما مُحقت بركة بيعهما»**(٢).

٧- وإذا كان الصدق من أحب الأخلاق إلى رسول الله ﷺ فقد كان الكذب من أبغض الأخلاق إليه، قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها - : «ما كان خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب»(٣).

٨- ولذلك أمرنا رسول الله ﷺ أن نعود ونربي عليه أبناءنا وشبابنا، قال عبد الله بن عامر ﷺ: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا، وأنا صبيٌّ صغير، فذهبتُ لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله، تعالَ أعطيك، فقال ﷺ: **«وما أردت أن تعطيه؟»** قالت: تمرًا، فقال: **«أما إنك لو لم تفعلي، لكتبت عليك كذبة»**(٤).

٩- الصدق من علامات أهل الإيمان، بخلاف الكذب، قال ﷺ: **«لا يبلغ العبد صريح الإيمان، حتى يدع المزاح والكذب، ويدع المراء وإن كان محقًّا»**(٥).

وعن أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء، وإن كان محقًّا، وبيت في وسط الجنة، لمن ترك الكذب، وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»**(٦).

---

(١) صحيح: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح ورواه الحاكم (٧٠٤٦)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠١٩٣)، والطبراني في «الصغير» (٢٨٥)، والنسائي وصححه الألباني.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢) وأحمد.

(٣) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٥٢)، و«صحيح الجامع» (٤٦١٨)، و«صحيح الترغيب» (٢٩٤١).

(٤) صحيح: رواه البيهقي في «الشعب» (٤٨٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٥) صحيح لغيره: ذكره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٢٩٤٠).

(٦) صحيح: ذكره الألباني في «الصحيحة» برقم (٢٧٣)، و«صحيح سنن أبي داود» (٤٨٠٠)، و«صحيح الجامع» برقم (١٤٦٤).

١٠- كثرة الكذب من علامات قُرب الساعة، قال ﷺ: **«لا تقوم الساعة، حتى تظهر الفتن، ويكثر الكذب»**(١).

١١- جعل الكذب من أخلاق المنافقين، قال ﷺ: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»**(٢).

١٢- بيَّن رسول الله ﷺ أن عقوبة الكذب يُجعل الله بها في الدنيا، وله عقوبة أخرى يوم القيامة.. فعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: **«ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من: قطيعة الرحم، والخيانة، والكذب»**(٣).



(١) صحيح: «الصحيحة» للألباني (٢٧٧٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري وأحمد وغيرهما.

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٠٥)، و«صحيح الأدب المفرد».

مواطن يجوز فيها الكذب

وقد أباح لنا الصادق المصدوق ﷺ في بعض الأمور الكذب، وهي محددة في أحاديثه ﷺ ففي السنة الصحيحة:

«رخص رسول الله ﷺ من الكذب في ثلاث: في الحرب، وفي الإصلاح بين الناس، وقول الرجل لامرأته»(١).

وقال لبعض أصحابه: «**لا جناح عليك**» يعني في الكذب على الزوجة، تطييبًا لخاطرها.

وقال ﷺ: «**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرًا ويقول خيرًا**»(٢).

أخي الحبيب:

كن صادقًا في أقوالك، وفي أفعالك، كن صادقًا مع ربك، مع أبنائك، مع أهلك، مع جيرانك.. فالصدق يرفع المرء في الدارين، واحذر الكذب فإنه يهوي بصاحبه في الحالين.. واعلم أن كل شيء يُستعار ليتجمل به يسهل وجوده عدا اللسان، فإنه لا ينبئ إلا عما عودته..

عـوّد لسـانك قـول الصدق تحظ به ... إن اللسـان لمـا عَـوّدت معـتاد

موكـل بتقاضـي مـا سـننت له ... فاختـر لنفسـك وانظـر كـيف ترتاد

جعلني الله وإياكم من الصادقين، وجنبنا الكذب، وموارد الظالمين، إنه على ما يشاء قدير.



---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود وأحمد في «مسنده» والطبراني في «الصغير».

(٢) **صحيح**: صححه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٧٩)، ورواه البخاري ومسلم وابن حبان وأحمد في «مسنده».

المبحث الثاني

الصبر

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

يـــا صـــاحب الهـــم إنَّ الهـــم منفرج
أبشـــــر بقـــــرب فـــــإن الفـــــارج الله

الـــــيأس يقطـــــع أحـــــيانًا بصـــــاحبه
لا تيأســـــــن فـــــإن الكـــــافي الله

إذا بُليـــــت فـــــثق بـــــالله وارض بـــــه
فـــإن الـــذي يكشـــف الـــبلوى هو الله

الله يُحـــدث بعـــد العســـر ميســـرة
لا تجـــزعن فـــإن الصـــانع الله

والله مـــا لـــك غـــير الله مـــن أحـــد
فحســـبك الله في كـــل لـــك الله

«الصبر جماع الأمر، ونظام الحزم، ودعامة العقل، وبذر الخير، وحيلة من لا حيلة له»

ابن حبان البستي.



خُلق الصبر

الصبر لغة: الحبس والكف.. ومنه: قُتل فلانٌ صبرًا، إذا أُمسك وحبس ، ومنه ورد قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] أي احبس نفسك معهم.

ويُقال: صبرت نفسي على هذا الأمر أي حبستها.

والتصبر: تكلف الصبر.

وفي الاصطلاح: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

وقيل: هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله إلا إلى الله، لأن الله أثنى على أيوب عليه السلام بالصبر بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤].

وقيل: هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقال رويم: الصبر ترك الشكوى.

وقيل: هو الثبات مع الله، وتلقي بلاءه بالرحب والدعة.

وقال الخواص: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة..

وقيل: الاستعانة بالله[1].

وقيل:

الصـــبر مـــثل اسمـــه مـــرٌ مذاقـــته   لكـــن عواقـــبه أحـــلى مـــن العســـل

قال الفيروزآبادي: وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه:

فإن كان حبس النفس لمصيبة: سمي صبرًا..

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/١٥٦، ١٥٧).

وإن كان في محاربة: سمي شجاعة.

وإن كان في إمساك الكلام: سُمّي كتمانًا.

وإن كان عن شهوة الفرج: سُمي عفة.

وإن كان عن فضول العيش: سُمي زهدًا..

وإن كان عن شهوة طعام: سُمّي شرف نفس.

وإن كان عن إجابة داعي الغضب: سُمي حلمًا.

لذلك كانت منزلة الصبر عظيمة(١).

مكانة هذا الخُلق في الأخلاق السلوكية:

فهو خلق فاضل من أخلاق النفس يُمتنع به من فعل ما لا يحسن، ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها.

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولهذا قال عليٌّ رضي الله عنه: «ألا إنَّ الصبر من الإيمان، بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته، فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له».

ولهذا ذكر الصبر في القرآن الكريم في نحو تسعين موضعًا، فهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

فضائل الصبر:

وللصبر فضائل متعددة منها:

١- أنه سبحانه وتعالى أوجب محبته لهم، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

٢- إيجاب معيته لهم، وهي معية خاصة، تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

---

(١) «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» للفيروزآبادي (٣/٣٨٣).

٣- إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، قال تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦].

٤- ضمان النصر والمدد والتأييد لهم، قال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

٥- إيجاب الجزاء لهم بغير حساب، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

٦- أن الصبر يورث أصحابه الإمامة في الدين: قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - : بالصبر واليقين، تُنال الإمامة في الدين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ١٢٤].

٧- الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروب، ودخول الجنة إنما يُنال بالصبر، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإنسان: ١٢]، وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٥].

٨- أثنى الله تعالى عليهم، ومدحهم، وبشرهم، فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

فتأمل عظم هذا الجزاء الذي دلت عليه هذه الآية، فقد رتب على الصبر ثلاثة أمور عظيمة:

أولها: صلوات الله تعالى عليهم التي تعني التزكية والمغفرة، و لم تكن واحدة، بل صلوات، صلاة بعد صلاة.

ثانيها: الرحمة التي تعني اللطف والإحسان.

ثالثها: أنهم مهتدون، أي إلى الحق والصواب، وهذا إخبار من الله ﷻ في إثبات الهداية لهم بأسلوب القصر الحقيقي، ومن أثبت الله له الهداية فلن يضل أبدًا.

فترى أن الله تعالى قد رتب على الصبر ثلاث جزاءات، كل واحد أعظم من الآخر، ولذلك كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: نعم العدلان، ونعمت العلاوة، ويعني بالعدلين: الصلوات والرحمة، والعلاوة: إثبات الهداية[1].

٩- وقد ناط بالصبر النصر على الأعداء، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

١٠- وناط به الحفظ من كيد الأعداء، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وهذا كله في الدنيا، وهو كافٍ لأن يكون حافزًا لأهل الإيمان على أن يتحلوا به، ويتمسكوا بهذه الفضيلة العظيمة..



(١) «شعب الإيمان» للبيهقي (١٥٨٧).

خُلق الصبر في حياة الرسول الأعظم

لقد كانت حياة الحبيب المصطفى، والرسول المجتبى ﷺ حافلة بالصبر، مليئة بالابتلاءات التي مرت به في مراحل حياته في مكة والمدينة، وعلى الرغم من ذلك يثبت بإيمانه وعقيدته، التي تناطح كواكب الجوزاء.. فينصره الله تعالى، ويعلي قدره، ويرفع ذكره، ويُمكن له في الأرض، ولأصحابه، ولأتباعه من بعده..

وها هي قطرات من فيض صبره ﷺ:

١- صبره على أذى الكفار:

١- لقد ظل الحبيب المصطفى ﷺ في مكة المكرمة طيلة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله تعالى، وإلى عبادته وحده لا شريك له، ظل فيها ثلاث سنوات سرًّا، ولما أمره الله تعالى أن يجهر بدعوته.. فماذا حدث؟

صعد رسول الله ﷺ على جبل الصفا، ونادى بأعلى صوته قائلاً: «**واصباحاه! واصباحاه!**» فهزَّ صوته جنبات وادي مكة، فأقبل الناس من كل صوب، حتى امتلأت ساحة الصفا، فأقبل عليهم مناديًا: «**يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا قط، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، انقذوا أنفسكم من النار**»[1]. فقام عمه أبو لهب، فقال: تبًّا لك يا محمد، ألهذا دعوتنا؟ .. وليتهم انصرفوا دون أن يؤمن منهم أحد.. أو انصرفوا بسلام، ولكنهم تعرضوا له بالسب والسخرية، والاستهزاء.. ورغم هذا قابل الأمر بالصبر والثبات التي تنوء به الجبال الرواسي.. فماذا كان ردُ السماء؟

لقد نزل جبريل الأمين على سيد النبيين ﷺ بقرآن يُتلى إلى يوم القيامة: ﴿ تَبَّتْ

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري في «كتاب التفسير- باب وأنذر عشيرتك الأقربين»، ومسلم في «كتاب الإيمان باب - وأنذر عشيرتك..» وابن حبان (٦٥٥٠)، وأحمد في «مسنده» والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٨٢٢٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨١٩).

يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝ ﴾ [المسد: ١ - ٥].

٢- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم، فجاء به، فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أغني شيئًا، لو كانت لي منعة.

قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعضهم، ورسول الله ﷺ ساجدٌ لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة — رضي الله عنها — فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاث مرات، فشق عليهم.. قال ابن مسعود: وكانوا يرون أنَّ الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سَمَّى: «**اللهمَّ عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط**»[1].

وعدَّ السابع فلم نحفظه، قال: فوالذي نفسي بيده، لقد رأيتُ الذي عدَّهم رسول الله ﷺ صرعى في القَليب، قُليب بدر.

٣- وعن عروة بن الزبير قال: سألتُ ابن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال:

بينما النبي ﷺ يُصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه على عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا.

فأقبل أبو بكر ﷺ حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[2] [غافر: ٢٨].

فما أحلمك يا رسول الله، وما أعظمك وأعظم صبرك على سفهاء قومك.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في «الفضائل»، ومسلم في «الجهاد» وابن حبان (٦٥٧٠)، وابن خزيمة وأحمد في «مسنده»، وأبو يعلى (٣٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٧٦٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٦٦٨).

(٢) صحيح: رواه البخاري في «الفضائل»، وابن حبان والحاكم وأحمد في «مسنده»، وأبو يعلى والطبراني.

٤- وعن أنس ﷺ أنَّ النبي ﷺ كُسرت رباعيته يوم أُحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت - أي يمسح - الدم عن وجهه ويقول: «**كيف يُفلح قومٌ شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟!**» فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[1] [آل عمران: ١٢٨].

٥- وعن الحارث بن الحارث ﷺ قال: قلت لأبي: ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء القوم اجتمعوا على صابئ لهم.. قال: فنزلنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو إلى توحيد الله ﷻ، والإيمان، وهم يردون عليه حتى انتصف النهار، وانصدع الناس عنه، أقبلت امرأة قد بدا نحرها، تحمل قدحًا ومنديلاً، فتناوله منها، فشرب وتوضأ، ثم رفع رأسه، فقال: «**يا بنية، خمِّري عليك نحرك، ولا تخافي على أبيك**» قلنا: من هذه؟ قالوا: هذه زينب، ابنته[2].

٢- صبره في الدعوة:

١- عن ربيعة بن عباد قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «**يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضئ الوجه، أحول، ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب[3].

٢- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لقد أوذيت في الله، وما يؤذى أحد، وأخفت في الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة، ومالي ولبلال ﷺ ما يأكل ذو كبد، إلا ما يوري إبط بلال**» .

---

(١) صحيح: رواه البخاري في «كتاب المغازي»، ومسلم في «الجهاد»، والترمذي وابن ماجه وأحمد في «مسنده»، وأبو يعلى وابن أبي شيبة والنسائي في «الكبرى».

(٢) رجاله ثقات: رواه الطبراني في «الكبير» (٣٣٧٣)، وقال: الهيثمي في «المجمع» (٢٤/٦)، رجاله ثقات وعزاه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٢٧٥/١) إلى البخاري في «التاريخ» والبغوي.

(٣) صحيح: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٢)، وابن خزيمة (١٥٩)، والحاكم في «المستدرك» (٦٢١٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه أحمد في «مسنده» (١٦٥٥٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٥٩)، والدارقطني (١٨٦)، والطبراني في «الكبير» (٨٠٦).

٣- وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ لبث عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة وعكاظ ومنازلهم في منى، يقول: «**من يؤويني؟ ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي، فله الجنة**».

فلا يجد أحدًا ينصره، ولا يؤويه، حتى إنَّ الرجل يرحل من مصر أو اليمن إلى ذي رحمه، فيأتيه قومه، فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتننك، ويمشي ﷺ بين رجالهم يدعوهم إلى الله ﷻ، ويشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله من يثرب، فيأتيه الرجل منّا، فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، وبعثنا الله إليه فائتمرنا واجتمعنا وقلنا: حتى متى رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويخاف[1]؟!

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرض أبو طالب، فجاءته قريش وجاءه النبي ﷺ فشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال: «**إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم العرب وتؤدي لهم العجم الجزية**» قال: كلمة واحدة؟ قال: «**كلمة واحدة**»، قال: «**يا عم يقولوا: لا إله إلا الله**» .. فقالوا: إلهًا واحدًا ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق.. قال: فنزل فيهم قرآن: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ ﴾ [ص: ١ - ٧][2].

٥- ولما ظل ﷺ في مكة ولم يجد ثمرة من دعوته، خرج إلى الطائف لعله يجد هناك أرضًا صالحة يبذر فيها بذرة التوحيد، لتؤتي ثمارها.. فماذا حدث؟

لما انتهى إلى الطائف ومعه غلامه زيد بن حارثة، عمد إلى ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، فدعاهم إلى الله تعالى، وإلى عبادته سبحانه وتعالى، وإلى نصرة الإسلام، فقال له

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٤٢٥١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأحمد في «مسنده»، والبيهقي في «سننه الكبرى» (١٧٠٢٣).

(٢) حسن: رواه ابن حبان (٦٦٨٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٠٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٩١٦٠)، والحاكم وصححه (٣٦١٨)، وحسنه الألباني في «سنن الترمذي» (٣٢٣٢).

أحدهم: أما وجد الله أحدًا غيرك؟ وقال الثاني: هو يمرط (يمزق) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.. وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولاً، لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك، فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «**إذ فعلتم، ما فعلتم، فاكتموا عني**».

لكنهم ما استجابوا لذلك، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه، ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس صفين يرمونه بالحجارة، حتى أدموا قدميه، ولم يزالوا به حتى ألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فرفع برقية عاجلة إلى رافع السماء بلا عمد، فماذا قال فيها:

«**اللهمّ أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت ربُ المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهَّمُني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكنَّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**»(١).

وهكذا عانى رسول الله ﷺ من قومه الشدة والأذى، وهو رسول الله حقًّا وهو أكرم عند الله تعالى من أن ينال مثل هذه القسوة والفظاظة، والغلظة، غير أنه صبر على ذلك كله طوعًا في ذات الله تعالى..

٦- ولما ضاق كفار مكة ذرعًا برسول الله ﷺ وبدعوته، وعزموا على قتله، أذن الله لرسوله محمد ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة وخرج رسول الله ﷺ من أحب بلاد الله إلى الله، وأحبها إلى قلبه، خرج مضطرًّا صابرًا وهو يقول: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجتُ منك ما خرجت**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١٧٢/٢)، وابن جرير الطبري (٨٢/٢) والطبراني في «الدعاء» برقم (١٠٣٦)، وأعله الهيثمي في «المجمع» (٣٨/٦) لأجل ابن إسحاق، لكن المقرر عند أهل العلم أن ابن إسحاق ثقة في «المغازي والسير» وإن كان ضعيفًا فيما دون ذلك..

(٢) **صحيح**: رواه ابن حبان (٣٧٠٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٢٥٣)، والطبراني في «الأوسط» (٤٥٧)، والحاكم (٤٢٧٠)، وقال: صحيح الإسناد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٨٩) وصحيح «سنن ابن ماجه» (٣١٠٨)، والترمذي (٣٩٢٥)، والدارمي (٢٤١٥) وأحمد.

٣- صبره على الفقر:

صبر على ضيق العيش.. وصبر على الجوع، وهو الذي لو شاء نالت كفه، كل ما فوق البسيطة أجمعًا.. لو شاء أن يسير جبل الصفا معه ذهبًا لفعل.. ولكنه رضى بأن يجوع يومًا فيصبر، ويشبع يومًا فيشكر، وكأني به ﷺ يومًا وقد أتى فاطمة ابنته - رضي الله عنها - فقال لها: «**أين ابناي؟**» يعني حسنًا وحسينًا - رضي الله عنهما - قالت: أصبحنا، وليس في بيتنا شيء يذوقه ذائق، فقال عليٌّ: أذهب بهما، فإني أتخوف أن يبكيا عليك، وليس عندي شيء.. فذهب إلى فلان اليهودي.. فماذا فعل رسول الله ﷺ؟

لقد خرج إليهما، فوجدهما يلعبان في شَرَبة - حوض حول النخلة - بين أيديهما فضل من تمر، فقال: «**يا علي، ألا تقلب** - أي تذهب بهما- **ابني قبل أن يشتد الحر؟**» قال: أصبحنا وليس في بيتنا شيء، فلو جلست يا رسول الله، حتى أجمع لفاطمة فضلٌ من تمر! فجمع وجعله في خرقة، ثم أقبل، فحمل النبي ﷺ أحدهما، وعليٌّ حمل الآخر[(١)]..

بأبي أنت وأمي يا رسول الله .. تصبر على هذا الجوع، وأنت من أنت.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. يقول عنك أنس:

« لم يأكل النبي ﷺ على خُوانٍ حتى مات، وما أكل خبزًا مرققًا حتى مات»[(٢)].

وأم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - تقول :

«ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين، حتى قُبض رسول الله ﷺ »[(٣)].

وكانت تقول: « كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارًا، إنما هو التمر والماء.. »[(٤)].

وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يصبرون على الجوع، وهذا هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول:

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٤٠)، وذكره الكاندهلوي (١/٢٩٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري.

(٣) صحيح: رواه مسلم.

(٤) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

«إني لأول رجل رمى بسهم في الإسلام، ولقد كنَّا نغزو مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الحُبلة، وهذا السمر، حتى إن كان أحدنا ليضع كما تضع الشاة، ما له خلط»(١). أي لا يختلط بعضه ببعضه لجفافه ويُبسه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الجوع في وجوه أصحابه، فقال: «**أبشروا فإنه سيأتي عليكم زمان يُغدى على أحدكم بالقصعة من الثريد، ويُراح عليه بمثلها**».

قالوا: يا رسول الله، نحن يومئذ خير، قال: «**بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ**»(٢).

بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. لقد أخبرت بالمغيب، ووقع كما أخبرت، وكأنك كنت ترى ذلك من وراء حجاب.

وها هو جابر بن عبد الله رضي الله عنه يحدثنا عن موقف من مواقف صبرهم على ألم الجوع، فيقول: كنّا يوم الخندق نحفر، فعرضتْ لنا كدية شديدة فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عُرضت في الخندق، فقام ونزل إليها، وبطنه معصوب بحجر - لشدة جوعه - ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا(٣).

ويذكر موقفًا آخر، فيقول:

بعثنا رسول الله ﷺ وأمَّر علينا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه نتلقى عيرًا لقريش، وزوّدنا جرابًا من تمر، لم نجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة.

قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: كنّا نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنّا نضرب بعصينا الخبط - أي الورق الساقط - ثم نبله بالماء، فنأكله(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم وأحمد والدارمي وابن حبان والبيهقي في «الكبرى».

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه البزار برقم (١٩٤١) (٥/٣٢٣)، والمنذري في «الترغيب» وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (٢١٤١): صحيح لغيره وبرقم (٣٣٠٨).

(٣) **صحيح**: رواه البخاري في «كتاب المغازي» باب غزوة الخندق (٣٨٧٥).

(٤) **صحيح**: رواه مسلم في «كتاب الصيد والذبائح- باب إباحة ميتات البحر» والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٩٤٨٦)، والنسائي (٤٣٦٥)، مجتبى والألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٤).

فصلوات ربي وتسليماته عليك يا رسول الله ورضي الله على أصحابك الذين صبروا معك على دين الله، ولأجل الله.

٤- صبره ﷺ على جراح الألسنة:

وجراح الألسنة أشد على النفس من جراح الأسنة، فقد كانت الألسنة آنذاك تقوم مقام الإذاعة، ووسائل الإعلام، كالصحف والمجلات في مجتمعنا المعاصر.

ورغم أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ويعرفون أنه موسوم بينهم بالعقل والحكمة، والصدق، والأمانة، والعفة، ولا يتهمونه بنقيصة من النقائص ولكنه العناد والاستكبار، والخصومة الحمقاء، فيتهمونه تارة بالجنون وهو سيد العقلاء، فيقولون كما حكى القرآن عنهم: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر: ٦].

وتارة يتهمونه بأنه شاعر، والقرآن شعر، وأضغاث أحلام..

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥].

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات: ٣٦].

وما يقول الشعر، ولا جلس إلى شاعر من الشعراء، ولذلك نفى الله تعالى عنه كل هذه الأراجيف، وكل هذه الافتراءات، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم: ١، ٢]، وقال: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور: ٢٩].

وأشد من هذا وذاك أن يُتهمَ الحبيب المصطفى ﷺ في عرضه وفي شرفه.. الحبيب الذي فاضت طهارته على الكون كله يُتهم في عرضه، يتهم في حُرمته!

ومن هي التي اتهموها؟ إنها الصديقة بنت الصديق.. إنها تلك الزهرة الصافية التي نبتت في حقل الإسلام، وسقيت بماء الوحي.. وبالرغم من ذلك كله يصبر، ويحتسب ذلك عند الله ﷻ.

وقصة الإفك مشهورة ثابتة في الصحيحين.. وخلاصتها:

أن رسول الله ﷺ أخذ معه السيدة عائشة – رضي الله عنها – في غزوة بني المصطلق، ولما فرغ رسول الله ﷺ من غزوته، وقفل راجعًا إلى المدينة، فلما دنا من الرحيل، لمست السيدة عائشة صدرها فلم تجد عقدها، فرجعت تبحث عنه، فتأخرت في طلبه، فظن الرسول ﷺ أنها في هودجها، فسار مع الجيش راجعًا، ولما انتهت السيدة عائشة من البحث عنه، ورجعت، وفقدت الجيش، فجلست تنتظر، فوجدها صفوان بن المعطل السُلمي، وقد خصصه الرسول ﷺ ليسير وراء الجيش، فعرفها، فأناخ راحلته، وركبت ناقته، وقادها حتى وصلت إلى الجيش، فرأى ذلك عبد الله بن أُبي ابن سلول زعيم المنافقين، فقال: هذه زوجة نبيكم، والله ما نجا منها، ولا نجت منه.. وتولى كبره هذا المنافق.. فلما قدمت المدينة اشتكت شهرًا.. فكان رسول الله ﷺ يتألم لما سمع، فكان يسأل عنها فقط، حتى شعرت منه بشيء من الجفاء، وعدم اللطف، ولم تكن تعلم ما حدث، إلا حين خرجت يومًا لتقضي حاجتها، ومعها أم مسطح بن أثاثة، فأخبرتها بما حدث، فازدادت مرضًا على مرضها، فذهبت إلى بيت أبي بكر الصديق، وكان لا يرقأ لها دمعٌ، ولا تكتحل بنوم، وكانت أمها تخفف عنها، وتقول لها: يا بنية، هوني عليك..

وما زال الأمر هكذا مدة طويلة، حتى أنَّ الوحي قد حُبس شهرًا كاملاً، حتى جاء الوحي المبارك يبرأ ساحتها من فوق سبع سموات.. فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: ١١].

فُسري عن رسول الله ﷺ بهذه البراءة.. ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور: ٢٦].

لكن ما الحكمة في تأخر الوحي هذه المدة؟

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – :

فما بال رسول الله ﷺ توقف في أمرها، وسأل عنها، واستشار وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده، وبما يليق به.

وهلا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم، كما قالت الصحابة رضوان الله عليهم.

فالجواب: أنّ هذا من تمام الحكم الباهرة، التي جعل الله هذه القصة سببًا لها، وامتحانًا، وابتلاء لرسوله ﷺ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقوامًا، ويضع آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانًا، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا وطغيانًا، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حُبس الوحي عن رسول الله ﷺ شهرًا كاملاً، ولم يوح إليه شيء في ذلك لتتم حكمته التي قدرها، وقضاها، وتظهر على أكمل الوجوه، فيظهر حسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته، وتتم نعمة الله عليهم، وليشتد افتقارها إلى الله ﷻ، والذل له، وحسن الظن به، والرجاء له سبحانه..

وأيضًا كان من حكمة حبس الوحي شهرًا أنّ القضية مُحصت، وتمحضت، واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع.. فورد عليهم ورود الغيث على الأرض، أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع وألطفه، وسُروا به أتم السرور..

فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور بذلك لفاتت هذه الحكم وأضعاف أضعافها..

وأيضًا فإنّ الله سبحانه أحبَّ أن يظهر منزلة رسوله، وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأنْ يُخرج رسوله من هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة، والردَّ على أعدائه، وأعداء رسوله ﷺ[1].

٥- صبره على فَقْد الأحبة:

١- لقد صبر الحبيب المصطفى ﷺ على فقد الأحبة، فقد أعظم نصيريه من البشر، بل جبهتين من أعظم الجباه، جبهة داخلية وهي السيدة خديجة - رضي الله عنها - فقد واسته بنفسها إذ خذله الناس، وواسته بمالها إذ حرمه الناس.. قالت له يوم جاء من غار حراء يرتجف: «مالك يا ابن العم؟ والله إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب

(١) «زاد المعاد» لابن القيم.

المعدوم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق..»[1].

آزرته في أحرج الأوقات، وأعانته على إبلاغ رسالته، فكانت من نعم الله الجليلة عليه ﷺ بقيت معه ربع قرن، كانت ترطب جبينه المتصبب من آثار الوحي، كانت تحترم قبل الرسالة تأمله، وعزلته وشمائله، فحزن الرسول ﷺ على فراقها، وصبر على موتها، حتى أثنى عليها، وقال: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنت عمران، وخديجة بنت خويلد..**»[2]. ولله در من علق على هذا الحديث فقال:

«إنَّ كل واحدة منهن قد كفلت نبيًّا مرسلاً، وأحسنت صحبته، وآمنت به، فآسيا ربت موسى، وأحسنت إليه، وصدقت به حين بُعث، ومريم كفلت عيسى وربته، وصدقت به حين أُرسل، وخديجة رغبت في نبينا محمد، وواسته بنفسها ومالها، وأحسنت صحبته، وكانت أول من صدَّقه حين نزل عليه الوحي».

وقال ﷺ عنها: «**أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران**»[3].

وفقد الحبيب الجبهة الخارجية، وهي عمه أبو طالب... فقد كان الحصن الحصين، الذي احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقى على ملة الأشياخ من أجداده، فلم يفلح كل الفلاح.. لما حضرته الوفاة دخل عليه الحبيب المصطفى ﷺ فقال: «**أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**».

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة آبائك؟ فلم يزالا يكلماه، حتى قال آخر شيء كلمهم به، على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك**»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ

---

(١) صحيح رواه البخاري في «بدء الوحي»، ومسلم في «كتاب الإيمان - باب بدء الوحي»، وابن حبان في «صحيحه» (٣٣)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٩٧٤٣).

(٢) صحيح رواه البخاري في «كتاب الأنبياء»، ومسلم في «الفضائل»، والترمذي وقال: حسن صحيح، وابن حبان (٧١١٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٢٤٥)، والطبراني في «الكبير» (١٠٦).

(٣) صحيح رواه أحمد في «مسنده» (٢٦٦٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٨٢ ١١٩)، بإسناد رجاله ثقات.

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾[1] [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

قال ابن إسحاق: لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب، ولذلك قال: «**ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه، حتى مات أبو طالب**»[2]. ولذلك سماه علماء التاريخ والسير بعام الحزن.

٢- ويفتقد الرسول ﷺ أبناءه جميعًا في حياته عدا فاطمة رضي الله عنها وصبر على فراقهن.. انتقلت رقية ابنته في العام الثاني من هجرة المصطفى ﷺ في شهر رمضان، والرسول ﷺ في غزوة بدر، وكان سنها آنذاك عشرين سنة، وتوفيت يوم وصول زيد ابن حارثة مبشرًا بظفر رسول الله ﷺ بالمشركين.. وبينما هم يدفنونها سمع الناس التكبير، فقال عثمان: ما هذا؟ وكان عثمان قد تركه الرسول ﷺ ليداوي رقية، وليكون معها في شدتها ومرضها..

فنظروا فإذا زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ الجدعاء بشيرًا بقتلى المشركين في بدر، وما غنمه المسلمون منهم، وضرب رسول الله ﷺ بسهمه وأجره.. فصبر رسول الله ﷺ على فراقها.. ومن قبلها، وفي حياة رقية، فقدت ابنها، فقد نقره ديك في عينه، فورمت ومات متأثرًا بذلك..

يروي لنا أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - هذا الخبر، فيقول:

أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه، إنَّ ابنًا لي قُبض، فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول لمن أرسلته: «**ارجع إليها فأخبرها أنَّ لله ما أعطى، ولله ما أخذ، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر، ولتحتسب**».

لكن الرسول عاد وقال له: يا رسول الله، إنها قد أقسمت عليك لتأتينها، فقام رسول الله ﷺ ومعه سعد بن معاذ، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل.. ورجال

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري والنسائي (٢٠٣٤)، مجتبى وفي «السنن الكبرى» (٢١٦٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٢٠).

(٢) «سيرة ابن هشام».

من أصحابه، وانطلقت معهم، فرفع إليه صبي، ونفسه تُقعقع، كأنها شنٌّ، ففاضت عيناه..

فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟!

فقال رسول الله ﷺ: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[1].

٣- وفقد الحبيب المصطفى ﷺ ابنته زينت، متأثرة بما حدث لها، حيث أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وتركها في مكة، أرسل إليها زيد بن حارثة، ورجل من الأنصار، فلما كانت في الطريق إلى المدينة، خرج إليها هبَّار بن الأسود، ولم يزل يطعن بعيرها برمحه، حتى صرعها على الأرض، فألقت ما في بطنها، وكانت حاملاً فنزفت نزفًا شديدًا.. فلما علم الرسول ﷺ حزن حزنًا شديدًا، ثم بعث سرية من الصحب الكرام، وقال لهم: «**إن وجدتم فلانًا وفلانًا، فأحرقوهما بالنار**» ثم قال ﷺ حين أردنا الخروج: «**إني أمرتكم أن تحرقوا فلانًا وفلانًا، وإنَّ النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما**»[2].

وفي رواية: «**إن وجدتم هبار بن الأسود، فاقتلوه ...**»[3]. لكن السرية التي خرجت لم تصبه.. ثم دخل في الإسلام، وهاجر، وعاش إلى خلافة معاوية.. وظلت زينت مقيمة على طاعة ربها، حتى جاء اليوم الذي لا مفر منه، ولا حيلة .. جاءها هادم اللذات، ومفرق الجماعات.. جاء الموت، فاختطفها بعد معاناة شديدة مع المرض الذي دام معها، فلما ماتت زينب - رضي الله عنها - قال ﷺ لأم عطية: «**اغسلنها وترًا، ثلاثًا، أو خمسًا، واجعلن في الآخرة كافورًا، أو شيئًا من كافور، فإذا غسلتنها فأعلمنني**»[4]. بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. لقد صبرت صبرًا تنوء به الجبال الراسيات..

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣)، وأحمد في «مسنده»، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٦٧٠)، وأبو داود.

(٢) **صحيح**: رواه البخاري والترمذي وأحمد والبيهقي في «السنن»، وابن أبي شيبة.

(٣) **حسن**: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٦١١)، والحاكم في «المستدرك».

(٤) **صحيح**: رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأحمد وابن حبان.

٤- وصبر على موت ابنته أم كلثوم في حياته هي الأخرى، فقد زوجها عثمان بعد موت رُقية - رضي الله عنها - ظلت معه عام واحد، ثم كان الحزن العميق، والأسى الشديد، فقد بكى النبي ﷺ بدموع حارة عند قبرها.. وكان الجو ليلاً، والسكون قاتلاً، والظلام دامسًا، والمفقودة هي فلذة كبد النبي ﷺ أم كلثوم، إنها مشيئة الله تعالى.. وقدر الخالق الأعظم جل في علاه..

ويقص علينا هذا المشهد المؤثر في حياة أعظم صابر في الدنيا، في حياة أعظم الرجال.. الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول:

«رأيت النبي ﷺ جالسًا على قبرها، وعيناه تدمعان، فقال ﷺ: «**أفيكم رجل لم يُقارف الليلة؟**» وهذا كناية عن الجماع فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله..

فقال: «**فأنزل**» فنزل في قبرها»[١]..

يا له من موقف مؤثر.. القبر ووحشته.. والظلمة والدود.. والوحدة.. والفرقة.. وصبر الحبيب على ذلك كله.

٥- فقد ابنه إبراهيم الذي طالما رزقه الله تعالى به بعد طول شوق، وأمَّل أن يبقيه الله عز وجل، ليسعد به في شيخوخته، وليكون له عقبًا وذكرى، ولكن إبراهيم لم يبلغ ستة عشر شهرًا، أو يزيد، حتى مرض.. فماذا حدث بعد؟ أخذ رسول الله ﷺ إبراهيم، فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجُعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ يعني وأنت تبكي يا رسول الله؟ فقال: «**يا ابن عوف، إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى، فقال: إنَّ العين تدمع، وإن القلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[٢].

لقد كان الحبيب المصطفى ﷺ آنذاك في الستين من عمره، وهو يُشيع ابنه الحبيب،

---

(١) صحيح: رواه البخاري في «الجنائز - باب يعذب الرجل ببكاء أهله، وباب من يدخل قبر المرأة» ورواه أحمد في «مسنده» والبيهقي في «سننه الكبرى» (٧١٤٥).

(٢) صحيح: رواه البخاري في «كتاب الجنائز - باب قول النبي: إنا بك لمحزونون» والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٦٢).

شاعرًا بفداحة الخطب.. لكنه ماذا يفعل؟ ليس له إلا أن يرضى بقضاء الله وقدره، حتى أنه قال في بعض الروايات: «**يا جبل، لو كان بك مثل ما بي لهدك، ولكن إنا لله، وإنا إليه راجعون**».

٦- ويوم أُحُد فقد عمه حمزة، وحزن عليه حزنًا شديدًا، ويروي لنا الإمام الطبراني ذلك، فيقول: لما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة، وقد قُتل، ومُثل به، فرأى منظرًا لم ير منظرًا قط أوجع لقلبه منه، ولا أوجل، فقال: «**رحمة الله عليك، فقد كنت وصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك، لسرني أن أدعك حتى تجيء من أفواج شتى**» ثم حلف وهو واقف أمامه، فقال: «**والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك**»[1]. فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

فَكَفَّر الرسول عن يمينه وصبر.. وفي رواية من حديث ابن عباس: «**لولا أن تحزن النساء لتركته حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطيور.. ولئن ظفرت بقريش لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم..**» فنزلت الآية..

٦- صبره على المرض:

وكما صبر الحبيب على فقد الأحباب، وموت الأصحاب، صبر على المرض، وهذا هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ يحدثنا فيقول:

«دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو يوعك .. فقلت: يا رسول الله، إنك توعك وعكًا شديدًا!!».

قال: «**إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**».

قلت: ذلك بأنَّ لك أجرين!

قال: «**أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى - شوكة فما فوقها - إلا كفَّر الله**

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» بإسنادين الأول فيه ضعف (٢٩٣٧)، وهو أبو عثمان النهدي والآخر سنده لا بأس به عن ابن عباس (١١٠٥١)، ورواه البزار وأورده ابن كثير في «تفسيره».

بها عن خطاياه، كما تحط الشجرة ورقها»[١].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ...

نعم كان يوعك وعكًا شديدًا... دخل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، على السيدة عائشة – رضي الله عنها – فقال لها: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ؟ قالت: بلى.. لقد ثقل النبي ﷺ فقال: «أصلى الناس؟» قلنا: لا، هم ينتظرونك.

قال: «ضعوا لي ماء في المخضب».

قالت: ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء – أي ليقوم – فأُغمي عليه، ثم أفاق ﷺ فقال: «أصلى الناس؟».

قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله..

قال: «ضعوا لي ماء في المخضب»، وتكرر ذلك منه ﷺ ثلاثًا، والناس عكوف ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر الصديق ﷺ بأن يُصلي بالناس[٢]..

فتأمل أخا الإسلام ففي هذا الحديث أمور منها:

أولاً: حرصه الشديد على صلاة الجماعة في المسجد، وهو في غاية المرض..

ثانيًا: بيان لشدة ما كان عليه من المرض، والحمى الشديدة، لدرجة أنها كانت تجعله يُغمى عليه..

ثالثًا: فيه فضيلة لأبي بكر الصديق ﷺ حيث اختاره ليقوم مقامه.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت: «ما رأيت أحدًا أشدَّ عليه الوجع من رسول الله ﷺ»[٣].

---

(١) **صحيح** رواه البخاري كتاب «المرضى – باب شدة المرض»، ورواه مسلم في «البر والصلة»، وأحمد في «مسنده»، وابن حبان (٢٩٣٧)، والدارمي (٢٦٦٩)، وأبو يعلى والبيهقي.

(٢) **صحيح** رواه البخاري ومسلم والنسائي والدارمي وابن حبان وابن خزيمة وأحمد وابن أبي شيبة والبيهقي.

(٣) **صحيح** رواه مسلم وابن حبان وسعيد بن منصور في «سننه» والنسائي في «السنن الكبرى» والطبراني في «الكبير».

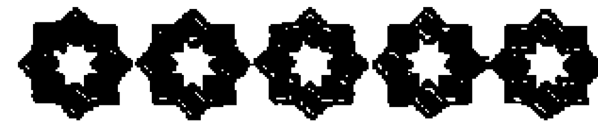
أخي المسلم ... أختي المسلمة ...

لقد طفت بك طوافًا سريعًا، ووقفت بك في لمحات من حياة الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ، فرأينا مدى صبره في كل مجالات الحياة ... قبل البعثة وبعدها، قبل هجرته، وبعدها.. فهو قدوتنا، وهو إمامنا.. وأستاذنا.. ومخرجنا من الظلمات إلى النور.. وشفيعنا يوم القيامة.. وكأني به يوم أن جرحت أصبعه يوم أُحد، وخرج منها دم كثير، فقال له مخاطبًا إياه: **«هل أنت إلا أصبع دميتْ، وفي سبيل الله ما لقيت»**.

صلوات ربي وتسليماته عليك يا سيدي يا رسول الله في الأولين..

وصلوات ربي وتسليماته عليك يا سيدي يا رسول الله في الآخرين..

وصلوات ربي وتسليماته عليك يا سيدي يا رسول الله في الملأ الأعلى إلى يوم الدين..



الرسول يحث الأمة على الصبر

لقد حض النبي الأكرم، والرسول الأعظم ﷺ أمته على الصبر لأنه علمه عملاً، وعلمهم إياه إرشادًا وقولاً، فحببه إليهم، ونفرهم من الجزع والسخط من قضائه تعالى وبلائه، وله في ذلك أحاديث كثيرة منها:

١- عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»[١].

٢- وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابه خير حمد ربَّه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر**»[٢].

٣- وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُ بلاءً؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه خطيئة**»[٣].

وفي رواية من حديث عائشة - رضي الله عنها -: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله، وما عليه خطيئة**»[٤].

٤- وعن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا أراد الله بعبده الخير، عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر، أمسك عنه بذنبه، حتى يوافي به يوم القيامة**»[٥].

---

(١) حسن: حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٥٤)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤٠٣١)، و «صحيح الجامع».

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٤٨٧) بإسناد صحيح وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٠٩/٧): رجال أحمد رجال الصحيح ورواه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٠٠)، وابن ماجه (٤٠٢٣).

(٤) حسن: حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٠١).

(٥) حسن صحيح: رواه الترمذي وقال الألباني عنه: حسن صحيح (١٩٥٣).

وبهذا الإسناد قال ﷺ: «**إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء**».

٥- وعن خباب بن الأرت ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذُ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليتمَّن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنْعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»(١).

٦- وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد**»(٢).

٧- وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله به: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ اللهمَّ أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها**»(٣).

٨- وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة**»(٤).

٩- وعن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه - أي بعينيه - فصبر عوضته عنهما الجنة**»(٥).

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٩٤٣).

(٢) حسن: حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٨١٤).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩١٨)، ومالك في «الموطأ» (٥٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٩٧).

(٤) صحيح: رواه البخاري (٦٤٢٤)، والنسائي بنحوه (٦/٤٣٤).

(٥) صحيح: رواه الطبراني والحاكم (٥٣٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٩٩٥٨)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥٢).

١٠- وعنه ﷺ قال: أصيب حارثة يوم بدر - وهو غلام - فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟! فقال ﷺ: **«ويحك! أو هَبِلْت؟ أوجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه لفي جنة الفردوس»**[1].

والله إنه لثواب عظيم، وعاقبة حميدة، وجزاء من الله تعالى وفضل منه أكبر..

أسباب تعين على الصبر:

ومن كمال رحمة الله تعالى أنه يبتلي العبد بالمصائب ليطهره من الذنوب والآثام، وليرفع درجته في الجنة لينعم بصحبة خير الأنام، وهناك من الأسباب ما يعين المسلم على الصبر، فهيا بنا لنقف سريعًا مع بعضها:

١- التعزي بأهل البلاء:

لقد خلق الله تعالى خُلق التأسي في بني آدم.. ولذلك قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

ولنا في رسول الله ﷺ قدوة، وقد وُضع السلى على رأسه، وأدميت قدماه وشُج وجهه وحوصر في الشعب حتى أكل ورق الشجر، وطرد من مكة، وكسرت ثنيته، ورمي عرض زوجته الشريف، وقُتل سبعون من أصحابه، وفقد ابنه، وأكثر بناته في حياته، وربط الحجر على بطنه من الجوع، واتهم بأنه شاعر، ساحر، كاهن، مجنون، كذاب، صانه الله من ذلك، وهذا بلاء منه، وتمحيص لا أعظم منه، وقد قتل قبلُ زكريا، وذبح يحيى، وهُجر موسى، ووضع الخليل في النار، وسار الأئمة على هذا الطريق، فضرج عمر بدمه، واغتيل عثمان، وطعن عليٌّ، وجلدت ظهور الأئمة، وسجن الأخيار، ونكل بالأبرار.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

(١) صحيح: رواه البخاري.

فكم من رجل وامرأة فقدوا فلذات أكبادهما في مَغْيَةِ الشباب، وريعان العمر وكم من مكروب ومدين، ومصاب ومنكوب!

وكم من محبوس مرَّ به سنوات ما رأى الشمس بعينه!

أما آن لنا أن نتعزى ونتأسى بهؤلاء، وأن نعلم علم اليقين أن هذه الحياة سجن للمؤمن، ودار للأحزان والنكبات..

تصبح القصور حافلة بأهلها، وتمسى خاوية على عروشها..

فعلى المسلم أن يوطن نفسه كتوطين الجمل المحنك الذي يبرك على الصخرة، وأن يقارن مصابه بمن حوله، وبمن سبقه، ليظهر له أنه معافى بالنسبة لهؤلاء، وأن ما أصابه إلا وخزات سهلة، فليحمد الله على لطفه تبارك وتعالى.

٢- أن يعلم المسلم أنَّ مرارة الدنيا حلاوة الآخرة:

ولذلك جاء في «صحيح مسلم» من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في جهنم صبغة، ثم يُقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيُقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرَّ بي بؤس قط، ولا رأيتُ شدةً قط»**[1].

٣- أن يعلم أن الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها:

قال ﷺ: **«يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قُرضت في الدنيا بالمقاريض»**[2].

بل البلاء قد يرفع درجات العبد في الجنة، قال ﷺ: **«إنَّ الرجل ليكون له المنزلةُ عند الله، فما يبلغها بعملٍ، فلا يزال الله يبتليه بما يكره، حتى يبلغه إياها»**[3].

---

(١) صحيح رواه مسلم وأحمد والنسائي والألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٠٠).

(٢) حسن رواه الترمذي عن جابر وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٨١٧٧).

(٣) صحيح رواه ابن حبان والحاكم عن أبي هريرة وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٢٥).

٤- اللجوء إلى الله تعالى عند حلول البلاء:

ولقد علمنا الحبيب المصطفى ﷺ دعاء الفرج فقال: «**ما أصابَ عَبْدًا هَمٌّ ولا حَزَنٌ فقال: اللّهم إني عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِك، ابْنُ أَمتِكَ، ناصِيتي بِيَدِكَ، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قَضاؤُك، أسألُك بكل اسْمٍ هو لَكَ سَمَّيْتَ به نَفْسَك، أو أنزلْتَهُ في كِتابِك، أو عَلَّمْتَه أَحَدًا من خَلْقِك، أو اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الغيبِ عِنْدَك، أن تجعل القرآن العَظِيمَ ربيعَ قَلْبي، ونُورَ صَدْري، وَجَلاْءِ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي. إلاّ أَذْهَبَ اللّهُ حُزْنَهُ وَهَمَّه، وأَبْدَلَهُ مَكَانَه فَرَحًا**».

فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ قال: «**بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**»[(١)].

٥- أن يعلم المسلم أنه مسافر:

والسفر كله مشقة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

دخلوا على أبي بكر وهو مريض، فقالوا: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيب قد رآني، قالوا: فماذا قال لك الطبيب؟ قال: إنه يقول: أنا ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦]

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - :

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة، وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر[(٢)].

٦- أن يتذكر العبد ما في البلاء من اللطائف:

ومن بين هذه الفوائد التي يجنيها العبد:

- زوال قسوة القلوب، وحدوث رقتها، وانكسار العبد لمولاه، وذلك أحب إلى الله تعالى من طاعة الطائعين.

---

(١) صحيح: رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩).

(٢) «الفوائد» لابن القيم.

- أن هذا البلاء يوجب من العبد الرجوع إليه، والوقوف ببابه، والتضرع له، والاستكانة..

وفي بعض الآثار: «أنَّ الله يبتلي العبد وهو يحبه، ليسمع تضرعه».

- وهو يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه، وذلك أعلى المقامات، وأشرف الدرجات.
- ومنها: رحمة أهل البلاء، ومساعدتهم على بلواهم.
- ومنها: معرفة قدر العافية.

٧- أن يعلم العبد أن بعد العسر يسرًا:

ومما يتسلى به المصاب أن يُحسن الظن بالله، ويعلم أنَّ الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وفي وصية الرسول ﷺ لابن عباس - رضي الله عنهما - : «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسرا**»(١).

أخي المسلم ... أختي المسلمة...

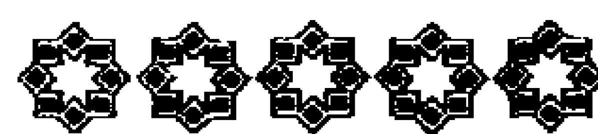
تأسَّ برسولك محمدًا ﷺ وكن صابرًا..

فالصبر مفتاح الفلاح والنجاح، فإن صبرتَ وصلت إلى ما تأمل.

إني رأيت الخير في الصبر مسرعًا ... وحسبك من صبر تحوز به أجرًا

عليك بتقوى الله في كل حالة ... فإنك إن تفعل تُصب به ذخرًا

جعلني الله وإياك من الصابرين في البأساء والضراء.



---

(١) صحيح: رواه أحمد وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٨٢).

المبحث الثالث

خُلق التواضع

تواضـــع تكـــن كالـــنجم لاح لناظر
عـــلى صـــفحات المـــاء وهـــو رفيع
ولا تـــك كالدخـــان يعلـــو بنفســـه
في طـــبقات الجـــو وهـــو وضـــيع

«التواضع يكسب السلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصدَّ، ويجلب المحبة، وتواضع الشريف يزيد في شرفه» أبو حاتم البستي.



خُلق التواضع

ما هو التواضع:

التواضع في اللغة:

التواضع ضد الكبر وهو يعني التذلل، يُقال: تواضع الرجل إذا تذلل وتخاشع، أخذًا من وضعه يضعه: إذا حطه، لأن المتواضع حط من قدر نفسه.

قال الراغب: التواضع اشتقاقه من الضعة، وهو رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله، ومنزلته، وفضيلته لا تكاد تظهر في أفناء الناس، لانحطاط درجتهم، وإنما يتبين ذلك في الملوك، وأجلاء الناس وعلمائهم، قال: وهو من باب التفضل، لأنه ترك بعض حقه[١].

وقيل: تنزل بالنفس في غير ابتذال لها، ولا تهاون بقدرها، ولا تجزئة للآخرين على الاستخفاف بمكانة المتواضع.

وأما في الشرع: فقد اختلفت فيه كلمة العلماء.

قال ابن القيم: سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله.

وقيل: التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب[٢].

ولا يتحقق التواضع في نفس الإنسان إلا إذا أزهق دوافع الزهو والخيلاء، والكبرياء في نفسه، ولذلك قال أحمد الأنطاكي: أنفع التواضع، ما نفى عنك الكبر، وأمات منك الغضب.

وليس معنى ذلك أن التواضع يفتح أمام الإنسان باب المذلة والمهانة، بل على العكس من ذلك، فهو يؤدي بصاحبه إلى العز الحقيقي المحمود عند الله جل جلاله، وعند العقلاء

(١) «المفردات» للراغب الأصفهاني.

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم.

البصراء من الناس، ولذلك قال ابن عطاء الله السكندري: العز في التواضع، فمن طلبه في الكبر، فهو كطلب الماء في النار.

ولو تكبر الإنسان وتباهى، ولو بطاعته وعبادته، لما ذاق الطعم السليم للمتواضع، وهذا زياد النمري يقول: الزاهد بغير تواضع، كالشجرة التي لا تثمر.

منزلة خُلق التواضع بين الأخلاق:

والتواضع صفة حميدة تكسب صاحبها عزة ورفعة، وعلوًّا وسموًّا، ومهابة وجلالاً، وهو خلق كريم من أخلاق الأخيار الأبرار، الذين طابت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، وزكت عقولهم وأرواحهم.. الذين عرفوا الحياة على حقيقتها، فأدركوا أن مصير أهلها إلى فناء وعدم، وأيقنوا أن ما يتمتع به الإنسان في هذا الوجود من صحة وشباب، ومال وعقار، ومنصب وجاه إنما هي أغراض زائلة، وظلال متنقلة، لا تلبث أن تزول عنهم إلى غيرهم، كما زالت من غيرهم إليهم..

وهذا بخلاف الكبر فهو صفة مذمومة، صفة الشيطان الرجيم، إبليس اللعين؛ لأن الكبر يزين لصاحبه أنه أعظم الناس قدرًا، وأصحهم عقلاً، ورأيًا فإذا ركن على هذا الاعتقاد، دأب على تحقير مَنْ دونه، وترفع عن مجالسته ومخالطته..

ولهذا برئ الفضلاء والعقلاء من الكبر، وبرئوا من الفخر، فقد افتخر رئيس على مملوك لبعض الفلاسفة، فقال له المملوك: إن افتخرت عليَّ بفرسك، فالحسن والفراهة للفرس لا لك، وإن افتخرت بثيابك وآلاتك، فالحسن لها دونك، وإن افتخرت بآبائك، فالفضل كان فيهم دونك..

لهذا كله مدح الله تعالى المتواضعين، وحثَّ على التخلق بأخلاقهم، وذم الكبر والمتكبرين، وحذر من سلوكهم، والسير على منهجهم.

القرآن الكريم يحث على التواضع:

فقد وصف به عباد الرحمن، كما في سورة الفرقان.. قال تعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ

قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣].

أي يمشون متواضعين بسكينة ولين ووقار، وهذا تنويه عظيم بالمتواضعين؛ لأن الله تعالى قد وصفهم بصفة العبودية له، وتلك أعظم الصفات للعبد، لأن العبودية أعلى المقامات، وأشرف الصفات، لذلك وصف الله بها رسوله وحبيبه محمدًا ﷺ في أجل مقاماته وهو مقام الإسراء والمعراج، فقال:

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: ١].

فكفى المتواضعين فخرًا وشرفًا أن الله تعالى وصفهم بالعبودية له.

وقد نهى القرآن الكريم عن ضده «الكبر» في آيات كثيرة من آياته، فقال جل في علاه:
﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال جل ثناؤه في وصية من وصايا لقمان الحكيم:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان: ١٨].

وقد امتدح الله حبيبه ومصطفاه بقوله جل في علاه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أنواع التواضع:

والتواضع المحمود على نوعين:

النوع الأول: تواضع العبد عند أمر الله تعالى، امتثالاً، وعند نهيه اجتنابًا، والانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان.. فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشرود، هربًا من العبودية لله ﷻ، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه، فقد تواضع للعبودية.

النوع الثاني: تواضع لعظمة الرب وجلاله، وخضوعه لعزته وكبريائه فكلما شمخت نفسه، ذكر عظمة الرب تعالى، وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأن لهيبته، وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع[1].



(١) «الروح» لابن القيم.

تمثل خُلق التواضع في النبي ﷺ

أخي المسلم ... أختي المسلمة ...

لقد أقام الرسول ﷺ بعمله وقوله وتصرفاته في حياته الدلائل بعد الدلائل على أنه كان المثل الأعلى للتواضع، فهذا النبي العظيم، وهذا الرسول الكريم ﷺ الذي وصفه القرآن الكريم بأنَّه رءوف رحيم، وبأنَّه الشاهد والمبشر والنذير، والداعي إلى الله بأمره، والسراج المنير، وبأنه رحمة الله للعالمين.. هذا النبي الخاتم شفيع المذنبين، وقائد الغر المحجلين.. كان سيدًا للمتواضعين.. ونرى هذا التواضع في كل شئون حياته:

١- تواضعه مع أهل بيته:

- ولما سئلت السيدة عائشة – رضي الله عنها – ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله؟ قالت – وكانت أعلم الناس بحال رسول الله ﷺ : «كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة..»[(١)].

نعم كان في مهنة أهله، كان يعلف بعيره، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا تعب، ويشتري الشيء من السوق فيحمله إلى أهله، ويصافح الغني والفقير، والكبير والصغير، ويسلم مبتدئًا على كل من استقبله من صغير، أو كبير، أو أسود أو أحمر، أو حر أو عبد.

- وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير[(٢)].

وعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويخصف النعل، ويرقع القميص، ويقول: «**من رغب عن سنتي، فليس مني**»[(٣)].

---

(١) صحيح رواه البخاري وأحمد في «مسنده».

(٢) صحيح صححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٢٥) و«صحيح الجامع» (٤٩١٥).

(٣) صحيح صححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٣٠)، و«صحيح الجامع» (٤٩٤٦).

وفي بعض الروايات: «كان بشرًا من البشر، يُفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»[(١)].

فتأمل سيد الأنبياء يقوم بمثل هذه الأعمال، ولا حاجة له في أن يقوم بها إلا كمال تواضعه، لأنه كان من الممكن أن تقوم بهذه الأعمال المنزلية أمهات المؤمنين، أو واحدٌ من خدامه، أو مواليه، بكل رغبة وسرور، ولكنه يأبى إلا أن يقوم به بنفسه، لكمال تواضعه ﷺ.

٢- تواضعه مع أصحابه:

والأخبار في ذلك كثيرة لا تكاد تحصى، ولا تستقصى ومنها:

١- ما رواه ابن مسعود ﷺ قال: كنَّا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، قال: وكان أبو لبابة، وعلي بن أبي طالب، زميلي رسول الله ﷺ قال: وكانت إذا جاءت عُقبة رسول الله ﷺ - أي نوبته في الركوب - قالا: نحن نمشي عنك، فيقول النبي ﷺ: «**ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما**»[(٢)].

٢- كان يردف خلفه، ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار[(٣)].

٣- كان يتخلف في المسير، فيزجي الضعيف، ويردف، ويدعو لهم[(٤)].

٤- وعن البراء بن عازب ﷺ قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يوم الخندق، ينقل معنا التراب، حتى وارى التراب شعر صدره - وكان كثير الشعر - وفي رواية: حتى أغبر بطنه ويقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

---

(١) حسن: رواه أحمد في «مسنده» وابن حبان في «صحيحه» والترمذي في «الشمائل».

(٢) حسن: رواه أحمد في «مسنده» وأبو نعيم في «الحلية» والهيثمي في «المجمع» (٦/٧١)، وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٤٥)..

(٤) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٣٠).

والمشـــركون قـــد بغـــوا عليـــنا وإن أرادوا فتـــنة أبيـــنا[١]

٥- وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: أُتي برجل، فأُرعد من هيبته، فقال له: **«هوّن عليك، فلستُ بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد»**[٢].

٦- وعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال: لما نزل رسول الله ﷺ نزل في بيتي في الطابق الأول، وأنا وأم أيوب في الطابق الأعلى، فقلت له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاصعد أنت، وكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: **«يا أبا أيوب، إيه، ارفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت»** ثم انكسرت جرة لنا فيها ماء، فقمتُ أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء، تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء[٣].

٧- كان في سفر، وأمر أصحابه بطهو شاة، فقال أحدهم: عليَّ ذبحها، وقال آخر: وأنا عليَّ سلخها، وقال ثالث: عليَّ طبخها، فقال رسول الله ﷺ: **«وعليَّ جمع الحطب»**، فقالوا: يا رسول الله، نكفيك العمل، فقال: **«علمت أنكم تكفونني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، وإنَّ الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه»**[٤].

فتأمل أخا الإسلام.. لقد اختار المهمة الصعبة.. اختار جمع الحطب، وجمع الحطب أصعب من الذبح، وأصعب من السلخ، وأشق من الطبخ..

٨- وعن أبي هريرة ﷺ قال: دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل، وقال للوزان: **«زن وارجح»** فقال الوزان: إنّ هذه الكلمة ما سمعتها من أحد قط..

قال أبو هريرة ﷺ فقلتُ له: كفى بك جفاء في دينك أن لا تعرف نبيك، فطرح الميزان، ووثب على يد النبي ﷺ يقبلها، فجذب يده، وقال: **«هذا تفعله الأعاجم**

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد والدارمي وعبد الرزاق في «مصنفه».

(٢) صحيح: رواه الحاكم (٣٧٣٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٧٦)، و«صحيح الجامع» (٧٠٥٢) وابن ماجه (٣٣١٢).

(٣) صحيح: رواه الحاكم وصححه (٥٩٣٩) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه الطبراني في «الكبير» (٣٨٥٥).

(٤) «شرح الزرقاني» (٤/٢٦٥).

بملوكها، ولستُ بملك، إنما أنا رجل منكم»، ثم أخذ السراويل، فذهبتُ لأحمله، فقال: «لا، صاحب الشيء أحق بحمله»(١).

٩- كان إذا دخل على أصحابه قاموا له احترامًا وإجلالاً، فأغضبه ذلك فقال لهم: «من أحب أن يمثل له عباد الله قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار»(٢). وفي رواية: «من سره أن يمثل له الرجال قيامًا..»، وفي رواية: «من سره أن يمثل له العباد قيامًا، فليتبوأ بيتًا في النار»(٣).

ونهاهم عن القيام له فدخل عليهم يومًا، فهبوا له قيامًا، فغضب - وكان إذا غضب احمر - وجهه فقام حسان بن ثابت ﷺ شاعر رسول الله ﷺ فقال:

قيامي للعزيز عليَّ فرض ... وترك الفرض ما هو مستقيم
عجبتُ لمن له عقل وأدب ... يرى هذا الجمال ولا يقوم

فصلوات ربي وتسليماته عليك يا سيدي يا رسول الله..

١٠- وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»(٤).

١١- وكان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم.

١٢- وعن أنس ﷺ قال:

حج رسول الله ﷺ على رحلٍ رث، وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم، فقال: «اللهمَّ اجعله حجًا لا رياء فيه، ولا سمعة»(٥).

---

(١) حسن: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٥٩٤) والخضري في «نور اليقين» (ص٣٩٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٦٧٨٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٠٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٥٧)، و«صحيح الترغيب» (٢٧١٧)، و«المشكاة» (٤٦٩٩).

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٥٢٢٩)، و«صحيح الجامع» (٥٩٥٧)، والترمذي (٢٧٥٥) وحسنه.

(٤) صحيح: متفق عليه، رواه البخاري ومسلم وابن حبان وأحمد وعبد الرزاق في «مصنفه» وصححه الألباني.

(٥) صحيح: صححه الألباني في «مختصر الشمائل المحمدية» (٢٨٨).

وما دعاه إلى ذلك إلا التواضع لله ﷻ، ولو شاء لحج على رحلٍ علية قطيفة تساوي أربعون ألف درهم..

١٣- وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أُهدي إليّ كراع لقبلت، ولو دُعيتُ عليه لأجبت**»[1].

١٤- وعنه ﷺ أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إنّ لي إليك حاجة، فقال لها: «**اجلسي في أي طريق المدينة شئت حتى أجلس إليك**»[2].

وفي رواية قال لها: «**يا أم فلان، اجلسي في أي نواحي السكك شئت حتى أجلس إليك**» قال أنس: فجلست، فجلس النبي ﷺ إليها حتى قضت حاجتها[3].

١٥- **وفي مختصر السيرة للطبري**: أنه ﷺ ركب حمارًا عريًا - أي خالي من الرحل - إلى قُباء ومعه أبو هريرة فقال له: «**أحملك؟**» فقال: ما شئت يا رسول الله، فقال: «**اركب**»، فلم يقدر، فأمسكه رسول الله ﷺ فوقعا جميعًا، ثم ركب، وقال له مثل ذلك، ففعل فوقعا، ثم ركب، وقال له مثل ذلك، فقال أبو هريرة: والذي بعثك بالحق ما رميتك ثالثًا[4]. فداء أبي وأمي يا رسول الله..!

ماذا كنت تقول لو رأيت أصحاب السيارات الفارهة، والفارغة، وهم يمشون في الطريق، ويشير إليهم أحد الناس - ربما كان مريضًا، ربما كان في مهمة - ولكنهم لا يبالون، ولا يعبئون..

إن دابتك أشرف وأعظم من أولئك الذين ما شكروا نعمة الله عليهم، ولا تواضعوا لخلق الله ﷻ، وإنما تكبروا على خلق الله بنعم الله..

١٦- وقد كان من تواضعه ﷺ أنه كان يدنو من المريض، وأحيانًا يجلس عند رأسه، ويسأله عن حاله، ويقول له: «**كيف تجدك؟ أو كيف أصبحت؟ أو كيف أمسيت؟**»

(١) صحيح: المرجع السابق (٢٩٠)، والكراع ما دون الركبة أو دون الكعب من الدواب.

(٢) صحيح: المرجع السابق.

(٣) صحيح: «صحيح سنن أبي داود» للألباني (٤٨١٨)، و«صحيح الجامع» (٧٨٥٧).

(٤) «محمد الإنسان الكامل» د/ السيد محمد علوي (ص١٤٢، ١٤٣)، دار جوامع الكلم.

ويقول: «**لا بأس عليك، طهور إن شاء الله**»، وقد يضع يده على المكان الذي يؤلم المريض، ويقول: «**باسم الله، من كل داء يؤذيك، الله يشفيك**».

١٧- كان له كساء مُلَبَّد - أي مرقع - يلبسه ويقول: «**إنما أنا عبدٌ، ألبس كما يلبس العبد**»، وربما لبس الإزار الواحد، ليس عليه غيره، ويعقد طرفيه بين كتفيه، وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتحفًا به، مخالفًا بين طرفيه(١).

تواضعه ﷺ مع ربه ومولاه.

وكما كان ﷺ متواضعًا في نفسه، ومع أصحابه، فقد كان من أجل وأعظم مظاهر تواضعه، أن يظهر هذا التواضع لربه ومولاه، فهو أحق من يتواضع له، لأنه صاحب العظمة والكبرياء، وهو القائل: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدة منهن أدخلته ناري**»(٢). فكان من تواضعه ﷺ مع مولاه ما روي:

١- عن أبي هريرة ؓ قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل ؑ: هذا الملك ما نزل منذ خُلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك: أملكًا أجعلك أم عبدًا رسولاً؟ فقال له جبريل ؑ: تواضع لربك يا محمد، فقال ﷺ: «**بل عبدًا رسولاً**»(٣).

٢- ومن تواضعه لمولاه جل في علاه: أنه كان يسجد له في الماء والطين، كما قال أبو سعيد الخدري ؓ: «حتى رأيتُ الطين أثرٌ في جبهته ﷺ»(٤).

٣- عن الأغر المزني رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة**»(٥).

---

(١) ذكره ابن أبي شيبة وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٩٥٤٣)، والبيهقي في «شعبه» (٥٩٧٥)، وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» رقم (١٤٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وأحمد في «مسنده».

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» وابن حبان في «صحيحه» والبزار وأبي يعلى، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٢٨٠) وفي «بداية السول» (٦٤).

(٤) صحيح: رواه البخاري ومسلم وابن حبان.

(٥) صحيح: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فهذا من كمال تواضعه ﷺ ومن كمال إقراره بالعبودية الكاملة وبحاجته إلى ربه، وافتقاره إليه، وعدم استغنائه عن فضله، وعدم إغتراره بما أعطاه مولاه، وكأن لسان حاله يقول: إني مع ما منَّ الله عليَّ من فضل وثواب، ودرجات عالية، ومقامات سامية، فإني لا أزال أرغب في فضله، وأسارع إلى رحابه، وأقف على أبوابه، وأنافس في الخيرات، وأبادر إلى المبرات، وقد صرح بذلك فقال: «**إني أخشاكم لله، وأتقاكم، وأعلمكم به**»[١]. وفيه تعليم للأمة ليقتدوا به ويتبعوه، وفيه: تمام الشكر له سبحانه، بإدامة العمل له، كيف لا؟ وهو القائل: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[٢].

وقد قيل: الغين فترات عن الذكر الذي شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمر ما، عَدَّ ذلك ذنبًا، فاستغفر عنه.

وقيل: هو السكينة التي تغشى قلبه، والاستغفار لإظهار العبودية لله، والشكر لما أولاه.

وقال الشيخ **شهاب الدين السهروردي**: لا يعتقد أن الغين حالة نقص، بل هو كمال، أو تتمة كمال[٣].

وقال **الشاذُلي** – رحمه الله – : سمعت الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ «استغفار النبي» فأشكل عليَّ معناه، فرأيتُ رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول لي: «يا مبارك، ذاك غينُ الأنوار لا غين الأغيار»[٤].

وكان يقول: «**اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت**»[٥].

وقد تكلم العلماء في مسألة استغفاره ﷺ منها: أنه تشريع للأمة أو من ذنوب الأمة، فهو كالشفاعة لهم.

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن حبان.

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن خزيمة وأحمد والطبراني في «الكبير».

(٣) «فتح الباري» (١٣/٣٧٩).

(٤) «محمد الإنسان الكامل» (ص٨٧) دار جوامع الكلم.

(٥) صحيح: رواه مسلم ومالك في «الموطأ».

وقال الغزالي في «الإحياء»: كان ﷺ دائم الترقي، فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها، فاستغفر من الحالة السابقة..

تواضعه ﷺ مع إخوانه من الأنبياء:

وقد كان ﷺ متواضعًا مع إخوانه من الأنبياء والمرسلين مع أنه سيد الأولين والآخرين، فهو القائل:

«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض»(١).

وقد نهى أصحابه أن يفضلوه على أحد من الأنبياء، من باب التواضع:

١- لما جاء إليه رجل، وقال له: يا خير البرية، ماذا كان جوابه؟ هل فرح بهذا اللقب؟ لا؛ ولكنه قال: **«ذاك إبراهيم عليه السلام»**. قال العلماء: إنما قال ﷺ هذا تواضعًا، واحترامًا لإبراهيم عليه السلام لخلته وأبوته.

٢- وقال: **«نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: ربي أرني كيف تُحيي الموتى؟ قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول لبث يوسف، لأجبت الداعي»**(٢).

وفي رواية للنسائي: **«رحم الله إبراهيم نحن أحق بالشك منه...»**(٣).

قال ذلك لما أتى على جيفة حمار عليه السباع والطير، فعجب وقال: رب لقد علمت لتجمعنها، ولكن أرني كيف تحييها.

وقيل: كان سبب ذلك أن النمرود لما قال له ما ربك؟ قال: ربي الذي يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت، وأتى برجلين قد حُكما عليهما بالقتل والإعدام فترك أحدهما، وقتل الآخر، فأراد إبراهيم أن يرى الفارق، فسأل مولاه هذا السؤال لكن ما معنى قول

---

(١) **صحيح:** رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) **صحيح:** رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن حبان وابن ماجه.

(٣) **صحيح:** رواه النسائي وصححه الألباني (١١٠٥٠).

الرسول الأعظم: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»؟

قال بعضهم: معناه، نحن أشد اشتياقًا إلى رؤية ذلك من إبراهيم.

وقيل معناه: إذا لم نشك نحن، فإبراهيم أولى أن لا يشك، أي لو كان الشك متطرقًا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أنه لم يشك، وإنما قال ذلك تواضعًا منه.

وتأمل قوله: «**ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»، والركن الشديد هو الله ﷻ، فلوطًا لما خاف على أضيافه، ولم يكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين، ضاق ذرعه، واشتد حزنه عليهم، فغلب ذلك عليه، فقال في ذلك الحال:

﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠].

أي في الدفاع عنهم بنفسي، أو عشيرتي..

وقال عن يوسف عليه السلام: «**ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف، لأجبت الداعي**» أي لأسرعت في الخروج من السجن، لما قدمت طلب البراءة، فوصفه بشدة الصبر، وقاله ﷺ تواضعًا، والتواضع لا يحط مرتبة الكبير بل يزيده رفعة وجلالاً.

٣- وقال عن موسى عليه السلام: «**لا تخيروني على موسى، فإنَّ الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق، فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله**»[1].

وفي رواية: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله ...**» وسبب هذا القول أن رجلين استبا - مسلم ويهودي - فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا ﷺ على العالمين، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين فلطم المسلم اليهودي، فشكا اليهودي المسلم إلى رسول الله ﷺ فغضب رسول الله ﷺ وقال ذلك.

٤- وفي غزوة حنين لما آثر بعض المؤلفة قلوبهم بالقسمة، وأعطاهم أكثر من غيرهم،

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

غضب أناس من المنافقين، فقال ﷺ: «**رحم الله أخي موسى، لقد أوذي أكثر من هذا، فصبر**»(١).

رغم أنه قال: «... **ولو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي**»(٢). وسبب ذلك أن عمر ابن الخطاب ﷺ قال له: يا رسول الله، إنا نسمع أحاديث من اليهود، فتعجبنا، فقال له النبي ﷺ: «**أمتهوكون أنتم، كما تهوكت اليهود والنصارى، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيًّا، ما وسعه إلا اتباعي**»(٣). ومتهوكون أي متحيرون.

وفي بعض الروايات أن أهل الكتاب كانوا يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية، فقال ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم...**» وفي رواية لأحمد: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء...**»(٤).

٥- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**»(٥).

وفي رواية عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: «**من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب**»(٦). وقد قال ذلك تواضعًا منه ﷺ وخصه بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له، فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة(٧).

٦- ولما تفلت عليه عفريتًا من الجن، وأراد أن يفسد صلاته، أو يقطعها عليه، فماذا حدث؟ قال ﷺ: «**إن عفريتًا من الجن تفلت عليّ البارحة، ليقطع عليَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا،**

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وابن حبان وأحمد والحاكم وصححه.

(٢) حسن: رواه البيهقي في «الشعب» (١٧٦) (١/١٩٩)، ورواه أحمد في «مسنده» (١٤٥٦٥) وحسنه حمزة الزين (١١/٥٠٠).

(٣) انظر السابق.

(٤) صحيح: رواه البخاري وأحمد وغيرهما

(٥) صحيح: رواه البخاري ومسلم وابن حبان عن ابن عباس وأبو داود والترمذي.

(٦) صحيح: رواه البخاري والحاكم.

(٧) «فتح الباري» (٨/١١٤).

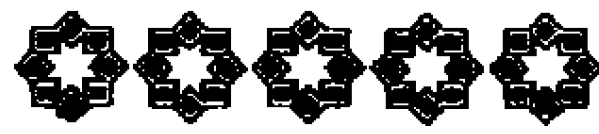
وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ﴾ [ص: ٣٥].

فرده الله خاسئًا»[١].

كان من الممكن أن يربطه بعد أن مكنه الله منه، لكنه تركه تواضعًا لنبي الله سليمان عليه السلام ..

٧- ولما قدم المدينة وجدهم يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عن صومه فقالوا: هذا يوم عظيم، يوم نجى الله فيه موسى من فرعون، فصامه موسى شكرًا لله، فقال ﷺ - متواضعًا - : «**أنا أولى بموسى منكم**» فصامه وأمر بصيامه[٢].



(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن حبان والنسائي في «الكبرى».

(٢) صحيح: رواه البخاري وأبو داود وأحمد وابن خزيمة وابن أبي شيبة، والبيهقي والطبراني في «الأوسط والكبير».

حثه ﷺ على خُلق التواضع

أخي المسلم ... أختي المسلمة ...

ولقد حثنا إمام المتواضعين، وقائد الغر المحجلين على أن نكون من المتواضعين لله رب العالمين، وللناس أجمعين، وقد تعددت الأحاديث في ذلك منها:

١- عن عياض بن حمار أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد**»[1].

٢- وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك، فإن تواضع، قيل للملك: ارفع حكمته، وإن تكبر قيل للملك: ضع حكمته**»[2].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من تواضع لله رفعه الله**»[3].

٤- وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لا أعلم إلا رفعه، قال: «**يقول الله تبارك وتعالى: من تواضع لي هكذا** - وجعل يزيد باطن كفه إلى الأرض، وأدناها إلى الأرض - **رفعه هكذا** - وجعل باطن كفه إلى السماء، ورفعها نحو السماء»[4].

٥- وهذا جرير بن عبد الله البجلي ﷺ - يوصيه سلمان ﷺ - **فيقول: يا جرير، تواضع لله، فإن من تواضع لله رفعه الله يوم القيامة**[5].

٦- وعن حارثة بن وهب الخزاعي قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ألا أخبركم بأهل**

---

(١) صحيح: رواه مسلم والبيهقي في «الشعب» وفي «السنن الكبرى» والطبراني في «الكبير» وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» وابن ماجه وفي «صحيح الأدب المفرد» للبخاري.

(٢) صحيح: رواه البيهقي في «الشعب» والطبراني في «الكبير» وابن أبي الدنيا في «التواضع» وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٥٣٨).

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦١٦٢) و«الصحيحة» برقم (٢٣٢٨).

(٤) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٣٠٩)، وصححه أحمد شاكر (٢٩٦/١)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٩٤)، ورواه البيهقي في «شعبه» والبزار في «مسنده» وأبو يعلى.

(٥) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٧٣٣).

الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»[١].

٧- وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول: «طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة ...»[٢].

وكان سليمان بن داود - عليهما السلام - إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء، والأشراف، حتى يجيء إلى المساكين، فيقعد معهم، ويقول: يا رب، مسكينٌ مع مساكين[٣].



(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم والترمذي وقال: حسن صحيح وابن ماجه وابن حبان وأحمد في «مسنده» والبيهقي في «الشعب» والطبراني في «الكبير».

(٢) «الإحياء» للغزالي، و«التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا برقم (١١٧).

(٣) «التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا برقم (١٠٣).

ترهيبه من الكبر وسوء عاقبة المتكبرين

وكما رغب سيد المتواضعين، وخاتم النبيين ﷺ في التواضع وحث الأمة عليه، حذرها من الكبر وعاقبته في مواضع متعددة من سنته، وها هو بعض ما جاء في السنة المطهرة:

١- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنة، ونعله حسنة، أفهذا من الكبر؟ فقال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»(١).

فالمتكبرون محرومون من دخول الجنة، وقد تأكد ذلك في أحاديث كثيرة.

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**احتجت الجنة والنار، فقالت النار: يدخلني الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة يدخلني الضعفاء والمساكين، فقال الله عز وجل لهذه: أي للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء، وقال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء. ولكل واحدة منكما ملؤها**»(٢).

٣- وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة، أمثال الذَّر في صورة الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنَّم يسمى [بُولُس] تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عُصارة أهل النَّار طينة الخبال**»(٣).

٤- وعنه رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «**من كان في قلبه مثقال حبة من كبر، كبَّه الله لوجهه في النَّار**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه مسلم والألباني في «صحيح الجامع» (٧٦٧٤)، و«المشكاة» (٥١٠٨).

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد والألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٨٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي وقال: حسن صحيح، والبغوي في «شرح السنة»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٤٠) و«المشكاة» (٥١١٢).

(٤) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٧٠١٥)، والبيهقي بإسناد صحيح.

٥- والمتكبرون من أبعد الناس من رحمة الله تعالى، وأبعد الناس عن رسول الله ﷺ، كما في حديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة: الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون**» قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون، والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**»(١).

٦- مرَّ عبد الله بن سلام ﷺ يومًا في السوق، وعليه حُزمة من حطب فقيل له: ما يحملك على هذا، وقد أغناك الله عنه؟ قال: أردت أن أدفع الكبر، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة من في قلبه خردلة من كبر**»(٢).

٧- وعن سلمة بن الأكوع أنَّ رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال له النبي: «**كُل بيمينك**» قال: لا أستطيع - ما منعه إلا الكبر - فقال له ﷺ: «**لا استطعت**» فما رفعها إلى فيه(٣).

٨- المتكبرون لا ينتفعون بالحكمة، بخلاف المتواضعين.. قال المسيح عليه السلام: إنَّ الزرع ينبتُ في السهل، ولا ينبت على الصفا، كذلك الحكمة تعملُ في قلب المتواضع، ولا تعمل في قلب المتكبر، ألا ترون أنّ من شمخ برأسه إلى السقف شجَّه، ومن طأطأ، أظله وأكنه(٤).

٩- حذر منه أطول الناس عمرًا - نوح عليه السلام - قبل أن يفارق الحياة.. فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ نبي الله نوح عليه السلام لما حضرته الوفاة، قال لابنه: إني قاصٌّ عليك الوصية، آمرك باثنين، وأنهاك عن اثنين: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع، لو وضعن في كفة، ووضعت لا**

(١) حسن: رواه أحمد (٦٧٦٧) والترمذي (٢٠١٨) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٠٠).

(٢) صحيح: رواه الحاكم وصححه (٣/٤١٦) والطبراني بإسناد حسن والبيهقي في «الشعب» (٨١٩٩) وصححه الألباني في «إصلاح المساجد» برقم (١٧٠).

(٣) صحيح: رواه مسلم وذكره الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٩٠٤)، وصححه.

(٤) «إحياء علوم الدين» للغزالي.

إله إلا الله في كفة لرجحت بهن.. وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر...»[1].

١٠- الكبر فخ من الفخوخ التي ينصبها الشيطان لبني الإنسان، لأنه هو الذنب الذي عصى الله تعالى به حين خلق آدم ﷺ، فأمره مولاه بالسجود له مع الملائكة فتكبر، فطُرد ولُعِنَ، وأبعد من رحمة الله..

قال النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - : إنَّ للشيطان مصالي وفخوخًا، وفخوخه البطر بأنعم الله ﷻ، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى[2].

١١- من فارقت نفسه الكبر وابتعد عنه، كان من أهل الجنة، فعن ثوبان ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من فارق الروح الجسد، وهو بريء من ثلاث، دخل الجنة: الكبرُ، والدَّيْنُ، والغلول».

١٢- الكبر يقطع العبد عن مولاه، قال أبو عثمان النهدي - رحمه الله - : الخوف من الله يوصلك إلى الله، والكبر والعجب يقطعك عن الله، واحتقار الناس في نفسك مرض عظيم لا يداوى.

١٣- إذا كان التواضع من أخلاق الكرام، فالكبر من أخلاق اللئام، كما قال الشافعي - رحمه الله - وقال: «الكبر فيه كل عيب».

أخي الحبيب:

لا تمش فوق الأرض إلا تواضعًا فكم تحتها قوم هم منك أرفع
فإن كنت في عز وخير ومنعة فكم مات من قوم هم منك أمنع

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتواضعين، وأن يرفع شأننا في الدارين، وأن يجعلنا من المتخلقين بأخلاق نبينا، والمتأدبين بآدابه، والعاملين بسنته، يا رب العالمين..

---

١) **صحيح**: رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٩/١)، ورواه أحمد والبخاري في «الأدب المفرد» وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٤).

٢) **حسن موقوف**: أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨١٨٠)، وحسنه الألباني في «الأدب المفرد» (٢٢٤).

المبحث الرابع

خُلق الحياء

«الحياء يدل على العقل، كما أن عدمه يدل على الجهل، فهو أصل العقل، وبذر الخير، وتركه أصل الجهل، وبذر الشر».

«إذا اشتد حياء المرء، صان عرضه، ودفن مساويه، ونشر محاسنه، ومن ذهب حياؤه، ذهب سروره، ومن ذهب سروره هان على الناس».

ابن حيان البستي



ما هو الحياء؟

الحياء في اللغة:

الحياء: مصدر قولهم حَيَي، وهو مأخوذ من مادة « ح ي ي» التي تدل على الاستحياء، الذي هو ضدُ الوقاحة.. **يُقال:** رجلٌ حييٌ - أي ذو حياء، وامرأة حَيِيّة..

قال الأزهري: للعرب في هذا الحرف لغتان: استحى الرجل يستحي، بياء واحدة، واستحياء يستحيي بياءين، والقرآن جاء باللغة الثانية، كما في قوله جل في علاه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال الراغب: الحياء انقباض النفس عن القبائح، وتركه لذلك(١)..

وقال ابن القيم - رحمه الله - :

الحياء، الذي هو الاستحياء، مشتق من الحياة، ومن ذلك أيضًا: الحيا للمطر، لكنه مقصور، وعلى حسب حياة القلب، يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلبُ أحْيا، كان الحياء أتم(٢).

والحياء في الشرع: اختلفت العلماء في تعريفه، كل حسب تصوره:

قال الجاحظ: الحياء من قبيل الوقار، وهو غض الطرف، والانقباض عن الكلام حشمة للمستحيا منه، وهو عادة محمودة، ما لم تكن عن عيٍّ ولا عجز(٣).

وقال الجُرجاني: هو انقباض النفس من شيء وتركه حذرًا عن اللوم فيه(٤)..

وذكر ابن مسكويه: أنّ الحياء من الفضائل التي تدخل تحت العفة، بل هو أولها، ثم عرَّفه بقوله: الحياء هو: انحصار النفس خوف إتيان القبائح، والحذر من الذّم والسَّب(٥).

وقال ابن مفلح الحنبلي - رحمه الله - : وحقيقة الحياء: خلق يبعث على فعل الحسن، وترك القبيح.

---

(١) « المفردات للراغب » (ص١٤٠).

(٢) « مدارج السالكين » (٢٤٨/٢) لابن القيم ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) « تهذيب الأخلاق » للجاحظ (ص٢٣).

(٤) « التعريفات » للجرجاني (ص٩٤).

(٥) « تهذيب الأخلاق » (ص١٧) لابن مسكويه.

وقال ابن علان - رحمه الله - : الحياء خلق يبعث على ترك القبيح من الأقوال والأفعال والأخلاق يمتنع صاحبه من التقصير في حق ذي الحق.

وقيل: هو ملكة راسخة للنفس تُوزِعها - أي تدفعها - على إيفاء الحقوق وترك القطيعة والعقوق.

وقيل: الحياء تغيُّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يلام به مما كان قبيحًا حقيقة.

وللحياء أنواع متعددة:

وقد قسم الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - الحياء إلى عشرة أوجه:

حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استحقار النفس (أي استصغارها) وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزَّة، وحياء المستحيي من نفسه.

١- **فأما حياء الجناية**، فمنه حياء آدم عليه السلام، لَمّا فرَّ هاربًا في الجنة، قال الله له: «**أفرارًا مني يا آدم؟ قال: لا يا رب، بل حياءً منك**».

٢- **وحياء التقصير**: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة، قالوا: سبحانك، ما عبدناك حق عبادتك.

٣- **وحياء الإجلال**: وهو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد بربه، يكون حياؤه منه.

٤- **وحياء الكرم**: كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطوَّلوا الجلوس عنده، فقام واستحى أن يقول لهم: انصرفوا.

٥- **وحياء الحشمة**: كحياء عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذْي لمكان ابنته منه.

٦- **وحياء الاستحقار واستصغار النفس**: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأل حوائجه، احتقارًا لشأن نفسه، واستصغارًا لها، وقد يكون لهذا النوع سببان:

أحدهما: استحقار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه.

الثاني: استعظام مسئوله، وهو الله عز وجل.

٧- **وأما حياء المحبة**: فهو حياء المحبّ من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته، هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه، ولا يدري ما سببه.

٨- **وأما حياء العبودية:** فهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأنَّ قدره أعلى وأجلُّ منها، فعبوديته له، توجب استحياءه منه لا محالة.

٩- **وأما حياء الشرف والعزة:** فحياء النفس العظيمة الكبيرة، إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاءٍ أو إحسان، فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفسٍ وعزة.

١٠- **وأمَّا حياء المرء من نفسه:** فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعها بالدون، فيجد نفسه مستحييًا من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحيي بأحدهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحيي من نفسه، فبأن يستحيي من غيره أجدر[1].

وقد ذكر بعض العلماء أن الحياء أقسام ثلاثة:

١- **حياء من الله تعالى:** ويكون بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وهذه بدايته، ونهايته أن يستحي العبد من أن ينظر الحق سبحانه وتعالى إلى قلبه فيجد فيه بغية لسواه.

قال ذو النون المصري: إنَّ لله عبادًا تركوا الذنب استحياء من كرمه بعد أن تركوه خوفًا من عقوبته، ولو قال لك: اعمل ما شئت، فلست آخذك بذنب كان ينبغي لك أن يزيدك كرمه استحياء منه، وتركًا لمعصيته، إن كنت حرًّا كريمًا، عبدًا شكورًا، فكيف وقد حذرك[2].

٢- **وحياء من النفس:** ويكون بعفتها وصيانتها في الخلوات.

٣- **وحياء من الناس:** ويكون بكف الأذى، وترك المجاهرة بالقبيح.

وقد قسم **الإمام ابن حجر** الحياء إلى قسمين:

١- غريزي.

٢- مكتسب.

فالحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان وهو المكلف به دون الغريزي، وقد ينطبع الشخص بالمكتسب، حتى يصير كالغريزي وقد كان رسول الله ﷺ جامعًا

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٢٥٠ - ٢٥٢) باختصار ط/ دار الكتاب العربي - بيروت.

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (٧٧٤٥).

للنوعين، فكان في الغريزي أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان في المكتسب في الذروة العليا[١].

منزلة الحياء في مكارم الأخلاق:

وخلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها، وأعظمها قدرًا، وأكثرها نفعًا، بل هو خاصَّة الإنسانية، فمن لا حياء عنده، فليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم، وتلك الصورة الظاهرة.

ولذلك قال سيد الأنبياء ﷺ كما روى عنه عمران بن حصين ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**» فقال بشير بن كعب: مكتوب في الحكمة: «إنَّ من الحياء وقارًا، وإنَّ من الحياء سكينة».

فقال له عمران: أحدثك عن رسول الله، وتحدثني عن صحيفتك[٢]؟!

قال **القرطبي**: معنى كلام بشير أنَّ من الحياء ما يحمل صاحبه على الوقار، بأن يوقر غيره، ويتوقر هو في نفسه، ومنه ما يحمله على أن يسكن عن كثير مما يتحرم الناس فيه من الأمور التي لا تليق بذي المروءة.

ولولا هذا الخلق العظيم لم يُقْرِّ الإنسان ضيفًا، ولم يُوف وعدًا، ولم يؤد أمانة، ولم تُقض لأحد حاجة، ولا تحرى الجميل فآثره، والقبيح فتجنبه، ولا امتنع من فاحشة..

وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤدِّ شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقًّا، ولم يصل له رحمًا، ولا برَّ له والدًا، فإن الباعث على هذه الأفعال: إمَّا ديني، وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإمَّا دنيوي علوي، وهو حياء فاعلها من الخلق.. فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها.. ثم قال الإمام ابن القيم: إنَّ للإنسان آمرين وزاجرين: آمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي، وله آمر وزاجرٌ من جهة الهوى والطبيعة، فمن لم يُطع آمر الحياء وزاجره، أطاع

---

(١) «فتح الباري» (١٠/٥٢٣).

(٢) صحيح رواه البخاري والألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٠٢) و«المشكاة» (٥٠٧١)، وفي «صحيح الترغيب» (٢٦٢٦)، و«صحيح الأدب المفرد» للبخاري (١٣١٢).

آمر الهوى والشهوة[١].

الحياء في جنب الله تعالى:

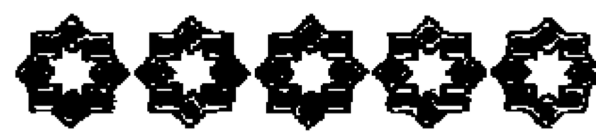
ومن صفات المولى ﷻ (الحَيِيُّ) وقد ورد في ذلك حديث النبي ﷺ: «**إنَّ ربكم حييٌّ كريم، يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه فيردهما صفرًا – أو قال: خائبتين**»[٢].

قال الفيروزآبادي وابن القيم: وأمَّا حياء الربِّ تبارك وتعالى من عبده، فنوع آخر، لا تدركه الأفهام، ولا تكيفه العقول، فإنه حياء كرم وبرٍّ وجود، وجلال فهو من صفات الكمال في حقه سبحانه وتعالى، نثبتها له على مراده من غير تكييف ولا تمثيل[٣].

وقد جاء في ذلك قوله جل في علاه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾ [البقرة: ٢٦].

فقد جاءت هذه الآية الكريمة ردًّا على اليهود الذين قالوا: ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ وعلى المشركين الذين قالوا: إنا لا نعبد إلهًا يذكر مثل هذه الأشياء[٤]؟ وعلى المنافقين الذين قالوا: جاء في القرآن ذكر النحل والعنكبوت والنمل وهذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء، فاشتمال القرآن عليها يقدح في فصاحته، فضلاً عن كونه معجزًا، فأجاب الله تعالى عن ذلك، بأنَّ صغر هذه الأشياء لا يقدح في الفصاحة، إذا كان ذكرها مشتملاً على حكمة بالغة[٥].



(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم.

(٢) صحيح: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٨٧٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤١٠٨)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٦٤٨)، والطبراني في «الكبير» (١٣٥٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٨٦٥) و«صحيح الجامع» (٢٠٧٠)، و«المشكاة» (٢٢٤٤).

(٣) «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (٢/٥١٧)، و«مدارج السالكين» (٢/٢٥٠).

(٤) «تفسير البغوي» (١/٧٦).

(٥) «فتح القدير» للشوكاني (١/٨٩) والفخر الرازي.

مظاهر خُلق الحياء في حياة النبي ﷺ

أخي الحبيب ...

لقد كان النبي ﷺ أشد الناس حياءً، حتى وصفه مخالطوه بأنه: «كان أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه، عرفناه في وجهه»[1].

و لم لا؟ وقد كان طيب العشرة، موصوفًا بالرأفة والرحمة، مهذب الكلمة فهيا بنا نلتقط صورًا من حيائه ﷺ :

١- كان بعض المسلمين يتحينون طعام النبي ﷺ فيدخلون بيوته ويجلسون منتظرين إنضاج الطعام، ومستأنسين لمحادثة بعضهم لبعض، وكان رسول الله ﷺ يضيق بطول جلوسهم، وكثرة أحاديثهم، ولكن حياءه يمنعه أن يأمرهم بالخروج، لأنَّ هذا الأمر يشق عليهم، فتولى الله إرشادهم، ولذلك قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها - : «حسبك في الثقلاء أنَّ الله تعالى لم يحتملهم...»

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقد روى أنس ﷺ هذه الواقعة، فقال: «بُني على النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، قال: فأرسلتُ على الطعام داعيًا، فيجيء قوم، فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعوه، قال: فقلت: يا نبي الله، ما أجد أحدًا أدعوه، قال: «**ارفعوا طعامكم**» وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال: «**السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله**» فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك؟ بارك الله لك، فتقرَّى حجر

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وابن حبان وأحمد والبيهقي وابن أبي شيبة.

نسائه كلهن، يقول لهن، كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون».

قال أنس: وكان النبي ﷺ شديد الحياء.. وفي رواية مسلم: فجعل النبي ﷺ يستحيي منهم أن يقول لهم شيئًا.. فخرج منطلقًا نحو عائشة، فما أدري أخبرته، أو أخبر أنَّ القوم خرجوا(١) ... فأنزل الله هذه الآية:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ... ﴾.

٢- وتأمل حين أمره الله تعالى بالزواج من هذه المرأة الطاهرة «زينب بنت جحش» وقد كانت زوجة متبناه «زيد بن حارثة» رضي الله عنه لم يقدر أن يصارحه بما أراده الله ﷻ في شأن زواجه بها، وأن الله تعالى قد اختارها له ﷺ ليبطل عادة الجاهلية في التبني، فلما أنزل الله تعالى في ذلك قرآنًا يُتلى على الناس، وشرعًا محكمًا لا يتغير، عند ذلك لم يكن بوسع الرسول ﷺ عدم بيانه، وإن كان في ذلك حرج عظيم له عند كثير من ضعفاء الإيمان، وقد ذكر الله تعالى نبأ حيائه في هذه القضية، فقال جل شأنه:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فتأمل قوله: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ أي تستحيي من قولهم: إنَّ محمدًا تزوج زوجة ابنه حسب ما يعهدونه ويعتقدونه.

ولقد قضت حكمة الله تعالى أن لا يكون تشريع هذه المسألة، إلا بهذه الصورة العملية، لأنها أبلغ في استئصال ذلك المعتقد الفاسد السائد تجاه التبني، الذي ما كان سيجتنبُ من أفئدة معتقديه إلا بمثل ذلك الأسلوب العملي.

٣- وقد بلغ من حيائه ﷺ أنه لم يواجه أحدًا بما يكره، بل يعرض بذلك، أو يأمر بعض

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

أصحابه أن يُصارح بذلك الرجل المقصر.. فعن أنس ﷺ قال:

كان رسول الله ﷺ لا يواجه أحدًا بوجهه بشيء يكرهه، فدخل عليه يومًا رجلٌ، وعليه أثر صُفرة، فلما قام، قال لأصحابه: «**لو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة**»[1].

٤- وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان النبي ﷺ إذا بلغهُ عن الرجل شيء، لم يقل: ما بال فلان، ولكن يقول: «**ما بال أقوام يقولون: كذا وكذا**»[2].

فما كان يحمله على عدم التصريح بأسمائهم في وجوههم إلا كمال حيائه ﷺ.

٥- ومن حيائه ﷺ أنه لم يكشف عورته قط، ولم تُر عورته قط، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان أبو طالب يُعالج زمزم، وكان النبي ﷺ ممن ينقل الحجارة، وهو يومئذ غلام، فأخذ النبي ﷺ إزاره، فتعرى، واتقى به الحجر، فغشي عليه، فقيل لأبي طالب: أدرك ابنك فقط غشي عليه، فلما أفاق رسول الله ﷺ من غشيته، سأله أبو طالب عن ذلك، فقال: «**أتاني آتٍ عليه ثياب بيض، فقال لي: استتر**» فما رؤيت عورته من يومئذ[3].

وفي رواية لأحمد[4] من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - وحديث أبي الطفيل[5] عامر بن واثلة - أنَّ النبي ﷺ كان ينقل معهم حجارة الكعبة وعليه إزار، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي، لو حللت إزارك، فجعلته على منكبيك دون الحجارة..

(١) ضعيف: فيه سُلمُ العلوي منكر الحديث ومعناه صحيح. رواه أبو يعلى في «مسنده» (٤٢٧٧)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٨٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٠٦٥).

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم والألباني في «الصحيحة» (٢٠٦٤)، وفي «صحيح سنن أبي داود» (٤٧٨٨)، و«صحيح الجامع» (٤٦٩٢).

(٣) صحيح بشواهده: رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٣٥٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وله شاهد وهو حديث أبي الطفيل ثم ذكره برقم (٧٣٥٧) (١٩٩/٤).

(٤) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٤٢٦٨) بإسناد صححه حمزة الزين (٤١٨/١١)، ورواه البخاري في «صحيحه» [كتاب الصلاة في الثياب - باب كراهية التعري في الصلاة] (١٤٣/١)، ومسلم في [كتاب الحيض - باب الاعتناء بحفظ العورة] (٢٥٧/٤) وأبو يعلى في مسنده (٢٢٤٣) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٣٠٩).

(٥) صحيح: «مسند الإمام أحمد» برقم (٢٣٦٨٤) (١٢٥/١٧).

فحله، فجعله على منكبيه، فسقط مغشيًّا عليه، فما رؤي بعد ذلك اليوم عريانًا.

وفي رواية: فنودي: يا محمد، خمر عورتك...(١).

حياؤه مع ربه ومولاه:

وإذا كان حياؤه ﷺ مع البشر هكذا، فإن حياءه مع رب البشر أعظم من ذلك وأكمل، لأنه سبحانه وتعالى أحق أن يُستحيا منه.. فقد كان حييًّا مع مولاه أكمل الحياء..

١- ففي حديث أنس وابن عمر - رضي الله عنهما - أنه كان إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض(٢).

٢- وفي قصة المعراج لما التقى بكليم الله موسى عليه السلام وهو راجع، حين سأله: ماذا أعطاك ربك؟ فأخبره بأنه فرض عليه الصلاة خمسين فطالبه موسى عليه السلام مرة بعد أخرى أن يرجع إلى ربه ومولاه، ليسأله التخفيف لأمته، فلما أكثر من التردد على الله، قال لموسى حينئذ: «**استحييتُ من ربي**»(٣) وما حمله على الاستحياء إلا بالغ حيائه ﷺ وإلا فإن الإلحاح في الطلب من الله تعالى مطلوب(٤).

- والحياء كان خلقًا عامًّا في سلوكه ﷺ ما لم يكن على حساب تبليغ الرسالة التي كُلف بأدائها، ولم يكن على حساب الشرع الذي أُمر ببيانه وتوضيحه للناس كافة، لذلك جاءت إليه أم سليم - رضي الله عنها - فقالت: يا رسول الله، إنَّ الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال ﷺ: «**إذا رأت الماء**» أي المني فقالت: يا رسول الله، أوتحتلم المرأة؟ قال: «**نعم تربت يمينك، فبم يشبهها**

---

(١) صحيح: «مسند الإمام أحمد» برقم (٢٣٦٩٠).

(٢) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٧١)، و«صحيح الجامع» (٤٦٥٢)، و«صحيح سنن أبي داود» (١٤)، و«صحيح سنن الترمذي» (١٤)، و«المشكاة» (٣٤٦) والطبراني في «الأوسط» (١٤٥٦).

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم في أكثر من موضع في قصة الإسراء والمعراج.

(٤) «فتح الباري» (٣/٢).

ولدها؟»[1]. والملاحظ أن أم سلمة – رضي الله عنها – غطت وجهها استحياء حين سألت النبي ﷺ هذا السؤال.

- وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: إنّ امرأة من الأنصار، قالت للنبي ﷺ كيف أغتسل من المحيض؟ فقال لها ﷺ : **«خذي فرصة ممسكة فتطهري بها»** قالت: كيف أتطهر بها يا رسول الله؟ قال: **«تتبعي بها أثر الدم»**، قالت: كيف؟ فاستحيا النبي ﷺ فأعرض بوجهه .. تقول عائشة: فأخذتها فجذبتها، فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ [2].



(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

حث الرسول ﷺ أمته على الحياء

أخي المسلم ... أختي المسلمة ...

وقد حث سيد الأنبياء والمرسلين على هذا الخلق النبيل، وهذا السلوك القويم في جملة من أحاديثه منها:

١- فقد جعله شعبة من شعب الإيمان، فقال: **«الإيمان بضعٌ وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»**(١).

٢- وقد جعله قرين الإيمان، فقال: **«الحياء والإيمان قُرنا جميعًا، فإذا رُفع أحدهما، رفع الآخر»**(٢).

٣- جاءه رجل واطلب منه أن يزوده بوصية من وصاياه العظيمة النافعة فقال له: **«أوصيك أن تستحيي من الله ﷻ كما تستحيي رجلاً من صالحي قومك»**(٣).

٤- بل أوصى بها أصحابه وأمته فقال لهم: **«استحيوا من الله حق الحياء»** فقالوا: يا رسول الله، إنّا نستحيي والحمد لله.. قال: **«ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»**(٤).

٥- وقد جعل الرسول ﷺ عنوانًا لهذا الدين، فقال: **«إنَّ لكل دين خُلقًا، وخلق الإسلام: الحياء»**(٥).

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم وفي رواية «بضع وسبعون...».

(٢) صحيح: رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٩٢/٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٣٦).

(٣) صحيح: رواه البيهقي في «الشعب» وأحمد في «الزهد» والألباني في «الصحيحة» (٧٤١).

(٤) حسن لغيره: رواه الترمذي (٢٤٥٨)، وقال: غريب ورواه أحمد والحاكم والبيهقي وقال الحاكم: صحيح الإسناد وأقره الذهبي وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٣٨).

(٥) صحيح لغيره: رواه ابن أبي شيبة (٩٢/٦)، ومالك في «الموطأ» وابن ماجه والألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦٣٣) وقال: صحيح لغيره.

وقال وهب بن منبه: الإيمان عُريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وماله العفة[١].

وقال إياس بن قرة: كنتُ عند عمر بن عبد العزيز، فذكر عنده الحياء، فقالوا: الحياء من الدين، فقال عمر: بل هو الدين كله[٢].

٦- وجعله ﷺ خلقًا عظيمًا من أخلاق الأنبياء والمرسلين، مثل كليم الله موسى عليه السلام، فقال: «**إنَّ موسى كان حييًّا ستيرًا، لا يُرى من جلده شيئًا، استحياءً من الله، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر إلا من عيب بجلده، إمَّا برصٌ وإمَّا أُدرة..**»[٣].

٧- وثواب الحياء الجنة مثل ثواب الإيمان، قال ﷺ: «**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء من النار**»[٤].

٨- ومرَّ على رجل من الأنصار، وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال له: «**دعه فإن الحياء من الإيمان**»[٥].

٩- ولما سأله أحد أصحابه - رضوان الله عليهم - فقال: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها، وما نذر؟ قال: «**احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك**» فقال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: «**إن استطعت أن لا يراها أحد فافعل**» فقال: الرجل يكون خاليًا، قال: «**فالله أحق أن يُستحيا منه**»[٦].

١٠- وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح، فاصنع ما شئت**»[٧].

---

(١) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا رقم (٢١).

(٢) السابق برقم (١٩).

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٤) صحيح: رواه الحاكم وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٩٥)، و«المشكاة» (٥٠٧٧)، و«صحيح ابن ماجه» (٤١٨٤).

(٥) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٦) حسن: رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٨١٠).

(٧) صحيح: رواه البخاري (٦١٢٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢١٣٨٤).

١١- وترك الحياء يؤدي إلى الشقاء: قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - خمس من علامات الشقاء: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل[1].

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحِ فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العودُ ما بقي اللّحاء

قال أبو بكر الصديق ﷺ وهو يخطب الناس:

«يا معشر المسلمين، استحيوا من الله، فوالذي نفسي بيده، إني لأظل حين أذهب الغائط في الفضاء متقنعًا بثوبي استحياءً من ربي ﷻ».

١٢- ترك الحياء يؤدي إلى موت القلب: قال عمر بن الخطاب ﷺ:

«من قلَّ حياؤه، قَلَّ ورعُهُ، ومن قَلَّ ورعُه، ماتَ قلبه».

أخي المسلم:

عوّد نفسك لزوم الحياء، فإن من أعظم بركته تعويد النفس ركوب الخصال المحمودة، ومجانبتها الخلال المذمومة، لتفوز بسعادة الدارين، أسأل الله العظيم، رب العرش الكريم أن يجعلنا من السالكين لطريق الحق، وأن يجنبنا الزلل، ويهدينا إلى صراطه المستقيم..

يا رب العالمين.



---

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي (٧٧٤٧)، و«مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا.

المبحث الخامس

خلق الزهد

«ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» [صحيح الجامع (٩٢٢)]

«صلاح أول هذه الأمة بالزهد، واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل» [صحيح الجامع (٣٨٤٥)]

فما هو الزهد؟ وما حقيقته؟

تدل مادة «زهد» على القلة في كل شيء... والزهيد: أي الشيء القليل، ويُقال: رجل زهيد، أي قليل المطعم، أو قليل المال...

والزُّهد ضد الرغبة، يُقال: فلان يزهد في الشيء، أي يرغب عنه.

ويُقال: فلان يتزهد، أي يتعبد، والزهيد: القليل.

واختلف العلماء في حقيقة الزهد على النحو التالي:

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - : الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة.

وقال الجنيد: الزهد في قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد: ٢٣].

فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود.

وقال أبو سليمان الداراني: هو ترك ما يشغل عن الله.

وقيل: هو استصغار الدنيا، ومحو آثارها من القلب.

وقال الجنيد: سمعتُ سريًّا يقول: إنَّ الله ﷻ سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده، لأنه لم يرضها لهم.

وقيل: هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف(١).

وقد أجمع العارفون على أنَّ الزهد، سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة.

ورحم الله **الشافعي** حين قال:

إنَّ لله عــــــبادًا فُطـــــــنًا ... طلقــــوا الدنـــيا وخـــافوا الفتـــنا

نظــــروا فــــيها فـــلما عـــلموا ... أنهـــا ليســـت لحـــي وطـــنًا

جعلوهـــا لُجـــةً واتخـــذوا ... صـــالح الأعمـــال فـــيها ســـفنًا

ومصدر ذلك كله في كتاب الله تبارك وتعالى، فآياته مملوءة بالتزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها وحقارتها، وسرعة انقضائها، وفنائها، ولكنه قد رغب في الآخرة لدوامها، وشرفها.. قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال سبحانه:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥].

قال علماؤنا: في ضرب الله تعالى المثل في الدنيا بالماء المنزل من السماء بدائع:

---

(١) انظر هذه الأقوال في «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ١٢، ١٣)، و«الرسالة القشيرية» للإمام القشيري (ص١٩٠، ١٩١) ط. التوفيقية.

أولاً: أنَّ المطر لا يستنزل بالحيلة، فكذلك الدنيا.

ثانيًا: أنه وإن كان المطر لا يجيء إلا بتقدير، فإنه يُستنزل بالرغبة والسؤال، وكذلك الرزق الدنيوي يلتمس من الله، قال سبحانه: ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [النساء: ٣٢].

ثالثًا: أنَّ الماء إذا جاء به نقع، وإذا زاد على الحاجة ضر، وكذلك المال إذا كان بقدر الكفاية، فصاحبه في نعيم، وإذا زاد فصاحبه في نصب وطغيان.

رابعًا: إذا كان الماء جاريًا، كان طيبًا، وإذا اختُزن تغير، كذلك المال إذا أجراه في مجاريه طاب، وإذا احتجبه خبث عليه وغاب.

خامسًا: أنَّ الماء إذا كان طاهرًا، صلُح للثياب والعبادات، وإذا كان نجسًا، لم يصلح للعبادة، كذلك المال إذا كان حلالاً، استقام به المعاش والطاعة، وخلص من التباعة، وإن كان حرامًا، فقد أبدى عورته، وأسقط حرمته.

سادسًا: التنبيه باختلاف أحوال الزرع من حين خلقته، على أن المرء من أول نشأته إلى وفاته، والزرع لا يخرج زرعه إلا بعد الجفاف(١).

أخا الإسلام..

ولو تتبعنا آيات القرآن العظيم، لوجدنا أن الرب الكريم وضح لعباده أن هذه الدنيا فانية، حقيرة، لا قيمة لها:

﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧].

فهي زادٌ للمسافر إلى ربه ومولاه، ومطية السائر، وقنطرة العابر، قال تعالى:

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٧].

وقال: ﴿ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

---

(١) «قمع الحرص» للقرطبي (ص١٩٧) باختصار وتصرف.

الزهد لا ينافي تناول الحلال المباح:

أخي الحبيب..

بعض الذين ينتسبون إلى الصوفية يعتقدون، أن لبس المرقع من الثياب هو الزهد، وهو رأس التصوف وأساسه، ولكن هذا بخلاف ما كان عليه أهل التصوف، وأهل الزهد، فتأمل ذلك..

قال أبو علي بن الفضيل لأزهد أهل زمانه وعصره عبد الله بن المبارك: إنك تأمرنا بالزهد، والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، فكيف ذا؟ وأنت تأمرنا بخلاف ذا؟

قال ابن المبارك: يا أبا على، إنما أفعل ذلك لأصون وجهي، وأكرم بها عرضي، وأستعين بها على طاعة ربي، لا أرى لله حقًّا إلا سارعت إليه، حتى أقوم به..

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا، قصر الأمل، وليس بلبس الصوف، فقال له الفضيل: يا ابن المبارك، ما أحسن ذا إن تم ذا!

وكان أصحاب رسول الله ﷺ من أزهد الناس، ولذلك كان الحسن البصري - رحمه الله - إذا ذُكر عمر بن الخطاب ﷺ قال: «والله ما كان بأولهم إسلامًا، ولا بأفضلهم نفقة في سبيل الله، ولكنه غلب الناس بالزهد في الدنيا، والصرامة في أمر الله، ولا يخاف في الله لومة لائم..»

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولكن التصوف أن تصفو بلا كدر ... وأن تتبع القرآن والحق والدينا

وكان الحسن البصري - رحمه الله - من كبار الزهَّاد والعباد، وكان من الفقهاء وكان من أعلم الناس بالحلال والحرام، كما قال قتادة..

وقال عنه **محمد بن سعد**: كان - رحمه الله - جامعًا، عالمًا، رفيعًا، فقيهًا، ثقة، حجة، مأمونًا، عابدًا، ناسكًا، كثير العلم، فصيحًا، جميلاً وسيمًا[1].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥/٤٥٢).

ومع ذلك كان يأكل الطعام الحلال ويشبع منه، حتى روى الأصمعي عن أبيه قال: ما رأيتُ زندًا أعرض من زند الحسن البصري، كان عرضه شبرًا[1].

والأوزاعي الفقيه الزاهد يقول: الزهد في الدنيا، ترك المحمدة، أي تعمل العمل، لا تريد أن يحمدك الناس عليه[2].

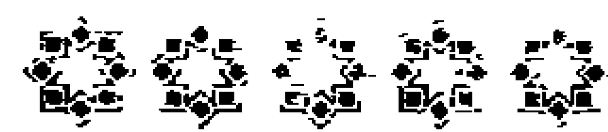
وقيل **لسفيان بن عيينة** - رحمه الله - ما حد الزهد؟

قال: أن تكون شاكرًا في الرخاء، صابرًا في البلاء، فإن كان كذلك فهو زاهد.

وذكر **ابن الجوزي** في مواعظه: قال بعض السادة: بينما أطوف بالكعبة، إذ نظرت إلى جارية عليها جبة من صوف، وخمار من صوف، وسراويل من صوف، فجاءت حتى وقفت خارج الحجر، فقالت: يا بنان، أتدري ما الزهد؟ وهل هو إلا من مقامات العوام، يا بنان اعلم أن الدنيا لا تساوي ولا تعدل عند الله جناح بعوضة، فما الزهد؟

قال: الزهد قطع الحظوظ النفسانية، وعدم التعلق بالبرية، والتسليم في جميع الحالات، والرضا بجميع الأقدار الكائنات.

فقالت: ويحك يا بنان، أنت واصفه بطريقته، فأنا لك واصفة بحقيقته، اعلم أنَّ الزهد: زاي وهاء ودال، فالزاي: الزينة، والهاء: الهوى، والدال: الدنيا، فمن سلك طريق الزهد، ترك الزينة والهوى والدنيا[3].



(١) المرجع السابق.
(٢) «مسند ابن أبي شيبة» (٣١٧/٨).
(٣) «المواعظ والمجالس» لابن الجوزي (ص٢٢٧) مكتبة الإيمان، المنصورة.

الرب يحذر أنبياءه من الدنيا ويزهدهم فيها

أخي الحبيب ..

وبالنظر إلى من سبق رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ نجد أن الله تعالى حذرهم جميعًا من الدنيا..

حذر داود عليه السلام، فقال له:

«يا داود، ما لقلوب أحبائي وما للغم بالدنيا، إنَّ الغم بها يمص حلاوة مناجاتي من قلوبهم مصًّا...

يا داود.. لا تجعل بيني وبينك عالمًا قد أسكرته الدنيا، فيحجبك بسكره عن محبتي، أولئك قطَّاع طريق عبادي»(1).

وها هو يحذر موسى عليه السلام منها، ويزهده فيها، فيقول:

«يا موسى، ما لك ولدار الظالمين؟!

إنها ليست لك بدار، أخرج منها همك، وفارقها بعقلك، فبئست الدار هي، إلا لعامل يعمل فيها، فنعمت الدار هي..

يا موسى، إني مُرصدٌ للظالم، حتى آخذ منه للمظلوم»(2).

وهذا هو نبي الله يونس عليه السلام يحذره ربه، ويزهده في الدنيا فيقول له:

«يا يونس، إذا أحب العالم الدنيا، نزعت لذة مناجاتي من قلبه».

ورب العزة جل في علاه ينادي على الدنيا مخاطبًا إياها، فيقول - كما ورد في صحف إبراهيم وموسى - :

«يا دنيا، ما أهونك على الأبرار الذين تزينت لهم، إني قد قَذفْتُ في قلوبهم بغضك، والصدود عنك.. وما خلقت خلقًا أهون عليّ منك كل شأنك صغير، وإلى الفناء يصير.

---

(1) حسن: أخرجه ابن أبي الدنيا (٣٨٤) في «ذم الدنيا».

(2) حسن: أخرجه ابن أبي الدنيا (٩٣).

لقد قضيتُ عليك يوم خلقتك أن لا تدومي لأحد، ولا يدوم لك أحد»[١].

وها هو يزهد نبي الله عيسى عليه السلام فيقول:

«يا عيسى ابن مريم البكر البتول: ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل، وقلى الدنيا، وترك اللذات لأهلها، وارتفعت رغبته فيما عند إلهه»[٢].

أقسام الزهد:

قال الإمام أحمد – رحمه الله –:

الزهد على ثلاثة أوجه:

الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام.

والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص.

والثالث: ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين.

وقال ابن القيم في «فوائده»: الزهد أقسام:

١- **زهدٌ في الحرام:** وهو فرض عين.

٢- **وزهدٌ في الشبهات:** وهو بحسب مراتب الشبهة، فإن قويت التحق بالواجب، وإنْ ضعفت كان مستحبًّا.

٣- **وزهد في الفضول**، وهو زهدٌ فيما يعني من الكلام، والنظر، والسؤال، واللقاء، وغيره، وزهد في الناس، وزهد في النفس، حيث تهون عليه نفسه في الله عز وجل.

٤- **وزهدٌ جامعٌ لذلك كله:** وهو الزهد فيما سوى ما عند الله، وفي كل ما يشغلك عن الله.

وأفضل الزهد: إخفاء الزهد، وأصعبه، الزهد في الحظوظ[٣].

---

(١) حسن: أخرجه ابن أبي الدنيا (١١٥) في «ذم الدنيا» وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٥٨) بإسناد حسن.

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/١٤) ط/ دار الكتاب العربي – بيروت.

(٣) «الفوائد» لابن القيم الجوزية.

هل الأخذ بنصيب من الدنيا يُنافي الزهد؟

الحق أنَّ الأخذ بنصيب من الدنيا لا يُنافي الزهد فيها، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [القصص: ٧٧].

وقد أمرنا الله تبارك وتعالى بالزهد فيها مع السعي وراء ما يصلح من متاعها قال سبحانه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقد أثنى مولانا تبارك وتعالى على من يطلب الدنيا والآخرة، قال سبحانه:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

بخلاف من يطلب الدنيا وحدها، فقد قال الله عنهم: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

قال ابن كثير - رحمه الله -:

وقد جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا والآخرة، وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل.. إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينهما، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا.

وأما الحسنة في الآخرة، فأعلى ذلك دخول الجنة، وتوابعه من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب.. وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة.

وأما النجاة من النار، فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم، والآثام، وترك الشبهات والحرام[1].

---

(١) في البخاري من حديث أنس أن النبي ﷺ كان يدعو فيقول: «**اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**» «تفسير ابن كثير» (٣١٩/١) . ط. التوفيقية.

وقد فهم السلف الصالح - رضوان الله عليهم - ذلك، وعلموا أن الأخذ بنصيب من الدنيا لا ينافي الزهد فيها، ولذلك كانوا يقولون:

«ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا، أن تكون بما في يد الله ﷻ أوثق منك بما في يدك، وأن يكون حالك في المصيبة، وحالك إذا لم تُصب بها سواء، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء»(١).

وكان **بشر بن الحارث** - رحمه الله - يقول: «ليس الزهد في الدنيا، ترك الدنيا، إنما الزهد أن تزهد في كل ما سوى الله، فهذا داود وسليمان - عليهما السلام - قد ملكا الدنيا، وكانا عند الله من الزاهدين»(٢).

وهذا هو نفس المعنى الذي قاله **الإمام ابن القيم** - رحمه الله - حيث قال:

«وليس المراد تخليها من اليد، ولا إخراجها، وقعوده صفرًا منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية، فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه، وإن كانت في يده، فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك، وهي في يدك..

قال: وهذا كحال الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز، الذي يُضرب بزهده المثل، مع أن خزائن الأموال كانت تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم ﷺ حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح، ولم يزيده ذلك إلا زهدًا فيها»(٣).

الأمور التي تُعين على الزهد:

أخي المسلم... أختي المسلمة...

والذي يصحح هذا الزهد، ويعين عليه ثلاثة أمور:

أحدها: علم العبد أنّ الدنيا ظل زائل، وخيال زائل، فهي كما قال سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ [الحديد: ٢٠]،

(١) ذكره البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/٤٠٥).

(٢) «الزهد الكبير» للبيهقي (ص٧٤).

(٣) «طريق الهجرتين» لابن القيم الجوزية (ص٢٩١) ط. التوفيقية.

وسماها الله ﷻ: ﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ ونهانا عن الاغترار بها، وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين، وحذرنا مثل مصارعهم، وذم من رضي بها، واطمأن إليها.

والثاني: علمه أنَّ وراءها دارًا أعظم منها قدرًا، وأجل خطرًا، وهي دار البقاء، فالزهد فيها، لكمال الرغبة فيما هو أعظم منها.

والثالث: معرفته وإيمانه الحق، بأنَّ زهده فيها لا يمنعه شيئًا كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يُقض له منها، فمتى تيقن ذلك، ثلج له صدره، وعلم أن مضمونه منها سيأتيه.

فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد في الدنيا، وتثبت قدمه في مقام الزهد.



خلق الزهد في حياة الرسول ﷺ

لقد كان زهد الحبيب المصطفى، والرسول المجتبى ﷺ المثل الأعلى لأنه كان زهد المختار القادر، وليس بزهد العاجز الضعيف..

ولأنه المؤمن بأن الاستمتاع المباح حلال..

وقد كان زهده في كل نواحي الحياة، وقد ربى بزهده هذا رجالاً كثيرًا حملوا راية الإسلام عالية خفاقة، ورفعوا مشعل الهداية، منصرفين عن الخضوع للذات، ومآرب النفوس.

زهده في العيش:

يروي لنا الصحابي الجليل، والمحدث العظيم، أبو هريرة ﷺ موقفًا من مواقف زهده..

١- فيقول: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر الصديق ﷺ وعمر بن الخطاب، فقال رسول الله ﷺ : **«ما أخرجكما من بيوتكما الساعة؟»** قالا: الجوع يا رسول الله، قال: **«وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا، فقاموا معه»** فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته، قالت: مرحبًا وأهلاً، فقال رسول الله ﷺ : **«أين فلان؟»** قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصحابيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني، قال: فانطلق، فجاءهم بعذق بُسر وتمر، ورطب فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ : **«إياك والحلوب»**.

فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: **«والذي نفسي بيده، لتسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا، حتى أصابكم هذا النعيم»**[1].

---

(١) صحيح: رواه مسلم ورواه أبو يعلى في «مسنده» (٦١٨١)، والطبراني في «الكبير» (٥٧١).

٢- وهذا هو جابر بن عبد الله الأنصاري، يقص علينا موقفًا من مواقف زهده في العيش، فيقول ﷺ: «ظللنا ثلاثة أيام، ونحن نحفر الخندق، ما ذقنا فيها ذواقًا،ما أكلنا شيئًا، حتى كان الرجل يربط على بطنه الحجر من شدة الجوع..

قال: فاعترضتنا كُدية عظيمة، لا تعمل فيها المعاول..

قال: فجئتُ النبي ﷺ فرأيته والجوع بادٍ على وجهه، وقد ربط الحجارة على بطنه، فقلت: يا رسول الله، كُدية عظيمة، لا تعمل فيها المعاول.. قال: فقام، وأرى الجوع عليه، فأمسك المعول، وقال: «**بسم الله**» وضربها، فصارت كثيبًا أهيل، فاستأذنته أن أذهب إلى بيتي، فأذن لي، فذهبت إلى امرأتي، فقلت لها: ما عندك من الطعام؟ لقد رأيتُ شيئًا، ما لي عليه صبر، رأيتُ الجوع في وجه النبي ﷺ فقالت: ما عندي إلا عناق، ووسق من شعير..

قلت: اعجني، واذبحي العناق..

فقالت: إياك أن تفضحني برسول الله ﷺ - ومن معه - أي لا تأتيني بعدد كبير، ولكن أسر إليه أن يأتي مع قليل من أصحابه..

فجاء جابر، وهمس في أذن النبي ﷺ وإذا بالنبي ﷺ يصيح في أهل الخندق، ويقول:

«**يا أهل الخندق، قد وضع جابر لكم طعامًا**».

قال جابر: فأدركني من الحياء ما لا يعلمه إلا الله..

قال لي: «**انطلق إلى امرأتك، وأخبرها أن لا تخبز، ولا تضع اللحم على النار، حتى آتي..**» فجاء النبي ﷺ وكل أصحابه، فلما رآهم امرأتي، قالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلتِ لي..

قالت: فرسول الله أعلم بما قال..

فقال ﷺ : «**أين اللحم؟**» فجئتُ به، فبصق فيه وبارك.. ثم قال: «**أين العجين؟**» فجئت به، فبصق فيه وبارك.

قال جابر: وأقسم بالله، لقد أكلوا حتى تحولوا وتركوه، واللحم كما هو، والعجين كما هو[١].

٣- وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت لابن أختها عروة بن الزبير - رحمه الله - : «إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ فقال: وما كان يُعيشكم يا خالة؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، كان لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم، فيسقيناه»[٢].

٤- وأخرج مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ وهو يذكر ما أصاب الناس من الدنيا، فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يتلوى - أي من الجوع - ما يجد دقلاً يملأ بطنه[٣].

٥- وتصف السيدة أم سلمة - رضي الله عنها - طعام الرسول ﷺ ليلة عرسه بها، فتقول: رأيتُ جرة فيها شيء من شعير، فإذا رحى وبرمة، وقدر وكُعب، فأخذتُ الشعير، فطحنته، ثم عصدته في البُرمة وأخذت الكُعب فأدمته، فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام زوجته ليلة عرسه.

٦- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا وأهله، لا يجدون عشاء، قال: وكان أكثر خبزهم، خبز الشعير.

زهده في الملبس والأثاث:

لقد كان ﷺ من أشد الناس زهدًا في اللباس، فكان يلبس الصوف، ويجلس على الأرض، وينام على الحصير، ويأكل ويشرب في آنية الخشب أو الفخار، حتى كان أصحابه العظماء، يحزنون لذلك، فتأمل ذلك:

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد والحاكم.

(٢) صحيح: رواه البخاري وابن ماجه وأحمد وابن خزيمة والحاكم.

(٣) صحيح: رواه مسلم وأحمد، والبزار وأبو يعلى.

١- يدخل عليه فاروق هذه الأمة، عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكئ على وسادة حشوها ليف، قال: فسلمت عليه.. إلى أن قال: فرفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيتُ في بيته شيئًا يرد البصر غير أهب ثلاثة - أي جلد - فقلت: يا رسول الله، ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسِّع عليهم، وأُعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، قال: «**أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجلتْ لهم طيباهم في الحياة الدنيا**» فقلت: يا رسول الله استغفر لي[1].

وفي رواية أخرى:

«أنّ عمر قال: فبكيتُ، فقال النبي ﷺ.. «**وما يبكيك؟**» قال: فقلت: يا رسول الله، إن قيصر وكسرى فيما هم فيه، وأنت يا رسول الله..

وفي رواية أخرى قال: فابتدرت عيناي، فقال: «**ما يبكيك يا ابن الخطاب؟**» قال: فقلت: وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الأنهار والثمار، وأنت يا رسول الله وصفوته...

٢- صلى يومًا في خميصة لها أعلام، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «**اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم، وائتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني عن صلاتي**»[2].

فتأمل رضا النبي ﷺ بالحال الذي هو عليه لعلمه بقدر الدنيا، وما يدخره الله لعباده المؤمنين في الآخرة..

٣- وعن أبي بُردة - رحمه الله - قال: دخلتُ على عائشة - رضي الله عنها - فأخرجت إلينا إزارًا غليظًا مما يُصنع باليمن، وكساءً من التي يسمونها الملبدة، فأقسمتُ بالله، أن رسول الله ﷺ قُبض في هذين الثوبين[3].. والملبدة: أي المرقعة..

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح: متفق عليه، رواه البخاري ومسلم وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٣٧٦)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٥٥٠)، والنسائي (٧٧١)، و«المشكاة» (٧٥٧).

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٣٦)، ورواه مسلم.

ولذلك يقول أبي بردة، قال: قال لي أبي: يا بُني لو رأيتنا ونحن مع نبينا ﷺ وقد أصابتنا السماء، حسبتُ أن ريحنا ريح الضأن[١].

٤- وقد أراد ابن مسعود ﷺ ذات يوم أن يتخذ له وطاء يجعله بينه وبين الحصير، لمّا رآه قد أثّر في جنبه الشريف، فلم يرض عليه الصلاة والسلام بذلك، وقال له: «**مالي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها**»[٢].

وكان لا يلبس الحرير، وحذر من لبسه للرجال، فقال ﷺ: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[٣].

ولما أهدى إليه أكيدر بن عبد الملك - صاحب دومة الجندل - فروج حرير، فلبسه - قبل تحريم الحرير - فصلى فيه، ثم انصرف فنزعه نزعًا شديدًا، كالكاره له، وقال: «**لا ينبغي هذا للمتقين**»[٤].

٥- ورغم أنه ﷺ كان من أشد الناس زهدًا في اللباس، فكان يلبس الصوف تارة، والقطن تارة، والكتان تارة أخرى، إلا أنه كان إذا تيسر لبس أفضل الثياب وأحسنها كان يلبسها.. ففي «سنن أبي داود» من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما خرجت الحرورية، أتيتُ عليًّا ﷺ فقال: أتيت هؤلاء القوم، فلبستُ أحسن ما يكون من حلل اليمن - قال أبو زميل: وكان ابن عباس رجلاً جميلاً جهيرًا - قال ابن عباس: فأتيتهم، فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس، ما هذه الحُلّة؟ قال: ما تعيبون عليَّ؟ لقد رأيتُ على رسول الله ﷺ أحسن ما يكونَ من الحُلَلِ[٥].

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٣٣).

(٢) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجة» (٤١٠٩)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣٧٧)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وفي «صحيح الجامع» (٥٦٦٨)، و«المشكاة» (٥١٨٨)، و«صحيح الترغيب» (٣٢٨٢).

(٣) صحيح صححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٤)، وابن ماجه (٣٥٨٨)، والترمذي والنسائي وفي «صحيح الجامع» (٦٥٢٥)، وفي «مشكاة المصابيح» و«صحيح الترغيب».

(٤) صحيح رواه البخاري وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (٧٧٠)، و«صحيح الجامع» (٧٧٩٨)، و«المشكاة».

(٥) حسن: حسن إسناده الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

٦- عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كانت وسادة رسول الله ﷺ التي كان يتكئ عليها، من أدم حشوه ليف[١].

وعنها - رضي الله عنها - قالت: كان فراشه ﷺ الذي ينام عليه، أدمًا حشوه ليف[٢].

هل ادخر الرسول ﷺ شيئًا؟

لم يكن النبي ﷺ كما رأيت وعلمت أخا الإسلام من الذين يدخرون شيئًا لغد، لأن في الادخار حرص وطمع، وسوء ظن بالله ﷻ..

وفي «البخاري» من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير، أخذها لأهله[٣]..

وفي رواية الترمذي.. بعشرين صاعًا من طعام، أخذه لأهله.

وفي حديث جويرية بنت الحارث - رضي الله عنها - قالت: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته، درهمًا، ولا دينارًا، ولا عبدًا، ولا أمة، ولا شيئًا، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضًا جعلها صدقة[٤].

وعن أبي هريرة ﷺ أنّه مرَّ بقوم بين أيديهم شاة مصلية فدعوه فأبى أن يأكل، وقال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا و لم يشبع من خبز الشعير[٥].

ومع هذا كله لو طلب من مولاه تبارك وتعالى أن تكون بطحاء مكة كلها ذهبًا، لصارت له، ولكنه آثر أن يجوع يومًا فيصبر، ويشبع يومًا فيشكر.. صلوات ربي وتسليماته عليك يا رسول الله، فأنت القائل:

«أوتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق عليه قطيفة من سندس»[٦].

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم. وأدمًا: أي مصنوع من جلد الحيوانات.
(٢) صحيح: رواه مسلم والترمذي وابن ماجه وابن حبان وأحمد.
(٣) صحيح: رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان وأحمد والطبراني في الأوسط وابن أبي شيبة.
(٤) صحيح: رواه البخاري وأبو داود وأحمد في «مسنده» والبيهقي في «الكبرى» والطبراني في «الكبير».
(٥) صحيح: رواه البخاري وابن ماجه وأبو يعلى والبزار وابن أبي شيبة والبيهقي في «الشعب»، والطبراني.
(٦) حسن: رواه أحمد في «مسنده» وابن حبان في «صحيحه».

أنبياء الله يزهدون أتباعهم في الدنيا

أخي المسلم ...

وقد كان أنبياء الله عليهم السلام يزهدون أتباعهم في الدنيا، لعلمهم بحقيقتها، فهي ما حلت إلا أوحلت، ولا كست إلا أوكست، ولا دنت إلا أودنت..

قال الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - قيل لموسى عليه السلام:

«يا موسى، أيحزن عبدي المؤمن أن أزوي عنه الدنيا، وهو أقرب لها مني، ويفرح أن أبسط له الدنيا، وهو أبعد لها مني»(١).

وكان سيدنا عيسى عليه السلام يعظ الحواريين قائلاً:

«اعبروها، ولا تعمروها، وارضوا بدَني الدنيا مع سلامة الدين، كما رضى أهل الدنيا بدَني الدين مع سلامة الدنيا..

وكما ترك لكم الملوك الحكمة، فكذلك، فاتركوا لهم الدنيا»(٢).

وكان يُحذر من الوقوع في شراكها.. فيقول:

«ويلٌ لصاحب الدنيا، كيف يموت ويتركها، ويأمنها وتغره، ويثق بها وتخذله، وتمكر به..

ويلٌ للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون، وفارقهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون.. وويل لمن كانت الدنيا همه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غدًا بذنبه»(٣).

وقال عليه السلام: «ما سكنت الدنيا في قلب عبدٍ إلا وأنيط قلبه منها بثلاث: شغل لا ينفك عناؤه، وفقر لا يدرك غناه، وأمل لا يدرك منتهاه..

الدنيا طالبة ومطلوبة، فطالب الآخرة، تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب

---

(١) حسن: رواه أحمد في «الزهد» وابن أبي الدنيا.

(٢) صحيح: رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٦)، وأحمد في «الزهد» وابن أبي الدنيا (٣٢)، وأبو نعيم في «الحلية».

(٣) حسن: رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (٩٢).

الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت، فيأخذ بعنقه »[١].

وعن ليث قال: صحب رجل عيسى ابن مريم عليه السلام، فقال:

أكون معك وأصحبك.. قال: فانطلقا، فانتهيا إلى شط نهر، فجلسا يتغديان، ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين، فقال للرجل: من أخذ الرغيف؟ قال: لا أدري.

قال: ثم انتهيا إلى وادي ماء، فأخذ عيسى بيد الرجل، فمشيا على الماء، فلما جاوزا قال: أسألك بالذي أراك هذه الآية، مَنْ أخذ الرغيف؟

قال: لا أدري.

قال: فانتهيا إلى مفازة، فجلسا، فأخذ عيسى فجمع ترابًا، أو رملاً، ثم قال: كن ذهبًا بإذن الله، فصار ذهبًا، فقسمه ثلاثة أثلاث فقال: ثلث لي ، وثلث لك، وثلث لمن أخذ الرغيف.

فقال: أنا أخذت الرغيف.

قال: فكله لك..

قال: وفارقه عيسى فانتهى إليه رجلان في المفازة، ومعه المال، فأرادا أن يأخذاه منه، ويقتلاه، فقال: هو بيننا ثلاثًا.

قال: فابعثوا أحدكم إلى القرية، حتى يشتري طعامًا.

قال: فبعثوا أحدهم، فقال الذي بُعث: سأضع في هذا الطعام سمًّا فأقتلهما.

قال: ففعل - أي وضع سمًّا - وقال الآخران: لأي شيء نجعل لهذا ثلث المال؟ ولكن إذا رجع إلينا قتلناه، واقتسمناه بيننا.

قال: فلما رجع إليهما قتلاه، وأكلا الطعام فماتا..

قال: فبقى ذلك المال في المفازة، وأولئك الثلاثة قتلى عنده، فمرَّ بهم عيسى عليه السلام، وهم على تلك الحالة، فقال: « **هذه الدنيا فاحذروها** »[٢].

---

(١) إسناده حسن: رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٥)، وفي « القناعة » (١٦٢).

(٢) إسناده حسن: أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٨٧)، وأخرجه ابن عساكر في « تاريخه » كما ذكر في « الدر المنثور » للسيوطي (٢/٣٤).

فويل لمن كانت الدنيا همه، والخطايا عمله؟

ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها؟!

ويل له كيف يبقى بها وتغره؟! ويأمنها وتمكر به؟!

ويل للمغترين قد أتاهم ما يكرهون، وجاءهم ما يوعدون، وفارقوا ما يحبون!

عجبت من طالب الدنيا والموت يطلبه!

وعجبت من باني القصور، والقبر منزله!

وعجبت من ضاحك ملء فيه، والنار موعده!

ابن آدم، لا بالكثير تشبع، ولا بالقليل تقنع، تجمع مالك لمن لا يحمدك، وتقْدمُ على رب لا يعذرك..

ابن آدم، أمورك تدور على ثلاثة: أمرٌ بان رشده، فاتبعه، وأمرٌ بان لك غيه، فاجتنبه، وأمرًا أشكل عليك، فكِلْهُ إلى مولاك..

وقد مضى أمسك، ولعلك قد وُعظتَ به، وجاءك اليوم الذي أنت فيه، فلتتزود منه، وغدًا لا تدري ما الله فاعل بك، فاحذره..



جزاء من زهد في الدنيا

أخي المسلم .. أختي المسلمة ..

وقد وعد الله تعالى من يزهد في الدنيا الأجر العظيم، والثواب العميم، فقال جل في علاه:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

وقال سبحانه:

﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقال جل في علاه:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص: ٦٠].

ولا تظنن أن الله ﷻ حين زوى الدنيا عن أهل الإيمان أنه ما أحبهم، بل إن ذلك من حبه لهم.. قال ﷺ: **«إذا أحب الله ﷻ عبدًا حماهُ الدنيا، كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء»**(١).

وقد ذكرت لك آنفًا قول النبي الأعظم، والرسول الأكرم ﷺ: **«ازهد في الدنيا يحبك الله...»** ولا تظنن أن الأموال الكثيرة، والأرباح الوفيرة، والفرش الوسيرة من رضا الله، أو حبه للعبد، بل هذا وذاك ابتلاء من الله ﷻ:

---

(١) حسن: رواه أبو يعلى في «مسنده» (٦٨٦٥)، والطبراني في «الكبير» (١٧).

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥- ١٧].

كلا.. ليس الأمر كما تقولون، وكما تدعون، ليس كل من كان لديه مال كثير قد فاز برضوان الله، وليس كل من ضيق عليه يكون قد باء بغضب من الله!!

لكن قد يقول قائل: ما بال الكفرة والملاحدة يتنعمون بأرزاق الله، وبالأموال الكثيرة، وبالأرباح والتجارات؟

أقول لك: إذا رأيت الرجل في نعمة، وفي يُسر من العيش، وهو عاصٍ، أو كافر فاعلم أنه استدراج له من الله ﷻ.. قال سبحانه:

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

والزهد في الدنيا يريح القلب والجسد..

وقال ﷺ: **«من كانت الدنيا همَّه، فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»**[1].

تأمل الفارق بين الصنفين:

الصنف الأول: وهم طلاب الدنيا ومحبيها.

والصنف الثاني: الذين يزهدون فيها.

فكان جزاء الصنف الأول أن الله شتت شملهم، وفرق جمعهم، وكانوا في عناء وهمٍّ، ولم ينالوا إلا ما قدره الله لهم.. وأما الزاهدون، فجعل غناهم في قلوبهم، وجمع شملهم، وأتتهم الدنيا وهي راغمة..

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٣).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: تلا رسول الله ﷺ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ [الشورى: ٢٠].

ثم قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنًى، وأسدُ فقرك، وإلا تفعل ملأتُ صدرك شغلاً، ولم أسُد فقرك»[1].

ولذلك قال ﷺ على من زهد في اللباس تواضعًا:

«من ترك اللباس تواضعًا وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق، حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها»[2].

وأوحى الله إلى موسى الطَّيِّلاً:

«يا موسى، إنّه لم يتصنع لي المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرب إليّ المتقربون، بمثل الورع عمَّا حرَّمت عليهم، ولم يتعبد إليّ المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي..

قال موسى: يا رب البرية كلها، ويا مالك يوم الدين، ويا ذا الجلال والإكرام ماذا أعددتَ لهم، وماذا جزيتهم؟

قال: أمَّا الزهَّاد في الدنيا، فإني أبحتهم جنتي يتبوءون منها حيث شاءوا وأما الورعون عما حرمت عليهم، فإنه إذا كان يوم القيامة، لم يبق عبد إلا ناقشته وفتشته إلا الورعون، فإني استحييهم وأجلهم وأكرمهم، فأدخلهم الجنة بغير حساب... »[3].



---

(١) صحيح: صححه الحاكم والألباني في «صحيح الجامع» (١٩١٤)، وابن حبان في «صحيحه» والترمذي وحسنه، وابن ماجه.

(٢) حسن: حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٤٥)، و«الصحيحة» (٧١٨)، و«صحيح سنن الترمذي» (٣٤٨١)، و«صحيح الترغيب» (٢٠٧٢).

(٣) لا بأس به: رواه الطبراني في «الكبير» (١٢٦٥٠)، والدمياطي في «المتجر الرابح» (٢٠١٢).

الرسول ﷺ يحثُّ أمته على الزهد

أخي المسلم... أختي المسلمة ...

وها هو رسول الله ﷺ يحث أتباعه على الزهد في الدنيا، فيقول:

١- فيما يرويه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**»[١].

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»[٢].

٣- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، أترى كثرة المال هو الغنى؟**» قلت: نعم.. قال: «**وترى قلة المال هو الفقر؟**» قلت: نعم يا رسول الله! قال: «**إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب**»[٣].

٤- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل**» فكان ابن عمر يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[٤]. وفي رواية: «وعد نفسك من أهل القبور».

قال ابن حجر: فيه إشارة إلى إيثار الزهد في الدنيا، وأخذ البلغة منها، فكما لا يحتاج

---

(١) **صحيح**: رواه الحاكم (٧٨٧٣) وصححه، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٢٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٤٤)، و«صحيح الجامع» (٩٢٢)، و«المشكاة» (٥١٨٧)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤١٠٢).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن حبان والبيهقي وأبو يعلى.

(٣) **صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٨١٦) و«صحيح الترغيب».

(٤) **صحيح**: رواه البخاري في «الرقاق» والترمذي وصححه الألباني في «الصحيحة» (١١٥٧)، و«صحيح الجامع» (٤٥٧٩) و«المشكاة» (١٦٠٤).

المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل[(١)].

وقال غيره: هذا الحديث أصل في الزهد في الدنيا، والاحتقار لها، والقناعة فيها.

وقال النووي - رحمه الله -: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه.

٥- وقال ﷺ : «**من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[(٢)].

٦- وقال: «**إذا نظر أحدكم إلى من فُضل عليه في المال، والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه**»[(٣)].

قال ابن بطال: هذا الحديث جامع لمعاني الخير، لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدًا فيها، إلا وجد من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به، استقصر حاله، فيكون أبدًا في زيادة تُقربه من ربه، ولا يكون على حال خسيسة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أخس حالاً منه، فإذا تفكر في ذلك، علم أنَّ نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فُضل عليه بذلك من غير أمر أوجبه، فيلزم نفسه الشكر، فيعظم اغتباطه بذلك في معاده.

وقال غيره: في هذا الحديث دواء الداء، لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسدًا، ودواؤه أن ينظر إلى من هو أسفل منه، ليكون ذلك داعيًا إلى الشكر[(٤)].

---

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني.

(٢) حسن : رواه ابن حبان (٦٧١)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١)، والصحيحة (٢٣١٨)، و«الأدب المفرد» (٣٠٠) و«المشكاة» (٥١٩١).

(٣) صحيح : رواه البخاري في «باب الرقاق»، ومسلم والبيهقي في «الشعب» (٤٥٧٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٨)، وفي «مشكاة المصابيح» (٥٢٤٢).

(٤) «فتح الباري».

٧- وقال ﷺ : «**طوبى لمن هُدِّي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا وقنع**»[(١)]. كفافًا: أي لا ينقص عن حاجته، ولا يزيد على كفايته، فيبطر ويطغى.

٨- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»[(٢)].

قال الطيبي: يمكن أن يكون معناه: أنَّ بني آدم مجبولون على حب المال، والسعي في طلبه، وأنه لا يشبع منه، إلا من عصمه الله، ووفقه لإزالة هذه الجبلة عن نفسه، وقليل ما هم[(٣)].

٩- كما زهد أمته في الطعام فقال ﷺ : «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات، يقمن صلبه، فإن كان لابد فاعلاً، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»[(٤)].

أخي الحبيب :

وتأمل حاله مع أزواجه - رضوان الله عليهن - كما روى جابر ﷺ قال: أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس فلم يُؤذن له، ثم أقبل عمر، فاستأذن، فلم يُؤذن له، ثم أُذن لأبي بكر وعمر، فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساءه، وهو ساكت.. فقال عمر: لأكلمنَّ النبي ﷺ لعله يضحك..

فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت بنت زيد - أي امراة عمر - فسألتني النفقة آنفًا، فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، قال: «**هن حولي كما ترى يسألنني النفقة**».

---

(١) **صحيح**: صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٤٩)، وقال الترمذي: حسن صحيح، و«صحيح الجامع» (٣٩٣١)، و«صحيح الترغيب» (٨٣٠).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم وابن حبان والطبراني في «الكبير» وأبو يعلى في «مسنده» والترمذي وعبد الرزاق في «مصنفه» والمنذري في «الترغيب»، والألباني في «صحيح الجامع» (١٧٨١).

(٣) «تحفة الأحوذي».

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي: وقال: حسن صحيح: وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»، و«الصحيحة» و«صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)، و«المشكاة» (٥١٩٢).

فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة ليضربها، وقام عمر ﷺ إلى حفصة، كلاهما يقول: تسألان رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ.

فقلن: والله، لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، فأنزل الله ﷻ الخيار..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

فبدأ الرسول ﷺ بعائشة رضي الله عنها فقال: **«إني أريد أن أذكر لك أمرًا ما أحب أن تعجلي فيه، حتى تستأمري أبويك»**.

قالت: وما هو؟ فتلا عليها الآيات...

قالت عائشة - رضي الله عنها - أفيك أستأمر أبويّ، بل أختار الله ورسوله، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت..

فقال: **«إنَّ الله ﷻ لم يبعثني معنفًا، ولكن بعثني معلمًا، ميسرًا لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها»**[1].

أسأل الله العظيم، رب العرش الكريم أن يجعلنا من الزاهدين في الدنيا.



---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٧٨٦)، ومسلم (١٤٧٨)، وأحمد في «مسنده» (١٤٤٥٢).

الفصل الثاني

الأخلاق السلوكية المتعدية

المبحث الأول: الرحمة.

المبحث الثاني: الوفاء.

المبحث الثالث: الحلم.

المبحث الرابع: الأمانة.

المبحث الخامس: الكرم.

المبحث السادس: العفو.



المبحث الأول

خلق الرحمة

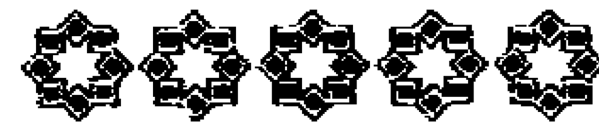
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وإذا رحمـــت فأنـــت أم أو أب

هـــذان في الدنـــيا همـــا الـــرحماء

أمير الشعراء

أحمد شوقي



خلق الرحمة

الرحمة في اللغة:

تدور مادة «ر ح م» حول معنى الرقة والعطف والرأفة.

يقول الجوهري: الرحمة والرقة والتعطف، والمرحمة مثلُهُ، وقد رحمته وترحمت عليه وتراحم القومُ: أي رحم بعضهم بعضًا، ورجلٌ مرحوم، ومُرَحَّمٌ، شُدِّد للمبالغة.

والرُحْمُ (بالضمة): الرحمة، قال تعالى: ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨١].

والرحمة: المغفرة، وقوله تعالى في وصف القرآن: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٢] أي فصلناه هاديًا وذا رحمة.

ومرحمة، قال تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد: ١٧].

أي أوصى بعضهم بعضًا برحمة الضعيف، والتعطف عليه.. وترحمت عليه:

أي قلت: رحمة الله عليه(١).

وتطلق الرحمة ويراد بها الرزق، قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ ﴾ [هود: ٩] أي رزقًا.

وسمى الله تعالى الغيث رحمة، لأنه ينزل من السماء برحمته.

والرَّحم: علاقة القرابة، وسميت رحم الأنثى «رحمًا» من هذا.

وأما في الاصطلاح:

فيقول الجاحظ: الرحمة خلق مركب من الود والجزع، والرحمة لا تكون إلا لمن تظهر منه لراحمه خَلّةٌ مكروهة، فالرحمة هي محبة للمرحوم مع جزعٍ من الحال التي من أجلها رُحِمَ(٢).

---

(١) «الصحاح» للجوهري (٥/١٩٢٩).

(٢) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص٢٤).

من معاني الرحمة في القرآن الكريم:

وقد وردت الرحمة في القرآن الكريم على عدة أوجه منها:

١- بمعنى أرزاق الإنسان والحيوان:

﴿ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

٢- بمعنى قطرات المطر - ماء الغيث - قال سبحانه:

﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الشورى: ٢٨].

٣- بمعنى العافية من الابتلاء والامتحان، قال جل في علاه:

﴿ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ ﴾ [الزمر: ٣٨].

٤- بمعنى النجاة من عذاب النيران، قال سبحانه:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ [النور: ١٠].

٥- بمعنى النصرة على أهل العدوان، قال تعالى:

﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ [الأحزاب: ١٧].

٦- بمعنى الألفة والمحبة بين أهل الإيمان قال سبحانه:

﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد: ٢٧].

٧- بمعنى وصف الكتاب المنزل على موسى (التوراة):

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود: ١٧].

٨- بمعنى الجنة، دار السلام، قال تعالى:

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] [الأعراف: ٥٦].



(١) «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» للفيروزآبادي، بتصرف واختصار (٢/٥٥ - ٥٨).

الرحمة صفة من صفات الله ﷻ

وقد وصف مولانا نفسه بالرحمة، كما وصف بها نبيه محمدًا ﷺ قال تعالى:

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقال جل ثناؤه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٠].

ولا يخفى عليك أن الله ﷻ قد افتتح كتابه باسمين عظيمين من أسمائه تعالى: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الفاتحة: ١]، فقد كتبها أحد العارفين في صحيفة وأوصى أن تُجعل في كفنه، فقيل له: أي فائدة لك فيه، فقال: أقول يوم القيامة: بعثت كتابًا، وجعلت عنوانه «بسم الله الرحمن الرحيم» فعاملني بعنوان كتابك[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

وقال سبحانه على لسان ملائكته الكرام، وهم أعلم الخلق بربهم: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧].

ولقد قرر الله تعالى في كتابه الكريم أن الرحمة صفة ثابتة له جل في علاه لا تزول عنه أبدًا، قال سبحانه: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

«وقد ظهرت آثار رحمته تعالى في الخليقة كلها، فما من أحد مسلم أو كافر إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا، فبها يتعايشون ويؤاخون، ويتوادون، وفيها يتقلبون، لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة لا حظ للكافر فيها»[2].

---

(١) «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي (٢١٨/١) ط. دار الغد.

(٢) «محاسن التأويل» للقاسمي (١٥٧/٧).

سمى الله نفسه رحمانًا رحيمًا، فكيف لا يرحم؟

روي أن سائلاً وقف على باب رفيع (غني) فسأل شيئًا، فأعطى قليلاً، فجاء في اليوم الثاني بفأس، وأخذ يخرب الباب، فقيل له: ولم تفعل؟ قال: إما أن يجعل الباب لائقًا بالعطية، أو العطية لائقة بالباب.

إلهنا..

إنَّ بحار الرحمة بالنسبة إلى رحمتك، أقل من الذرة بالنسبة إلى عرشك، فكما ألقيت في أول كتابك على عبادك صفة رحمتك، فلا تجعلنا محرومين عن رحمتك وفضلك.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة من السَّبي تحلبُ ثديها تسقي إذا وجدتْ صبيًّا في السَّبي، أخذتهُ فألصقته ببطنها وأرضعتهُ، فقال لنا النبي ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟**» قلنا: لا، وهي تقدر على أن تطرحه، فقال: «**لله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها**»(١).

فهو أرحم بنا من الوالدة بولدها...

ورحمته جل في علاه سبقت غضبه... قال ﷺ: «**لما خلق الله الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي**»(٢).

ورحمة الله عز وجل وسعت كل شيء.. وسعت المؤمن والكافر، والصالح والطالح، والحيوان الأليف منه والوحش، قال ﷺ:

«**إنَّ الله خلق يوم خلق السموات والأرض، مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة**»(٣).

ولما قام رسول الله ﷺ للصلاة يومًا، وقام أعرابي، وقال: «اللهم ارحمني ومحمدًا،

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٣٦١) [باب رحمة الولد]، ومسلم في «التوبة» [باب سعة رحمة الله] (٢٦٠١).

(٢) صحيح: رواه البخاري في «التوحيد» (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٣).

ولا ترحم معنا أحدًا» فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: «**لقد حجزت واسعًا**» يريد رحمة الله(١).

مظاهر رحمته تعالى بخلقه:

ومن أجَلّ مظاهر رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل معهم الكتب.. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

ومن رحمته سبحانه أن بعث الله خاتم النبيين محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء، وسيد رسله، وصفوته من خلقه، فكشف الله به الغمة، وأزاح به الظلمة، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، وجعله رحمة للعالمين، فقال سبحانه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال الحسين بن الفضل: لم يجمع الله تعالى لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا النبي محمد ﷺ.. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وقال سبحانه في حق رسوله ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فلولا رحمة الله بهم لما بعثه إليهم.

قال الحسن البصري: هذا خُلُق محمد ﷺ بعثه الله به.

ومن مظاهر رحمته تعالى أن خلق لعباده ما يسكنون إليه من الأزواج راحة لأنفسهم، وإحياءً لأصلهم، وتكاثرًا لنسلهم، قال تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٠١٠).

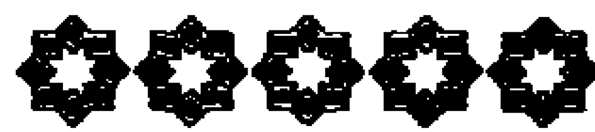
قصة:

حكى **إبراهيم بن أدهم** - رحمه الله - أنه قال: كنت ضيفًا لبعض القوم، فقدَّم المائدة، فنزل غراب وسلب رغيفًا، فاتبعته تعجبًا، فنزل في بعض التلال، وإذا هو برجل مقيد، مشدود اليدين، فألقى الغراب ذلك الرغيف على وجهه. أليست هذه من رحمة الله ﷻ؟!

إنَّ ولد الغراب عندما يخرج من قشر البيضة، يخرج من غير ريش، فيكون كأنه قطعة لحم أحمر، والغراب يفر منه، ولا يقوم بتربيته، فيجتمع عليه البعوض، لأنه يشبه قطعة لحم ميت، فإذا وصل البعوض إليه، التقمه وتغذى عليه، ولا يزال على هذه الحال، حتى يقوى وينبت ريشه، ويُخفي لحمه، فعند ذلك تعود أمه إليه.

ومن مظاهر رحمته سبحانه أنه خلق الجنة لمن أطاعه، وخلق النار وأعدها لمن عصاه.. قال ﷺ: «**اختصمت الجنة والنار إلى ربهما، فقالت الجنة: يا رب، يدخلني الضعفاء والمساكين، وقالت النار: يدخلني الجبارون والمتكبرون، فقال الله ﷻ للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي، أعذب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها**»[(١)].

ورحمته تبارك وتعالى بعباده رحمة واسعة لا تتناهى، ولا يستطيع أي مخلوق أن يذكرها على سبيل الحصر.



(١) صحيح: رواه البخاري في «كتاب التوحيد» ومسلم واللفظ له، والترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه ابن حبان في «صحيحه» وأحمد في «مسنده» وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٨٩٣).

تمثل خلق الرحمة في حياة الرسول

أخا الإسلام..

إن رحمة الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ عالمية، كما أخبر بذلك رب الكائنات، ورافع السموات في قوله جل في علاه:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فما من أحد من الجن أو الإنس إلا ونال قسطًا كبيرًا من رحمته، فالمؤمن بالهداية في الدنيا، والفلاح في الآخرة، والمنافق، لأنه أمن من القتل، والكافر بتأخير العذاب عنه.

بل إن جميع العوالم تدخل في هذه الرحمة بمقتضى الدلالة اللفظية لكلمة «العالمين» فتشمل عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الطير، وعالم الحيوان، فما هي مظاهر رحمته ﷺ؟

١- رحمته ﷺ بالرجال:

فداك أبي وأمي يا رسول الله، لقد كنت أمة من المشاعر والرقة، وعالم من المروءة، ومكارم الأخلاق، وها هو المحدث الكبير والصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ يكشف اللثام عن قطرة من فيض نداه، فيقول: «أصابني جهد شديد، فلقيت عمر بن الخطاب ﷺ فاستقرأته آية من كتاب الله ﷻ، فدخل داره، ففتحها عليَّ، فمشيت غير بعيد، فخررتُ لوجهي من الجهد، والجوع، فإذا برسول الله ﷺ قائم على رأسي فقال: «**يا أبا هريرة**» فقلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، فأخذ بيدي، فأقامني وعرف الذي بي، فانطلق بي إلى رحله، فأمر لي بعس من لبن، فشربتُ منه، ثم قال لي: «**عُدْ فاشرب يا أبا هر**» فشربت، ثم قال: «**عُد**» فعدتُ فشربت حتى استوى بطني، فصار كالقدح»[(١)].

سبحان الله.. لقد أبت فطنة الفاروق على وفرها أن تُدرك مطلب أبي هريرة، وأبت عفة أبي هريرة أن تُفصح عما يقصده، وإذا بصاحب القلب الرحيم إنه يعرف أن الجوع

---

(١) صحيح: رواه البخاري في «كتاب الأطعمة» وأحمد في «مسنده»، والحاكم (٤٢٩١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤٤٤١).

وحش فاتك لذلك كان يستعيذ به، فيقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع**»[1].

لقد جنبه مؤنة السؤال، وذل الرجاء، وانطلق به إلى أهله، فجاءه بإناء فيه لبن، وقدمه إليه، ليروي به ظمأه، ويطفئ لهيب جوعه، فشرب أبو هريرة، غير أن أدبه حال بينه وبين إفراغ الإناء، رغم شدة حاجته إليه، وما كان ذلك ليخفى على رسول الرحمة، ونبي الشفقة، وهو الذي رباهم على عينه، فقال له مرة أخرى ملاطفًا: «**عُد، فاشرب يا أبا هر**» وما أرق وألطف أن يُرخم الإنسان اسم صاحبه، فيتولد الود والمحبة التي تزيل الحواجز، وترفع الحرج..

فهل من مقتدٍ؟ وهل من مؤتسٍ؟!

قطرة أخرى من فيض رحمته:

وتلك القطرة ترسم لنا مظهرًا رائعًا من مظاهر اهتمامه بالشباب، ورحمته بهم، يرويها لنا البخاري في صحيحه من حديث سليمان بن مالك قال:

أتينا رسول الله ﷺ شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أنَّا قد اشتقنا إلى أهلنا، وسألنا عمن تركنا من أهلنا، فأخبرناه وكان رفيقًا رحيمًا، فقال:

«**ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم، وصلوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة، ليؤذن لكم أحدكم، ثم ليؤمكم أكبركم**»[2].

إن هذه النخبة الطاهرة جاءوا إليه ﷺ تاركين الأهل والولد، والتجارات والأموال، لينهلوا من حكمته، ويرتوون من علمه، ويتأدبون من أدبه، ويستكثرون من خيره، ويستضيئون بنوره، وقد استمر ذلك عشرون ليلة، غير أن شعورًا ما بدأ يتسرب إلى

---

(1) حسن: رواه ابن حبان (١٠٢٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٥٤٧)، و«صحيح سنن ابن ماجة» (٣٣٥٤)، و«صحيح سنن النسائي» (٥٤٦٨)، وقال: حسن صحيح.

(2) صحيح: رواه البخاري [كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم] والدارمي في «سننه» وابن حبان في «صحيحه» وأحمد في «مسنده» والبيهقي في «السنن» والدارقطني والطبراني في «الكبير» والبخاري في «الأدب المفرد».

قلوبهم، ثم يرتسم على صفحات وجوههم، يواريه الخجل، لقد شعروا بالحنين إلى أولادهم وأهليهم، فأدرك الرءوف الرحيم بفطنته ورحمته ذلك، فسألهم في ودٍ بالغ، وشفقة حانية، فهذا يخبر أنه ترك ولده، وذاك يخبر بأنه ترك زوجته، وآخر ترك أباه، فقال لهم - رأفة ورحمة بهم - : «**ارجعوا إلى أهليكم...**» فعادوا راشدين إلى أوطانهم وأهليهم لخيري دنياهم وأخراهم.

٢- رحمته بالآباء:

ومن رحمته بالآباء أن يأتي إليه رجل، فيقول: يا رسول الله، جئت أبايعك على الهجرة، ولكني تركت أبواي يبكيان، فيقول ﷺ: «**ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما**»(١).

وفي رواية لابن ماجه، قال الرجل: جئت أريد الجهاد معك، ابتغي وجه الله، والدار الآخرة، ولقد أتيت وإن والدي يبكيان، قال ﷺ: «**فارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما**»(٢).

تأمل أخي الحبيب.. إنّ الجهاد هو ذروة سنام الدين، والهجر من دار الكفر إلى دار الإيمان واجبة.. في الجهاد عز الإسلام، ورفعة المسلمين، ولكن برحمته وشفقته، وعلو همته وفطنته شعر أن وراء الرجل ما يؤرقه ترى ما هو؟ أهو ماله؟ فما عند الله خير وأبقى.. أهي زوجته؟ ففي الشهادة ثنتان وسبعون زوجة من الحور العين.. لكنه عرف أن سر ذلك أبواه.. فأمره أن يرجع إليهما.. ويرحم ضعفهما.. إنها رحمة تسمو إلى أعلى درجات الحنان والشفقة بالآباء والأمهات.

٣- رحمته بفقراء المسلمين:

أتاه سبيٌ، فشكت إليه فاطمة - رضي الله عنها - ما تلقى من مشقة في خدمة بيتها،

---

(١) صحيح: رواه ابن حبان والحاكم والنسائي وأحمد في «مسنده» والبيهقي في «شعبه» والبخاري في «الأدب المفرد» وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٢٨)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٧٨٢).

(٢) انظر السابق.

فماذا فعل نحوها؟ إنها فلذة كبده، لقد قال عنها: **«فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»**(١).

وزوجة من هي؟ إنها زوجة عليٍّ بن أبي طالب - ابن عمه - والذي قال في شأنه: **«أنت مني، وأنا منك»** وقال له يومًا: **«ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي»**(٢).

إنها أم من؟ إنها أم الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ سيدا شباب أهل الجنة، ومع كل هذا يقول لها ولعليٍّ: **«ألا أعلمكما خير مما سألتما؟ إذا أخذتما مضجعكما: أن تكبرا الله أربعًا وثلاثين، وتسبحا ثلاثًا وثلاثين، وتحمداه ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»**.

قال عليٌّ ﷺ: ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ قيل له: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين.

وفي رواية أنه قال لها: **«لا أعطيك خادمًا، وأدع أهل الصفة جياعًا، ولكن أبيعهم السبي، وأنفق عليهم»**.

فلقد اقتضت رحمته وشفقته بفقراء المهاجرين، الذين انقطعوا للعبادة وتعلم القرآن الكريم، أن يؤثرهم على ابنته وحبيبة قلبه، فلم يستجب لرغبتها في أن يعطيها خادمًا من السبي يعينها على أعمالها الشاقة في بيت الزوجية، وأخبرها في صراحة أنّ بيع واحد من السبي لإنفاق ثمنه على هؤلاء الفقراء خير من أن يعطيها إياه.

٤- رحمته بالمسلمين في العبادات:

ويظهر ذلك في عدم تكليفهم ما يشق عليهم من أمور العبادات وما يتعلق بها:

١- فقد شكا إليه رجل من أصحابه - رضوان الله عليهم - أنه يتأخر عن صلاة الصبح

---

(١) صحيح: رواه البخاري [كتاب الفضائل - باب مناقب قرابة الرسول] وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٥٢٦) في «الفضائل»، والنسائي في «الكبرى» (٨٣٧١)، والطبراني في «الكبير» (١٠١٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري والحاكم وأحمد في «مسنده» وأبو يعلى (٦٨٨٣)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٣٩٠)، والنسائي والطبراني في «الكبير».

في جماعة، بسبب أن الإمام الذي يصلي بهم كان يطيل الصلاة، قيل: إنه معاذ بن جبل ﷺ فغضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا، وقال: «**إنَّ منكم منفرين، فأيكم صلى بالناس فليتجوز** - أي فليخفف - **فإن فيهم الضعيف، والكبير، والمريض، وذا الحاجة**».

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أعظم رحمتك؟ وما أرهف مشاعرك، وما أنبل أخلاقك.

٢- ودخل ذات مرة مسجده المبارك، فإذا حبلٌ ممدود بين الساريتين، فقال: «**ما هذا الحبل؟**» فقالوا: حبلٌ لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال ﷺ: «**لا، حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد**».

٣- وقال ﷺ: «**يا أيها الناس، عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**».

٤- وكثيرًا ما كان يقول لأصحابه: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بكذا ......**». مثل قوله في السواك: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**».

وقال: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بتأخير العشاء إلى ثلث الليل، أو قال: نصفه.**»

٥- وكثيرًا ما كان يترك العمل وهو يودُّ أن يعمله خشية أن تقتدي به أمته، فيفرض عليهم، ثم لا يستطيعون.

تقول عائشة - رضي الله عنها -: «إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به، خشية أن يعمل به الناس، فيفرض عليهم».

كما دلت على ذلك قصة امتناعه عن الخروج إلى صلاة التراويح (القيام) في الليلة الثالثة، لما رأى أصحابه قد تجمعوا يريدون أن يأتموا به، فلما أصبح قال لهم: «**قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيتُ أنْ تُفرض عليكم**».

وتأمل ذلك الرجل الذي نذر أن يقوم ولا يقعد، ويصوم ولا يفطر، فماذا قال له صاحب القلب الرحيم، والنفس الرؤم ﷺ قال: «**مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه**»[1].

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٦٣٢٦)، وأبو داود (٣٣٠٠)، وابن ماجه (٢١٣٦).

وعند الإمام أحمد أنَّ امرأة نذرت أن تحج ماشية، فقال لأحد أصحابه: «**مرها، فلتركب، فإنَّ الله عن تعذيب أختك نفسها لغني**»(١).

بل تأمل رحمته بأصحابه وأتباعه، وأمته يوم أن ذهب إلى مكة فاتحًا، وكان ذلك في شهر رمضان، وكان صائمًا، لقد دعا بقدح من ماء، ورفعه حتى رآه الناس، ثم شرب رأفة ورحمة بهم، فقيل له بعد ذلك: إنَّ بعض الناس قد صام، فقال: «**أولئك العصاة، أولئك العصاة**»(٢).

مع أنه في غير رمضان نهاهم عن الوصال رحمة لهم، فقالوا له: إنك تواصل، فقال: «**إني لستُ كهيئتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»(٣). فكان يستطيع مواصلة الصوم، لكنه خشى المشقة والجهد على أصحابه رأفة ورحمة بهم، وتيسيرًا عليهم.

٥- رحمته بهم في الآخرة:

أخي الحبيب:

ولم تقتصر رحمة الحبيب محمد ﷺ على المؤمنين من أمته في الدنيا فقط، بل رحمته ممتدة إلى الآخرة أيضًا، ومظاهرها:

١- أنه اختبأ دعوته التي وعده الله تعالى أن يستجيب له فيها، شفاعة لأمته، كما قال ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**».

قال النووي - رحمه الله - معناه: أن كل نبي له دعوة متيقنة الإجابة، وهو على يقين من إجابتها، وأمَّا باقي دعواتهم فهم على طمع في إجابتها، وبعضها يُجاب، وبعضها لا يُجاب.

قال: وفي هذا الحديث بيان كمال شفقته ﷺ على أمته، رأفة بهم، واعتنائه بالنظر في

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٧٢٢٤)، وصححه حمزة الزين.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١١١٤)، والنسائي (٢٢٦٣)، والترمذي (٧٠٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١١٠٥).

مصالحهم المهمة، فأخر دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم.

٢- وينزل عليه أمين الوحي جبريل عليه السلام، فيجده يبكي فيسأله عن سر بكائه، فيقول: قرأت قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقوله على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١١٨] ثم رفع يديه وقال: «**اللهمَّ أمتي .. أمتي**» فقال له جبريل عليه السلام: السلام يقرؤك السلام ويقول لك: إنَّا سنرضيك في أمتك ولا نسوءُك... ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى: ٥].

فأي رحمة تلك، بل وأي شفقة هذه، إن يوم القيامة يوم عصيب، يوم : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢].

يوم ما أشده، ومع ذلك يكون رءوفًا رحيمًا بأمته، حين يفر المرء من أخيه، ويفر من صاحبته وبنيه.. صلى اللهم وسلم وبارك عليك يا إمام المرسلين، ويا قائد الغر المحجلين.

رحمته بالأطفال:

لقد كان ﷺ أرأف الناس وأرحمهم بأهله وعياله، والأخبار في ذلك كثيرة منها:

١- لقد أبصره الأقرع بن حابس التميمي وهو يقبل الحسن والحسين، فقال: إنَّ لي عشرة من الولد، ما قبَّلتُ منهم واحدًا.. فقال رسول الله ﷺ: «**أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك.. من لا يرحم لا يُرحم**»(١).

يا سبحانه الله.. اندهش الأقرع بن حابس حين رأى معنى الأبوة الحقة في سلوكيات رسول الله ﷺ نحو الحسن والحسين.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في [كتاب الأدب - باب رحمة الولد] ورواه مسلم (٢٣١٧)، ورواه البخاري أيضًا في [كتاب الأدب المفرد] برقم (٩٠).

لقد ظن الأقرع أن الأبوة فقط طعام لجوع البطون، وستر لعُرى الأبدان، ومأوى من لهيب الشمس، وصفع الرياح، فقال ذلك إما معاتبًا نفسه، معترفًا بجرمه، وإما أنه نادم على فظاظته وقسوته.. قال إنَّ لي عشرة من الأولاد ما قبلت منهم واحدًا.. فإذا بالرءوف الرحيم ينظر إليه نظرة كلها لوم وتوبيخ وعتاب، قائلاً له: «... **من لا يرحم، لا يُرحم**».

٢- أطال السجود يومًا وهو في صلاته، فقال له أحد أصحابه: يا رسول الله، إنك سجدت سجدة أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك، فقال: «**كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله، حتى يقضي حاجته**». وكان هذا الابن هو الحسن أو الحسين.

٣- كان يخطب على المنبر، فأقبل الحسن والحسين، عليهما قميصان أحمران، فجعلا يعثران ويقومان، فنزل وحملهما، وقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ ﴾ «**فرأيت هذين فلم أصبر**».. ثم أخذ في خطبته[1].

٤- يقول يوسف بن عبد الله بن سلام - رضي الله عنهما - : سماني رسول الله ﷺ يوسف، وأقعدني على حجره، ومسح على رأسي[2].

٥- وعن يعلى بن مُرَّة أنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ ودعينا إلى طعام، فإذا حسين يلعبُ في الطريق، فأسرع النبي ﷺ أمام القوم، ثم بسط يديه، فجعل الغلامُ يفرُّ ههنا، وههنا ويضاحكه النبي ﷺ حتى أخذه، فجعل إحدى يديه في ذقنه، والأخرى في رأسه، ثم اعتنقه، ثم قال: «**حسين مني، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينًا، الحسين سبط من الأسباط**»[3].

٦- كان يصلي وهو يحمل على عنقه أو على عاتقه (أُمامة) بنت زينب ابنته، وهي لأبي العاص بن الربيع، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[4].

---

(١) **صحيح** رواه الحاكم وصححه (٧٣٩٦)، والبيهقي في «الشعب» (١١٠١٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١١٠٩)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وابن خزيمة (١٨٠١).

(٢) **صحيح** رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٦١) وصححه الألباني.

(٣) **صحيح** رواه البخاري في «الأدب المفرد» وابن أبي الدنيا في «العيال» بإسناد صحيح.

(٤) **صحيح** رواه البخاري وأبو داود ومالك والطبراني في «الكبير» والدارمي في «سننه».

٧- وكان يلاعب زينب بنت أم سلمة، وهو يقول: «**يا زوينب، يا زوينب**»(١).

٨- ولما قُتل جعفر بن أبي طالب، في غزوة مؤتة، حزن النبي ﷺ وأسرع إلى دار جعفر، فدخل على زوجته أسماء بنت عُميس، فوجدها قد عجنت عجينها، وغسلت بنيها، ونظفتهم، ودهنتهم.. فلما رآهم بكى ثم قال: «**اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم**»(٢).

٩- وكان يرحم الأطفال، ويشفق عليهم، ويجلسهم في حجره، وكان يصفُّ عبد الله، وعبيد الله، وغيرهما من أولاد عمه العباس، ويقول: «**من سبق إليَّ فله كذا...**» فيستبقون إليه، فيقعدون على صدره، فيقبلهم، ويلتزمهم(٣)...

١٠- وعن أم خالد بنت خالد بن سعيد الأموية، قالت: أتيتُ رسول الله ﷺ مع أبي، وعليَّ قميصٌ أصفر، فقال رسول الله: «**سَنَهْ سَنَهْ**» أي حسنة بالحبشية، فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فنهرني أبي، فقال رسول الله ﷺ «**دعها**» ثم قال: «**أبلي وأخلقي ثم أبلي وأخلقي**»(٤).

١١- وعن عائشة - زوج النبي ﷺ - قالت: كان يؤتى بالصبيان ليدعو لهم بالبركة، ويحنكهم، فأتى بصبي، فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه بوله، و لم يغسله(٥).

١٢- وكان يخفف الصلاة رحمة بالأطفال والأمهات.. فعن أبي قتادة الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إني لأقوم في الصلاة، أريد أن أطولها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه**»(٦).

---

(١) **صحيح**: صححه الألباني في «الصحيحة» (رقم ٢١٤).

(٢) حسن: رواه الحاكم وأبو يعلى والبزار والبيهقي في «الكبرى»، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٦١١) و«صحيح سنن أبي داود» (٢١٦٥)، وأبو يعلى (٦٨٠١).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم وأحمد في «مسنده» (٢١١٥٧).

(٤) **صحيح**: رواه البخاري في [كتاب الجهاد باب من تكلم بالفارسية] والبيهقي في «شعبه» (٦٢٨٩) وابن أبي الدنيا في «العيال» (٢٣٩).

(٥) **صحيح**: رواه مسلم في [كتاب الطهارة] (٢٨٦) باب حكم بول الطفل الرضيع، والبخاري (٢٢٢).

(٦) **صحيح**: رواه البخاري [كتاب الآذان] وأحمد في «مسنده»، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥٣٨٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٩٩) وابن أبي الدنيا في «العيال» (٢٥٣).

بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

وإذا رحمت فأنت أمّ أو أبٌ هذان في الدنيا هما الرحماء

إن رحمته بأطفال المسلمين فوق كل رحمة، فهم مستقبل الأمة، وحبلها الممدود.

رحمته بضعفاء المسلمين:

لقد كان رحيمًا بضعفاء المسلمين من المساكين واليتامى والأرامل ونحوهم، وكان لهؤلاء عناية خاصة، ونظرة حانية من قلبه الرءوف الرحيم، ويظهر ذلك حين طلب منه أشراف قريش أن يجلس معهم وحده، ولا يجلسهم مع ضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب، وخبَّاب، وابن مسعود - رضي الله عنهم - لاستئنافهم عن مجالستهم، فطمع النبي ﷺ في إيمانهم، وأراد أن يجيبهم اتكالاً على إيمان أصحابه، فنهاه الله بقوله تعالى:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

لذلك أولاهم كامل رحمته ورأفته وشفقته، فقد روى أبو هريرة ﷺ فقال: كانت امرأة سوداء تقم المسجد، ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها، فقالوا: ماتت، قال: «**أفلا آذنتموني** - أي أخبرتموني لأصلي عليها، وأدعو لها- **دلوني على قبرها**»(١)، فدلوه، فصلى عليها، ثم قال: «**إنَّ القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإنَّ الله تعالى ينورها لهم بصلاتي عليهم**» وكان يقول: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين**»(٢) ويشير بأصبعيه السبابة والوسطى.. وكان يقول: «**ابغوني ضعفاءكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**»(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري في [الجنائز باب الصلاة على القبر بعد ما يُدفن] ومسلم في [الجنائز باب الصلاة على القبر] (٩٥٦) واللفظ له.

(٢) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٣) **صحيح**: صحيح «سنن أبي داود» للألباني (٢٥٩٤)، والترمذي وقال عنه: حسن صحيح.

رحمته بالأرقاء:

لقد شملت رحمته ﷺ الأرقاء والعبيد، فكان يوصي بهم خيرًا، وهذا هو أبو مسعود الأنصاري ﷺ يروي لنا قطرة من فيض رحمته التي عمت جميع العالمين، حتى العبيد فقال:

بينما أنا أضربُ غلامًا لي، إذ سمعتُ صوتًا من خلفي «**اعلم أبا مسعود**» مرتين، فالتفت، فإذا رسول الله ﷺ فألقيت السوط من يدي، فقال لي: «**والله لله أقدرُ عليك منك على هذا**»(١).

إنها دعوة تناهض الظلم.. دعوة لنصرة الضعفاء والمقهورين، دعوة كلها رحمة لتحمي الضعفاء المكسورين من ظلمة الجبارين.. لقد نادى على أبي مسعود نداء زلزله، وخوفه من عاقبة ذلك.. وما ذلك إلا رحمته ﷺ بالأرقاء وبالأسياد.. لأنه يمنعهم من الظلم الغاشم والقسوة والقهر لأولئك الضعفاء..

وهذا هو المعرور بن سويد يقول: لقيتُ أبا ذر الغفاري ﷺ وعليه حُلة، وعلى غلامه حُلةٌ، فسألته عن ذلك، فقال: سابيتُ رجلاً، فشكاني إلى النبي ﷺ فقال: «**أعيرته بأمِّه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم**»(٢)..

إن الذي أدهش الرجل أن الغلام يلبس مثل سيده، مما جعله يتساءل عن السبب وراء ذلك المنظر.. فذكر له العلة الكامنة خلف هذا المنظر العجيب..

وقد رغب الرحمة المهداة والنعمة المسداة ﷺ في عتق العبيد، فقال: «**أيما رجل أعتق امرأ مسلمًا، استنقذ الله بكل عضو منه عضوًا من النار**».

وقد كان من رحمته بهذه الفئة حرصه كل الحرص على مشاعرهم، فكان يجبر كسرهم، ويحسن إليهم، حتى آخر لحظة من لحظات حياته المباركة، حيث أوصى بهم، وقرن وصيته بأعظم شعيرة من شعائر الدين، فقال: «**الصلاة... الصلاة.. وما ملكت أيمانكم**».

وقد أرشد أصحابه إلى كيفية التعامل مع هذا النوع في الطعام أو الشراب فقال ﷺ :

---

(١) صحيح: رواه مسلم [كتاب الإيمان] (٢٤).

(٢) صحيح: رواه البخاري [كتاب العتق – باب قول النبي «العبيد إخوانكم»].

«إذا أتى أحدكم خادمه بطعام، فإن لم يجلسه، فليتناوله لقمة، أو لقمتين، أو أكلة أو أكلتين، فإنه ولي علاجه» لأنه هو الذي صنع لك الطعام، وهذا العمل يؤكد الأخوة في نفسه، لاعترافك له بالجميل، ووفاء له على الجهد والمشقة.

وتأمل كيف كان يتلطف مع هؤلاء الضعفاء يقول أنس بن مالك ﷺ: بعثني النبي ﷺ لقضاء حاجة، فأبطأت عليه، فتبعني، فوجدني في فتية يلعبون، فقال: **«يا أنيس، اذهب إلى حيث أمرتك»** لذلك يقول أنس: «خدمتُ النبي ﷺعشر سنين، فما قال لي أفٍ قط، ولا لِم صنعت هذا؟ ولا ألا صنعت هذا؟!».

رحمته بالحيوان:

أخا الإسلام:

إنَّ رحمة الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ تتعدى لتصل إلى الحيوانات.. إنه مشكاة يرتوي منها الرحماء، ومنهل عذب في الشفقة يرتشف منه الأرقاء..

يروي عنه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه - صلوات ربي وتسليماته عليه - يقول: **«عُذبت امرأةٌ في هرة حبستها، حتى ماتت جوعًا»** قال: أحسبه قال: **«لا أطعمتها، ولا سقتها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض»**.

لقد تحجر قلب تلك المرأة، حتى أنها خالفت ما فطر الله تعالى عليه بنات جنسها من رقة وعطف وحنان ورحمة، فحبست حيوانًا أليفًا، ليس لها حول ولا قوة.. إنها قطة صغيرة.. لا تحسن التعبير عن مدى جوعها وآلامها ومرارة الظلم الذي وقع عليها.. إنَّ صراخها واستغاثتها بلغتها كانت جديرة بتفتيت القلوب المتحجرة.. لذلك استحقت دخول النار.

وعلى العكس من هذه الصورة.. صورة المرأة التي سقت الكلب.. يروي ذلك هذا المشهد الإيماني المحدث الكبير أبو هريرة ﷺ فيقول: **«غُفِر لامرأة مومسة، مرت بكلب، على رأس ركي يلهث، قال: كاد يقتله العطش، فنزعت خُفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك»** لقد فاض صنيع هذه المرأة رحمة بهذا الحيوان الضعيف، فكان الله تعالى أرأف بها، وأرحم بها من نفسها، فأورثها السعادة الخالدة لجميل صنيعها وهذا حض

من الرءوف الرحيم أمته على الرحمة، لذا قد جاء في حديث يشبه هذا الحديث.. أن النبي ﷺ قال:

« بينما رجلٌ بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له ».

فقال أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، وإنَّ لنَّا في البهائم أجرًا، فقال: **« في كل ذات كبد رطبة أجرًا »**.

يا لروعة المنظر وقسوته.. رجل يسير في طريق ويشتد عليه العطش.. وما أشد قسوة العطش، بل اجتمع على الرجل صعوبات.. شدة العطش .. قسوة الطريق.. وافتقاد الرفيق.. وفي هذه الشدة وتلك القسوة يجد كلبًا يتألم من العطش، حتى أكل الثرى من العطش..

فما أجمل المواقف الصعبة التي تجعل الإنسان يشعر بالآخرين.. ويرحم من حوله..

وهذا موقف آخر فيه من الرحمة والشفقة بالحيوان ما فيه يرويه لنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنه فيقول: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه، فسكت، فقال: **« من رب هذا الجمل؟ »** فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، فقال: **« أفلا تتقي الله في هذه البهيمة، التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتدئبه »**[1].

سبحان الله.. وكأنَّ هذا الحيوان الأعجم يعرف أنه الرحمة المهداة فيبكي كما يبكي الإنسان.. ويذرف الدموع..

لذلك أوصى رسول الله ﷺ بهذه الحيوانات خيرًا، وأوصى أمته بالرحمة والشفقة

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٢٤٨٥) وصححه، ورواه أحمد وأبو يعلى والبيهقي في « السنن » وصححه الألباني في « الصحيحة » برقم (٢٠)، و« صحيح سنن أبي داود » (٢٠٤٩).

عليها.. يمر يومًا من الأيام على بعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: «**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة**»(١).

وقال: «**إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله ﷻ، إنما سخرها لكم لتبلغوا إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه، إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم**»(٢).

وقال: «**اركبوا هذه الدواب سالمة، وايتدعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي**»(٣).

وعن جابر ﷺ قال: مرَّ رسول الله ﷺ بحمارٍ قد وسم في وجهه، فقال: «**أما بلغكم أني قد لعنتُ من وسم البهيمة في وجهها، أو ضربها في وجهها، فنهى عن ذلك**»(٤).

وجاءه رجل فقال: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة، فأرحمها، قال: «**والشاة إن رحمتها رحمك الله**» وزاد البخاري مرتين(٥).

ويمر يومًا فيجُد رجلاً واضعًا رجْله على صفحة شاة، وهو يُحد الشفرة وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: «**أفلا قبل هذا؟ أتريد أن تميتها موتتين**». (٦)

أخا الإسلام:

إنَّ اللسان يعجز، والقلم يقف عاجزًا عن أن يصف تلك الرحمة، وهذه الشفقة.. إنها رحمة منقطعة النظير.. رحمة فوق ما يتوقع الإنسان.. لأن أخلاقه فوق ما يتوقع الناس.. في سيره إلى مكة عام الفتح رأى على ماء في الطريق كلبة تهر على أولادها، وهن حولها.. فماذا يفعل الرحمة المهداة؟

لقد أمر رجلاً من أصحابه أن يقوم حذاءها، حتى لا يعرض أحد من الجيش لها، ولا لجرائها.

---

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني في «الكبير» وابن حبان وابن خزيمة وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٥٤٨).

(٢) صحيح: رواه البيهقي في «الشعب» و«السنن الكبرى» وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٢) و«صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٥٦٧).

(٣) صحيح: «السلسلة الصحيحة» رقم (٢١).

(٤) صحيح: «صحيح سنن أبي داود» للألباني (٢٥٦٤)، و«الصحيحة» (١٥٤٩).

(٥) صحيح: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٤).

(٦) صحيح: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٦).

كان من المتوقع وهو في حالة الزحف بهؤلاء الجنود، وكانوا عشرة آلاف، ألا يعبأ بمثل هذا الحيوان النحس.. وكان متوقعًا أن لا يكلف أحدًا بحراستها وحمايتها، ولا بإبعاد الفزع عنها..

صلوات ربي وتسليماته عليك.. يا رسول الرحمة والشفقة.

رحمته بالطير:

١- لقد كان ﷺ رحيمًا حتى بالطير.. فقد كان يأكل لحم الطير الذي يُصاد، ولكنه لم يكن يتبعه، ولا يصيده، بل يحب أن يُصاد له، ويؤتى به، فيأكله..

٢- سافر معه بعض أصحابه، فرأوا حُمَّرة، معها فرخان.. يقول عبد الله بن مسعود ﷺ - راوي الحديث - فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمّرة، فجعلتْ تفرِّش، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: «**من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**» .

قال: ورأى قرية نمل قد أحرقت، فقال: «**من أحرق هذه؟**» فقلنا: نحن، فقال: «**إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار**»(١).

صلوات ربي وتسليماته عليك يا سيدي يا رسول الله.. ترحم أنثى طائر فُجعت بولدها، وتأمر أصحابك أن يردوا إليها فراخها رحمة بمشاعر الأمومة، وشفقة على ضعفها.

وتتألم لسرب نملٍ قد أحرقه أصحابك.. فماذا لو رأيت الأمهات من الآدميين، وهن يفجعن في أطفالهن في كل لحظة وأخرى..

تتألم لأجل طائرة وحشرة.. لأنك رحيم.. لأنك عطوف شفوق فكيف بك لو رأيت الأطفال البراء، ويد الغدر الآثمة تحصدهم من أحضان الآباء والأمهات..

فما للقلوب قد قست.. ما لها قد تحجرت.. بل صارت أقسى من الحجارة.. ورسولنا ﷺ وهو الذي بعثه الله رحمة للعالمين يقول: «**من رحم ولو ذبيحة عصفور، رحمه**

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٧٥٩٩) وصححه ووافقه الذهبي والطبراني في «الأوسط والكبير»، وأحمد في «مسنده» وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٦٧٥).

الله يوم القيامة»[1].

إن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما جاء على مصر فاتحًا وليحارب الروم أمر جنوده بأن يبنوا له فسطاطًا (خيمة) لتكون مركزًا للقيادة، ففر الروم إلى الإسكندرية، فسار ورائهم إلى الإسكندرية، فأمر بهدم الفسطاط، فعلم أن فوق خيمته يمامة باضت في أعلاها، فقال لهم آمرًا، لقد تحرمت في جوارنا، فاتركوا الفسطاط، حتى تطير فراخها، فتركوه.

رحمته بالجماد:

١- إنّ للجماد عالمه الخاص، وله أحاسيسه ومشاعره الخاصة، التي يجهلها الإنسان، لقصور إدراكه، غير أن رب العزة تبارك وتعالى قد أطلعنا على شيء من ذلك.. قال سبحانه: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩].
السماء تبكي.. والأرض تبكي وتتألم..

وكل منهما تسبح: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فقد كان صلوات ربي وتسليماته يخطب الناس يوم الجمعة على جذع نخلة منصوب في المسجد، فجاءه رومي: فقال: ألا أصنع لك شيئًا، تقعد عليه كأنك قائم؟ فصنع له منبرًا له درجتان، ويقعد على الثالثة، فلما قعد رسول الله ﷺ على المنبر جأر الجذع كجؤار الثور، حتى ارتج المسجد لجؤاره حزنًا على رسول الله ﷺ فنزل رسول الله عن المنبر، فالتزمه وهو يجأر، فلما التزمه سكت، فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو لم ألتزمه لما زال هكذا حتى تقوم الساعة حزنًا على رسول الله ﷺ** » فأمر به فدُفن.

وفي رواية البخاري: «وضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكن».

وفي لفظ: «فلما صنع له المنبر، سمعنا لذلك الجذع حنينًا كحنين الناقة الخلوج - أي التي انتزع منها ولدها»... ولله در القائل:

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٢٧).

وألقـى حـق في الجمـادات حـبه فكانـت لإهـداء السـلام له تُهـدى

وفـارق جذعًـا كـان يخطـب عنده فـأنَّ أنـين الأم إذا تجـدُ الفقـدا

يحـنُّ إلـيه الجـذعُ يـا قـوم هكذا أمـا نحـن أولى أن نحـنَّ له وَجَـدًا

إذا كـان جـذع لم يطـق بُعـد ساعة فلـيس وفـاء أن نطـيق له بُعـدًا

وفي رواية من حديث عائشة - رضي الله عنها - عند البيهقي في دلائل النبوة: أنه خير الجذع بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة.

وعند الدارمي من حديث بريدة.. قال: «**إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه، تنبت لك عروقك، ويكملُ خلقك، ويجدد لك خوص وثمرة، وإن شئت أغرسك في الجنة، فيأكل أولياء الله من ثمرك**» فقال: بل تغرسني في الجنة، فيأكل مني أولياء الله[(١)].

وحـنَّ إلـيه الجـذع شـوقًا ورقـة ورجـع صـوتًا كالعشـار مـرددا

فـبادره ضـمًا فقـرَّ لوقـته لكـل امـرئ مـن دهـره مـا تعودا

٢- وتأمل قطرة أخرى من فيض رحمته ﷺ بالجماد.. يرويها لنا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعًا وبدا له جبلُ أحدٍ، قال: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**»[(٢)].

صلوات ربي وتسليماته عليك يا رسول الله، وكأني بك وأنت تُحيي في الأمة مشاعرها السامية، وتغرس فيها القيم العالية، وتربطها بروابط الألفة والمحبة، مع كل ما حولها من موجودات..

وما أروع رحمتك.. وما أعظم شفقتك وعطفك يا سيدي يا رسول الله.

٦- رحمته بالكفار:

١- تقول أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قدمت عليَّ أمي وهي مشركة فسألت

---

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٦/٢٨)

(٢) صحيح: رواه البخاري [كتاب الجهاد والسير - باب الخدمة في الغزو].

النبي ﷺ أفأصلها؟ قال: «**نعم صلي أمك**»[١]. ثم نزل قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨].

٢- فعن جابر ؓ أنه لما حاصر أهل الطائف، جاء أصحابه، فقالوا: يا رسول الله، ادع عليهم، فقد أحرقتنا نبالهم، فقال: «**اللهمّ اهد ثقيفًا وائتِ بهم**»[٢].

٣- لما قدم الطفيل بن عمرو الدوسي على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ دوسًا قد عصت وأبت، فادع الله عليها، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ورفع يديه، وظن الناس أنّه يدعو عليهم، فقال: «**اللهمّ اهد دوسًا، وائت بهم**»[٣].

دعا لهؤلاء بالهداية، وهؤلاء كذلك بدلاً من أن يدعو عليهم، ولما قاتله أعداؤه، قالوا: يا رسول الله، ادع الله على المشركين، فقال بلسان الرءوف الرحيم: «**إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة**»[٤].

٤- وفي غزوة حنين، لما ساق بعض أصحابه - رضوان الله عليهم - الشيماء بنت الحارث أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، عنفوا عليها في السياق، فقالت لهم: اعلموا أني أختُ صاحبكم من الرضاعة، فلم يُصدقوها، حتى جاءوا بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن علامة، فقالت: عضة منك في ظهري، فعرف رسول الله ﷺ العلامة، فبسط لها رداؤهُ، فأجلسها عليه وخيرها، وقال: «**إن أحببتِ فعندي مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك، فعلت**» فقالت: بل تمتعني، وتردني إلى قومي. فأعطاها ثلاثة أعبد وجارية، وردها إلى قومها[٥].

٥- تسأله عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - يومًا، وتجري معه ﷺ هذا الحوار

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٩٤٢)، وقال: حديث صحيح، وأحمد في «مسنده» وابن أبي شيبة.

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم وابن حبان وأحمد والطبراني في «الكبير».

(٤) صحيح: رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

(٥) «زاد المعاد» لابن القيم.

الطيب، فتقول: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد؟.

فقال: «**لقد لقيتُ من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فيها، فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني: فقال: إنَّ الله عز وجل، قد سمع قول قومك لك، وهذا ملكُ الجبال أتاك لتأمره بما شئت فيهم..**

قال: فناداني ملكِ الجبال، وسلَّم عليّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني الله إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت.

فقال له رسول الله ﷺ : **بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له.. ولا يشرك به شيئًا**»(١).

إنه الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، لم يفعل مثل ما فعل نوح عليه السلام فقد دعا على قومه، فقال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦].

ولو دعا علينا بمثلها لهلكنا عن آخرنا.. لكنه رسول الله ورحمته للعالمين وفيض إحسانه على البشرية جمعاء.. لم يكن جوابه في أقسى لحظات حياته المباركة، إلا رحمة بالقوم، وأملاً فيما يأتي بعد من ذريتهم فقال: «**بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**» إنها أمنية تمناها الرحمة المهداة بنور نبوته، وبفيض رحمته، فحققها الله عز وجل، فأخرج من أبي جهل اللعين: ابنه عكرمة رضي الله عنه، ومن الوليد بن المغيرة – عليه اللعنة – خالد بن الوليد رضي الله عنه، ومن أُمية بن خلف – لعنه الله – صفوان بن أمية رضي الله عنه.

فأي رحمة تلك؟ وأي إخلاص في الدعوة هذا؟!

بل أي حرص على إعلاء هذا الدين؟ بل أي صبر هذا يكون على الكفر والضلال والعناد؟ أي إنسان كان هذا؟ إنه رسول الله ﷺ رحمة الله للعالمين.

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

٦- وتلك لمحة أخرى من فيض رحمته، وينبوع شفقته ﷺ يرويها لنا خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول:

كان غلامٌ يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلم» فنظر الغلام إلى أبيه، وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم الغلام فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»[1].

تأمل أخا الإسلام هذا السمو، وذلك التواضع، ونبل الغاية، سيد الأولين والآخرين يزور خادمًا، ليخفف عنه آلام مرضه، فيجلس منه جلسة رحمة وشفقة وعطف وحنان.. عند رأسه.. فيدعوه إلى الإسلام.. حيث الخلود الأبدي.. وتتحرك فطرة الغلام الكامنة حيث قال سيد الأولين: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه**».

فيتبع الغلام الحق، ويدخل قلبه نور الإسلام.. وتنتصر أبوة الرجل على يهوديته، فيقول لابنه: أطع أبا القاسم، فيطيعه ويسلم.. فيقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**» كان ميتًا بكفر فأحياهُ بالإيمان.. أحياه بالتواضع.. أحياه بفيض رحمته.. كما قال شوقي:

أخـوك عيسـى دعـا ميـتًا فقـام له وأنـت أحييـت أجيـالاً مـن الـرمم

والجهـل مـوت فـإن أوتيت معجزة فابعـث مـن الجهل أو فابعث من الفدم

فصلوات ربي وتسليماته عليك يا سيدي يا رسول الله.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الرحماء، وأن يرحمنا برحمته يوم لقائه... بفضلك يا رب العالمين..



(١) **صحيح** رواه البخاري [كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي فمات] وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٠٩٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٩٦٠)، وأحمد في «مسنده»، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٣٥٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٢٤٠١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٣٤).

المبحث الثاني

خُلق الوفاء

فما هو الوفاء؟

الوفاء في اللغة:

الوفاء مصدر قولهم: وفى يفي وفاءً، وهو في اللغة: ضد الغدر وهو إتمام العهد، وإكمال الشرط، يُقال: استوفيت الشيء إذا أتممته أو أكملته.

قال الراغب: الوافي، الذي بلغ التمام من كل شيء، ووفى بعهده إذا تمم العهد، و لم ينقض حفظه.. وأوفى الكيل، أتمه و لم ينقص منه شيئًا، قال تعالى:

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقال: ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة:١].

والموافاة: أن توافي إنسانًا في الميعاد، توافينا في الميعاد، ووافيته فيه، وتوفّي المدة بلغها واستكملها.

وفي حديث زيد بن أرقم: «**وفتْ أُذُنُك، وصدق الله حديثك**».

وفي الاصطلاح:

قال الجرجاني: هو ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء[1].

وقال الجاحظ: الوفاء هو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه، ويرهنه به لسانه – أي أن الإنسان يصبح رهينة بما ينطق به لسانه، ولا يكون وفيًا إلا إذا حرر نفسه بالوفاء بما التزم.

---

(١) انظر «التعريفات» للجرجاني و«المفردات» للراغب، و«تهذيب الأخلاق» للجاحظ.

وقال الراغب: الوفاء بالعهد: إتمامه، وعدم نقض حفظه.

وقال: الوفاء واللسان والفعل معًا.

مكانة هذا الخلق العظيم:

وخلق الوفاء من أعظم الأخلاق، ومن أفضل السلوكيات الاجتماعية فالوفاء ينتج عن الثقة المتبادلة، وبالثقة تنتظم الأمور، وتنجز الشئون وتستقيم الأعمال، وتؤدى المصالح على أحسن حال، والثقة لا تتحقق إلا إذا أدى كل إنسان ما عهد إليه، وألزم به نفسه، يقول القائل:

إذا قُلت في شيء «نعم» فأتمه فإنَّ نعم دين على الحر واجب

وإلا فقل: «لا» تسترح وترح بها لئلا يقول الناس إنك كاذب

فبالثقة يسعد الناس، ويصلون إلى الفوز والفلاح، وإذا انعدمت الثقة ذهب الاطمئنان، ولكن لا تكون الثقة إلا عن أمانة ووفاء.

قال العلماء: إن الوفاء يختص بالإنسان، فمن فقده، فقد انسلخ من إنسانيته كالصدق.

يقول الراغب: الوفاء أخو الصدق والعدل، والغدر أخو الكذب والجور، ذلك أن الوفاء صدق اللسان والفعل معًا.

وكفى الوفاء شرفًا وقدرًا أنَّ رب العزة والجلال وصف به نفسه، فقال تباركت أسماؤه، وتقدست صفاته: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:١١١]، لا أحد أوفى بعهده، ولا أصدق في إنجاز وعده من الله جل جلاله، فهو سبحانه أصدق الواعدين، وأوفى المعاهدين.

وهو سبحانه الذي سيوفي كل إنسان حقه، سواء كان مستقيمًا أو منحرفًا، صالحًا كان أم طالحًا، فكلٌ وما يستحقه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال عن أهل الإيمان: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [فاطر: ٣٠].

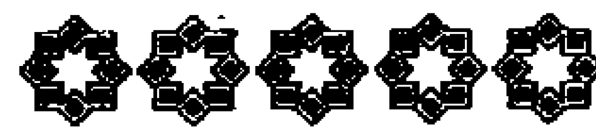
وقال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١].

ووصف الموفون بعهدهم بأنهم أولوا الألباب، أي أولوا العقول النيرة، والبصائر المستنيرة، قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝ ﴾ إلى أن بيَّن جزاءهم وثوابهم فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٤].

ولو تأملت الآيات المباركات لوجدت أن هذا الأجر العظيم لم يقتصر على الأوفياء فقط، بل تعدى إلى أصولهم كالآباء، وفروعهم كالأبناء، وأهلهم كالأزواج، وأي نعيم أعظم وأجل من أن يصحبه أصوله وفروعه، وأهلوه؟!

والأوفياء هم الأبرار الأخيار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ ﴾ [الإنسان: ٥ - ٧].

قال الإمام البيضاوي: سماهم الله أبرارًا، ومعلوم أن الأبرار لهم صفات كثيرة تدل على عظمة إيمانهم وتعبدهم، ولكن لم يذكر الله تعالى في هذه الآية الدالة على مبلغ ثوابهم وأجرهم إلا صفة الوفاء والخوف، وذلك لأن هذا الوصف أبلغ في التوفر على أداء الواجبات، لأن من وفى بما أوجبه على نفسه (النذر) كان أوفى بما أوجبه الله عليه بالأولى[1].



(١) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للبيضاوي ص(٧٧٤).

أنبياء الله ورسله شيمتهم الوفاء

وكما أن الوفاء صفة من صفات المؤمنين الصادقين، وحلية أهل الجنة والسعداء، وعلى رأس هؤلاء: أنبياء الله ورسله - عليهم السلام - .

- فهذا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام قد ضرب المثل الأعلى في الوفاء، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧].

قال سعيد بن جُبير والثوري: أي بلغ جميع ما أُمر به.

وقال ابن عباس: وفى لله بالبلاغ[(١)].

وقال مجاهد: وفى بما فُرض عليه.

وقال أبو العالية: وفى سهام الإسلام، وهي قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[(٢)] [البقرة: ١٢٤].

وقال البيضاوي: بالغ في الوفاء بما عاهد الله، وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود، حتى أتاه جبريل عليه السلام وألقي في النار فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وذبح الولد، وأنه كان يمشي كل يوم فرسخًا يرتاد ضيفًا، فإن وافقه أكرمه، وإلا نوى الصوم[(٣)].

وفاء إبراهيم كان وفاء لا مثيل له، فلم يُعرف أحدٌ من البشر ابتلى ببلاء مثل بلائه، وفي حين أمره مولاه أن يذبح ابنه، وفلذة كبده بيده، قربانًا له على نعمته عليه، حيث أن مولاه قد أهَّله لأن يبني هو وابنه إسماعيل بيته الكريم - الكعبة المشرفة - فامتثل لأمر ربه، وأسلما أمرهما لله عز وجل، فلما علم مولاه صدق نيته، وإخلاصه له، وعظمة وفائه، فداه بذبح عظيم، وناداه: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٣٢٩).

(٢) «تفسير البغوي» (ص٤١٤).

(٣) «تفسير البيضاوي» (ص٢٥٩).

- وكذلك الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم – عليهم السلام – كان من أوفى الأوفياء، ويدل على ذلك أنه نسي ما فعله معه إخوته، حيث رموه في الجب، ليتخلصوا منه، وعلى حد تعبيرهم: ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ٩].

نسي مكرهم وخداعهم معه، بخلاف ما أورثوه لأبيهم يعقوب عليه السلام من حزن عميق، حتى كاد أن يفتك به، فقد بكى حتى ابيضت عيناه من الحزن، ومع هذا كله لما وفد إليه إخوانه بعد أن صار وزيرًا للمالية، ومكن الله له في الأرض، قال لهم: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [يوسف: ٥٩].

- وكذلك كان كليم الله موسى عليه السلام كان من أوفى الناس بعهودهم، حين قال له شعيب عليه السلام: ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ [القصص: ٢٧].

قال سعيد بن جبير – رحمه الله –: سألني يهودي، أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب، فأسأله، فقدمت على ابن عباس – رضي الله عنهما – فسألته، فقال: «قضى أطيبهما وأكثرهما، إنَّ رسول الله إذا قال، فعل»[1].

أنواع الوفاء

والوفاء أنواع متعددة:

أولاً: الوفاء مع الله تعالى:

والوفاء مع الله تعالى يكون بتوحيده، وعدم الإشراك به، والقيام بعبادته لأنها هي المهمة التي خلقنا الله تعالى من أجلها، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فإذا قام العبد بتوحيد مولاه، فقد وفى بعهده الذي أخذه عليه وهو في عالم الذر:

---

(١) صحيح: رواه البخاري.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ثانيًا: وفاء مع النفس:

ويكون بمجانبة المعاصي والسيئات، فإنها تنسى العبد نفسه، قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر: ١٩].

والنسيان ضد الذكر، والجزاء من جنس العمل، ونسيان العبد نفسه يكون بنسيان العبد ربه، ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ ﴾ [التوبة: ٦٧] فعاقب الله تعالى من نسيه بعقوبتين:

الأولى: أن ربه ينساه.

الثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيان الله لعبده: إهماله وتركه، وهلاكه، وإضاعته، بحيث لا يفكر في أمراض قلبه من غفلة، وحقد، وغل، ورياء، وعجب، وغيرها حتى يهلك.. وأي غدر مع النفس أقبح من اقترافها للذنوب والآثام؟! أي غدر بالنفس إذا جعلها العبد تشتري عاجلاً بآجل، ونسيئة بنقد، وغائبًا بناجز؟!

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٨٦].

فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة، فتتقطع النفوس عليهم حسرات.

والوفاء مع النفس يكون بمحاسبتها.. قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨].

وقال الحسن: لا يكفي المؤمن إلا أن يحاسب نفسه، ماذا أردت أن تعملين؟ وماذا أردت أن تأكلين؟ وماذا أردت أن تشربين؟ والفاجر يمضي ولا يحاسب نفسه.

قال وهب بن منبه: مكتوب في حكمة آل داود: «حق على العاقل أن لا يغفل عن

أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه، وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات، وإجمامًا للقلوب»[١].

الثالث: وفاء مع الناس:

وهذا يشمل أنواعًا كثيرة منها:

١ - الوفاء مع الوالدين:

وهما أحق الناس بالوفاء فهما سبب وجود الإنسان في هذا الكون، فيقوم بخدمتهما، ولا يرفع صوته عليهما، ويسعى في تحصيل مطالبهما، والإنفاق عليهما بقدر سعته.. هذا في حياتهما، وأما بعد موتهما، فيكون بالدعاء لهما، والاستغفار، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإنفاذ عهدهما.

٢ - الوفاء بحقوق الزوجية:

ويكون بإعطاء كل من الزوجين حقه للآخر، فالزوج يُحسن معاشرة زوجته، ويكون كما قال النبي ﷺ: «**أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت**»[٢].

وأما الزوجة فيلزمها أن تفي بالعهد الذي بينها وبين زوجها في حياته، وبعد موته.. في حياته بالطاعة، والحفظ لنفسها.. قال ﷺ: «**إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبوابها شئت**»[٣].

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» وأبو نعيم في «الحلية».

(٢) صحيح: رواه أبو داود وابن حبان والمنذري في «الترغيب» (٣/٥١).

(٣) صحيح: رواه ابن حبان في «صحيحه» وأحمد في «مسنده» والطبراني في «الأوسط» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٠)، وفي «صحيح الترغيب» (١٩٣١)، و«آداب الزفاف».

وبعد موته بالإحداد عليه إذا مات مدة أربعة أشهر وعشرًا، قال ﷺ: **«لا يحل لامرأة تؤمن بالله وباليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على الزوج أربعة أشهر وعشرًا»**(١).

٣ ـ الوفاء بالكيل والوزن:

وقد أمر الله تعالى بالوفاء بالكيل والميزان، فقال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الإسراء: ٣٥].

وقد حذرنا مولانا من عدم إيفاء الكيل أو الوزن، فقال سبحانه: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ [المطففين: ١ - ٣].

والويل هو العذاب الشديد يوم القيامة، وقيل: وادٍ في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار.

٤ ـ الوفاء بالعقود والعهود:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١].

وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«إن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فقال: ائتني بالشهداء أُشهِدُهُمْ، فقال: كفى بالله شهيدًا، قال: فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله وكيلاً، قال: صدقت. قال: فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج إلى البحر فقضى حاجته، ثمَّ التمس مركبًا يركبها يقدم عليه، للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبًا. فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثمَّ زجج موضعها، ثمَّ أتى إلى البحر، فقال: اللَّهُمَّ إنك تعلمُ أني تسلفت فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه ومالك.

بك وسألني شهيدًا، فقلتُ: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك، وإني جهدتُ أن أجد مركبًا أبعثُ إليه الذي له، فلم أجد، وإني استودعتكها! فرمى بها إلى البحر، حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا الخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثمَّ قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، وقال: والله ما زلتُ جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدتُ مركبًا قبل الذي أتيتُ فيه. قال:

هل كنتَ بعثتَ إليَّ شيئًا؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثتَ في الخشبة، فانْصَرِفْ بالألف دينار راشدًا»[1].



(١) صحيح: رواه البخاري وأحمد وغيرهما والألباني في «الصحيحة» برقم (٢٨٤٥) و«الترغيب» (١٨٠٥).

مظاهر خلق الوفاء في حياة الرسول ﷺ

أخي المسلم:

إذا كان الوفاء من أعظم الأخلاق، وأكرم الشيم، فرسولنا وحبيبنا محمد ﷺ هو الوفاء نفسه، وهو الكمال ذاته، وهو أوفى الأوفياء، وسيد الأتقياء ﷺ، لقد كان وفيًّا في كل شيء، ومع كل شيء.. كان وفيًّا مع ربه، كان وفيًّا مع أصحابه، كان وفيًا مع أزواجه، كان وفيًّا حتى مع أعدائه، فقد كانت حياته كلها وفاء فهيا بنا لنلتقط صورًا من وفائه ﷺ.

أولاً: وفاؤه مع ربه:

كان ﷺ من أوفى الناس مع ربه ومولاه، فكان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فيقال له: لم تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: «**أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا؟!**»[1].

وعن عبيد بن عمير رضي الله عنه أنه قال لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: «**يا عائشة، ذريني أتعبد لربي**»[2].

قلت: والله إني أحب قربك، وأحب ما يسرك.

قالت: فقام وتطهر، ثم قام يُصلي، ولم يزل يبكي، حتى بل حجره، وكان جالسًا، فلم يزل يبكي حتى بل لحيته.. قالت: ثم بكى، حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**».

---

(١) صحيح: رواه البخاري وأحمد وغيرهما.

(٢) حسن: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦٤٨).

وليس هذا فقط بل كان وفيًا لربه، حتى قبل البعثة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه - أي يتعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة[1]..

ثانيًا: وفاؤه للناس:

وهذا يشمل أمورًا كثيرة منها:

١- وفاؤه مع الصحب الكرام:

وأما وفاؤه لأصحابه، فكان وفاء لا مثيل له، فكان يعرف للصحبة حقها، مهما كانت الظروف، ومهما كانت الأحوال، والدليل على ذلك:

١- لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق، كَسَعَ رجل من المهاجرين - أي ضربه برجله في دُبُره - رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: **«ما بال دعوى الجاهلية؟»** فقيل: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال: **«دعوها فإنها منتنة»**.

قال جابر: وكان المهاجرون حين قدموا المدينة أقل من الأنصار، ثم إن المهاجرين كثروا، فبلغ ذلك عبد الله بن أُبي، فقال: فعلوا، والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل، فسمع ذلك عمر، فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: **«يا عمر، دعه، لا يتحدث الناس أنَّ محمدًا يقتل أصحابه»**[2].

فالشاهد في هذا: أنه أمر عمر أن لا يقتل عبد الله بن أُبي ابن سلول وفاء لولده «عبد الله» لأنه من أصحابه.

٢- وهذا هو الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه أخطأ خطأً فادحًا، وهذا الخطأ

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وابن حبان وأحمد والحاكم وعبد الرّزاق والبيهقي في «سننه» وصححه الألباني كذلك في «المشكاة» (٥٨٤١).

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن حبان وأحمد وأبو يعلى والبيهقي في «سننه الكبرى» والنسائي.

هو تجسس وخيانة عظمى في سياسة الدولة الإسلامية، وهذا الخطأ لو ارتكبه أحد في عصرنا لما غفر له، بل كانوا سيودعونه في غياهب السجون فماذا حدث؟

يحدثنا عن ذلك عبيد الله بن أبي رافع يقول: سمعتُ عليًّا ﷺ يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير، والمقداد، فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها**» قال: فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا، حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه:

«من حاطب بن أبي بلتعة، إلى أناس من المشركين ممن بمكة»، يخبرهم بأمر النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «**ما هذا يا حاطب؟**» قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، إني كنت امرأ من قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذا فاتني من النسب فيهم، أن أصطنع إليهم يدًا يحمون قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا، ولا ارتدادًا عن ديني، فقال ﷺ: «**إنَّه قد صدقكم**» فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال: «**إنَّه شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله عز جل اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفر لكم**»[1] ونزلت فيه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة: ١].

فتأمل وفاء سيد الأوفياء لأصحابه الكرام، حتى ولو عظمت زلة أحدهم، أو كبر خطؤه، ما لم يكن في حد من حدود الله ﷻ أو كان تهاونًا بشريعة الدين.. فما أعظم وفاءك يا رسول الله، وما أحسن أخلاقك يا سيد الأنبياء والمرسلين، لقد صدق فيك قول رب العالمين: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم: ٤].

٣- وهذا هو حذيفة بن اليمان ﷺ قال: ما منعني أنْ أشهد غزوة بدر، إلا أني خرجت أنا وأبي حُسيل من مكة إلى المدينة مهاجرين فأخذنا كفار قريش، فقالوا: إنكما تريدان محمدًا؟! فقلنا: ما نريد إلا المدينة، فخلوا سبيلنا بعد أن أخذوا علينا عهد الله

(١) صحيح: رواه البخاري في «التفسير» ومسلم وأبو داود في «الجهاد» والترمذي والبيهقي في «سننه» و«شعبه» والشافعي في «مسنده».

وميثاقه ألا نقاتل معه، فلما كانت غزوة بدر، أردنا أن نشترك فيها، فأخبرنا رسول الله ﷺ بما كان بيننا وبين قريش، فقال: «انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»(١). فما أعظم هذا الوفاء، أتدري لماذا؟ لأمرين:

الأول: لأن وفاء الشخص بعهده فضيلة عظمى من الفضائل، فإذا ما حض المسلم غيره على الوفاء بعهد لم يشارك هو فيه، ولم يقره، ولم يشهد عليه، وهو يعلم أنه عهدٌ باطل، لأنه قام على الاضطرار، وعلى التحايل للفرار، بل ويعلم أن نقض هذا العهد، سوف يزيد من عدد جنوده، ويقوي جيشه، في وقت يحتاج فيه جيشه إلى جندي واحد.. إنه حينئذ ليس فضيلة فقط، وإنما هو فضيلة الفضائل.

ثانيًا: أن هذا العمل يكون في وقت السلم فضيلة، فإن كان في حرب متصلة مع عدو ضاري العداوة، عدو غادر مكين، يكون أفضل الفضائل.

٢ ـ وفاؤه ﷺ لأزواجه:

وأما وفاؤه لأزواجه الطاهرات فحدث ولا حرج، لأنه كان من أعظم الوفاء، وها هي صور منها:

١- كان أوفى الناس مع السيدة خديجة - رضي الله عنها - لأنها وقفت بجانبه قبل البعثة وبعدها، واسته بمالها إذ حرمه الناس، وواسته بنفسها، فكانت تشد أزره، وتفرج همه وكربه، وتسليه في حزنه وضيقه، وكان هذا الوفاء في حياتها وبعد مماتها..

ففي حياتها لم يتزوج معها امرأة حتى ماتت، على الرغم من أنه تزوجها وهي في الأربعين من عمرها، وهو في ريعان شبابه، كان في الخامسة والعشرين وأما بعد مماتها، ففي البخاري: «كان النبي يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة» تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة غير خديجة؟ فيقول: «**إنها كانت وكانت.. وكان لي منها الولد**»(٢).

---

(١) صحيح رواه مسلم وابن أبي شيبة (٨/٤٨١) [كتاب المغازي- غزوة بدر].

(٢) صحيح رواه البخاري في [الفضائل - باب تزويج النبي خديجة] ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» والنسائي في «سننه الكبرى».

وعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا أُتي بالشيء يقول: «**اذهبوا به إلى فلانة، فإنها كانت صديقة خديجة، اذهبوا به إلى بيت فلانة، فإنها كانت تحب خديجة**»(١).

وفاءٌ جعل السيدة عائشة - رضي الله عنها - تغار منها، ولذلك قالت: «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنت أسمعه يذكرها، ولقد أمره ربه ﷻ أن يبشرها ببيت من قصب في الجنة، وإن كان ليذبح الشاة ثم يهديها إلى خلائلها».

وفي رواية عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: استأذنت عليه هالة بنت خويلد - أخت السيدة خديجة - فعرف استئذان خديجة، فارتاح لذلك، وقال: «**اللهمَّ هالة بنت خويلد**». قالت: فغرتُ، فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين هلكت في الدهر، فأبدلك الله خيرًا منها(٢).

وفي رواية أنه أجابها قائلاً: «**ما أبدلني الله خيرًا منها، قد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء**»(٣).

- ودخلت عليه امرأة فهش لها، وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت، قال: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**»(٤).
- وعنها - رضي الله عنها - قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينت في فداء زوجها - أبي العاص - بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبي العاص، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة،

---

(١) صحيح: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٢٨١٨)، وفي «صحيح الأدب المفرد».

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٣) حسن: رواه أحمد في «مسنده» (٢٤٧٤٥)، وحسنه حمزة الزين (١٧/٤٥٠)، والهيثمي في «المجمع» (٩/٢٢٧).

(٤) حسن الإسناد: رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين والبيهقي في «الشعب» (٩١٢١)، بلفظ (كرم الود من الإيمان).

وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها؟**» فقالوا: نعم، وكان رسول الله ﷺ وعده أن يخلي سبيل زينت إليه[1].

وليس هذا الوفاء لخديجة - رضي الله عنها - فقط، وإنما كان لسائر أزواجه فعندما نزلت آية التخيير، وهي قول الرب جل في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

وكانت أول من خيرها عائشة - رضي الله عنها - قائلاً: «**يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمرًا، أحب أن لا تعجلي فيه، حتى تستشيري أبويك**» وهذا يدل على وفائه ﷺ لعائشة - رضي الله عنها - حيث كانت حديثة السن، لا تدرك مصلحتها آنذاك.. لكنها اختارت الله ورسوله والدار الآخرة، ثم قالت للنبي ﷺ: أسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، لكنه ﷺ وفاء لزوجاته الأخريات، لم يقبل هذا الطلب، بل وفَّى لهن كلهن، وقال: «**لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إني لم أبعث معنتًا، ولكن الله بعثني معلمًا**»[2].

فكان يبخرهن بما اختارته عائشة - رضي الله عنها - لأن فيه الخير كل الخير، وهو لا يريد لهن إلا الخير، وفاء لهن على صبرهن على ضيق المعيشة التي كان عليها.

٣ - وفاؤه لأقاربه:

١- وأقرب الناس إليه كان عمه أبو طالب، الذي كان يعتبر الجبهة الخارجية في الدفاع عنه ﷺ فقد جلس بجواره حين أوشك على مفارقة الحياة، لينتشله من الأشقياء إلى السعداء، فقال له: «**يا عم، قل: لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله**» لكنه لم يستجب لأن أكابر مجرميها كانوا يجلسون حوله.. فماذا يفعل سيد الأوفياء ﷺ؟

---

(١) حسن: حسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٦٩٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم واللفظ له، ورواه أحمد والنسائي وابن ماجه وأبو يعلى والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٥٥٠).

لقد جعله وفاؤه يقول له: **«لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك»**، فماذا كان رد السماء على هذا الوفاء؟ لم يشأ الرب تبارك وتعالى منه ذلك، فأنزل قوله جل في علاه: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝ ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقال لرسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

٢- ولما انتهى الرسول ﷺ من غزوة حنين، كان أصحابه قد أسروا من هوازن وثقيف أناسًا، وغنموا منهم أموالاً، وكان من بين السبي أناسًا من بني سعد، وكان النبي ﷺ مسترضعًا فيهم، فماذا حدث؟

ففي سنن أبي داود من حديث مروان بن الحكم ومسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال حين جاء وفد هوازن مسلمين ، وسألوه أن يرد إليهم أموالهم، فقال لأصحابه: **«معي من ترون** – أي ممن تعلمون أني كنت مسترضعًا بينهم – **وأحب الحديث إليَّ أصدقه، فاختاروا: إمّا السبي، وإما المال»** فقالوا: نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ فأثنى على الله، ثم قال: **«أما بعد.. فإنَّ إخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين، وإني قد رأيت أن أردَّ إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك، فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»** فقال الناس: قد طيبنا ذلك – أي طابت نفوسنا – لهم يا رسول الله، فقال ﷺ: **«إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم »** فأخبروا أنهم قد طيبوا وأذنوا.

٣- ولما جيء بأخته من الرضاع – الشَّيماء – في سبايا هوازن، وتعرفت له، بسط رداءه، وقال: **«إن أحببت أقمت عندي مكرمة محببة، أو متعتك ورجعت إلى قومك»** فاختارت قومها، فمتعها[١].

وأقبل عليه أبواه من الرضاع، فوضع له بعض ثوبه، فقعد عليه.

---

(١) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا رقم (٤٠٥) ص٢٦١.

٤ - وفاؤه لصاحب الجميل:

لقد كان رسول الله ﷺ وفيًا لصحابته - رضوان الله عليهم - وكان يحبهم ويقربهم، ويذكر ما لبعضهم من جميل، من ذلك:

١- وفاؤه لأقرب الناس إليه وأحبهم إليه صاحبه أبو بكر الصديق ﷺ، حيث قال عنه: **«ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه، ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مالٌ قط، ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن صاحبكم خليل الله»**[١]. وقال: **«ما أحد أعظم عندي يدًا من أبي بكر واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته»**[٢].

وقال معترفًا بجميله ونصرته: **«إنَّ من أمنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، لا تبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر»**[٣].

والأحاديث في ذلك كثيرة.

وقال عن أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - **«هذان السمع والبصر»**[٤]. يعني أبا بكر وعمر.

٢- وقال عن الأنصار الذين آووه ونصروه: **«استوصوا بالأنصار خيرًا»**[٥].

وفي شعب الإيمان: **«استوصوا بالأنصار خيرًا، اقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»**[٦]. وكذا في مسند أبي يعلى.

وقال عنهم: **«لو سلكت الأنصار واديًا أو شعبًا، لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم،**

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٦٨١) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٦١).

(٢) حسن: رواه الطبراني عن ابن عباس وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥١٧).

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم والترمذي وقال: حسن صحيح وابن حبان والنسائي.

(٤) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٠٤).

(٥) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» عن أنس وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٩٥٩).

(٦) صحيح: رواه البيهقي وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٥٠٩)، و«صحيح الجامع» (٩٥٩).

ولولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار»[(١)].

وقد جعل حبهم علامة من علامات الإيمان فقال: «**آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**»[(٢)].

وجعل حبهم من حب الله يوم القيامة حيث قال: «**من أحب الأنصار، أحبه الله، ومن أبغض الأنصار، أبغضه الله**»[(٣)].

وزاد ابن حبان وابن أبي شيبة: «**من أحب الأنصار أحبه الله يوم يلقاه**»[(٤)].

٣- وكان النبي ﷺ وفيًّا بالجميل لحاضنته أم أيمن، فكان يزورها، ويتودد إليها وفاءً لحقها، حتى أصحابه كانوا يزورونها مثل ما كان يزورها، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: انطلق بنا نزور أم أيمن، كما كان رسول الله يزورها، فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ! فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[(٥)].

٤- وفي مستدرك الحاكم أن رسول الله ﷺ يقول لأم أيمن: «**يا أمي**» وكان إذا نظر إليها، قال: «**هذه بقية أهل بيتي**»[(٦)].

٥- وكان وفيًّا لوطنه الذي ولد فيه، وتربى على أرضه، كان يحب مكة المكرمة أعظم الحب، لأنها مكان البيت الحرام، ولأنها مدرج طفولته، وملعب صباه، ومشرق رسالته، وعندما اضطره المشركون للخروج منها، فماذا حدث؟

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري وأحمد عن أنس والحاكم والنسائي في «سننه الكبرى».

(٢) **صحيح**: صححه الألباني في «الصحيحة» (٦٦٨)، و«صحيح الجامع» (١٥)، و«المشكاة» (٦٢٠٦) وقال: متفق عليه.

(٣) **صحيح**: صححه الألباني في «الصحيحة» (٩٩١)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٣) و«صحيح الجامع» (٥٩٥٣)، ورواه أحمد وابن حبان عن البراء.

(٤) **صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٢٧٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥٤١/٧).

(٥) **صحيح**: رواه مسلم.

(٦) رواه الحاكم (٦٩١١) وسكت عنه.

عن أبي سلمة قال: وقف النبي ﷺ بالحزورة، فقال: «**قد علمت أنك خير أرض الله، وأحب الأرض إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت**»[(١)].

٦- وكان وفيًّا بوعده فلا يخلفه مهما كانت الظروف، قال أنس بن مالك ﷺ كان رسول الله ﷺ رحيمًا، وكان لا يأتيه أحدٌ، إلا وعده، وأنجز له[(٢)].

ووعد أحد أصحابه بعدة وانتقل إلى الرفيق الأعلى قبل الوفاء به، فأوفى له أبو بكر الصديق ﷺ، ففي «الصحيح» من حديث جابر أن رسول الله ﷺ سأله رجل، فقال له: «**لو قد جاءنا مال البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا..**» وقال بيديه جميعًا، فقُبض النبي ﷺ قبل أن يجيء مال البحرين، فقدم على أبو بكر بعده، فأمر مناديًا فنادى؛ من كانت له على النبي عدة، أو دين، فليأت، فقام الرجل، وأخبر أبا بكر بما قاله رسول الله، فحثى له أبو بكر، ثم قال له: عدها، فعدها فوجدها خمسمائة، فقال له: خذ مثليها[(٣)]، قال النووي: فيه إنجاز العدة.

٥ ـ وفاؤه مع والديه:

ولقد كان سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين ﷺ وفيًّا مع أقرب الناس إليه.. كان وفيًّا مع والديه، حتى بعد موتهما..

فعن بُريدة ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنَّا بـــ «ودان» قال: «**مكانكم حتى آتيكم**».

فانطلق، ثم جاءنا وهو ثقيل، فقال: «**أتيت قبر أم محمد، فسألت ربي الشفاعة** - أي لها- **فمنعنيها، وإني كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها...**»[(٤)].

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين وابن حبان في «صحيحه» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٨٩)، و«المشكاة» (٢٧٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨)، والترمذي.

(٢) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٩٤)، و«صحيح الجامع» (٤٨١٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم في «صحيحه» (٢٣١٤).

(٤) صحيح: صححه الألباني في «صحيح السيرة» (ص٢٣) ورواه أحمد في «مسنده».

وفي رواية للبيهقي:

انتهى النبي ﷺ إلى رسم قبر، فجلس وجلس الناس حوله، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب، ثم بكى، فاستقبله عمر، فقال: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «**هذا قبر آمنة بنت وهب، استأذنت ربي في أن أزورها، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار، فأبى عليَّ، وأدركتني رقتها فبكيت**»(١).

قال عمر: فما رأيته ساعة أكثر باكيًا من تلك الساعة.

وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: «**استأذنت ربي في أن استغفر لها، فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي...**»(٢).

٦- وفاؤه مع الأعداء:

لقد كان وفاؤه ﷺ مع الأعداء وفاء لا يقدر على مثله أحدٌ من البشر، وها نحن نلتقط هذه الصور الخلقية الوفائية، ومنها:

١- ففي صلح الحديبية، وفي العام السادس الهجري، لما كان عليُ بن أبي طالب ﷺ يكتب شروط الصلح، وكان مندوبًا عن قريش «سهيل بن عمرو» وبينما الكتاب يُكتب، والشروط تُعقد، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو، يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين، فقام سُهيل وقال: وهذا أول ما أقاضيك عليه، على أن ترده، وكان من بين هذه الشروط: أن من أتى محمدًا من قريش من غير إذن وليه - هاربًا منهم - رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد، لم يرده عليه.

حينئذ قال النبي ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد**».

فقال: إذن والله لا أقاضيك على شيء أبدًا.

---

(١) صحيح: رواه البيهقي وصححه الألباني في «صحيح السيرة».

(٢) صحيح: رواه مسلم وغيره.

قال النبي ﷺ: «**فأجزه لي**».

قال: ما أنا بمجيزه لك.. قال رسول الله ﷺ: «**بلى، فافعل**».

قال سهيل: ما أنا بفاعل، وقد ضرب سهيل ابنه - أبا جندل - في وجهه وأخذ بتلابيبه، ليرده إلى المشركين، وجعل ابنه يصرخ بأعلى صوته، ويقول: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا جندل، اصبر، واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبينهم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم**».

فأي وفاء أعظم من هذا الوفاء؟ وأي وفاء أبلغ من هذا الوفاء الذي لم يتقبله بعض كبار الصحابة لولا طاعة الله ورسوله ﷺ حتى قال عمر بن الخطاب ﷺ لأبي بكر صديق هذه الأمة:

«يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى.. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أليسوا بالمشركين؟ قال: بلى.. قال عمر: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ ولم يلبث إلا أن قال لرسول الله ﷺ مثل قوله لأبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «**أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني**»(١).

ومرت الأيام وكُشف لأصحاب رسول الله ﷺ أثر الوفاء، وحسن سياسة النبي ﷺ ونُبل أخلاقه.. كما قال أبو بكر الصديق: «ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية...».

٢- ولما ردَّ الرسول ﷺ أبا جندل بن سُهيل بن عمرو، وأوثقه في الحديد أفلت بعد ذلك، فلحق بأبي بصير، واجتمع إليه جماعة من المسلمين، وكانوا كلما مرت بهم عير لقريش، أخذوا ما قدروا عليه من متاعهم وأموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي إليهم، فجاءه أبو بصير، وقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» والبيهقي في «سننه الكبرى» (١٩٣٤٥).

أنجاني الله منهم، فقال ﷺ: «**ويل أمه مسعر حرب، لو كان له أحد**»[1]، وأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

فتأمل أخي الحبيب هذا الوفاء الذي لم تعهده البشرية من قبل، ولا من بعد ولذلك تعلم منه أصحابه ذلك، فكانوا يوفون حتى مع أعدائهم.

٣- ولذلك لما جيء بالمهرمزان قائد جيش الفرس أسير مقيد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان قد فعل بالمسلمين كل إيذاء وشر، فعرض عمر عليه الإسلام فرفض وأبى، فأراد أن يقتله، ولكنه استمهل عمر قليلاً، وقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، فأنا عطشان، فأمر له سيدنا عمر بشربة ماء، فلما وضعت بين يديه، قال له: يا أمير المؤمنين، هل أنا آمن حتى أشربها؟ قال له: نعم.. فأراق الماء على الأرض، وصاح بأعلى صوته: الوفاء نور أبلج، فغضب عمر رضي الله عنه وأدرك أن هذا الرجل قد خدعه، فاستشار أصحابه في شأنه، فقالوا له بالوفاء فوق عمر للرجل، فعفى عنه، حينئذ أدرك أن الإسلام دين الوفاء، ودين العفو والتسامح، فأسلم، وحسن إسلامه[2].

ثالثًا: وفاؤه للحيوان:

كان ﷺ وفيًا حتى للحيوان ففي «مسند الإمام أحمد» من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«**كانت امرأة أسرها العدو، وكانوا يريحون إبلهم عشاء، فأتت الإبل تريد منها بعيرًا تركبه، فكلما دنت من بعير رغا فتركته، حتى أتت ناقة منها، فلم ترغ، فركبت عليها، ثم نجت، فقدمت المدينة، فلما رآها الناس قالوا: ناقة رسول الله العضباء، قالت: إني نذرت أن أنحرها، إن أنجاني الله عز وجل، قال: بئسما جزيتها، لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا نذر في معصية الله عز وجل** »[3].

---

(١) صحيح: رواه البخاري وأبو داود وأحمد والبيهقي في «سننه الكبرى» والطبراني في «الكبير».

(٢) «سمير الصالحين وأنيس المتقين والمستطرف».

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٩٧٤٢) وصححه حمزة الزين والبيهقي في «سننه الكبرى» برقم (١٨٧٥٤) و«مسند الشافعي» (١٥٩٦).

حثه على الوفاء وذمه للغدر

أخي المسلم.. أختي المسلمة..

ورسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله حث على فضيلة الوفاء، والتحلي به، ورغب فيه، وذم الغدر، ونهى عنه، ومن هذه الأقوال:

١- قوله ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(١).

٢- وعن أبي بريدة قال: قدمت المدينة، فأتاني عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: أتدري لم أتيتك؟ قال: قلت: لا، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أحب أن يصل أباه في قبره، فليصل إخوان أبيه من بعده**»(٢)، وإنه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وود، فأحببت أن أصل ذاك.

وهذا من باب الوفاء مع الوالدين، وهما أحق الناس بالوفاء.. وذم الغدر، وجعله بعض العلماء من الكبائر كالإمام الذهبي - رحمه الله - .

٣- قال ﷺ: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة** - وفي رواية عن ابن حبان- **ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا، فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا، فاستوفى منه، ولم يعطه أجرًا**»(٣).

٤- وقال: «**لكل غادر لواء يوم القيامة يُقال: هذه غدرة فلان ابن فلان**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه البخاري وأحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن حبان.

(٢) صحيح: رواه ابن حبان (٤٣٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٦٦٩).

(٣) صحيح: رواه البخاري وأحمد وابن ماجه وابن حبان وأبو يعلى والطبراني في «الصغير».

(٤) صحيح: رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والدارمي وابن حبان ورواه الحاكم وأحمد وأبو يعلى في «مسنده» وابن أبي شيبة في «مصنفه».

مواقف في الوفاء

وخلق الوفاء ليس خلقًا من أخلاق الإسلام فحسب، بل كان من أخلاق العرب قبل الإسلام، وكانوا من أحرص الناس عليه، فمن طريف ما جاء عنهم:

١- أن الملك النعمان بن المنذر، كان له يومان: يوم بؤس، لا يظفر فيه بأحد إلا قتله، ويوم نعيم، لا يصادف فيه أحدًا إلا أنعم عليه، وفي يوم بؤسه ظفر برجل بعيد كل البعد عن وطنه وأهله، ولما قدم لكي يُقتل طلب مهلة، ثلاثة أيام يعود فيها إلى أهله، ثم يرجع إلى الملك، لينفذ فيه حكم القتل، فطلب الملك منه كفيلاً يضمنه لهذا الأمر، فنظر الرجل إلى وجوه الحاشية لعله يجد ذا مروءة يكفله، فوقع اختياره على رجل يدعى «شُريك» فخجل منه شريك، وضمنه على أنه إذا غاب عن الموعد المحدد، تقدم للقتل بدلاً منه، وذهب الرجل، وغاب ثلاثة أيام، وجاءت ساعة الموعد، ولم يحضر الرجل، فتقدم شريك للقتل، وحزن عليه القوم، وجعلوا يتطلعون إلى الطرق من كل ناحية، فإذا بشخص يظهر من بعيد تحت الغبار، فأخروا قتل شريك حتى يظهر خبر هذا الآتي من بعيد، وما هي إلا لحظات، حتى جاء الرجل وفاء لموعده، فتعجب الناس من هذا الوفاء، وكأنما أصيبوا بغاشية، وكان الملك من بينهم أشد إعجابًا، مما جعله يتساءل ويقول لشريك: لِمَ كفلته؟ فقال: خوفًا من أن يُقال: ذهبت المروءة من الناس، وسأل الرجل: لِمَ حضرت إلى القتل؟ فقال: لئلا يُقال: ذهب الوفاء من الناس، فقال الملك: وأنا عفوت عنكما، لئلا يُقال: ذهب العفو من الناس(١).

٢- وهذا سيدنا عبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى - جاء في مناقبه أنه كان يقاتل في جيش خراسان، وحدث أن خرج لمبارزة مجوسي: فلما جاء وقت العصر، استأذن من المجوسي في هدنة قصيرة يؤمنه فيها على نفسه حتى يفرغ من الصلاة، وقال له: عاهدني على الأمان، حتى أتمم صلاتي، فأعطاه على ذلك عهدًا، فصلى وأتم الصلاة،

(١) «المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشيهي.

ولما جاء وقت الغروب، وكان المجوسي هذا من عُبَّاد الشمس والنار، فطلب منه أن يعطيه فرصة ليؤدي هو الآخر صلاته، فعاهده عبد الله على ذلك، ولكنه نظر إليه وهو ساجد، فوسوست له نفسه أن يغدر به، ويقتله وهو يؤدي طقوس عبادته، وبينما هو يُعد نفسه للوثوب عليه إذا بهاتف يهتف ويقول له: اتق الله يا عبد الله: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل: ٩١].

فتراجع عنه، وهو يردد هذه الآية، فلما فرغ المجوسي من صلاته سأله، لقد هممت بي سوءًا، ثم عُدت دون أن تفعل شيئًا، فلماذا؟

فأخبره بما قاله الهاتف: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل: ٩١].

فقال المجوسي: نِعم الرّب ربك يا عبد الله، وإن ربًّا يعاتب حبيبه من أجل عدوه لهو ربٌ عظيم، ثم أسلم على يديه، وحَسن إسلامه، وكل هذا ببركة الوفاء.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من عباده الأوفياء، ويجعلنا ممن يوفون بعهودهم، ونسأله سبحانه أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه، وصلي اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



المبحث الثالث

خلق الحلم

ما هو الحلم ؟

الحلم في اللغة:

الحلم: مصدر حَلُمَ يحلُمُ حلمًا، إذا تأنَّى وسكن عند غضب أو مكروه مع قدرة وقوة.

والحِلْمُ: ترك العجلة، وهو خلاف الطيش، وقيل: هو الأناة والعقل، وهو نقيض السفه، وجمعه أحلام وحُلُوم وفي القرآن الكريم: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾ [الطور: ٣٢].

وحَلُمَ بالضم يحلُم حلمًا إذا صار حليمًا، وتحلَّم أي تكلف الحلم(١).

وفي الاصطلاح: اختلفت أقوال العلماء في معناه:

قال الجاحظ: هو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك.

وقال الجرجاني: هو الطمأنينة عند سورة الغضب، وقيل: هو تأخير مكافأة الظالم، أي مجازاته بظلمه.

وقال الراغب: هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب.

وقال ابن حبان: الحلم اسم يقع على ذم النفس عن الخروج عند الورود عليها ضد ما تحب إلى ما نُهي عنه.

وقال: والحلم أجمل ما يكون من المقتدر على الانتقام.

قال أبو حاتم: العاقل يلزم الحلم عن الناس كافة، فإن صعب عليه، فليتحالم، لأنه

---

(١) انظر: «التعريفات» للجُرجاني ص(٩٢)، و«تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص٢٣)، و«المفردات» للراغب (ص١٢٩)، و«روضة العقلاء» لابن حبان البستي (ص١٨٦- ١٨٩).

يرتقي به إلى درجة الحلم.

وكما **قال أبو الدرداء**: إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتوخ الخير يعطه، ومن يتوق الشر يُوَقَّه.

الفرق بين الحلم وكظم الغيظ:

قال الإمام الغزالي في «الإحياء»: الحلم أفضل من كظم الغيظ، لأنَّ كظم الغيظ عبارة عن التَّحلم - أي تكلف الحلم - ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، فإذا تعود الإنسان ذلك صار اعتيادًا فلا يهيجه الغيظ وهذا هو الحلم.

مكانة الحلم بين الأخلاق:

إنّ من نفاسة اسم «الحلم» وارتفاع قدره أنَّ الله تباركت أسماؤه، تسمى به، قال سبحانه في أكثر من موضع: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٦٣]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٢]. وقال: ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٧].

فهو سبحانه الذي يشاهد معصية العصاة، ويرى مخالفة أوامره، ثم لا يستنفره غضب، ولا يعتريه غيظ، ولا يسارع بالانتقام مع قدرته عليه.

ولم يسم الله تعالى به أحدًا في كتابه العزيز إلا خليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، قال سبحانه في حق إبراهيم: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال: عن ولده: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات: ١٠١].

ولو لم يكن في الحلم خصلة تحمد إلا ترك اكتساب المعاصي، والدخول في المواضع الدنسة، لكان الواجب على العاقل أن لا يفارق الحلم ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وصفة الحلم يحتاج إليها الإنسان في كل حياته، فالمعلم يحتاج إليها والطبيب يحتاج أن يكون حليمًا مع المرضى، والراعي يحتاج أن يكون حليمًا مع أغنامه، والجار لابد أن يكون حليمًا مع جاره، وإلا ارتكب معه الجرائم ما بين ساعة وأخرى، والأبُ يحتاج أن يكون

مع أولاده حليمًا رحيمًا، ومع زوجه كذلك..

ولله در من قال:

إن شئت يومًا أن تسود عشيرة فبالحلم سُدْ، لا بالتسرع والشتم
وللحلم خير فاعلمنّ - مغبَّة من الجهل إلا أن تشرسنً من الظلم[(١)]

فإن شئت أن تكون سيد قوم فاتصف بالحلم، لا بالسب والشتم، إلا أن يكون الظالم المعتدي فلا يناسبه الحلم، وإنما ينبغي أن يُعامل بالشراسة التي تروعه.

ولذلك لما سُئل عرابة بن أوس: بمَّ سُدْتَ قومك يا عرابة؟

قال: كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمن فعل فعلي فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل، ومن قصر عني فأنا خيرٌ منه[(٢)].

قال الماوردي - رحمه الله - :

الحلم من أشرف الأخلاق، وأحقها بذوي الألباب، لما فيه من سلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد[(٣)].

الحلم من أخلاق الأنبياء عليهم السلام:

أخا الإسلام..

قلنا: إن الرب تبارك وتعالى اتصف بالحليم، كما في كتابه الجليل، ووصف به أنبياءه عليهم السلام، وعلى رأسهم نبي الله وخليله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، وقد برز جانب الحلم في خليل الرحمن حين أخذ يجادل الملائكة المكرمين حيث أبلغوه بالمهمة التي جاءوا من أجلها، وهي إنزال العذاب بقوم لوط عليه السلام جزاءً لهم على قبيح أفعالهم، وفحشهم وفسادهم، وذلك رغبة في تأخير العذاب عنهم رجاء أن يتوبوا ويؤمنوا، ولم

---

(١) «روضة العقلاء» لابن حبان (ص١٨٩).

(٢) «إحياء علوم الدين» للغزالي.

(٣) «أدب الدنيا والدين» للماوردي.

يكن يعلم أنه لا مطمع في توبتهم وإيمانهم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود: ٧٤، ٧٥].

قال سعيد بن جبير – رحمه الله – في الآية: لما جاءه جبريل الطَّيْلاً، ومن معه قالوا له: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم: أهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا : لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنًا؟ قالوا: لا.

قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا.

قال: أرأيتكم إن كان فيهم رجل مسلم واحد أهلكوهم؟ قالوا: لا[1]، فقال عند ذلك: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العكنبوت: ٣٢] فسكت عنهم، واطمأنت نفسه.

ثم خاطبت الملائكة إبراهيم الطَّيْلاً قائلين: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود: ٧٦].

أي أعرض عن هذا الجدال في أمرٍ قد فُرغ منه، وجف به القلم، وحق به القضاء، أمرٌ لا يرده دعاء ولا جدال، بل واقع بهم لا محالة، ونازل بهم على كل حال، ليس بمصروف، ولا مدفوع.

فما أعظم حلم إبراهيم الطَّيْلاً، إنه لحري أن ينال هذا الوصف العظيم.

ومن الأنبياء الذين اتصفوا بالحلم أيضًا نبي الله هود الطَّيْلاً غير أن القرآن الكريم لم يورد هذه الصفة صراحة غير نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل، قال الإمام البيضاوي في «أنوار التنزيل»:

«ما نعت الله نبيًا بالحلم، لعزة وجوده، غير إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام».

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» وقد ذكر نحوه قتادة كما ذكر الشوكاني في «فتح القدير».

وتأمل حلم هود عليه السلام رغم أذية قومه له، واقرأ معي قوله جل في علاه:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٦٨].

فقد منعه خلق الحلم أن يغضب أو يطيش بهؤلاء الجهّال بعد هذه الشتائم، وذلك السب.

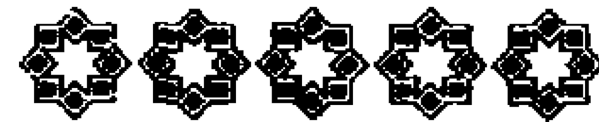
وكذا كان نبي الله نوح عليه السلام، فقد نسب إليه قومه مثل ما نسب قوم هود، قال سبحانه حكاية عن قوم نوح:

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٠، ٦١].

وظل صابرًا متصفًا بالحلم حتى ضاقت نفسه بهم بعد دعوة ألف سنة إلا خمسين عامًا، فدعا عليهم:

﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦].

هكذا كل الأنبياء عليهم السلام، فماذا عن حلم حبيبنا ورسولنا محمد ﷺ؟



مظاهر الحلم في حياة الرسول ﷺ

رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ كان المثل الأعلى في الحلم، لأن الذي أدبه وعلمه، إنما هو الله رب العالمين.

كان الحلم من شمائله ﷺ وكان من الوسائل التي جذبت إليه النفوس، وألفت حوله القلوب، وصدق علام الغيوب حين قال له مخاطبًا: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكان ﷺ القدوة الحسنة في سعة الصدر، وسماحة النفس التي تليق بمكانته ورسالته، وهو صاحب دعوة جديدة، يعاندها أكثر الناس، وفيهم الأقوياء والضعفاء، والأقارب والبعداء، والحلم هو المفتاح الذي يفتح به هذه القلوب فهيا بنا لنتوقف مع حلمه ﷺ:

١- عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي الجبال فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلكوا كما أُهلك من قبلهم، قال: «**لا، بل أستأني بهم**» فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ ﴾ [الإسراء: ٥٩].

فلم يشأ النبي ﷺ تعجيل إنزال العذاب عليهم، لعلمه أنه واقع بهم لا محالة، لتعنتهم وإصرارهم على العناد والجحود والنكران، كل ذلك وهم مكذبون له، فلو لم يكن حليمًا لدعا ربه أن ينزل العذاب عليهم، كما فعل نوح عليه السلام مع قومه، فقال: ﴿ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦] فأهلكم الله بالطوفان.

فتارة يطلبون منه أن يفجر لهم الأنهار خلال مكة وجبالها، وتارة يطلبون منه أن يجعلها لهم بساتين وحدائق، وتارة يطلبون منه أن يكون له بيت من زخرف، أو يكون معه ملك، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة يأكل منها.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ

أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

وفي نهاية المطاف طلبوا العذاب كما طلبه من قبلهم، أو يرقى محمد في السماء، ويأتي إليهم بكتاب يقرءونه..

قال جل في علاه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وقد روى أبو يعلى في مسنده من حديث الزبير ﷺ قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: تزعم أنك نبي يوحى إليك، وإن سليمان سخر له الريح والجبال، وإن موسى عليه السلام سُخر له البحر، وأن عيسى كان يحيى الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال، ويفجر لنا الأرض أنهارًا، فنتخذ محارث، فنزرع، ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا لنكلمهم، ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهبًا، فننحت منها، وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم[(١)]..

لكن رسول الله ﷺ بحلمه عليهم اختار باب الرحمة والتوبة.

٢- ولما جاءه رجل يتقاضاه بعيرًا كان عنده - قيل: كان هذا الرجل يهوديًا، وقيل أعرابيًا جاف الطبع - لذلك أغلظ لرسول الله ﷺ في المطالبة، فهمَّ به أصحابه ليضربوه، أو يؤدبوه، فقال لهم النبي الحليم الكريم: «**دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً**»، ثم قال لهم: «**اشتروا له بعيرًا فأعطوه إياه**» فطلبوا، فلم يجدوا إلا بعيرًا أكبر سنًا، وأعظم من بعيره، فقال لهم: «**اشتروه، وأعطوه إياه فإن خيركم أحسنكم قضاء**»[(٢)].

٣- وتأمل حلمه مع خادمه أنس بن مالك ﷺ يقول أنس: كان رسول الله ﷺ من

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٦٧٩)، وفي «مسند الزبير بن العوام» (٢/ ٤٠).

(٢) صحيح رواه البخاري ومسلم والترمذي وقال: حسن صحيح.

أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب! وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به النبي ﷺ قال: فخرجت حتى أَمُرَّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قابض بقفاي من ورائي، فنظرت إليه، وهو يضحك، ويقول لي: «**يا أنيس: اذهب حيث أمرتك**» فقلت: نعم، أنا ذاهب يا رسول الله.. قال أنس: ولقد خدمته سبع سنين، أو تسع سنين، ما علمته قال لشيء صنعت: لم فعلت كذا وكذا؟ ولا لشيء تركتُ: هلاَّ فعلت كذا وكذا[1].

٤- ولما مرَّ على رسولنا وحبيبنا ﷺ رهط من اليهود، فقالوا: السام عليك يا محمد، وكان ذلك بحضور السيدة عائشة – رضي الله عنها – فردت قائلة: بل عليكم السام واللعنة.. لكن تأمل حلم الحليم ﷺ لقد قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة، لا تكوني فاحشة**» وفي رواية: «**يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله**»، قالت: ألم تسمع ما قالوا؟! قال: «**أوليس قد رددت عليهم الذي قالوا؟ فقلت: وعليكم**»[2].

٥- يقول جبير بن مطعم: بينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من غزوة حنين، فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سُمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاة نعمًا، لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذوبًا، ولا جبانًا**»[3].

فتأمل حلمه ﷺ حيث أوقفه الناس، واضطروه إلى شجرة كثيرة الشوك، حتى خطفت الشجرة رداءه..

٦- كان ﷺ جالسًا يومًا مع أصحابه، فوقع رجل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه فآذاه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة، فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله ﷺ حين انتصر أبو بكر، فقال: أوجدت عليَّ – أي أغضبت – يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت**

---

(١) حسن رواه أبو داود وحسنه الألباني برقم (٤٧٧٣)، وأصله في «صحيح مسلم».

(٢) صحيح رواه البخاري ومسلم والترمذي والدارمي وابن حبان وأبو يعلى.

(٣) صحيح رواه البخاري وأحمد وابن حبان والطبراني في الكبير وأبو يعلى في «مسنده».

وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذا وقع - أي قعد - الشيطان»[1].

٧- وروى الصحابي الجليل عبد الله بن سلام ﷺ أنّ الله تعالى لما أراد هداية «زيد بن سعنة» - وكان حبرًا من أحبار اليهود - قال زيد: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنان لم أخبرهما منه:

الأولى: أنه يسبق حلمه جهله.

الثانية: أنه لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا.

ثم أقرض النبي ثمانين دينارًا.. قال: فلما كان قبل الموعد المحدد بيوم أو يومين أو بثلاثة، خرج رسول الله ﷺ إلى جنازة بالبقيع، ومعه أبو بكر وعمر في نفر من الصحابة، فلما صلى على الجنازة، ودنا من الجدار جذبت برده جبذة شديدة، حتى سقط عن عاتقه، ثم أقبلت بوجه جهم غليظ، فقلت - أي زيد - : ألا تقضيني يا محمد، فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب إلا قوم مُطلّ، ولقد كان لي بمخالطتكم علم.

قال زيد: فارتعدت فرائص عمر بن الخطاب ﷺ كالفلك المستدير، ثم رمى ببصره، ثم قال: أي عدو الله، تقول هذا لرسول الله؟ وتصنع به ما أرى؟ وتقول ما أسمع؟ فوالذي بعثه بالحق، لولا ما أخاف فوته لسبقني رأسك! ورسول الله ﷺ ينظر إليّ في تؤدة وسكون، ثم تبسَّم، ثم قال: **«لأنا وهو أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن اتباعه».**

ثم قال لعمر: **«اذهب به يا عمر، فاقضه حقه، وزده عشرين صاعًا من تمر جزاء ما روعته»** أي خوفته.

قال: فذهب بي عمر، فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعًا من تمر مكان ما روعني..

ثم التفت إليه عمر وقال له: فما الذي حملك على أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلت؟

---

(١) حسن رواه أبو داود وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٧٦)، وقال في «صحيح أبي داود» (٤٨٩٦): حسن بما بعده ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦٦٩).

وعلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت؟

فقال زيد: والله يا ابن الخطاب ما من شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه، ولكنني لم أختبر فيه خصلتين من خصال النبوة، فقال عمر: وما هما؟

قال الحبر: الأولى: يسبق حلمه جهله، والثانية: لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، أما وقد عرفتهما اليوم في رسول الله، فأشهدك يا عمر أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله(١).

ماذا نقول أمام هذه الأخلاق؟ وبأي لغة نعلق؟ وهل في لغة البشر ما أستطيع أن أعبر به عن هذه الأخلاق العظيمة؟ ألا ورب الكعبة فلا !!

فلندع المشهد يتألق روعة وسموًّا وجلالاً، ولتردد معي أيها المحب للحبيب المصطفى ﷺ هذه الشهادة العظيمة من خالقه جل وعلا:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

٨- ولما جاء الطفيل بن عمرو الدوسي ﷺ إلى النبي ﷺ وقال له: إنَّ دوسًا قد عصت، وأبت، فادع الله عليهم، فاستقبل رسول الله القبلة، ورفع يديه إلى السماء وقال بعدما قال الناس: هلكوا، لأنهم ظنوا أن رسول الله يدعو عليهم، لكنه من حلمه دعا لهم قائلاً: «**اللهمّ اهدِ دوسًا، وائت بهم**»(٢).

٩- ويقول أبو هريرة ﷺ كان رسول الله ﷺ يجلس معنا المجلس يحدثنا، فإذا قام قمنا قيامًا حتى نراه قد دخل بعض بيوت أزواجه، فحدثنا يومًا، فقمنا حين قام، فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه، فجبذه من ردائه حتى احمرت رقبته - وكان رداءه خشنًا - فالتفت، فقال له الأعرابي: احمل لي على بعيري هذين، فإنك لا تحمل لي من مالك،

(١) صحيح: صححه الحاكم على شرط الشيخين (٦٠٤/٣) في «المستدرك» وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» وأبو الشيخ في «الأخلاق» برقم (١٧٩)، وأبو نعيم في «الدلائل» والهيثمي في «المجمع» (٢٤٣/٨)، وقال: رجاله ثقات وعزاه إلى الطبراني ووثق ابن حجر في «الإصابة» (٥٦٦/١) رجاله.

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

ولا مال أبيك.

فقال النبي ﷺ: **«لا، وأستغفر الله، لا وأستغفر الله، لا وأستغفر الله، لا أحمل لك حتى تقيدني من جبذتك التي جبذتني»** وكل ذلك يقول له الأعرابي : والله لا أقيدكها..

ثم دعا رجلاً من أصحابه، وقال له: **«احمل له على بعيريه هذين: على بعير شعيرًا وعلى الآخر تمرًا»** ثم التفت إلينا وقال: **«انصرفوا على بركة الله تعالى»**[(١)].

١٠- وهذا هو عمير بن وهب يقول مخاطبًا صفوان بن أمية، واصفًا النبي ﷺ بما هو عليه من الحلم والصفح، والأخلاق العظيمة، وذلك ليثنيه عما هو عازم عليه من الفرار يوم الفتح يقول له:

«جئتك من عند أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزُّه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك» فقال له صفوان: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم[(٢)].

١١- وهذا هو أبو سفيان بن حرب، الذي طالما قاد الجيوش لمحاربته، وطالما رفع لواء الحرب ليعتدي عليه، لم يستطع أن يخفي هذا الخلق الكريم في شخص أكرم الأكرمين ﷺ بل قال له يوم الفتح، وقد وقف أمامه متضائلاً صغيرًا ذليلاً:

«بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك»[(٣)].

وهذه شهادة عظيمة، لأنها عن تجربة وخبرة، ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤] ولا يخفى ما كان يتمناه صفوان بن أمية من قتل الرسول ﷺ والقضاء عليه هو وعمير بن وهب - ذكرنا ما حدث في خُلُق الصدق، وأخبار صدقه ﷺ - فارجع إليه

١٢- وتأمل حلمه مع هذا الأعرابي الذي جاءه ﷺ ليستعينه في شيء، فأعطاه

---

(١) أخرجه أبو داود في «الأدب - باب في الحلم» (٤١٧٥)، وضعفه الألباني ورواه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» والنسائي في «القسامة - باب القود من الجبذة» برقم (٤٧٩٠)، وفي «الكبرى» (٦٩٧٨)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق».

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (١٠٥/٤) مع الروض الأنف.

(٣) «السيرة وتاريخ الخلفاء» لابن حبان البستي (ص٣٢٩).

رسول الله ﷺ شيئًا ثم قال له: «**أحسنت إليك؟**» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت.. فغضب بعض الصحابة، حتى هموا أن يقوموا إليه، فأشار إليهم الرسول ﷺ يمنعهم ويكفهم، فلما قام رسول الله وبلغ منزله، دعا الأعرابي إلى البيت، فزاده الرسول ﷺ وقال له: «**أحسنت إليك؟**» قال الأعرابي: نعم، وجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيرًا، قال النبي ﷺ: «**إنما جئتنا فسألتنا، فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت فقل ذلك بين أيديهم، حتى يذهب عن صدورهم ذلك**» فقال الأعرابي: نعم.. فلما جاء الصحابة، قال رسول الله ﷺ: «**إن صاحبكم جاءنا فسألنا، فأعطيناه، فقال ما قال، وأنا قد دعوناه، فأعطيناه، نزعم أنه قد رضي كذلك يا أعرابي؟**» قال الأعرابي: نعم، وجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيرًا يا رسول الله(١).

١٣- كما أنه ﷺ كان من أحلم الناس مع أهل بيته، ومع أزواجه الطاهرات، فعن عمر ابن الخطاب ﷺ قال: كنَّا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار، إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، قال: فصخبت على امرأتي، فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، قالت: و لم تُنكر أن أراجعك؟ فوالله إنَّ أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم إلى الليل.

قال عمر بن الخطاب: فأفزعني ذلك، وقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن قال: ثم جمعتُ عليَّ ثيابي، فنزلتُ، فدخلت على حفصة، فقلت لها: أي حفصة أتغاضب إحداكنَّ النبي ﷺ اليوم حتى الليل؟ قالت حفصة، نعم.. قال: فقلت: قد خبت وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ فتهلكي؟(٢).

فتأمل أخي الحبيب كيف انزعج عمر بن الخطاب ﷺ من مراجعة بسيطة راجعته بها زوجته، والنبي الحليم العظيم يقبل مراجعة نسائه، بل ويتحمل غضبهن عليه، حتى يهجرنه

---

(١) **ضعيف**: رواه البزار وابن حبان في «صحيحه» وأبو الشيخ في أخلاق النبي برقم (١٧٨)، وفي إسناده (إبراهيم بن الحكم بن أبان) ضعفه ابن معين وأحمد وأبو زرعة والدارقطني وذكر الحديث الهيثمي في «المجمع» (١٦/٩)، وأشار إلى ضعفه وابن الجوزي في «الوفا» (٧٨/٢).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري في «النكاح - باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها» (٣٦/٧).

من الكلام، وهو النبي الكريم، وهو سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين، وما ذلك إلا لعظيم حلمه، وبالغ صبره..

١٤- لما أتاه شاب تفور دماء الشهوة في عروقه، وقال: يا نبي الله، أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به، فماذا فعل به الحليم الكريم؟

قال: «**قربوه.. ادن**» فدنا حتى جلس بين يديه.

فقال له النبي الحليم ﷺ: «**أتحبه لأمك؟**».

قال: لا، جعلني الله فداك يا رسول الله.

قال النبي ﷺ: «**كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟**».

قال الشاب: لا؛ جعلني الله فداك يا رسول الله.

قال ﷺ: «**أتحبه لأختك؟**» حتى ذكر العمة والخالة، وهو يقول في كل واحدة: لا، جعلني الله فداك، والنبي يقول: «**كذلك الناس لا يحبونه**» ثم وضع الرسول يده على صدر الشاب، وقال: «**اللهمَّ طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه**»(١). فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا.

وتلكم هي حكمة المعلم الحليم العظيم، إنه لم ينهر الشاب، ولم يؤنبه بل لقنه درسًا عظيمًا بكل حلم وأدب وعقل، لقنه درسًا بالحوار المجدي، والنقاش الذي يُعلم، والجدال الهادف، فجعل يضرب له الأمثال، ليتبصر قبح الزنا وشناعته، ثم عطف عليه عطف الأب الودود فدعا له بالبرء من هذا الداء.

غضب الحليم:

وعلى الرغم من حلم الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ إلا أنه كان يغضب في الحق وللحق، كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله، وها هي السيدة عائشة - رضي الله عنها - تقول: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها»(٢).

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» والبيهقي في «الشعب» (٥٤١٥)، والطبراني في «الكبير» (٧٦٧٩).

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم - تخرج في موضع آخر.

وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول عن غضبه ﷺ: «لم يكن للدنيا، فإذا أغضبه الحق، لم يصرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء، حتى ينتصر للحق».

وقد جاءت بعض الأحاديث، والآثار التي تدل على غضبه في الحق منها:

١- فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان يغضب حتى يُعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: «**إنَّ أتقاكم بالله وأعلمكم به، أنا**»[(١)].

٢- وعنها - رضي الله عنها - قالت: دخل رسول الله ﷺ وعندي رجل قاعد، فاشتد ذلك عليه، ورأيت الغضب في وجهه.. قالت: فقلت: يا رسول الله، إنه أخي من الرضاعة، فقال: «**انظرن ما إخوانكن من الرضاعة، فإنما الرضاعة من المجاعة**»[(٢)].

٣- وعن عبد الله بن عمرو قال: هَجَرتُ إلى رسول الله ﷺ يومًا فقال: سمعت أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله يُعرف في وجهه الغضب، فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب**»[(٣)].

٤- وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: أُهديت إلى رسول الله ﷺ حلة سيراء، فأرسل بها إليَّ، فلبستها، فأتيته، فرأيت الغضب في وجهه، وقال: «**إني لم أُرسل بها إليك لتلبسها**» فأمرني فقسمتها بين النساء[(٤)].

٥- وفي حديث أنس لما دخل المسجد فوجد نخامة في جهة القبلة، فاشتد غضبه ﷺ وحتها بعود من الإذخر[(٥)].

والأحاديث في ذلك كثيرة، فكان غضبه ﷺ غضبًا لائقًا برسالته وبعظمته، فهو غضب لا يتجاوز الاعتدال بحال من الأحوال.

---

(١) صحيح: رواه البخاري.

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

(٣) صحيح: رواه مسلم في [كتاب العلم - باب النهي عن متشابه القرآن].

(٤) صحيح: رواه البخاري وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٤٣)، والنسائي (٥٢٩٨)، و«المشكاة» (٤٣٢٢).

(٥) صحيح: رواه البخاري وغيره.

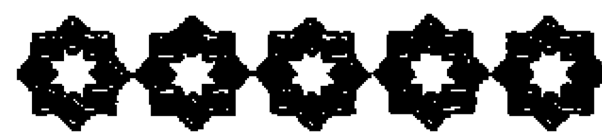
قال عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – : يا رسول الله، أكتب عنك كل ما تقول، في الغضب والرضا؟

فقال: «**اكتب، فوالذي بعثني بالحق نبيًّا، ما يخرج منه إلا حق**»[١]. وأشار إلى لسانه.

وكان مع غضبه للحق وبالحق يحاول ما استطاع أن يخفف من حدته، وأن يقصر مدته، وأن يجعل السيطرة لعزيمته، وذلك بأن يغير من الوضع الذي هو فيه، فينقل نفسه من حال إلى حال..

قال أبو ذر ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم، فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع**»[٢].

وكان شديد الخشية من أن يكون غضبه قد أغراه مرة بمجاوزة الحد، وهذا بيِّنٌ في قوله ﷺ: «**اللهمَّ أنا بشر، أغضب كما يغضب البشر، فأيما مسلم سببته أو لعنته، أو ضربته، فاجعلها مني صلاة عليه، وزكاة تقربه بها إليك يوم القيامة**»[٣].



---

(١) **صحيح**: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٩٦)، و«صحيح سنن أبي داود» (٣٦٤٦).

(٢) **صحيح**: سيأتي تخريجه.

(٣) **صحيح**: رواه البخاري في «الأدب المفرد» وحسنه الألباني ورواه أحمد وصححه الألباني أيضًا في «صحيح الجامع» (٢٧٢٨)، و«الصحيحة» (١٧٥٨)، و«صحيح سنن أبي داود» (٤٦٥٩).

حث الرسول أتباعه على الحلم
وذمه للغضب

ومن دلائل حلمه، وأخلاقه العظيمة، أقواله وأحاديثه التي حثت على الحلم، وذمت الغضب ومنها:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب**»(١).

٢- وعن أبي هريرة ﷺ أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «**لا تغضب**» فردد مرارًا، فقال: «**لا تغضب**»(٢).

وفي رواية للترمذي من حديث أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: علمني شيئًا، ولا تكثر عليَّ، لعلي أعيه، قال: «**لا تغضب**» فردد ذلك مررًا، كل ذلك يقول: «**لا تغضب**»(٣).

وفي «مسند الإمام أحمد» أن الرسول لما كرر عليه الوصية «**لا تغضب**» قال الرجل ففكرت، فإذا الغضب يجمع الشر كله(٤).

وقد صدقت نبوءة النبي الحليم ﷺ فهو أعظم الأطباء، ودواؤه أعظم الأدوية، فقد ثبت علميًّا ما يلي:

أن الغضب كصورة من صور الانفعال النفسي يؤثر على قلب الشخص الذي يغضب تأثير العدو أو الجري على القلب، وانفعال الغضب يزيد من عدد مرات انقباضاته في الدقيقة الواحدة، فيضاعف بذلك كمية الدماء التي يدفعها القلب، أو التي تخرج منه إلى

---

(١) صحيح: رواه مسلم وأحمد ومالك في «الموطأ» والبخاري في «الأدب المفرد» والبيهقي في «شعبه»، وفي «سننه الكبرى» وعبد الرزاق في «مصنفه».

(٢) صحيح: رواه البخاري وابن حبان ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد والحاكم.

(٣) صحيح: رواه الترمذي وصححه الألباني.

(٤) صحيح: رواه أحمد في «مسنده».

الأوعية الدموية مع كل واحدة من هذه الانقباضات، أو النبضات، وهذا يجهد القلب، ويجبره على زيادة عمله عن معدلات العمل، الذي يفترض أن يؤديه بصفة عادية، أو ظروف معينة، إلا أن العدو أو الجري في إجهاده للقلب لا يستمر طويلاً، لأن المرء يمكن أن يتوقف عن الجري، إن هو أراد ذلك، أما في الغضب فلا يستطيع الإنسان أن يسيطر على غضبه، لا سيما وإن كان قد اعتاد على عدم التحكم في مشاعره، وقد لوحظ أن الإنسان الذي اعتاد على الغضب يُصاب بارتفاع ضغط الدم، ويزيد عن معدله الطبيعي حيث أن قلبه يضطر إلى أن يدفع كمية من الدماء الزائدة عن المعتاد والمطلوب، كما أن شرايينه الدقيقة تتصلب جدرانها وتفقد مرونتها، وقدرتها على الاتساع كي تستطيع أن تسمح بمرور تلك الكمية من الدماء الزائدة التي يضخها هذا القلب المنفعل ولهذا يرتفع الضغط عند الغضب.

ويقول الدكتور شوقي إبراهيم:

إن الميول الإنسانية تنقسم إلى أربعة أقسام، ويختلف سلوك وتصرفات الأشخاص باختلاف هذه الميول، ومدى السيطرة عليها:

١- الميول الشهوانية، وتؤدي إلى الثورة والغضب.

٢- الميول التسلطية، وتؤدي إلى الكبر، والغطرسة، وحب الرياسة.

٣- الميول الشيطانية، وتسبب الكراهية والبغضاء للآخرين.

ومهما كانت ميول الإنسان، فإنه يتعرض للغضب، فيتحفز الجسم، ويرتفع ضغط الدم، ويسبب الأمراض النفسية، والبدنية، مثل: السكر، والذبحة الصدرية.

وأكدت الأبحاث العلمية أن الغضب وتكراره يقلل من عمر الإنسان، لهذا نصح رسول الله ﷺ بعدم الغضب.

وتجنب الغضب يحتاج إلى ضبط النفس مع إيمان قوي بالله، ولذلك امتدح النبي ﷺ هذا السلوك في الحديث الذي أشرنا إليه: «**ليس الشديد بالصرعة...**» ولا يكون تجنب الغضب بتناول المهدئات، لأن متعاطي المهدئات لا يستطيع أن يتخلص منها بسهولة، بل وتفقد تأثيرها باستمرار تعاطيها.

والطب النفسي قد توصل إلى طريقتين لعلاج الغضب:

الأولى: من خلال تقليل الحساسية الانفعالية، بتدريب المريض على ممارسة الاسترخاء، مع

مواجهة المواقف الصعبة بدون انفعال أو غضب.

الثانية: من خلال الاسترخاء النفسي والعضلي، فيطلب الطبيب من المريض إذا كان في موقف فغضب أن يجلس أو يضطجع، ليُعطي فرصة للتروي والهدوء، وهذا ما توصل إليه سيد الأطباء ﷺ منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان حيث قال ﷺ: **«إذا غضب أحدكم وهو قائم، فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع»**(١). وفي بعض الروايات: **«فإن لم يزل ذلك، فليتوضأ بالماء البارد، أو يغتسل»**.

٣- وسمعت أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: قلت: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة، قال ﷺ: **«لا تغضب ولك الجنة»**(٢). ففي الحلم وعدم الغضب الوصول إلى الجنات.

٤- وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال ﷺ: **«ما من جرعة أعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبدٌ ابتغاء وجه الله»**(٣).

٥- وعن معاذ بن أنس أن النبي ﷺ قال: **«من كظم غيظه، وهو قادر أن ينتصر، دعاه الله تبارك وتعالى يوم القيامة على رءوس الخلائق، حتى يخيره من الحور العين ما شاء - وفي رواية - من حلل الإيمان أيتهن شاء»**(٤).

٦- وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: **«من كف غضبه، ستر الله عورته»**(٥). وفي رواية أخرى: **«من كف غضبه، كفَّ الله عنه عذابه، ومن خزن لسانه ستر الله عورته، ومن اعتذر إلى الله، قَبِلَ الله عذره»**(٦).

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٩٤)، و«صحيح سنن أبي داود» (٤٧٨٢)، و«المشكاة» (٥١١٤).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط» (٢٣٧٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣٧٤).

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤١٧٩)، و«الأدب المفرد» (٩٩٥) ألباني، و«صحيح الترغيب» (٢٧٥٢).

(٤) حسن: رواه أحمد وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٩٠٦)، و«صحيح سنن أبي داود» (٤٧٧٧)، و«صحيح الجامع» (١٧٦)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤١٨٦).

(٥) حسن: حسنه الألباني في «الصحيحة» (٩٠٦)، و«صحيح الجامع» (١٧٦).

(٦) صحيح: صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٦٠).

٧- وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، قال: الصبر عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله، وخضع لهم عدوهم، كأنَّهُ وليٌّ حميم(١).

٨- وكان من دعائه ﷺ قوله: «**اللهمَّ إني أسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى**»(٢).

٩- وكان يقول للأشج ابن عبد قيس: «**إنَّ فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**»(٣).

١٠- وعن النعمان بن مقرن المزني ﷺ قال: سبَّ رجلٌ رجلاً عند رسول الله ﷺ فجعل المسبوب يقول: عليك السلام، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنَّ ملكًا بينكما يذبُ عنك، كلما شتمك هذا، قال له: بل أنت، وأنت أحق به، وإذا قلت له: وعليك السلام، قال: لا، بل عليك، وأنت أحق به**»(٤).

وصدق الله ﷻ حين قال في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج: ٣٨].

وأقوال السلف الصالح – رضوان الله عليهم – في الحث على الحلم كثيرة:

١- قال أنس بن مالك ﷺ في قوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

قال: هو الرجل يشتمه أخوه، فيقول: إن كنت كاذبًا، فغفر الله لك، وإن كنت صادقًا، فغفر الله لي.

---

(١) صحيح: رواه البخاري تعليقًا وصححه الألباني في «المشكاة» (٥١١٧).

(٢) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» ورواه أبو يعلى والبيهقي في «الشعب».

(٣) صحيح: رواه مسلم والترمذي.

(٤) صحيح: رواه أحمد (٢٣٦٣٥)، وصححه حمزة الزين (١٠٢/١٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧٥/٨): رجاله رجال الصحيح.

٢- وقال معاوية: لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم.

٣- وقال لعرابة بن أوس: بم سُدت قومك؟ قال: يا أمير المؤمنين، كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم.

٤- وقال الماوردي: الحلم من أشرف الأخلاق، وأحقها بذوي الألباب، لما فيه من سلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد.

٥- وكان الأحنف بن قيس من أحلم الناس، بل كان يُضرب به المثل في الحلم قيل له يومًا: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم التميمي، آتاه آتٍ وهو محتب، فقال: ابن أخيك قتل ابنك! قال: عصى ربه، وفَتَّ عضده، وقطع رحمه، جهزوه، وما حلَّ حبوته، فمنه تعلمت الحلم.

٦- قال الأحنف بن قيس: ما عاداني أحد قط إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه.

فنظمه الخليل بن أحمد شعرًا، فقال:

سألزم نفسي الصفح عن كلِّ مذنب ... وإن كثرت منه إليَّ الجرائم
فما الناس إلا واحدٌ من ثلاثة ... شريف ومشرف ومثلٌ مقاوم
فأمَّا الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحقَّ والحقُّ لازم
وأمَّا الذي دوني فأحلم دائبًا ... أصون به عرضي وإنْ لام لائم
وأمَّا الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا ... تفضلتُ إنَّ الفضل بالفخر حاكم



مواقف في الحلم سطرها التاريخ

ولقد سجل لنا التاريخ مواقفًا إيمانية في الحلم، هذه المواقف تكتب بماء الذهب منها:

١- ما ذكر أنَّ رجلاً من أهل الشام دخل المدينة المنورة، فرأى شابًا حسن الهيئة جميل المنظر، نظيف الثياب، راكبًا دابة قوية نشيطة.. فسأل.. فقيل له: هذا الحسن بن علي ابن أبي طالب - رضي الله عنهما - فامتلأ قلبه حقدًا وحسدًا عليه، وتقدم إليه، وقال له: أأنت ابن أبي طالب؟ فقال الحسن: أنا ابن ابنه... قال الرجل: لقد قلت فيك، وفي أبيك كلامًا قبيحًا أشتمكما به، وذكر له ذلك الكلام.

فقال له الحسن: أظنك غريبًا؟!

فقال الرجل: نعم.. فقال الحسن: إذا احتجت إلى منزل أسكنتك، أو إلى مال أعطيتك، أو إلى حاجة ساعدتك!!

فعجب الرجل من حلم الحسن، وانصرف وهو يقول: ليس على وجه الأرض شيء أحب إليَّ من هذا الشاب.. أسأت إليه، فأحسن إليَّ.

فأي حلم أعظم من هذا الحلم.. وأي كرم أعظم من هذا الكرم؟!

٢- وكان لعبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما - أرضٌ، وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية، وفيها أيضًا عبيد يعملون فيها، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير، فكتب عبد الله كتابًا إلى معاوية يقول له فيه:

«أما بعد، يا معاوية، إنّ عبيدك قد دخلوا في أرضي، فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن، والسلام».

فلما وقف معاوية على كتابه، وقرأه، دفعه إلى ولده يزيد، فلما قرأهُ قال له معاوية: يا بني ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشًا يكون أوله عنده، وآخره عندك، يأتونك برأسه.

فقال: بل غير ذلك خيرٌ منه يا بني، ثم أخذ ورقة، وكتب فيها ردًّا على خطاب عبد الله ... يقول فيه:

«أما بعد.. فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله، وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاك، تنازلت عن أرضي، فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال.. والسلام».

فلما وقف عبد الله بن الزبير على كتاب معاوية ﷺ كتب إليه:

«أما بعد.. قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل.. والسلام» فلما قرأه معاوية رمى به إلى ابنه يزيد، فلما قرأهُ تهلل وجهه.

فقال له أبوه معاوية: يا بني، من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب، فإذا ابتليت بشيء من هذا، فداوه بمثل هذا الدواء[1].

٣- وشتم رجلٌ أبا ذر ﷺ فقال له: يا هذا، لا تستغرق في شتمنا، ودع للصلح موضعًا، فإنا لا نكافئ من عصا الله فينا، بأكبر من أن نطيع الله فيه.

٤- وشتم رجل الشعبي الفقيه، فقال له: إن كنت صادقًا يغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا يغفر الله لك.

٥- والربيع بن خثيم - رحمه الله - شتمه رجل، فقال له: يا هذا، سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة، إن قطعتها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها، فأنا شر مما تقول[2].

٦- وبكر المزني - رحمه الله - مرَّ يومًا من الأيام، فسبه أحد المارة بلا ذنب، فقال لمن معه: إذا رأيت من هو أكبر منك، فعظّمه، وقل: إنه سبقني إلى الإسلام والعمل الصالح، وإذا رأيت من هو أصغر منك فعظمه، وقل في نفسك: إني قد سبقته إلى الذنوب، وإذا أكرمك الناس، فقل: هذا من فضل الله عليَّ فلا أستحقه، وإذا أهانوك فقل: هذا بذنب أحدثته[3].

---

(١) «المستطرف» للأبشيهي (ص٢١٠) ط. التوفيقية.

(٢) «روضة العقلاء» لابن حبان البستي.

(٣) «تنبيه المغترين» للشعراني (ص٦٥) ط. بيروت.

أخي الحبيب:

يقول الجاحظ: وينبغي لمحب الكمال أن يشعر نفسه أنَّ الغضبان بمنزلة البهائم والسباع، يفعل ما يفعله من غير علم ولا روية، فإذا جرى بينه وبين غيره محاورة أدت إلى أن يغضب خصمه، ويسفه عليه، اعتقد فيه أنه في تلك الحالة بمنزلة البهائم والسباع، فيمسك عن مقابلته، ويحجم عن الاقتصاص فيه، ألا يعلم أن الكلب لو نبح عليه لم يكن يستجيز مقابلته على نبحه، وكذلك البهيمة لو رمحته لم تستحسن عقوبتها، لأنها غير عالمة بما تصنعه، إلا أن يكون جاهلاً سفيهًا، فإن من السفهاء من يغضب على البهيمة، إذا رمحته (رفسته) ويوجعها ضربًا، إذا أذته، وربما عثر السفيه، فشتم موضع عثرته، ورفسها برجله.

فأما الحليم الوقور فلا يستحسن شيئًا من ذلك، وإذا استشعر من خصمه أنه بمنزلة البهائم (حال الغضب) صار هذا الاستشعار منه طريقًا إلى ضبط النفس[١].

فعليك أخي الحبيب بالحلم، وتجنب الغضب، وعليك بحسن الأخلاق واجعل سيد الأولين والآخرين قائدك.. وقل كما قال الشافعي - رحمه الله تعالى - :

أحب مكارم الأخلاق جهدي ... وأكره أن أعيب أو أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلمًا ... وشر الناس من يهوي السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

واعلم أن من غرس شجرة الحلم، اجتنى شجرة السلم، واعلم أن الحلم والأناة توأمان نتيجتهما علو الهمة، وأن الخير بالخير، والبادئ أكرم، وأن الشر بالشر والبادئ أظلم.

إذا زل الكريم فكن حليمًا ... فإن الحلم حينئذ مزية
وإن جاء اللئيم إليك عمدًا ... بما كسبت يداه من الأسية
ولم يخضع لعفوك باعتراف ... فعجل بالمكافأة القوية

(١) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص٥٥) ط. دار الصحابة.

فــإن الحــر يكفــيه مــلام وإن العــبد تصــلحه الأذيــة

فعــامل كــل إنســان بحكــم وفي هــذا تــرى فصْــل القضــية

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الحلماء الكرماء، وأن يجعلنا ممن يحبون مكارم الأخلاق، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



المبحث الرابع

خُلق الأمانة

فما هي الأمانة؟

الأمانة في اللغة:

الأمانة مصدر قولهم: أمن يأمن أمانة، وهي مأخوذة من مادة «أ م ن» التي تدل على سكون القلب.

ويُقال: رجلٌ أَمَنَةٌ، إذا كان يأمنه الناس، ولا يخافون غائلته، وأَمَنَةَ بالفتح إذا كان يُصَدِقُ ما سمعه ولا يُكذب بشيء.

وقال الجوهري: الأمنة الذي يُصدق بكل شيء.

وقال ابن منظور: الأمان والأمانة بمعنى، والأمانة ضد الخيانة.

وقال ابن الأثير: الأمنة جميع أمين، وهو الحافظ.

وقال الراغب: والأمن والأمان والأمانة في الأصل مصادر، ويُجعل الأمان تارة اسمًا للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة تُجعل الأمانة اسمًا لما يؤمن عليه الإنسان من أموال وغيرها.

واصطلاحًا:

قال الكَفَوِيُّ: «الأمانة: كُلُّ ما افْتَرض اللّهُ على العباد فهو أمانة كالصّلاة والزّكاة والصِّيام وأدَاء الدّيْن، وَأَوْكَدهَا الوَدَائع وأَوْكَد الْوَدَائع: كَتْمُ الأسْرار».

وقال في موضع آخر: «كُلُّ ما يُؤتَمن عليه من أموالٍ وَحُرَمٍ وأسرار فهو أمانة»

وقيل: هي خلق ثابت في النفس يعف به الإنسان عما ليس له به حق، وإن تهيأت له

ظروف العدوان عليه، ويؤدي به ما عليه أو لديه من حق لغيره، وإن استطاع أن يهضمه.

والأمانة بمعناها الأخلاقي: شعور بالتبعة، واحتكام إلى الضمير اليقظ ونهوض بالرعاية لكل ما في عهدة الإنسان من شيء، سواء كان حسيًّا، أو معنويًّا[١].

مكانة الأمانة ومنزلتها بين الأخلاق:

والأمانة من أعظم الأخلاق، وكريم الخصال، وفضيلة من الفضائل ويكفيها منزلة ومكانة أنها خلق كريم من أخلاق القرآن الكريم، ولذا حث على رعايتها وصيانتها في مواطن كثيرة منها: قوله جل في علاه:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ولقد ذكر **الأصفهاني** في كتابه «المفردات» أنَّ معنى الأمانة هنا فيه أقوال هي: كلمة التوحيد، أو العدالة، أو حروف التهجي، أو العقل.. ثم مال إلى اختيار معنى العقل، لأنه في رأيه يشمل الأقوال السابقة، لذا قال عنه:

«وهو صحيح، فإن العقل هو الذي بحصوله تتحصل معرفة التوحيد، وتجري العدالة، وتُعلم حروف التهجي، بل بحصوله تعلم كل ما في طوق البشر تعلمه، وفعل ما في طوقهم من الجميل فعله، وبه فُضِّل الإنسان على كثير من خلقه».

وقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة في المراد بالأمانة المذكورة في الآية المباركة فقيل: هي المحافظة على الصلوات، وأداء الزكاة، والصوم، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وقيل: إنها أمانات الناس وودائعهم التي يودعونها عند غيرهم، وقيل: إنها الاغتسال من الجنابة، وقيل: هي أعضاء الإنسان فالعين أمانة، واللسان أمانة، والأذن أمانة، وسائر الأعضاء أمانة.

قال الإمام الطبريُّ – رحمه الله – في تفسيره:

«وأَوْلى هذه الأقوال بالصَّواب: ما قاله الذين قالوا: إنه عنى بالأمانة في هذا الموضع:

(١) «من أخلاق القرآن» للشرباصي (١٥/٢) ط. الرائد العربي بيروت.

جميع معاني الأمانات في الدين، وأمانات الناس، وذلك أن الله ﷻ لم يخصّ بقوله: ﴿ عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ بعض معاني الأمانات دون بعض(١).

والعوام ينظرون للأمانة نظرة ضيقة، ويظنونها فقط حفظ الودائع والأموال لكنها كما رأيت أوسع نطاقًا من ذلك، وهي ترمز إلى معانٍ شتى، مناطها شعور المرء بتبعته في كل أمر يُكلف به، سواء كان هذا التكليف ربانيًّا مثل العبادات، أو كان من البشر، فيصبح مسئولاً عنه أمام ربه تبارك وتعالى ولذلك قال ﷺ:

« كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، ومسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع ومسئول عن رعيته »(٢).

مجالات الأمانة:

ومجالات الأمانة متعددة وكثيرة:

فيدخل فيها الأمانة في تولية أمور المسلمين، قال ﷺ: **« ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت، وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة »**(٣).

ويدخل فيها الأحوال الشخصية والحقوق الزوجية، وهي من أعظم الأمانات، قال ﷺ: **« إنَّ من أعظم الأمانات عند الله تعالى يوم القيامة، الرجل يُفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها »**(٤).

ويدخل فيه الأمور الاجتماعية مثل الأمانة في المجالس، قال ﷺ: **« إذا حدث الرجلُ الرجلَ بحديث، ثم التفت فهو أمانة »**(٥).

---

(١) « تفسير الطبري » (٣٣٨/١٠).

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن معقل بن يسار.

(٤) صحيح: رواه مسلم وأبو داود.

(٥) صحيح: صححه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » (٤٨٦٨) والترمذي (١٩٥٩) وأحمد وأبو يعلى وعبد الرزاق.

كما تكون الأمانة في الشورى، فلو أن إنسان استشارك في أمرٍ من الأمور، فهو أمانة، لذا يجب عليك أن تشير عليه بما تراه مناسبًا.. قال ﷺ: «**المستشار مؤتمن**»(١).

كما تدخل الأمانة في مجالات الدين، كما أشرنا قبل ذلك، ففي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خَمْسٌ مَنْ جَاء بِهنّ مع إيمَان دَخَل الجنَة: مَنْ حَافَظ على الصَّلَواتِ الْخَمْسِ على وُضُوئِهنَّ، وركوعِهِنَّ، وسُجُودِهنّ، ومَوَاقيتِهنّ وأَعْطَى الزّكَاة منْ مَاله، طَيِّبَ النفس بها**» وكان يقول: «**وايم الله، لا يفعل ذلك إلا مؤمن، وصام رمضان، وحج البيت، إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأدى الأمانة**»

قالوا: يا أبا الدرداء: وما الأمانة؟ قال: الغسل من الجنابة، فإن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيره(٢).

والأذان، وهو الإعلام بدخول الوقت للصلاة - يعتبر أمانة، قال ﷺ:

«**الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، اللهمَّ ارشد الأئمة، واغفر للمؤذنين**»(٣).

وحواسك التي أنعم الله بها عليك أمانة، فسخرها في قرباته، واستعملها في مرضاته، فإذا امتحنت بنقص في شيء منها، فاصبر ولا تجزع، فله ما أعطى وله ما أخذ، فلا تفتن بها عن طاعة، ولا تستقوى بها على معصية.. قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال].

الأمانة حلية الأنبياء والمرسلين

والأمانة صفة بارزة من صفات الأنبياء والمرسلين، بل واجبة في حقهم وقد أشار القرآن الكريم أن أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام يتصفون بهذه الصفة، فهذا أطول الناس

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٢٢) وابن ماجة (٣٧٤٥) والدارمي وأحمد وأبو يعلى.

(٢) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٩) ورواه الطبراني في «الصغير» برقم (٧٧٣) والبيهقي في «الشعب» (٢٧٥٠).

(٣) صحيح: رواه الترمذي وصححه الألباني (٢٠٧) و«صحيح سنن أبي داود»، و«صحيح الجامع» (٢٧٨٧)، و«المشكاة» (١٠٦٦٣)، و«الترغيب» (٢٣٧).

عمرًا «نوح» عليه السلام يقول كما حكى القرآن الكريم:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ ﴾ [الشعراء: ١٠٥- ١٠٧].

أي إني رسول من الله إليكم، أتيتكم لأبلغ إليكم رسالات ربي بكل أمانة، لا أزيد فيها ولا أنقص.

وكان سائر الأنبياء والمرسلين يخاطبون قومه بهذه العبارة التي تدل على أمانتهم، كما جاء على لسان هود، وصالح، ولوط، وشعيب - عليهم السلام - :

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨].

وكذلك ظهرت مخايل الأمانة على سيدنا موسى عليه السلام حين سقى لابنتي شعيب عليه السلام، ورفق بهما، واحترم أنوثتهما، حتى قالت إحداهما:

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].

فقد ورد في التفسير أن ابنة شعيب سألها أبوها: وما علمك بذلك؟ أي بقوته وأمانته؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئتُ معه، تقدمتُ أمامه، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلفت على الطريق فاحذفي بحصاة أعلم بها، كيف الطريق لأهتدي إليه.

وفي «تفسير الطبري»: وأما أمانته فما رأيت من غض بصره عني.

وفي فتح القدير للشوكاني: أما قوته، فإنه قلب الحجر وحده، وكان لا يقلبه إلا النفر، وأما أمانته فقال: امشي خلفي وارشديني الطريق، لأني امرؤ من عنصر إبراهيم، لا يحل لي منك ما حرمه الله.

وقد أشار القرآن الكريم على أمانة يوسف عليه السلام حين قال له عزيز مصر:

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: ٥٤].



الأمانة في حياة الرسول ﷺ

أخي المسلم ... أختي المسلمة..

إنّ رسول الله ﷺ بلغ الذروة في الأخلاق العالية، وصدق مولانا جل في علاه، حين قال عنه، ومخاطبًا إياه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم: ٤]، وخلق الأمانة خلق واجب من الأخلاق النبوية إذ لو لم يتصف الرسول بالأمانة، لاتصف بضدها، ولو كان متصفًا بضدها وهو «الخيانة» لكان إرساله عبثًا، وهو محال على الله ﷻ فوجب أن يتصف بالأمانة، ويستحيل عليه ضدها، وقد اتصف النبي ﷺ بهذا الخلق الكريم منذ صغره، وقبل البعثة، وبعدها، وهذه بعض لقطات من أمانة سيد الأمناء ﷺ:

١- لما بنت قريش الكعبة، وبلغوا موضع الركن اختصموا في الركن، أيُّ القبائل تلي رفعه، فقالوا: تعالوا نحكم أول من يطلع علينا، فطلع عليهم رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا الأمين، رضينا حكمه، هذا محمد، فأمر بثوب، فوضع الحجر في وسطه، وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطائفة من الثوب، فرفعوه، وأخذه الرسول، فوضعه.. وكان هذا قبل البعثة بخمس سنوات..

٢- وبعد البعثة، لما نزل عليه جبريل عليه السلام يقول: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ ﴾ [العلق: ١]، وذهب إلى بيته فزعًا قالت له السيدة خديجة رضي الله عنها: «أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكَلّ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

٣- ولما ذهب أبو سفيان ومن معه إلى هرقل ملك الروم، لم يستطع أن ينكر هذا الخلق العظيم، ولم يقدر أن يخفيه، مع أنه حريص أن يقلل من شأنه، أو يطعن فيه بدافع العداء آنذاك، لكنه لما سئل عن ما يأمر النبي ﷺ به قال أبو سفيان: «إنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة..»[1].

---

(١) صحيح رواه البخاري وأحمد.

٤- ولما سُئل جعفر بن عبد المطلب ﷺ كما في قصته مع النجاشي ملك الأحباش، وذلك عندما سأله عن الدين، الذي اعتنقوه، فكان من إجابته له، قوله: «حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه، وصدقه وأمانته وعفته...» وهكذا كان معروفًا بالأمانة قبل البعثة وبعدها..

٥- ولما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، ماذا فعل النبي ﷺ وعنده ودائع القوم؟ أيفجعهم فيها وقد آذوه وطردوه؟ لوْ فعل ذلك ما كان عليه لومٌ!

ولكنه ترك عليًّا بن أبي طالب ﷺ ليقوم بهذه المهمة بدلاً عنه، وهذا هو السر في أنه ترك عليًّا ينام مكانه في الفراش، لم يكن نومه يغير من المقادير شيئًا، وكانت هجرة عليٍّ مع الرسول ﷺ أولى ولكنه تركه ليؤدي الأمانات التي كانت لديه ﷺ.

٦- ولما دخل مكة فاتحًا، وعاد إليها كما وعده ربه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥]، فلما نزل بمكة، واطمأن الناس خرج حتى جاء بيت الله الحرام - الكعبة المشرفة - طاف سبعًا على راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده، فلما انتهى من الطواف دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فوجد فيها حمامة من عيدان، فكسرها بيده، ثم طرحها، وفي بعض الروايات أن عثمان بن طلحة لما مدَّ يده بالمفتاح، قال العباس بن عبد المطلب: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي اجمعه لي مع السقاية.

فقبض عثمان يده بالمفتاح، خوفًا أن ينتزع منه فقال له النبي ﷺ: «**هات المفتاح يا عثمان**» فأعطاه المفتاح قائلاً: هاك أمانة الله، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

٧- لما استعمل عامله - ابن اللُّتبية - على الصدقة، فجاءه العامل حين فرغ من عمله، فقال: يا رسول الله، هذا لكم، وهذا أُهدى إليَّ فقال له النبي ﷺ: «**أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك، فنظرت أيهدى إليك أم لا؟ فوالذي نفس محمد بيده، لا يغلُ أحدكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة، يحمله على عنقه، إن كان بعيرًا جاء له رغاء، وإن كان بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها تبعر...**»(١).

---

(١) صحيح رواه البخاري ومسلم والدارمي والبيهقي في «السنن الكبرى».

٨- يقول أبو سعيد الخدري ﷺ: بعث عليٌّ بن أبي طالب ﷺ إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ، لم تحصل من ترابها قال: فقسمها بين أربعة نفرٍ، بين «عُيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع: إما علقمة، وإما عامر بن الطفيل» فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء! قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: **«ألا تأمنوني، وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً»**[(١)].

٩- وهذا جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ يقص لنا طرفًا من أمانة سيد المرسلين ﷺ فيقول: «أتيتُ النبي ﷺوهو في المسجد ضُحًى، فقال: **«صلِّ ركعتين»** وكان لي عليه دين، فقضاني وزادني»[(٢)].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أعظم أمانتك!

بأبي أنت وأمي يا رسول الله... ما أعظم أخلاقك!

١٠- وعن أبي هريرة ﷺ قال: كان لرجل على النبي ﷺ دينٌ من الإبل، فجاء يتقاضاه، فقال ﷺ: **«أعطوه»**، فقال: أوفيتني أوفى الله بك، قال ﷺ: **«إنَّ خياركم أحسنكم قضاء»**[(٣)].

١١- وكان رسول الله ﷺ إذا أصاب غنيمة، أمر بلالاً فنادى في الناس، فيجيئون بغنائمهم، فيخمسها ويقسمها، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر، فقال: يا رسول الله هذا فيما كنَّا أصبناه من الغنيمة، قال: **«أسمعت بلالاً نادى ثلاثًا؟»** قال: نعم، قال: **«فما منعك أن تجيء به؟»** قال: يا رسول الله، فاعتذر، فقال: **«لن أقبله منك حتى تكون أنت الذي تجيء به يوم القيامة»**[(٤)].

قال الطيبي: هذا وارد على سبيل التغليظ، لأن توبته - أي الرجل - غير مقبولة ولا أنَّ ردَّ المظالم على أهلها، أو الاستحلال منهم غير ممكن.

---

(١) صحيح رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح رواه أحمد في «مسنده» والبيهقي في «شعبه»، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) صحيح رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد والنسائي.

(٤) صحيح رواه أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وقال المظهر: وإنما لم يقبل الرسول ﷺ منه ذلك، لأن جميع الغانمين فيه شركاء، وقد تفرقوا، وتعذر إيصال نصيب كل واحد منهم إليه، فتركه الرسول ﷺ في يده، ليكون إثمه عليه، لأنه هو الغاصب.

وقال المنذري: كان هذا في اليسير فما الظن بما فوقه؟!

صلوات الله وتسليماته عليك يا سيدي يا رسول الله[١].



(١) انظر: «عون المعبود شرح سنن أبي داود»

حض الرسول ﷺ على الأمانة

وتحذيره من الخيانة

ولما كانت الأمانة خلقًا متأصلاً في رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ حثنا عليها، وأمرنا بها، ورهبنا من الخيانة، قال ﷺ: «**أدِّ الأمانة إلى مَنْ ائتمنك، ولا تخن من خانك**»(١).

وكثيرًا ما كان يحث الرسول عليها في خطبه، فكان يقول: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا صلاة له**»(٢).

وفي رواية: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**» فقد ربط الأمانة بالإيمان، فإن دل على شيء، فإنما يدل على عظم هذا الخلق العظيم.

وقال: «**أربع إذا كن فيك فلا عليك، ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طُعمة**»(٣).

وقد عبر بها عن الإيمان في حديث حذيفة بن اليمان، فقد قال له: «**إنَّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن وعلموا من السنة**» قال حذيفة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة، فقال: «**ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام، فيظل أثرها مثل المجل**» إلى أن قال: «**فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يُقال: إنَّ في بني فلان رجلاً أمينًا، حتى يُقال للرجل: ما أجلده، وما أظرفه، وما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»(٤).

---

(١) صحيح صححه الألباني في «الصحيحة» (٤٢٣)، و«المشكاة» (٢٩٣٤)، و«الإرواء» (١٥٤٤)، و«صحيح سنن أبي داود» (٣٥٣٤)، والترمذي (١٢٦٤)، والدارمي.

(٢) صحيح رواه البيهقي في «الشعب» وأحمد في «المسند» وابن حبان عن أنس وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٧٩) و«المشكاة» (٣٥) وحسنه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) صحيح رواه البخاري ومسلم.

وقد جعل الرسول الأمين خيانة الأمانة من علامات الساعة، وإشارة من إشارات يوم القيامة، فقال عندما جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله، يحدث القوم، حتى قال: «**أين السائل عن الساعة؟**» قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «**إذا ضُيعت الأمانة، فانتظر الساعة**» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمر لغير أهله، فانتظر الساعة**»(١).

وقد ظهر أثر قول الرسول في هذه العصور، وفي أيامنا هذه، وقد حذر الرسول أبا ذر، عندما قال له: ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «**يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها**»(٢).

وقد شدد الإسلام في ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ، وشدد في رفض المكاسب، فقال ﷺ: «**من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوق، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة**»(٣).

قال: فقام رجل أسود من الأنصار، كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك، قال: «**ومالك؟**» قال: سمعتك تقول: كذا وكذا، قال: «**وأنا أقول الآن: من استعملناه منكم على عمل، فيجيء بقليله وكثيره، فما أوتيَ منه أخذ، وما نُهي عنه انتهى**».
واعتبر الرسول ﷺ خيانة الأمانة من خصال النفاق، فقال: «**ثلاثة من كن فيه كان منافقًا خالصًا: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»(٤).

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من الخيانة، فيقول: «**اللهمَّ إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بئست البطانة**»(٥).

وبيَّن الرسول ﷺ أنَّ شهادة الخائن مردودة، فقال في حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -: «**لا تجوز شهادة خائن، ولا خائنة، وردَّ شهادة القانع، والخادم،**

---

(١) صحيح رواه البخاري في «كتاب العلم».
(٢) صحيح رواه البخاري ومسلم.
(٣) صحيح رواه مسلم وأحمد وأبو داود.
(٤) صحيح سبق تخريجه.
(٥) صحيح رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان وأبو يعلى.

والتابع، لأهل البيت، وأجازها لغيرهم»(١).

وحذر من الخيانة في البيع والشراء والغش فيهما حين مرَّ على كومة من الطعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: **«ما هذا يا صاحب الطعام؟»** قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: **«أفلا جعلته فوق الطعام، حتى يراه الناس، من غشنا فليس منا»**(٢).

وقال ﷺ: **«من أخذ أموال الناس يريد أداءها، أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»**(٣).

مواقف من أمانة الصحابة رضوان الله عليهم

أخي المسلم ... أختي المسلمة...

ولما شاهد أصحاب الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ هذا الخلق العظيم في حياة معلمهم، وفي سلوك أستاذهم ومربيهم، وسمعوا حثه على الأمانة، وتحذيره من الخيانة، اقتدوا به في أفعالهم وسلوكهم فكانوا أعظم الناس شأنًا بعد رسولهم في هذا الخُلُق، فهيا بنا لنقف مع هؤلاء الأخيار، لنتفقد أحوالهم وأخلاقهم، فنقتدي بهم:

١- أمانة أبو عبيدة بن الجراح:

لقد كان هذا الصحابي الجليل يلقب بـــ «أمين هذه الأمة» فعقب وفاة الرسول ﷺ خاف عمر بن الخطاب من تفرق رأي المسلمين، فقال لأبي عبيدة بن الجراح: ابسط يدك أبايعك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن لكل أمة أمينًا، وإنَّ أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»**(٤). فقال أبو عبيدة: ما كنت أتقدم بين يدي رجل أمره رسول الله ﷺ أن يؤمنا في الصلاة (يقصد أبا بكر الصديق).

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٦٦٩٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة وابن حبان وأبو يعلى والحاكم وصححه، والبيهقي في «الكبرى».

(٣) صحيح: رواه البخاري، وأحمد، والبيهقي في «الكبرى» (١٠٩٥٥).

(٤) صحيح: رواه البخاري ومسلم ورواه الحاكم (٥٧٨٤)، وقال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، ورواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان.

ثم بويع بعد ذلك أبو بكر الصديق ﷺ فكان أبو عبيدة خير ناصح له في الحق، وكانت كلماته هذه خير دليل، وأصدق شاهد على أمانته ﷺ.

٢- أمانة صِدِّيق هذه الأمة الأكبر:

وهو فراش الموت نراه وقد استدعى ابنته السيدة عائشة - رضي الله عنها - فيقول لها: يا عائشة، انظري هذه اللقحة (الناقة) التي كنَّا نشرب من لبنها والجفنة التي كنا نصطبغ فيها، والقطيفة التي كنَّا نلبسها، فإذا كنا ننتفع بذلك حين كُنَّا نلي أمر المسلمين، فإذا مت فرديه إلى عمر، فلما مات أبو بكر ﷺ أرسلتْ بهذه الأشياء إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال عمر: رحمك الله يا أبا بكر، لقد أتعبت من جاء بعدك. وقد صدق عمر ﷺ في قولته هذه، فمن بوسعه أن يفعل مثل ذلك.

٣- أمانةُ عليٍّ بن أبي طالب:

كان في بيت مال المسلمين عقد جميل من اللؤلؤ، وذلك في خلافة عليّ بن أبي طالب ﷺ فعلمت به ابنته، فأرادت أن تتزين به في يوم عيد الأضحى، فأرسلت إلى خازن بيت المال تطلب منه أن يعيرها ذلك العقد لتتزين به في العيد، ثم ترده، فأرسله إليها خازن بيت المال بعد أن استوثق أنها سوف ترده، فلما لبسته وتزينت به رآه أمير المؤمنين عليٌّ، فعرفه فقال لها: من أين جاء إليك هذا العقد؟

فقالت: استعرته من خازن بيت المال، لأتزين به في العيد، ثم أرده.

فأرسل عليٌّ إلى الخازن، فلما جاءه قال له: أتخون المسلمين يا ابن رافع؟

فقال ابن رافع والدهشة تعلو وجهه: معاذ الله أن أخون المسلمين يا أمير المؤمنين.

فقال عليٌّ ﷺ: كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد بغير إذني وبغير رضا المسلمين؟

فقال ابن رافع: إنها ابنتك، وطلبت أن أعيرها هذا العقد على أن ترده بعد ثلاث.

فقال له: رده من يومك، وإياك أن تعود لمثلها، فتنالك عقوبتي.

ثم قال: ويلٌ لابنتي لو كانت أخذت العقد على غير عارية مضمونة.

فلما بلغ هذا القول ابنته، قالت له: يا أمير المؤمنين أنا ابنتك، وبضعة منك فمن أحق بلبسه مني؟!

فقال لها: يا بنت ابن أبي طالب: لا تذهبي بنفسك عن الحق، أكلُّ نساء المهاجرين والأنصار يتزين في العيد بمثل هذا؟!

فأخذه ابن رافع وردّه إلى موضعه في بيت المال.

٤- أمانة عبد الله بن مسعود:

يروي لنا هذا الموقف الإيماني الصحابي الجليل «عبد الله بن مسعود» ﷺ بنفسه، فيقول: كنت أرعى غنمًا لعقبة بن أبي مُعيط، فمرَّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: **«يا غلام، هل من لبن؟»** قلت: نعم، ولست بساقيكما، لأني مؤتمن.

قال: **«فهل من شاة لم ينز عليها الفحل؟»** فأتيته بشاة فمسح ضرعها، فنزل لبن، فحلبه في إناء، فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: **«اقلص»** فقلص، ثم أتيته بعد هذا، فقلت: يا رسول الله علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: **«يرحمك الله، فإنك غلام معلم»**(١).

٥- أمانة معاذ بن جبل:

لما أرسل فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب ﷺ إلى بني كلاب ليقسم عليهم أعطيتهم، ويوزع على فقرائهم الصدقات، فأدَّ معَاذ ﷺ مهمته خير أداء، حتى أنه عاد وليس معه إلا حلسه يلفه حول رقبته.

فلما رأته زوجته قالت له: أين ما جئت به مما يأتي به الولاة من الهدايا؟

فقال لها: معاذ الله، لقد كان معي رقيب يحصر عليّ - يقصد الله ﷻ - .

فقالت: لقد كنت أمينًا عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر ﷺ، ثم لما جاء عمر بعث

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» وابن حبان وأبو يعلى في «مسنده» والطبراني في «الكبير والصغير» والبزار.

معك رقيبًا يحصي عليك، ثم إنها أشاعت ذلك، حتى بلغ قولها عمر بن الخطاب ﷺ.

فقال لمعاذ: أأنا بعثت معك رقيبًا يُحصي عليك؟!

فقال معاذ: يا أمير المؤمنين، لم أجد شيئًا أعتذر به إليها غير ذلك، فضحك عمر ﷺ وأعطاه شيئًا، وقال له: أرضها به.

٦- أمانة عامر بن عبد الله التميمي:

وهذا الرجل من التابعين، لما جلس سعد بن أبي وقاص ﷺ في إيوان كسرى بعد الانتصار الساحق لجيوش المسلمين في معركة القادسية، أمر بجمع الغنائم وحصرها، ليقسم على المجاهدين نصيبهم، ويرسل الباقي إلى بيت مال المسلمين، وبينما عماله يفعلون ذلك، إذا برجل عليه أثر المعركة يدخل عليهم حاملاً صندوقًا كبيرًا ثقيلاً، مملوء بالجواهر والدرر والكنوز النفيسة، فوضعه بين يدي العمال، وهمَّ بالانصراف.

فقالوا له في دهشة عجيبة: أين وجدت هذا الكنز الثمين؟!

فقال: غنمته في المعركة في مكان كذا.. فقالوا: وهل أخذت منه شيئًا؟

فقال: هداكم الله.. والله إن هذا بما فيه، وجميع ما ملكته ملوك فارس، لا يساوي عندي قلامة ظفر، ولولا الله، ما رفعته من أرضه، ولا أتيتكم به.

فقالوا: من أنت أكرمك الله؟

فقال: لا والله، لا أخبركم لتحمدوني، ولكني أحمد الله، وأرجو ثوابه، ثم تركهم ومضى، فأمروا رجلاً منهم أن يتبعه ليتعرف عليه، فلم يعرفه، فسأل عنه، فقالوا: هو زاهد البصرة «عامر بن عبد الله التميمي» رحمه الله.

فرحم الله هذا التابعي الجليل، ورضى الله عن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين.

٧- أمانة عبد الله بن رواحة:

ولما بعث رسولنا ﷺ الصحابي الجليل «عبد الله بن رواحة» ﷺ إلى خيبر ليخرص ما على نخلها من تمر، فجمع له اليهود حُليًّا من حُلي نسائهم، فقالوا: هذا لك، وخفف

عنا، وتساهل في التقدير.

فقال عبد الله: يا معشر يهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ، ولكن ذلك لا يحملني على أن أحيف عليكم، فأما ما عرضتم عليَّ من رشوة، فإنها سحت، وإننا لا نأكلها.

فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض..

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الأمناء، وأن يوفقنا إلى التخلق بأخلاق رسولنا، والتأدب بآداب نبينا محمد ﷺ وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد.



المبحث الخامس

خُلق الكرم والسخاء

ما هو الكرم؟

الكرم في اللغة:

مصدر قولهم: «كَرُمَ» فلانٌ يكرم، وهو مأخوذ من مادة «ك ر م» التي تدل على شرف الشيء في نفسه أو شرف في خلق من الأخلاق، يُقال: رجل كريم، وفرس كريم، أما الكرم في الأخلاق، فهو الصفح عن ذنب المذنب، ورب العزة جل في علاه أكرم الأكرمين في ذلك.

وقيل: الكرم ضد اللؤم.. وقيل: الكرم، ضد البخل.

وفي الاصطلاح:

قال الراغب: الكرم إذا وصف به الإنسان، فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، قال: ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه.

فهو بذلك أعم مما ذكره غيره، من تخصيصه بالعطاء، فهو جامع لمكارم الأخلاق.

قال ابن مسكويه: الكرم إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر، الكثيرة النفع(١).

وقيل: هو التبرع بالمعروف قبل السؤال، والإطعام في المحل، والرأفة بالسائل مع بذل النائل.

---

(١) «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه (ص٣٠).

وقيل: هو الإعطاء بالسهولة عن طيب نفس قليلاً كان أو كثيرًا[١].

وقيل: الكرم هو إفادة ما ينبغي لا لغرض، فمن يهب المال لغرض جلبًا للنفع أو خلاصًا عن الذم، فليس بكريم، فالكريم من يوصل النفع بلا عوض[٢].

والذي يعنينا هنا هو كرم العطاء والنوال، لأنه هو المشهور عند إطلاق هذا الخلق المبارك، وقد ذكره القرآن بنحو: الإنفاق، والإحسان، والإيتاء..

الفرق بين الكرم والجود:

قال أبو هلال العسكري: الجود كثرة العطاء من غير سؤال من قولك: جادت السماء، إذا جاءت بمطر غزير، والله تعالى جواد لكثرة عطائه فيما تقتضيه الحكمة.

أما الكرم، فيتصرف على وجوه: منها العزَّة، ومنها الفضل، ومنها الحُسْن، ومنها التفضيل، ومنها السيادة، .... ويجوز أن يُقال: الكرم هو إعطاء من يريد (المعطي) إكرامه وإعزازه.. والجود قد يكون كذلك، وقد لا يكون[٣].

وقال الكفويُّ: الكرم يكون مسبوقًا باستحقاق السائل، والسؤال منه[٤].

والجود: صفة ذاتية للجواد، ولا يستحق بالاستحقاق والسؤال، والجود يطلق على الله تعالى دون السَّخيِّ.

منزلة هذا الخلق بين الأخلاق:

الكرم من أحسن خصال المرء، وأجود الناس من جاد بماله، وصان نفسه عن مال غيره، ومن جاد ساد، ومن بخل رذل.

والجود حارس الأعراض، كما أن العفو زكاة العقل..

---

(١) «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري ط. التوفيقية.

(٢) «التعريفات» للجرجاني (١٨٤) بتصرف.

(٣) «الفروق اللغوية» (ص١٨٢) ط. التوفيقية.

(٤) «الكليات» للكفوي (ص٥٣).

والجود والكرم والسخاء مما يستر عيب المرء على حد قول الشاعر الحكيم:

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ... ويستره عنهم جميعًا سخاؤه

تغطَّ بأثواب السخاء فإنني ... أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

قال ابن حبان البستي: البخل شجرة في النار، أغصانها في الدنيا، فمن تعلق بغصنٍ من أغصانها جرَّه إلى النار، كما أنَّ الجود شجرة في الجنة أغصانها في الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها، جرَّه إلى الجنة، والجنة دار الأسخياء.

ولو لم يكن في صفة الكرم إلا أن مولانا جل في علاه اتصف بها لكفى بهذا الخُلُق فخرًا وعظمة.. فالله تعالى هو الكريم ...

قال صاحب «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»:

والكرم إذا وُصِّفَ الله به فهو اسم لإحسانه وإنعامه، وإذا وصف به الإنسان، فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه[1].

وقال الغزالي - رحمه الله تعالى -[2]:

والكريم من أسماء الله تعالى، وهو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يُبالي كم أعطى، ولمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جُفي عاتب، ولا يُضيع من لاذ به والتجأ، ويغنيه عن الوسائط والشفعاء، فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف، فهو الكريم المطلق، وذلك لله تعالى فقط.

وقيل: الكريم هو الكثير الخير الجواد المعطي، الذي لا ينفذ عطاؤه، وهو الكريم المطلق.. فالله سبحانه كريم ، والكريم: الجامع لما يحمد فهو سبحانه وتعالى كريم حميد الفعال، وهو رب العرش الكريم العظيم، قال ﷺ : «**إنَّ الله كريم يحب الكَرم**»[3].

وكأنَّ رب العالمين جل في علاه يقول لعباده:

---

(١) «بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي» (٣٤٣/٤).

(٢) «الإحياء» للغزالي.

(٣) صحيح: رواه الحاكم وصححه (٤٨/١) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٠١) و«الصحيحة».

«من أعظم مني جودًا والخلائق لي عاصون، وأنا لهم مراقب، أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني.. من ذا الذي دعاني فلم ألبه؟ أم من ذا الذي سألني فلم أعطه؟ أم من ذا الذي أناخ ببابي فنحيته؟

أنا الفضل، ومني الفضل، وأنا الجواد ومني الجود، وأنا الكريم، ومني الكرم، ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني».

الحث على الكرم من آيات القرآن الكريم:

أخا الإسلام...

والقرآن الكريم كما ذكرت لك آنفًا حث على الكرم في صورة الأمر بالإنفاق والإحسان، والتصدق، والقرض، ونحو ذلك..

قال تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ ﴾ [الحديد: ١١، ١٢].

هتاف موحٍ آسر، وهو يقول للعباد والفقراء المحاويج ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ومجرد تصور المسلم أنه الفقير الضئيل يقرض ربه، كفيل بأن يطير به إلى البذل طيرانًا! إنّ الناس عادة يتسابقون إلى إقراض الثري المليء منهم - وهم كلهم فقراء - لأن السداد مضمون، ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثري المليء! فكيف إذا كانوا يقرضون الغني الحميد؟! فأي حافز للصدقة أعمق وأوقع من شعور المعطي بأنه يقرض الغني الحميد وأنه يتعامل مع مالك الوجود؟ وأن ما ينفقه مخلف عليه، مضاعفًا، وأنّ له بعد ذلك كله أجرًا كريمًا؟!

كان يحيى بن معاذ الرازي يقول: عجبت ممن يبقى معه مال وهو يسمع قوله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ ﴾ [التغابن: ١٧].

وقال ﷻ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

وقد ضرب المثل في كتابه العزيز ليبين للعباد قيمة الإنفاق في سبيل الله، والكرم، فيقول تبارك وتعالى:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢].

وشأن المؤمن لا ينفق إلا ابتغاء وجه الله، لا ينفق عن هوى، ولا عن غرض، لا ينفق إلا خالصًا متجردًا لله.. ولذلك قال سبحانه:

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ومن ثم يطمئن المؤمن لبركة الله في ماله، ويطمئنه لثواب الله وعطائه، ومن ثم يطمئن لقبول صدقته، فبذلك يرتفع ويتطهر، ويزكو بما أعطى..

وتأمل وصف الله تعالى لأهل العطاء والكرم، وصفهم بأنهم هم المتقون، وعدهم من المفلحين، قال سبحانه:

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ١ – ٥].

والآيات في ذلك كثيرة في مختلف سور القرآن الكريم مدنية ومكية.



مظاهر الكرم في حياة الرسول الكريم ﷺ

وقد كان الكرم سجية من سجايا الحبيب المصطفى ﷺ فطرة وتربية إلهية، وتوجيهًا ربانيًا من القرآن الكريم، فقد كان كثير الإنفاق على الفقراء من المسلمين، الذين فقدوا أموالهم في سبيل الله، أو عجزوا عن الكسب، وكان في رعاية اليتامى والأيامى، وفي تحرير الأرقاء، وفي اجتذاب من يرى تأليف قلوبهم من غير المسلمين.

وقد كان كرمه ﷺ إيثارًا على نفسه وأهله، فهو يعطي أحوج ما يكون إلى ما يعطيه، ويبذل الكثير وهو محتاج إلى القليل لأنه يستطيع أن يصبر، ولأنه يحيا حياة الزهَّاد.

وهذه هي الدرجة العليا من الكرم، والتي امتدحها رب العالمين جل في علاه فقال:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

وقد وصفه ربه بالكرم في قوله: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحاقة].

ولو أردنا أن نحصي مواقف كرمه ﷺ وسخائه لما استطعنا، وصدقت السيدة خديجة رضي الله عنها حين قالت: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسبُ المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق»(١).

ولذلك سنطوف في سيرته العطرة لنلتقط ثمارًا من بستان كرمه، ثم نكون باقة عبقة لنضعها عند قبره - صلوات ربي وتسليماته عليه - خاصة وأن أصحابه - رضوان الله عليهم - قد وصفوا بالغ كرمه، وعظيم جوده، وكريم بذله وعطائه، فهذا خادمه أنس ابن مالك ﷺ وقد عاشره وخدمه عشر سنين، وقد شاهد أنوار النبوة، وكريم الخلال، يقول:

«كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أشجع الناس وأحسن الناس.. » وقال: «ما

---

(١) صحيح: رواه البخاري وغيره (متفق عليه).

سئل رسول الله شيئًا، إلا أعطاه»(١).

وقال عنه حَبْر الأمة، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

«كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»(٢).

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «ما رأيتُ أحدًا أجود، ولا أنجد، ولا أشجع، ولا أرضى من رسول الله ﷺ»(٣).

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط، فقال: لا»(٤).

فهذه شهادات وتقريرات عن كرم الكريم ﷺ فما عرفت الدنيا أكرم ولا أحلم ولا أعظم من هذا النبي، وأول زهرة يلتقطها لنا:

١- سهل بن سعد ﷺ فيقول: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة، فقالت: يا رسول الله: أكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها، فلبسها، فرآها عليه رجلٌ من أصحابه، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فاكسنيها؟ فقال ﷺ: «نعم» فلما قام رسول الله ﷺ لامه أصحابه، قائلين: ما أحسنت حين رأيت النبي أخذها محتاجًا إليها، ثم سألته إياها، فقال لهم: رجوتُ بركتها حين لبسه النبي ﷺ لعلّي أكفّن فيها. وفي رواية: فكانت كفنه(٥). والزهرة الثانية يقطفها:

٢- جابر بن عبد الله يقول: بينما رسول الله ﷺ جالس أتاه صبي، فقال: إنَّ أمي

---

(١) **صحيح**: صححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٧٧٢)، والترمذي (١٦٨٧)، و«صحيح الجامع» (٤٦٣٤).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم (متفق عليه) والألباني في «إرواء الغليل» (٨٨٨)، و«صحيح سنن النسائي» (٢٠٩٥)، و«صحيح الأدب المفرد» (٢٢٤)، و«مختصر الشمائل» (٣٠٣).

(٣) **صحيح**: رواه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» (٨٨)، والدارمي في «سننه» ورجاله ثقات.

(٤) **صحيح**: صححه الألباني في «مختصر الشمائل» (٣٠٢)، ورواه البخاري ومسلم (متفق عليه).

(٥) **صحيح**: رواه البخاري وأحمد والطبراني في «الكبير».

تستكسيك درعًا - أي قميص - فقال رسول الله ﷺ: **«من ساعة إلى ساعة يظهر، فعُد إلينا»**، فذهب الصبي إلى أمه، فقالت له: عُد إليه، فقل له: إنَّ أمي تستكسيك الدرع الذي عليك.. فماذا فعل النبي الكريم، والرسول العظيم ﷺ؟ لقد قام ثم دخل داره، ونزع القميص، وأعطاه الصبي، وقعد عريانًا، وأذَّن بلال، وانتظر المسلمين، فلم يخرج النبي للصلاة[1].

٣- ويقطف الزهرة الثالثة من بستان كرمه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله مرة أخرى، فيقول: خرجت إلى رسول الله ﷺ على جمل لي ضعيف، فلما عُدنا، جعلت الرفاق تمضي، وجعلتُ أتخلف، حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال لي: **«مالك يا جابر؟»**.

قلت: يا رسول الله، أبطأ بي جملي هذا.

قال: **«فأنخه»** وأناخ رسول الله ثم قال: **«أعطني هذه العصا من يدك»** أو قال: **«اقطع لي عصا من شجرة»**.

قال: ففعلت: فأخذ رسول الله ﷺ العصا فنخسه بها نخسات ثم قال: **«اركب»** فركبت، فخرج والذي بعثه بالحق، لقد صار جملي يسبق ناقة رسول الله ﷺ.

وتحدث معي رسول الله ﷺ فقال: **«أتبيعني جملك هذا يا جابر؟»**.

قال جابر: فقلت: بل أهبه لك يا رسول الله.

قال: **«لا، ولكن بعنيه»** أي أشتريه منك، فقلت: سُمْهُ يا رسول الله.

قال: **«قد أخذته بدرهم»**.

فقلت: إذن تغبنني يا رسول الله، فلم يزل يرفع لي - أي في السعر - حتى بلغ الأوقية.. فقلت: أرضيت يا رسول الله؟

قال: **«نعم»** قلت: فهو لك، قال: **«قد أخذته...»**.

ثم أصبحت، فأنخت الجمل على باب رسول الله ﷺ وجلست في المسجد قريبًا منه، فخرج فرأى الجمل فقال: **«ما هذا؟»**.

---

(١) ذكره الكاشف في «تفسيره» (٥٤٦/١) ولم أجده في كتب السنة.

قالوا: هذا جمل جاء به جابر.. قال: «**فأين جابر؟**».

قال جابر: فدُعيت له، فأتيت إليه، فقال: «**يا ابن أخي خذ جملك فهو لك**».

ودعا بلالاً، فقال له: «**اعط جابرًا أوقية**» فذهبت معه، فأعطاني أوقية، وزادني شيئًا يسيرًا[١].

تأمل هذا الكرم، وهذا الجود الذي ليس له نظير، فما جعل يهوديًّا يتعجب من ذلك، كما جاء في بعض الروايات أن جابرًا رضي الله عنه قال: فمررت برجل من اليهود، فأخبرته، فجعل يعجب ويقول: اشترى منك البعير، ودفع إليك الثمن، ووهبه لك؟

قلت: نعم..

٤- والزهرة الرابعة يقطفها مرة أخرى أنس بن مالك فيقول:

سأل رجل النبي ﷺ فأعطاه غنمًا بين جبلين، فأتى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا، فوالله إنَّ محمدًا ليعطي عطاء من لا يخاف الفاقة، وإنَّ الرجل ليجيء إلى رسول الله ﷺ ما يريد إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه، أو أعز عليه من الدنيا وما فيها[٢].

٥- والزهرة الخامسة يقطفها الصحابي المحدث أبا هريرة رضي الله عنه فيقول:

أصابني جهد شديد، فلقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستقرأته آية من كتاب الله تعالى، فدخل داره، وفتحها عليَّ فمشيتُ غير بعيد، فخررت لوجهي من الجهد والجوع، فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسي فقال: «**يا أبا هريرة**» فقلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، فأخذ بيدي فأقامني، عرف الذي بي، فانطلق بي إلى رَحْله، فأمر لي بعس من لبن - أي قدح كبير - فكأن عمر لم يفهم مراده، لأنه لم يكن يريد القراءة، وإنما كان صائمًا، و لم يجد ما يفطر عليه، كما في «حلية الأولياء».

يقول: فشربت منه، ثم قال لي: «**عُدْ يا أبا هر**» فعدتُ ، فشربت.. ثلاثًا حتى استوى بطني، فصار كالقدح.

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٤٩٤٤) بإسناد صحيح، وأبو داود وابن ماجه.

(٢) صحيح: رواه مسلم وأحمد في «مسنده» والطبراني في «الكبير»

قال: فلقيت عمر، فذكرت له الذي كان من أمري، وقلت له: فَوَلّى الله ذلك من كان أحق به منك يا عمر، ووالله لقد استقرأتك الآية، ولأنا أقرأ لها منك.

قال عمر: والله لأن أكون أدخلتك أحبُّ إليَّ من أن يكون لي مثل حمر النعم(١).

قال ابن بطال كما في «فتح الباري»:

ويحمل ما وقع من عمر على أنه كان له شغل عاقه عن ذلك، أو لم يكن عنده ما يطعمه حينئذ، ويبعد الأخير لتأسف عمر على فوت ذلك.

٦- والزهرة السادسة يقطفها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقول:

قسم رسول الله ﷺ قسمًا، فقلت: والله يا رسول الله لغير هؤلاء كان أحق به منهم.

قال: «**إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش، أو يبخلوني، فلستُ بباخل**»(٢).

٧- يقول المقداد: أقبلت أنا وصاحبان لي، وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد، فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله ﷺ فليس أحد منهم يقبلنا، فأتينا النبي ﷺ فانطلق بنا إلى أهله، فإذا ثلاثة أعنز، فقال النبي ﷺ: «**احتلبوا هذا اللبن بيننا**».

قال: فكنا نحتلب، فيشرب كل إنسان منا نصيبه، ونرفع للنبي نصيبه.

قال: فيجيء من الليل، فيسلم تسليمًا لا يوقظ نائمًا، ويُسمع اليقظان قال: ثم يأتي المسجد، فيصلي ثم يأتي شرابه، فيشرب.. فأتاني الشيطان ذات ليلة، وقد شربت نصيبي، فقال لي: محمد يأتي الأنصار فيتحفونه - أي يكرمونه ويضيفونه - ويصيب عندهم، ما به حاجة إلى هذه الجُرعة، فأتيتها فشربتها، فلما أن وغلت في بطني، وعلمت أنه ليس إليها سبيل.. قال: ندمني الشيطان، فقال: ويحك، ما صنعت أشربت شراب محمد فيجيء فلا يجده، فيدعو عليك، فتهلك، فتذهب دنياك وآخرتك.

يقول: وعليَّ شملة إذا وضعتها على قدميَّ خرج رأسي، وإذا وضعتها على رأسي

---

(١) صحيح: رواه البخاري.

(٢) صحيح: رواه مسلم عن عمر.

خرج قدماي، وجعل لا يجيئني النوم، وأمَّا صاحباي فناما، و لم يصنعا ما صنعت.

قال: فجاء النبي ﷺ فسلم كما كان يسلم، ثم أتى المسجد، فصلى، ثم أتى شرابه فكشف عنه، فلم يجد فيه شيئًا، فرفع رأسه إلى السماء، فقلت: الآن يدعو عليَّ فأهلك..

فقال: «**اللهمَّ أطعم من أطعمني، واسق من أسقاني**».

قال: فعمدت إلى الشملة، فشددها عليَّ، وأخذت الشفرة - السكينة - فانطلقت إلى الأعنز التي أسمن فأذبحها لرسول الله ﷺ فإذا هي حافلة، وإذا هُنَّ حُفل - أي مليئة ضرعها باللبن - كلهن، فعمدت إلى إناء لآل محمد ﷺ ما كانوا يطمعون أن يحتلبوا فيه، فحلبت فيه، حتى علته رغوة فجئت إلى رسول الله ﷺ فقال: «**أشربتم شرابكم الليلة؟**».

فقال: قلت: يا رسول الله اشرب، فشرب، ثم ناولني، فقلت: يا رسول الله اشرب، فشرب، ثم ناولني، فلما علمت أنَّ النبي قد رُوي، وأصبتُ دعوته ضحكت حتى أُلقيتُ إلى الأرض، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**إحدى سوآتك يا مقداد؟**» .

فقلت: يا رسول الله، كان من أمري كذا وكذا، وفعلت كذا وكذا.

فقال ﷺ: «**ما هذه إلا رحمة من الله، أفلا كنت آذنتني فنوقظ صاحبينا، فيصيبان منها..**»(١).

أرأيت أخا الإسلام هذا الجود، وهذا السخاء، الذي لا مثيل له فما أجدره بقول القائل:

تعوَّد بسط الكف حتى لو أنَّه ... ثناها لقبض لم تُجبه أنامله
تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي أنت نائله
هو البحر من أيِّ النواحي أتيته ... فلُجَّته المعروف والجود ساحله
ولم لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

---

(١) صحيح: رواه مسلم [كتاب الأطعمة - باب إكرام الضيف] ورواه أحمد في «مسنده»، والبزار في «مسنده» والترمذي.

٨- وفي مغازي الواقدي أنَّ صفوان طاف معه ﷺ يتصفح الغنائم يوم حنين، إذ مرَّ بشعب مملوء إبلاً وغنمًا، فأعجبه، فجعل ينظر إليه، فقال ﷺ: **«أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب؟»** قال: نعم.. قال: **«هو لك بما فيه»**[1].

قال صفوان: أشهد أنك رسول الله، ما طابت بهذا نفس أحد قط، إلا نفس نبي..

٩- والزهرة التاسعة يقطفها الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري فيقول:

سأل ناس من الأنصار رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفذ ما عنده، فقال: **«ما يكون عندي من خير، فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يصبر، يصبره الله...»**[2].

صلوات ربي وتسليماته عليك يا سيدي يا رسول الله.. ما أكرمك وما أجودك، وما أسخى كفك يا رسول الله.

بل إنَّ كرمه ﷺ لم يكن ينتظر حتى يأتي سائل، فيسأله، بل كان يبتدأ بالسؤال قبل النوال، كُلَّما وُجد عنده المال، كما في الزهرة العاشرة..

١٠- لما جاءه مال البحرين، وكان أكثر ما أُتي به رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: **«انثروه في المسجد»** فجاء العباس ﷺ فقال: يا رسول الله، اعطني، إني فاديت نفسي، وفاديت عُقيلاً - أي من الأسر الذي وقع لهما في غزوة بدر - وكان بمجموعه عشرين ومائة أوقية من الذهب فقال له النبي ﷺ: **«خذ»** فحثا في ثوبه، ثم ذهب يقوم فلم يستطع من ثقله، فقال العباس: يا رسول الله أأمر بعضهم يرفعه إليَّ، قال رسول الله: **«لا»** قال: فارفعه أنت إليَّ.

قال رسول الله ﷺ: **«لا»**[3]، فنثر منه، ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، قال أنس بن مالك راوني الحديث: فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره، حتى خفي علينا، عجبًا من حرصه.

---

(١) ذكره الواقدي في «المغازي».

(٢) صحيح: رواه مسلم ومالك في «الموطأ» وأبو داود والبيهقي.

(٣) لم يُرد الرسول ﷺ رفعه عليه، لأن العباس ﷺ شره وطمع أكثر من اللازم، ولجود النبي وكرمه وسخائه لم يعترض عليه، بل تركه يغترف ما شاء حتى عجز.

قال: فما قام رسول الله ﷺ وعنده منها درهم واحد(١).

وفي هذه القصة شاهدان عظيمان على واسع كرمه، وسخاء نفسه:

الأولى: عدم اعتراضه على العباس ﷺ مع بالغ شرهه وحرصه، بل تركه يأخذ ما يقدر عليه، ولو كان مستطيعًا لأخذه بالكلية لفعل، ولم يعترض عليه لكمال جوده، وطيب نفسه، وبالغ كرمه ﷺ.

الثاني: أنه لم يقم من مجلسه، حتى أنفق هذا المال الكثير كله ولم يُبق منه شيئًا، وكان قدره سبعين ألفًا، ولم يدخر لنفسه شيئًا مع حاجته الشديدة لشيء من ذلك، وهذا هو الكرم البالغ، والسخاء العظيم، الذي لم يكن مثله لجوّاد مشهور، من العامة أو الملوك.. وهذا يدل على حقيقة قوله ﷺ:

«ما يسرني أنَّ عندي مثل أُحد ذهبًا تمضي عليَّ ثالثة، وعندي منه دينار إلا شيئًا أرصده لدين»(٢).

١١- والزهرة الحادية عشر يقطفها لنا السيدة عائشة رضي الله عنها تقول:

أمرني رسول الله ﷺ أن أتصدق بذهب كان عندي في مرضه، قالت: فأفاق، فقال: **«ما فعلت؟»** قالت: شغلني ما رأيت منك - أي مرضك - .

قال: **«فهلمَّ بها»** قالت: فجئت بها إليه سبعة أو تسعة دنانير، فقال حين جئتُ بها: **«ما ظن محمد لو لقي الله وهذه الدنانير عنده!»**(٣).

وفي رواية من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت:

دخل عليَّ رسول الله ﷺ وهو ساهم الوجه.. قالت: فحسبت ذلك من الوجع.. فقلت له: يا رسول الله مالك ساهم الوجه؟

---

(١) صحيح: رواه البخاري في [الجزية - باب ما أقطع النبي من البحرين].

(٢) صحيح: رواه البخاري في [كتاب الاستقراض- باب أداء الديون] ورواه أحمد في «مسنده» وعبد الرزاق في «مصنفه» والبيهقي في «الكبرى» وفي «شعب الإيمان».

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٨٦/٦) بإسناد صحيح.

فقال: «**من أجل الدنانير السبعة التي أُتينا بها أمس، أمسينا وهي في خصم الفراش**» - أي في جانبه -[1].

فتأمل حرصه على الإنفاق والبذل، حتى لم يشغله مرضه عنها..

١٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

ذبحوا شاة، فقلت: يا رسول الله، ما بقي إلا كتفها.

قال: «**كلها قد بقي إلا كتفها**»[2].

١٣- وتلك شهادة الروح الأمين جبريل عليه السلام:

عن الزهري قال: إنَّ جبريل عليه السلام قال: ما في الأرض أهل عشرة أبيات إلا قلَّبتهم، فما وجدتُ أحدًا أشد إنفاقًا لهذا المال من رسول الله ﷺ[3].

١٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ استضاف ضيفًا كافرًا، فأمر له رسول الله ﷺ بشاه فحُلبت، فشرب حلابها، ثم أخرى فشرب حلابها، حتى شرب حلاب سبع شياه، ثم إنه أصبح، فأسلم، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة، فحلبت فشرب حلابها، ثم أمر له بأخرى، فلم يستتمها، فقال رسول الله ﷺ: «**المؤمن يشرب في معي واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء**»[4].

والشاهد في ذلك كرمه وسخاؤه ﷺ حتى مع الكافر حيث حلب له سبع شياه..

فصلوات ربي وتسليماته عليك يا سيدي يا رسول الله..

ولهذا كله **قال الماوردي** في الحديث عن مكارم أخلاقه، الدالة على نبوته:

«الخصلة الثانية: ما مُنح من السخاء والجود، حتى جاد بكل موجود، وآثر بكل مطلوب ومحبوب، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي على آصع من شعير لطعام أهله،

---

(١) صحيح: رواه ابن حبان في «صحيحه» وأحمد في «مسنده» والبيهقي في «سننه الكبرى» وأبو يعلى في «مسنده» والهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٤١) وعزاه إلى أبي يعلى وأحمد ورجالهما ثقات.

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٢٤١٢٢) بإسناد صحيح.

(٣) حسن: رواه الدارمي في «المقدمة» (٧٣).

(٤) صحيح: رواه مسلم والترمذي ومالك في «الموطأ» وابن حبان وأحمد في «مسنده» والبيهقي.

وقد ملك جزيرة العرب، وكان فيها ملوك وأقيال، لهم خزائن وأموال، يقتنونها ذخرًا، ويتباهون بها فخرًا، ويستمتعون بها أشرًا وبطرًا، وقد حاز ملك جميعهم، فما اقتنى دينارًا ولا درهمًا، ولا يأكل إلا الخشن، ولا يلبس إلا الخشن، ويعطي الجزل الخطير، ويصل الجم الغفير، ويتجرع مرارة الإقلال، ويصبر على سغب الاختلال، وقد حاز غنائم هوازن وهي من السبي: ستة آلاف رأس، ومن الإبل: أربعة وعشرون ألف بعير، ومن الغنم أربعون ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، فجاء بجميع حقه وعاد خلوًا، فهل لمثل هذا الكرم والجود كرمًا وجودًا، هيهات.. هيهات..»[1].



(١) «أعلام النبوة» للماوردي (ص٣٠٢).

أجود الناس بعد رسولنا الكريم ﷺ

ولما ظهرت علامات جوده ﷺ وسخائه وكرمه، وعرفها أصحابه الكرام، تخلقوا بخلقه، فكانوا أكرم الناس بعده ﷺ ومن هؤلاء:

١ - أبو بكر الصديق ﷺ:

قال عمر بن الخطاب ﷺ أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ:

«ما أبقيت لأهلك؟».

فقلت: مثله يا رسول الله، قال عمر: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: **«ما أبقيت لأهلك؟»**.

قال: أبقيت لهم الله ورسوله... قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا[1].

٢- عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - :

فعن ميمون بن مهران قال: دخلت بيت عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - فما كان فيه ما يسوي ساجي هذا، ولقد جاءته عشرون ألفًا من بعض الأمراء، فأمر بها فقسمت، ونسي أهل بيت كان يعطيهم فاستقرض ألفًا، فأعطاهم.

وقال نافع: كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قرَّ به لربه ﷻ.. قال نافع: وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه، فربما شمّر أحدهم فيلزم المسجد، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه، فيقول له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، والله ما بهم إلا أن يخدعوك، فيقول ابن عمر: فمن خدعنا بالله ﷻ انخدعنا له.

فقال: فلقد رأيتنا ذات عشية، وراح ابن عمر على نجيب له - أي جمل عتيق - قد

---

(١) صحيح: رواه الحاكم وصححه، والدارمي وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٦٧٨)، وفي «صحيح سنن الترمذي» (٣٥٧٠)، والبيهقي في «الكبرى».

أخذه بمال عظيم، فلما أعجبه سيره أناخه مكانه، ثم نزل عنه، فقال: يا نافع، انزعوا زمامه ورحله وجللوه وأشعروه وأدخلوه في البدن(١).

وعن سعيد بن هلال، أنَّ عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - نزل الجحفة وهو شاك فقال: إني لأشتهي حيتانًا، فالتمسوا له لم يجدوا له إلا حوتًا واحدًا، فأخذته امرأته، فصنعته ثم قربته إليه، فأتى مسكين حتى وقف عليه، فقال له ابن عمر: خذه.

فقال أهله: سبحان الله، قد عنيتنا ومعنا زاد نعطيه، فقال: إنَّ عبد الله يحبه(٢).

٣- جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه (أبو المساكين):

قال أبو هريرة رضي الله عنه كنا نسمي جعفر أبا المساكين، قال: وكان يذهب بنا إلى بيته، فإذا لم يجد لنا شيئًا، أخرج إلينا عكة، أثرها عسل.. قال: فشققناها، وجعلنا نلعقها(٣).

وقال عنه أبو هريرة رضي الله عنه: ما احتذى النعال ولا انتعل، ولا ركب المطايا، ولا لبس الكور من رجل بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب - يعني في الجود والكرم- (٤).

ولما عوتب جعفر بن أبي طالب على السخاء قال: يا هؤلاء، إني عودت الله عادة، وعودني عادة، وإني أخاف إن قطعتها، قطعني(٥).

٤- زينَ العابدين بن الحسين - رضي الله عنهما - :

قال عنه أبو حمزة الثمالي: كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل، فيتصدق به، ويقول: إنَّ صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل(٦).

---

(١) «حلية الأولياء» (١/٢٩٥ - ٢٩٧).

(٢) السابق.

(٣) «شعب الإيمان» برقم (١٠٨٨٢).

(٤) المرجع السابق برقم (١٠٨٨٤).

(٥) المرجع السابق.

(٦) «حلية الأولياء» (٣/١٣٥، ١٣٦).

وقال عمرو بن ثابت: لما مات علي بن الحسين، فغسّلوه، جعلوا ينظرون إلى آثار سواد بظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقال: كان يحمل جرب الدقيق ليلاً على ظهره، يعطيه فقراء أهل المدينة[(١)].

٥- عبد الله بن المبارك:

قال عنه محمد بن عيسى: كان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس وكان ينزل الرقّة في خان، فكان شاب يختلف إليه، ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث، فقدم عبد الله مرّة فلم يره، فخرج في النفير مستعجلاً فلما رجع، سأل عن الشاب، فقال: محبوس على عشرة آلاف درهم، فاستدل على الغريم، ووزن له عشرة آلاف، وحلّفه ألا يخبر أحدًا ما عاش، فأخرج الرجل، وسرى ابن المبارك، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرقة، فقال له: يا فتى، أين كنت، لم أرك؟ قال: يا أبا عبد الرحمن، كنت محبوسًا بدين، قال: وكيف خلصت؟ قال: جاء رجل، فقضى ديني، ولم أدر.. قال: فاحمد الله، ولم يعلم الرجل إلا بعد موت عبد الله[(٢)].

وعن سلمة بن سليمان قال: جاء رجل إلى عبد الله بن المبارك، فسأله أن يقضي دينًا عليه، فكتب له إلى وكيل له، فلما ورد عليه الكتاب، قال له الوكيل: كم الدين الذي سألت فيه عبد الله أن يقضيه عنك؟ قال: سبعمائة درهم، فكتب إلى عبد الله، أن هذا الرجل سألك أن تقضي عنه سبعمائة درهم، وكتبت إليّ سبعة آلاف درهم، وقد فنيت الغلات، فكتب إليه عبد الله، إن كانت الغلات قد فنيت، فإن العمر أيضًا قد فني، فأعطه ما سبق به قلمي[(٣)].

٦- كرم الشافعي:

قال الحميدي: قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف درهم في منديل،

(١) السابق.

(٢) «تاريخ بغداد» (١٠/١٥٩).

(٣) «شعب الإيمان» للبيهقي (١٠٩٤٥).

فضرب خباءه في موضع خارجًا من مكة، فكان الناس يأتونه، فما برح حتى ذهبت كلها.

قال الربيع: ناول الشافعي إنسان رقعةً يقول فيها: إنني بقَّال، رأس مالي درهم، وقد تزوجتُ فأعنِّي.

فقال: يا ربيع، اعطه ثلاثين دينارًا، واعذرني عنده.

فقال الربيع: أصلحك الله، إنَّ هذا يكفيه عشرة دراهم.

فقال: ويحك! وما يصنع بثلاثين؟ أفي كذا، أم كذا يعد ما يصنع في جهازه، أعطه.

٧- كرم الليث بن سعد:

هذا العالم الكريم الجليل صاحب كتاب «الطبقات الكبرى» كانت حياته كلها بذل وسخاء وكرم، كان يبذل الأموال بسخاء نفس، وطيب خاطر، مما جعل الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - يثني عليه، الثناء الحسن الجميل بالجود والكرم والسخاء، وذلك حين ذهب إليه بعض طلاب العلم، فامتنع أن يخرج إليهم، فقالوا: ليس هذا الإمام يشبه إمامنا - أو صاحبنا - فسمع مالك كلامهم، فأدخلهم، فقال: من صاحبكم؟

قالوا: الليث بن سعد.

فقال: أتشبهونني برجلٍ كتبنا إليه في قليل من العصفر، نصبغ به ثياب صبياننا، فأرسل إلينا ما صبغنا به ثيابنا، وثياب صبياننا، وثياب جيراننا، وبعنا ما فَضُل بألف دينار؟![(١)].

وهذا دليل جوده وسخائه وكرمه.

وجاءت إليه امرأة ومعها قدح، فقالت له: إن زوجي يشتكي وقد نُعتَ له العسل، فقال: اذهبي إلى أبي قُسيمة، فقولي له: يعطيك مطرًا من عسل، فتعجب من ذلك، وقال إنها تريد قدحًا صغيرًا!

قال: إنها سألت بقدرها، وأعطيناها بقدرنا[(٢)].

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/٣٢٠).

(٢) السابق.

ولذا قال عنه عبد الله بن صالح: صحبت الليث بن سعد عشرين سنة، لا يتغذى، ولا يتعشى وحده، إلا مع الناس.

٨- كرم جعفر الصادق:

كان - رحمه الله - من أسخى الناس، يتصدق بكل ما يجد، حتى لا يبقى لعياله شيء! وهو الذي كان يقول:

الصلاة قربان كل تقي، والحج جهاد كل ضعيف، وزكاة البدن الصيام، والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر، واستنزلوا الرزق بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة، وما عال من اقتصد، والتقدير نصف العيش، ومن أحزن والديه فقد عقهما، والله ينزل الصبر على قدر المصيبة، وينزل الرزق على قدر المؤنة.



حثه ﷺ على الكرم

أخي المسلم الكريم:

ولم يكن كرم الرسول المصطفى، والنبي المجتبى وجوده ﷺ لكسب محمدة، أو اتقاء منقصة، ولم يكن للمباهاة، أو الاستغلال، أو لاجتذاب المادحين، بل كان في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، ونرى ذلك واضحًا في أقواله وأفعاله التي حثت على الجود والكرم ومن الأحاديث التي تحث على هذا الخلق الكريم ما يأتي:

١- لما سأله رجل، فقال له: يا رسول الله، أي الإسلام خير، فقال ﷺ: «**تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**»(١).

٢- وقال لأصحابه، وللأمة أجمع: «**إنَّ في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها**» قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، ووصل الأرحام، وصلى ركعات بالليل والناس نيام**»(٢).

ولا شك أن إطعام الطعام أعظم دليل على كرم المسلم وجوده..

٣- ويوصي أبا ذر ﷺ بأن يكون كريمًا جوادًا مع جيرانه، فيقول له: «**يا أبا ذر، إذا عملت مرقة، فأكثر ماءها، واغترف لجيرانك منها**»(٣).

٤- وأوصى بإكرام الضيف، وجعل إكرامه من الخصال المكملة للإيمان، فقال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه....**»(٤).

٥- وحث الأمة على الكرم والجود، وعدم البخل إذا ما تيسر ذلك فقال ﷺ - كما

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائي وابن حبان.

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» وابن حبان في «صحيحه» والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين وعبد الرزاق في «مصنفه»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، و«الصحيحة».

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٦٢)، وابن حبان بنحوه (٥٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (٨٠٤٨)، وفي «السنن الكبرى» (٧٩١٥).

(٤) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

روى أبو سعيد الخدري ﷺ - قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في سفر، إذ جاءه رجل على ناقة له، فجعل يصرفها يمينًا وشمالاً، فقال ﷺ:

«من كان عنده فضل ظهر، فليعدّ به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل زاد، فليعدْ به على من لا زاد له» حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في الفضل(١).

٦- وخص بعض أصحابه بالوصية بالإنفاق أو الجود فقال لأسماء بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنها - : **«أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعى الله عليك»**(٢).

٧- وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبي ﷺ دخل على بلال وعنده صُرة من تمر، فقال: **«ما هذا يا بلال؟»**.

قال: شيء ادخرته لغد..

وفي رواية للبيهقي: أن رسول الله قال له: **«أطعمنا يا بلال»** قال بلال: ما عندي إلا صبرٌ من تمر خبأته لك..

فقال النبي ﷺ: **«أعد ذلك لأضيافك.. أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»**(٣).

٨- وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«المؤمن غرٌ كريم والفاجرُ خبٌ لئيم»**(٤).

٩- وعن السائب بن عبد الله قال: جيء بي إلى النبي ﷺ يوم الفتح جاء بي عثمان بن عفان، وزهير، فجعلوا يثنون عليه فقال لهم رسول الله ﷺ: **«لا تعلموني به، قد كان صاحبي في الجاهلية»**.

---

(١) صحيح: رواه مسلم وابن حبان وأبو داود والبيهقي في «الشعب» وأبو يعلى.

(٢) صحيح: رواه البخاري والطبراني في «الكبير».

(٣) صحيح: رواه البيهقي في «شعبه» (٣٣٣٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٦١)، و«صحيح الجامع» (١٥١٢)، و«المشكاة» (١٨٨٥)، و«صحيح الترغيب» (٩٢١).

(٤) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ورواه أحمد في «مسنده»، والحاكم في «المستدرك» وأبو يعلى في «مسنده»، والبخاري في «الأدب المفرد»، والبيهقي في «شعبه».

فقلت: نعم يا رسول الله، فنعم الصاحب كنت..

فقال رسول الله ﷺ: **«يا سائب، انظر أخلاقك التي كنت تصنعها في الجاهلية، فاجعلها في الإسلام: أقر الضيف، وأكرم اليتيم، وأحسن إلى جارك»**(١).

١٠- وقد حذر من البخل والشح، فقال: **«إياكم والشح، فإنما أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»**(٢).

١١- وبيَّن أن البخيل محروم من دخول الجنة فقال فيما يرويه عنه صديق هذه الأمة ﷺ: **«لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن...»**(٣).

أخي الحبيب:

فاحذر أن تكون بخيلاً، وكن سخيًّا كريمًا كرسولك محمد ﷺ فإن السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعكس البخيل فإنه بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار.

واعلم أن الناس يحشرون يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، وأعرى ما كانوا قط، فمن أطعم لله ﷻ، أشبعه الله، ومن سقى لله ﷻ، سقاه الله ومن كسا لله ﷻ كساه الله.

يا رب..

اغفر لي ما علمت وما لم أعلم، إنك أنت الأعز الأكرم.. يا من سترت الزلات وغفرت السيئات، ارحم عبادًا غرهم طول إمهالك، وأطمعهم كثرة إفضالك، وذلوا لعزتك وجلالك.. يا رب العالمين.



---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٥٤٣٩)، وقال الهيثمي (٨/١٩٠): رجال أحمد رجال الصحيح، وصححه حمزة الزين (١٢/٢٠٨).

(٢) صحيح: رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه (١/٥٧٦)، ورواه أحمد في «مسنده»، والبيهقي في «شعبه، وسننه»، النسائي وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٦٩٨).

(٣) ضعيف: ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب، وضعيف سنن الترمذي».

المبحث السادس

خُلق العفو والصفح

قال تعالى: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣].

وإذا عفـــوت لقـــادرًا ومقـــدرًا

لا يســـتهين بعفـــوك الجهـــلاء

ما هو العفو؟

العفو لغة: مصدر قولهم: عفا يعفو عفوًا، وهو الترك والطلب.

وقال ابن الأثير: أصل العفو: المحو والطمس، لحديث أبي بكر ﷺ: «**سلوا الله العفو والعافية**» معناه: محو الذنب.

وأما العافية: فهي أن يعافيه الله تعالى من سُقم أو بلية.

وقال الجوهري: يُقال: عفوت عن ذنبه، إذا تركته، ولم تعاقبه.. وعفو المال: ما يفضل عن الصدقة.

ويُقال: اعفني من الخروج معك: أي دعني منه، أو اتركني.

وعفو الله تعالى عن عباده: أي ترك معاقبتهم على الذنب.

أما في الاصطلاح:

قال الراغب: هو ترك المؤاخذة بالذنب.

وقال المناوي: العفو، القصد لتناول الشيء، والتجاوز عن الذنب.

وقيل: كف الضرر مع القدرة عليه، وكل من استحق عقوبة فتركها فهذا الترك يسمى «عفوًا».

أما الصفح فهو: كما قال القرطبي: إزالة أثر الذنب من النفس..

يُقال: صفحت عن فلان إذا أعرضتَ عن ذنبه.

وقال الراغب: الصفح ترك الذنب(١).

الفرق بين العفو والصفح:

قال الفيروزآبادي: والصفح أبلغ من العفو، وقد يعفو الإنسان ولا يصفح.. لأن الصفح تجاوز عن الذنب بالكلية، واعتبارهُ كأن لم يكن، لكن العفو يقتضي إسقاط اللوم والذم فقط، ولا يقتضي حصول الثواب.

منزلة هذا الخلق بين الأخلاق:

وخلق العفو من الأخلاق الإسلامية التي لها مكانتها في حياة المسلم فبالعفو تسود المحبة، وترتفع راية السلام في المجتمع المسلم، لأنه مجتمع متراحم، قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**»(٢).

والعفو خلق من أخلاق القرآن الكريم، ولو لم يكن للعفو فضل إلا أن الله ﷻ اتصف به لكان كافيًا..

قال تعالى: ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٤٣].

---

(١) انظر: «لسان العرب» و«بصائر ذو التمييز في لطائف الكتاب العزيز»، و«المفردات» للراغب.

(٢) صحيح: رواه مسلم وأحمد وابن حبان والطبراني في «الصغير» والبيهقي في «السنن الكبرى» وفي «شعب الإيمان».

وقال: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٩].

ولو تأملت وصف الله ﷻ نفسه بصفة العفو في الآيات السابقة، لوجدت «عفو» على وزن فعول، صيغة مبالغة، ومعناها كثرة عفو الله ﷻ عن المذنبين من العباد، وأنهم يستحقون العقوبة، لكنه سبحانه ترك مؤاخذتهم، وعفا عنهم..

والله سبحانه وتعالى يعفو عن عباده في الدنيا والآخرة، فمن عفوه عنهم في الدنيا أنهم يذنبون ويرزقهم، ويخالفون شرعه، ومع ذلك يكلؤهم في مضاجعهم، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [النحل: ٦١].

وقال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥].

فلقد عفا عن الذين تولوا يوم التقى الجمعان.. يوم أُحُد.. يوم التقى جيش الإيمان بجيش الكفر والضلال.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وعفا عمن خالف أمر الرسول الأعظم، والنبي الأكرم، يوم أحد، ممن استعجلوا طلب الغنيمة، فقال سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وعفوه تعالى في الآخرة، حيث يقول لعبده: «**سترتها عليك في الدنيا وأنا اليوم أغفرها لك**»[1]. ولا سبيل للعبد إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته وإلا فهو من الهالكين.

---

(١) صحيح: جزء من حديث رواه البخاري.

قال الغزالي - رحمه الله - : العفو صفة من صفات الله ﷻ، وهو الذي يمحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من الغفور، ولكنه أبلغ منه، فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، والمحو أبلغ من الستر، وحظ العبد من ذلك لا يخفى، وهو أن يعفو عن كل من ظلمه، بل يحسن إليه كما يُرى الله تعالى محسنًا في الدنيا إلى العصاة والكفرة، غير معاجل لهم بالعقوبة بل ربما يعفو عنهم، بأن يتوب عليهم، وإذا تاب عليهم محا سيئاتهم، إذ التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وهذا غاية المحو للجناية[1].

حث القرآن الكريم على العفو

أخي الحبيب...

والقرآن الكريم، ذلك الكتاب العظيم، جاءت فيه آيات بينات توضح عاقبة الذين يعفون ويصفحون، وعلى رأس هذه الآيات المباركات قوله جل في علاه:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

لقد حث ربنا جل في علاه على العفو بلفظ ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ فيه المسارعة والمبادرة لكن إلى أي شيء؟ إلى عفو الله ومغفرته وصفحه، إن لم يكن للمسلم سوى غفران الله له لكفاه، ولكن الرب تبارك وتعالى عقب ذلك بذكر جزاء آخر عظيم وهو دخول الجنات، ووصفها بأن عرضها كعرض السموات والأرض.. ثم يؤكد هذا الجزاء العظيم في آخر الآيات ليقرره في قلوب المتصفين به، فيزدادون عليه حرصًا، وبه تعلقًا، فقال تباركت أسماؤه:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

---

(١) «المقصد الأسنى» للغزالي (ص١٤٠).

إنه جزاء عظيم من الرب الكريم يستوجب الحرص عليه، ولذلك نوّه الله تعالى بقوله: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ والمسلم دائمًا يشتاق إلى جنة الله ﷻ.

فحيّ على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

ومن حض القرآن الكريم على العفو في قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩].

فقد أشارت إلى أن الله تعالى من شأنه العفو عن المذنبين العاصين مع أنه سبحانه قادر على أن يؤاخذهم، وذلك ليكون حافزًا للناس على العفو عند المقدرة.. هذا فضلاً عن أنه سبحانه قد آذن العافين عن الناس بعفوه عنهم.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

فهو أمر بالحض على احتمال الأذى من الأهل والأزواج والأولاد، والعفو والصفح عنهم، ولم يكتف مولانا سبحانه بالحث على العفو فقط في هذا المقام، بل حث على الصفح الذي يعني ترك التوبيخ على الذنب، وعلى المغفرة التي تعني ستر الذنوب، وعدم إشاعته لأن المقام هنا مقام عداوة أقرب الأقربين من نحو زوجة، وولد..

ويتدخل خلق العفو حتى يشمل الأحكام الشرعية التي تخص الحياة الزوجية حيث قال سبحانه: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

فقد حث الأزواج على التنازل عما لهم من الحق في تنصيف المهر، إن هم طلقوا قبل المساس، واعتبر ذلك من حسن الخلق والفضل في المعاملة، وعنوانًا على التُقى.. حتى أنه سبحانه أمرنا بالعفو والصفح عن أهل الكتاب فقال: ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

مظاهر العفو والصفح في حياة الرسول ﷺ

لقد أدب الله ﷻ حبيبه محمدًا ﷺ بهذا الخلق الرفيع، فقال سبحانه: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ولما سأل جبريل عن معنى ذلك، قال له: لا أدري حتى أسأل رب العزة والجلال، ثم نزل عليه وقال له معنى ذلك: «**أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك**». فتحقق ﷺ بهذا الخُلق العظيم في أقواله وأفعاله، ودعا إليه، وحث عليه بقوله.

ولذلك قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها - وهي من أحب الناس وأقربهم إليه: «ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرًا من مظلمة ظلمها قط، ما لم تنتهك محارم الله، فإذا انتهك شيء من محارم الله، كان أشدهم في ذلك غضبًا»[1].

قال سبحانه آمرًا رسوله وحبيبه ومصطفاه بالعفو: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣].

وقد وصفه لأهل الكتاب بالعفو والصفح فقال جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٥].

وقد جاء هذا الوصف بهذا الخلق العظيم في التوراة، كما جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - حين سُئل عن صفة رسول الله في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفاته في التوراة:

«يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله ،

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا»[١].

فقد كان العفو خلقه، والصفح والغفران شيمته، والحلم حليته، حيث عفا عن كل من آذاه، حتى من المشركين الأعداء، وهاك صور من عفوه، ولقطات إيمانية وصور ربانية من عفو رسولنا ﷺ ليتعظ بها المسلم، وليعتبر بها المؤمن، ولتكون نبراسًا له، للسير على هدى الحبيب المصطفى ﷺ.

١- عن أنس ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق الرسول ﷺ وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته.. ثم قال: يا محمد، مرْ لي من مال الله الذي عندك فالتفت رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء[٢].

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال له: **«ويُقاد منك يا أعرابي»** قال الأعرابي: لا، قال: **«ولم؟»** قال: لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة، ولكنك تعفو وتصفح.

٢- وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أنه غزا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع، وقيل: غطفان، فلما قفل رسول الله، وأدركته القائلة - أي وقت القيلولة - في وادٍ كثير العضاة، فنزل الحبيب المصطفى ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر فنزل رسول الله تحت شجرة، وعلق بها سيفه..

قال: فنمنا نومة.. فانسل رجل والمسلمون في غِرَّة - أي في غفلة - حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال له: يا محمد من يمنعك مني؟ قال: **«الله»** قال: فسقط السيف من يد الرجل فأخذه رسول الله ﷺ وأمسك به، وقال: **«من يمنعك مني؟»** قال: كن خير آخذ، فقال رسول الله ﷺ: **«قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله»**.

قال الرجل: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى رسول الله سبيله، ولم يعاقبه[٣].. بل عفا عنه.

---

(١) صحيح رواه البخاري والدارمي والبيهقي في «السنن الكبرى» و«شعب الإيمان».

(٢) صحيح رواه البخاري وأحمد والبيهقي في «الشعب».

(٣) صحيح رواه البخاري في [الجهاد - باب من علق سيفه] ورواه مسلم في «صلاة الخوف» ورواه الحاكم وابن حبان وأحمد والبيهقي في «الكبرى» والطبراني في «الأوسط».

وأعظم ما في ذلك أنه عفا عنه عند المقدرة.

٣- ولما دخل ﷺ مكة فاتحًا، وكان معه عشرة آلاف من جنود الحق، وكان يستطيع يومها أن يجعل مكة بركة من الدماء، كان من الممكن أن ينتقم لنفسه ولأصحابه الذين عُذبوا في مكة أشد العذاب، كان يستطيع أن يطردهم أذلاء، لكن ماذا فعل خير خلق الله؟ لقد أصدر قرار عفوه الشامل حين قال لهم: «**يا أهل مكة، ما تظنون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، حينئذ قال قولته الخالدة: «**أقول لكم كما قال يوسف من ذي قبل** ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝﴾ [يوسف: ٩٢] **اذهبوا فأنتم الطلقاء**»(١).

لم يدخل مكة منتقمًا، وإنما دخل وهو مليء بالعفو والصفح، دخل يومها ليحطم الوثنية، وليُعلي كلمة التوحيد، وهو يقول: «**هذا يوم يُعظم الله فيه الكعبة**»(٢).

ولما أصدر قرار عفوه الشامل تفرقوا جميعًا، كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام.

٤- ولما فتح رسول الله مكة المكرمة وكان بها وحشي قاتل أسد الله «حمزة بن عبد المطلب» ماذا يفعل وحشي وقد أسلم الناس جميعًا؟ لقد فرَّ إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف، ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فأشاروا عليه أن يعلن إسلامه، وقالوا له: إن رسول الله لا يقتل أحدًا دخل في دينه.

فقدم على رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه، فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال له: «**أنت وحشي؟**» قال وحشي: نعم.. قال: «**أنت قتلت حمزة؟**» قال: قد كان من الأمر ما بلغك يا رسول الله، قال: «**غيب عني وجهك**»(٣).

---

(١) ذكره ابن هشام في «السيرة» والغزالي في «فقه السيرة» والسيوطي في «تاريخ الخلفاء» وقد رواه البيهقي في «السنن الكبرى» مختصرًا (١٨٧٨٥).

(٢) **صحيح** رواه البخاري في [المغازي- باب أين ركز النبي الراية يوم الفتح؟].

(٣) **صحيح** رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٠١٧)، والبيهقي في «سننه الكبرى» (١٨٦٩٨) وأحمد في «مسنده» (١٦٠٢٢) وصححه حمزة الزين (١٢/٤٤٢).

أرأيت إذًا هذا النور الخالد؟ أرأيت عفوًا أعظم من هذا العفو؟! إن منظر حمزة بن عبد المطلب – أسد الله ورسوله – كان منظرًا موجعًا مؤلمًا لرسول الرحمة والشفقة ﷺ لقد جُدع أنفه، وبُقرت بطنه، ومع ذلك عفا عنه البشير النذير ﷺ بعد أن تمكن من القصاص منه.. إنها أخلاق النبوة الكاملة.. فداك أبي وأمي يا رسول الله.

إن وحشيًّ لما أسلم وحسن إسلامه لم يستطيع أن يتخلص من الفزع الذي يلاحقه من أطياف جريمته، فلما كانت حروب المرتدين أيام خلافة صديق الأمة الأكبر، خرج لقتال مسيلمة الكذاب، وقتله، ثم قص خبره بقوله:

«أخذت حربتي التي قتلت بها حمزة ﷺ فلما التقى الناس رأيت مسيلمة قائمًا في يده سيف، فتهيأت له، وتهيأ له من الناحية الأخرى رجل من الأنصار، فهززت حربتي، ودفعتها، فوقعت فيه، وشد عليه الأنصاري، فضربه بالسيف، فما أعلم أينا قتله؟ فإذا كنت قد قتلته، فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ- يقصد حمزة – وقد قتلت شر الناس – يعني مسيلمة الكذاب»(١).

٥- وليس ذاك فقط، ولكن تأمل عفوه عن التي أرادت أن تتخلص من حياته ﷺ أرادت أن تهلك الرسول الأعظم، والنبي الأكرم، فعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: إنَّ يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية، ثم أهدتها لرسول الله ﷺ فأخذ رسول الله ﷺ الذراع، فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، فقال رسول الله ﷺ: «**ارفعوا أيديكم**» وأرسل إلى اليهودية، فدعاها، فقال: «**سممت هذه الشاة؟**».

فقالت: من أخبرك.

قال: «**أخبرتني هذه في يدي**» أي الذراع.

قالت: نعم.. ثم قالت: قلت: إن كنت نبيًّا فلم يضرك، وإن لم تكن نبيًّا استرحنا منك(٢).

فماذا فعل بها رسول الله ﷺ؟ إنها قد اعترفت بجريمتها وخبثها ومكرها وخداعها.

---

(١) **صحيح** رواه أحمد في «مسنده».

(٢) **صحيح** رواه مسلم وأبو داود وغيرهما وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٩٣١).

فقد عفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها، مع أن بعض الصحابة الذين أكلوا من الشاة قد مات من أكلته، لكن رسول الله ﷺ احتجم على كاهله، حجمه أبو هند بالقرن والشفرة، وهو مولى لبني بياضة من الأنصار.

٦- وهذا هو عبد الله بن أبي ابن سلول رأس النفاق في المدينة، لما مات جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: أعطني قميصك حتى أكفنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفر له، فأعطاه الرسول ﷺ قميصه، ثم قال له: «**إذا فرغتم، فآذنوني أصلي عليه**» فجذبه عمر، وقال: يا رسول الله، أليس الله قد نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال ﷺ: «**أنا بين خيرتين قال الله لي:** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ » [التوبة: ٨٠] فصلى رسول الله ﷺ عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤] فترك الصلاة عليهم[1].

وفي رواية أخرى: لما دعى رسول الله ﷺ ليُصلي على عبد الله بن أُبي ابن سلول، لما قام رسول الله ﷺ، وثب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: يا رسول الله أتصلي على ابن أُبي، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، وأخذ عمر يُعد عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «**أخر عني يا عمر**» فلما أكثر عليه، قال له: «**إني خُيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له، لزدت عليها**»[2].

قال عمر: فصلى رسول الله ﷺ، ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. أي عفو أعظم من عفوك؟! وأي خُلق أعظم من خلقك؟! لقد عفوت عن هذا المنافق رغم أنه تكلم في شرفك، وتحدث في عرضك، وهو الذي رمى السيدة عائشة - رضي الله عنها - الطاهرة المطهرة بالزنا، أعطيته قميصك ليكفن فيه، ثم صليت عليه، ثم ذهبت معه إلى قبره لتستغفر له، وهو الذي رماك في أحب وأعز الناس إليك.. بل وأراد أن يخرجك من المدينة على ما ذكر القرآن الكريم في سورة سماها باسمه واسم أصحابه سورة «المنافقون»: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ

(١) صحيح: رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي.

(٢) صحيح: رواه البخاري وأحمد والترمذي وابن حبان.

لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨].

ألم يكن يعلم هذا الذي تولى كبره أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين؟!

صلوات ربي وتسليماته عليك يا رسول الله.

٧- وهذا ثمامة بن أثال يتعرض لرسول الله ﷺ بالقتل وهو مشرك، سولت له نفسه أن يقتل رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ ربه أن يمكنه من ثمامة هذا، فماذا حدث؟

لقد بعث رسول الله ﷺ خيلاً ناحية (نجد) فوجدوا ثمامة بن أثال، فربطوه بعمود من سواري المسجد، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «**أطلقوا ثمامة**»(١).

وفي رواية للبيهقي وغيره أن رسول الله سأله: «**ما لك يا ثمامة؟ هل أمكن الله منك؟**».

قال: قد كان ذلك يا محمد، ثم قال: يا محمد، إن تقتل، تقتل ذا دم، وإن تعف، تعف عن شاكر، وإن تسأل مالاً تعطه.. ومضى رسول الله ﷺ وتركه، حتى إذا كان من الغد مرَّ به رسول الله، فسأله نفس السؤال، وأجاب ثمامة بما قال أولاً، وظن بعض الصحابة أن رسول الله ﷺ سينتقم منه، ويقتله، حتى قال أبو هريرة: فجعلنا المساكين نقول بيننا: ما نصنع بدم ثمامة، والله لأكلة من جزور سمينة أحب إلينا من دم ثمامة.. ثم مرَّ عليه رسول الله ﷺ وقال لأصحابه: «**أطلقوا ثمامة، قد عفوت عنه**».

فانطلق إلى ماء قريب من المسجد، واغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، وأصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ(٢)، ووالله ما كان دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليَّ، ووالله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليَّ وإنَّ خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فذهب ليعتمر فلما قدم مكة قال قائل: صبوت؟

قال: لا والله، ولكني أسلمتُ مع رسول الله ﷺ ولن تأتيكم من اليمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ.

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

(٢) صحيح بشواهده: رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٨٥٣٩).

ولما عاد ثمامة بن أثال إلى اليمامة منع قومه أن يحملوا الحنطة إلى مكة، فكتب أهل مكة إلى النبي ﷺ يقولون: إنك تأمر بصلة الرحم، فكتب رسول الله ﷺ أن يخلي بين قومه، وبين الحمل إلى أهل مكة[١].

فتكرر العفو مرتين، عفو عن ثمامة، وعفو عن المشركين الذين آذوه ورحمة بأهل مكة.. صلى اللهم وسلم وبارك عليك يا رسول الله.

٨- ومن مظاهر عفوه ﷺ ما رواه زيد بن أرقم ﷺ قال: سحر النبي ﷺ رجلٌ من اليهود، فاشتكى رسول الله لذلك أيامًا، فجاءه جبريل عليه السلام، فقال له: إنَّ رجلاً من اليهود سحرك، وعقد لك في بئر كذا، وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها.

فبعث رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فاستخرجها، فجاءه بها، فحللها، فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه حتى مات[٢]. وعفا عنه رسول الله و لم يعاقبه.

وفي البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

كان رسول الله ﷺ سُحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن.

قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر.. فقال: **«يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب – مسحور – قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم** – رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقًا – **قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة.. قال: وأين؟ قال: في جُفٍّ طلعة ذكر** – وهو وعاء طلع النخل – **تحت رعوفة – أي صخرة في قعر البئر – في بئر زروان – اسمُ بئر لبني زريق بالمدينة –»** قالت عائشة رضي الله عنها: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال ﷺ: **«هذه هي البئر التي أُريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رءوس الشياطين»** فلما استخرجه قيل له: أفلا تنشرت[٣]؟!

فقال: **«أمَّا الله فقد شفاني، أكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا»**[٤].

---

(١) «فتح المبدي» (٣/١٥٠، ١٥١).

(٢) حسن: رواه أحمد في «المسند».

(٣) تنشرت: من النشرة وهي الرقية أي هلاَّ استخرجت الدفين ليراه الناس لما فيه من إظهار الفتن.

(٤) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

صلوات ربي وتسليماته عليك يا رسول الله.. لو حدث هذا مع أحدنا، أو مع أصحاب المناصب الزائلة ما صار ذلك الفاعل يمشي مرة أخرى على وجه الأرض ولكنك مع قدرتك على الانتقام عفوت وصفحت فجزاك الله عن أمتك خير الجزاء يا رسول الله.

٩- ومن مظاهر عفوه ﷺ ما رواه مسلم وغيره من حديث أنس ﷺ قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم يريدون قتله ﷺ فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله تعالى بأسماعهم، فقمنا إليهم، فأخذناهم أخذًا، فعفا رسول الله عنهم، وخلى سبيلهم، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾(١) [الفتح: ٢٤].

١٠- كان سهيل بن عمرو من أشد خطباء قريش معاندة للإسلام، ودعاية ضد النبي، وكان من أفحشهم لسانًا، وأبلغهم بيانًا، فلما وقع يوم بدر أسيرًا، قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ: دعني أنزع ثنيتيه، فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا. لكن رسول الله عفا عنه.. فقال ﷺ: «**دعه فلعله يسرك يومًا**»(٢).

وفي رواية: «**دعه يا عمر، فعسى أن يقوم مقامًا تحمده عليه**».

وصدقت نبوءة الرسول الأعظم، والنبي الأكرم حيث أسلم سهيل في فتح مكة وحسن إسلامه، وكان هذا المقام لما توفى رسول الله ﷺ ارتجت مكة لما رأت من ارتداد العرب، فوقف عند الكعبة قائلاً: «يا معشر قريش: لا تكونوا آخر من أسلم، وأول من ارتد، والله إنَّ هذا الدين ليمتدنَّ امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما(٣)، وفي رواية قال: من كان محمد ﷺ إلاهه، فإن محمدًا قد مات، والله حي لا يموت».

١١- وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ بحنين فلما أصاب من أموالهم وسباياهم - أي هوازن - أدركه وفد هوازن بالجعرانة، وقد

---

(١) صحيح رواه مسلم وأبو داود والترمذي وأحمد والنسائي.

(٢) رواه الحاكم (٥٢٢٨)، وسكت عنه (٣/٣١٨).

(٣) «أسد الغابة» (٢/٣٩٦) ط. دار المعرفة بيروت.

أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء، ما لم يخف عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد، فقال:

يا رسول الله، إن ما في الحظائر من السبايا خالاتك، وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، فلو أنا ملحنا ابن أبي شمر، أو النعمان بن المنذر، ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك، رجونا عائدتهما، وعطفهما، وأنت خير المكفولين، ثم أنشد:

فإنك المرء نرجوه وندخر.

امنن علينا رسول الله في كرم.

ممزق شملها في دهرها غِيَر.

امنن على بيضة قد عاقها قدر.

على قلوبهم الغماء والغمر.

أبقت لنا الدهر هتَّافًا على حَزَن.

يا أرجح الناس حلمًا حين يختبر.

إن لم تدركها نَعماء تنشرها.

إذ فوك يملؤه من محضها الدُرر.

امنن على نسوة قد كنتَ تَرضعها.

وإذ يزينك ما تأتي وما تذر.

إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها.

واستبق منا فإنا معشر زهر.

لا تجعلنا كمن شالت نعامته.

وعندنا بعد هذا اليوم مدخر.

إنا لنشكر للنعمى وإن كفرت.

من أمهاتك إنَّ العفو مشتهر.

فألبس العفو من قد كنت ترضعه.

هذى البرية إذ تعفو وتنتصر.

إنا نؤمل عفوا منك تلبسه.

يوم القيامة إذ يهدي لك الظفر.

فاغفر عفا الله عما أنت راهبه.

فقال رسول الله ﷺ : **«أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب، فهو لله ولكم»**.

فقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لله ولرسوله ﷺ .

فأطلق النبي ﷺ لهم الذرية، وكانت ستة آلاف ما بين صبي وامرأة، وأعطاهم أنعامًا وأناسي كثيرًا.

وهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا، فكيف ببركته على من اتبعه في الدار الآخرة[1].

وفي هذا الموقف عفو عظيم، ووفاء جميل، فقد عفا عن ستة آلاف كانوا سيصيرون عبيدًا أرقاء، وجاد عليهم بالأنعام وغيرها، ووفاء جميل حيث عرف الحق لهم، لأنه كان رضيعًا بين هؤلاء القوم، فصلوات ربي وتسليماته عليك يا صاحب هذا الخلق العظيم.



---

(١) صحيح : صححه الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (ص١٩- ٢١).

حث الرسول ﷺ أمته على العفو والصفح

أخي المسلم... أختي المسلمة...

ولحبيب قلوبنا، وذهاب همومنا، رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة، وأقوال مأثورة في الحث على العفو والصفح، وها هي بعضًا منها:

١- عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه**»(١).

٢- وعن أبي كبشة الأنماريّ ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثًا، فاحفظوه، قال: ما نقص مال من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزًّا، ولا فتح باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر...**»(٢).

٣- وكان ﷺ يحب العفو، ويحث عليه أصحابه، لذلك قال عن الأنصار: «**إن الأنصار كرشي وعيبتي** - أي خاصتي الذين أثق بهم - **وإن الناس سيكثرون ويقلون، فاقبلوا من محسنهم، واعفوا عن مسيئهم**»(٣).

٤- وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كم نعفو عن الخادم؟ فصمت؟ ثم أعاد عليه الكلام فصمت، فلما كان في الثالثة، قال: «**اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة**»(٤).

٥- وقال: «**إنَّ الله عفوٌ يحب العفو**» ومناسبة هذا القول ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه: إني لأذكر أول رجل قطعه رسول الله.. أُتِي بسارق، فأمر بقطعه فكأنما أسف وجه رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، كأنك كرهت قطعه.. قال: «**وما يمنعني،**

---

(١) صحيح: رواه مسلم.

(٢) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٢٤)، و«المشكاة» (٥٢٨٧)، و«صحيح الترغيب» (٨٦٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم.

(٤) صحيح: رواه أبو داود وصححه الألباني (٥١٦٤)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٣١).

لا تكونوا أعوانًا للشيطان على أخيكم إنه لا ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حد، إلا أن يقيمه، إن الله عفوٌ يحب العفو، وليعفوا، وليصفحوا»(١).

٦- ولما سُرقت لقاح رسول الله ﷺ وكانت عشرون لقحة(٢)، وكانت ترعى بذي قَرَد، واستنقذها سلمة بن الأكوع، أمره أن يعفو ويصفح عنهم مادام قد استردها، والحديث يرويه البخاري ومسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال:

خرجت من المدينة قبيل الفجر، فلقيني غلام، فقال لي: أخذت لقاح رسول الله، فصرخت ثلاث صرخات لأُسمع ما بين لابتي(٣) المدينة، ثم ذهبت أثر العدو، واستنقذت منهم اللقاح، وأخذت ثلاثين بردة، ثم لحقني النبي ﷺ في خمس مائة، أو سبع مائة، فقلت: يا نبي الله، قد منعتُ القوم الماء، وهم عطاش، فابعث إليهم الساعة..

فقال: «**يا ابن الأكوع، ملكت فأسجح**»(٤)، أي اعف عنهم، واصفح، وتجاوز ما دمت قد ظفرت بما أردت، وحصلت على ما أخذوه منك.

٧- وعن عدي بن ثابت قال: هشم رجل فم رجل على عهد معاوية، فأعطى ديته، فأبى أن يقبل، حتى أعطى ثلاثًا، فقال رجل: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من تصدق بدم أو دونه، كان كفارة له من يوم أن تصدق، إلى يوم القيامة**»(٥).

٨- وعن وائل بن حجر، قال: كنت عند النبي ﷺ إذ جيء برجل قاتل في عنقه النِّسعة، قال: فدعا ولي المقتول، فقال له: «**أتعفو؟**» قال: لا، قال: «**أفتأخذ الدية؟**» قال: لا، قال: «**أفتقتل؟**» قال: نعم، قال: «**اذهب به**» فلما ولى، قال: «**أتعفو؟**» قال: لا، قال: «**أفتأخذ الدية؟**» قال: لا، قال: «**أفتقتل؟**» قال: نعم، قال: «**اذهب به**» فلما كان في

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٤١٦٨)، والحاكم (٨١٥٥) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأبو يعلى في «مسنده» (٥١٥٥).

(٢) اللُّقحة: هي الناقة الحلوب - أو قريبة العهد بالولادة.

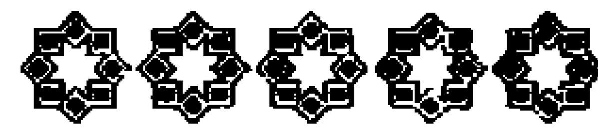
(٣) لابتي المدينة: أي ما بين جوانبها.

(٤) صحيح: رواه البخاري في «الجهاد» ومسلم كذلك والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢١٦٩٧).

(٥) حسن: رواه أبو يعلى (٦٨٦٩)، وقال الدمياطي في «المتجر الرابح»: إسناده حسن.

الرابعة، قال: «**أما إنك إن عفوت عنه يبوء بإثمه، وإثم صاحبه**» قال: فعفا عنه، قال: فأنا رأيته يجر النسعة[1].

ففيه: العفو عن المسيء، والعفو عن الحدود وعن القصاص. حيث أن رسول الله ﷺ قرره وأخذ يقرره ليعفو ويصفح لكنه أصر على القصاص.



(١) صحيح: رواه مسلم وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٤٤٩٩).

العفو من أخلاق أصحاب النبي المصطفى ﷺ

أخي الحبيب:

ولما سمع أصحاب النبي المصطفى، والرسول المجتبى ﷺ، حث أستاذهم، وترغيب نبيهم في العفو والصفح، ولما رأوا عفوه وصفحه، اتخذوا هذا الخلق العظيم عنوانًا لهم، فكانا يعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويعطون من حرمهم..

١- فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قدم عيينة بن حصن، فنزل على الحُر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر، ومشاورته كهولاً كانوا أو شبابًا..

فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه.. قال: سأستأذن لك عليه.

قال ابن عباس: فاستأذن الحرُ لعُيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: إيه يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزْل[1]، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر، حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وإنَّ هذا لمن الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافًا عند كتاب الله[2].

فقد عفا عنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وصفح عن خطأه.

٢- وهذا سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ يذهب إلى السوق يومًا ليشتري طعامًا، ولما جلس إلى البائع واشتراه، أراد أن يعطيه نقوده، فوجدها قد سرقت، فجعلوا يدعون على من أخذها، ويقولون: اللهمَّ افعل به كذا وكذا فقال ابن مسعود: «اللهمَّ إن كان

---

(١) الجزل: أي الكريم المعطاء والعاقل الأصيل.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٦٤٢).

حمله على أخذها حاجة، فبارك له فيها، وإن كان حملته جراءة على الذنب، فاجعله آخر ذنوبه»(١).

٣- وهذا عمرو بن العاص ﷺ يركب بغلة له شهباء، ومرَّ على قوم فقال بعضهم: من يقوم للأمير، فيسأله عن أمه، وله عشرة آلاف؟ فقال واحد منهم: أنا، فقام، وأخذ بعنان بغلته، وقال: أصلح الله الأمير، أنت أكرم الناس خيلاً، فلم ركبت دابة إشهاب وجهها؟ فقال: إني لا أمل دابتي حتى تملني، ولا أمل رفيقي حتى يملني.. فقال: أصلح الله الأمير، أمَّا العاص فقد عرفناه، وعلمنا شرفه فمن الأُم؟ قال: على الخبير سقطت، أمي النابغة بنت حرملة بن عزة، سبتها رماح العرب، فأُتي بها سوق عكاظ، فبيعت، فاشترها عبد الله بن جدعان، ووهبها للعاص بن وائل، فولدت وأنجبت، فإن كان قد جعل لك جعل، فارجع فخذه، وأرسل عنان الدابة(٢).

٤- وكذلك كان التابعون من بعدهم..

قال عبد الرزاق: سكبتُ جارية لعلي بن الحسين ماء ليتوضأ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه، فشجه، فرفع رأسه إليها فقالت الجارية: إنَّ الله يقول: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ فقال: كظمت غيظي، فقالت: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ قال: عفا الله عنك، فقالت: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال: أنت حرة لوجه الله(٣).

٥- وأدخلوا على ابن الزبير رجلاً قد أحدث ذنبًا، فدعا بالسياط ليضربه، فقال له الرجل: أسألك بمن تكون يوم القيامة بين يديه أذل مني بين يديك إلا عفوت عني، فنزل ابن الزبير عن سريره، وألصق خده بالأرض وقال: قد عفوت(٤).

٦- ولما حلف صديق الأمة الأكبر أبو بكر الصديق ﷺ أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ﷺ

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالي.

(٢) «المستطرف» للإبشيهي (ص٢٠٩).

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٩/١٠٧).

(٤) «تنبيه المغترين» للشعراني (ص٦١) ط. بيروت.

وكان من المهاجرين في سبيل الله، فأنزل الله قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٢].

قال ابن كثير: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك، نغفر لك، وكما تصفح ، نصفح عنك، فعندئذ قال الصديق: بلى والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا[1].

فتأمل كيف عفا الصديق ﷺعن مسطح بن أثاثة وقد كان له فضل عليه، ومع ذلك وقع في عرضه وشرفه، فتكلم في حادثة الإفك، في رمي عائشة - رضي الله عنها - بالزنا، ومع ذلك أذعن لله ولرسوله ﷺ وعفا عنه، وصفح عن زلته، وردَّ له نفقته، إنه التلميذ الأكبر للنبي والأستاذ الأعظم.. لقد تخرج في جامعة المصطفى ﷺ لو كان ذلك في مجتمعنا ما عفونا عنه، ولكنه صفح بصفح، والصفح الثاني والعفو أعظم من الأول، إنه صفح الرب عن عبده.. نسأل الله أن يجعلنا من العافينَ عن الناس.



(١) صحيح رواه البخاري ومسلم وابن حبان والترمذي والبيهقي في « سننه وشعبه ».

البابُ الرابع

الأخلاق السياسية والقيادية

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الشجاعة.

المبحث الثاني: الشورى.

المبحث الثالث: العدل.

المبحث الرابع: الحكمة

المبحث الأول

خلق الشجاعة

فما هي الشجاعة؟

الشجاعة لغة: مصدر شَجُع فلانٌ شجاعة - أي صار شجاعًا جريئًا - وهي مأخوذة من مادة «ش ج ع» التي تدل على الجُرأة والإقدام.

وقال ابن منظور: شَجُع شجاعة: أي اشتد عند البأس.

ويقال: رجلٌ شجاع، وامرأة شجاعة.

وفي الاصطلاح:

قال الجرجاني: هي هيئة حاصلة للقوة الغضبية، بين التهور والجبن، بها يُقدم على أمور ينبغي أن يُقْدِم عليها، كالقتال مع الكفار، ما لم يزيدوا على ضعف المسلمين[(١)].

وقيل: هي الصبر والثبات والإقدام على الأمور النافع تحصيلها، أو دفعها وتكون في الأفعال والأقوال[(٢)].

وقال الجاحظ: الشجاعة هي الإقدامُ على المكاره والمهالك عند الحاجة إلى ذلك، وثبات الجأش عند المخاوف مع الاستهانة بالموت[(٣)].

وقال ابن حزم في «مداواة النفوس»:

الشجاعة هي بذل النفس للذود عن الدين أو الحريم، أو عن الجار المضطهد أو عن

---

(١) «التعريفات» للجرجاني (ص١٢٥).

(٢) «الرياض الناضرة والحدائق الناضرة» للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص٥٤).

(٣) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص٢٧).

المستجير المظلوم، وعمن هُضم ظلمًا في المال والعرض، وسائر سبل الحق، سواءً قَلَّ مَنْ يُعارض أو كثُر.

مكانة الشجاعة بين الفضائل:

الشجاعة عماد الفضائل، من فقدها لم تكمل فيه فضيلة، وتعتبر الشجاعة من أمهات الأخلاق لما يندرج تحتها من أخلاق فاضلة مثل: الثبات والشهامة والنجدة، والصبر، وغيرها من الأخلاق والسلوكيات الطيبة.

قال الطرطوشي: اعلم أن كل كريهة تُرفع، أو مكرمة تكتسب لا تتحقق إلا بالشجاعة، ألا ترى أنك إذا هممت أن تمنح شيئًا من مالك خار طبعك، ووهن قلبك، وعجزت نفسك، فشححت به، وإذا حققت عزمك، وقويت نفسك، وقهرت عجزك، أخرجت المال المضنون به، وعلى هذا النمط تكون جميع الفضائل.

ولما كانت الشجاعة فضيلة من الفضائل العظيمة، وسلوك من السلوكيات التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم، كانت خُلقًا من أخلاق القرآن الكريم، والتي حث عليها ضمنيًّا ورغب فيها، ومدح من تحلى بها، ونفر من ضدها، وهي الجبن، مع العلم بأن مادة «ش ج ع» لم تذكر في القرآن صراحة بلفظها.

الشجاعة من أخلاق القرآن الكريم:

فالقرآن الكريم ما من خلق كريم إلا وحث أهل الإيمان عليه، وما من خلق ذميم إلا وحذرهم منه، ونهانا عنه، فكل آيات الجهاد وقتال الأعداء حث على الشجاعة والثبات في المواقف الحرجة، ومن هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ ﴾ [البقرة: ١٩٠، ١٩١].

وقال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ [محمد: ٤].

وقد حثت آيات القرآن الكريم على الشجاعة، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

لما بذل الشهداء أنفسهم لأجل الله، أبدلهم الله حياة خيرًا من حياتهم التي بذلوها، وجعلهم جيرانه، يبيتون تحت عرشه، ويسرحون من الجنة حيث شاءوا، لما انقطعت آثارهم من السروح في الدنيا.

يقول ابن القيم:

إنَّ الشهيد لما بذل حياته لله، أعطاه الله حياة أكمل منها، عنده في محل قربه وكرامته.. فمن بذل شيئًا لله أعطاه الله خيرًا منه.

حياة غير الشهيد شوب النغص، ممزوجة بالغصص، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيرًا، وإن سرت يومًا أحزنت شهورًا، أولها مخاوف وآخرها موت ومتالف.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

فمن رحمته سبحانه أن جعل للصفقة ثمنًا، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالكها.. وقد جعل الجنة عوضًا وثمنًا.. فما الذي يفوت المؤمن الذي سلم نفسه وماله، ويستعيض الجنة.. والله ما فاته شيء، فالنفس إلى موت، والمال إلى فوت..

وقال سبحانه: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [النساء: ٧٤].

﴿ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ حياة الهموم والأحزان، والغموم والأشحان.. حياة كثيرها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، إن أخصبت أجدبت، وإن جمعت فرقت، وإن زادت أبادت، وإن عمرت دمّرت، وإن أسفرت أدبرت..

فتيقظ لنفسك يا هذا قبل الهلاك، وأطلق نفسك من أسرها قبل الفكاك.



خُلق الشجاعة في حياة الرسول

لقد تعددت مظاهر الشجاعة في حياة الرسول ﷺ، فقد كان من أشجع الناس، حتى قال عنه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: ما رأيتُ أنجد، ولا أجود، ولا أشجع، ولا أرمى من رسول الله ﷺ.

وقال عنه أنس ﷺ: كان رسول الله ﷺ من أشجع الناس، فكان ﷺ شجاعًا في رأيه، شجاعًا في حربه، شجاعًا في تبليغه أمر ربه جل وعلا..

١- شجاعة الرأي:

وشجاعة الرأي تسمى بالشجاعة الأدبية، وقد اعتبرها النبي ﷺ أفضل أنواع الجهاد، حيث قال:

«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[(١)].

١- عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاء أبو جهل إلى النبي ﷺ وهو يُصلي، فنهاه فتهدده النبي ﷺ فقال: أتهددني أما والله إني لأكثر أهل الوادي ناديًا فأنزل الله قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٩ - ١٣].

قال ابن عباس: والذي نفسي بيده، .... لأخذته الزبانية[(٢)].

وفي رواية في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة ﷺأنه قال: قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل

---

(١) صحيح صححه الألباني في «الصحيحة» (٤٩١)، و«صحيح سنن أبي داود» (٤٣٤٤)، و«صحيح سنن ابن ماجه» من حديث أبي سعيد الخدري (٤٠١١)، والترمذي وفي «صحيح الجامع» (١١٠٠) و«المشكاة» (٣٧٠٥).

(٢) صحيح رواه أحمد (٢٣٢١)، وصححه أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٣/٦٢).

ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه بالتراب.

قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه، إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك يا عمرو بن هشام؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولاً وأجنحة.

فقال ﷺ: «**لو دنا مني، لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**»(١).

٢- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ونائلة وإساف، لو قد رأينا محمدًا، لقمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة - رضي الله عنها - تبكي، حتى دخلت على النبي ﷺ فقالت: هؤلاء الملأ من قومك قد تعاقدوا عليك، لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجلٌ إلا عرف نصيبه من دمك.

قال ﷺ: «**يا بنية، ايتيني بوضوء**» فتوضأ، ثم دخل المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، ها هو ذا، فخفضوا أبصارهم، وسقطت أذقانهم في صدورهم، فلم يرفعوا إليه بصرًا، ولم يقم إليه منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رءوسهم، فأخذ قبضة من تراب، وقال: «**شاهت الوجوه**» ثم حصبهم، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصاة، إلا قُتل يوم بدر(٢).

٣- جاء رجل من قبيلة أراش، وكان أبو جهل قد ماطله بأثمان إبل، فوقف الأراشي على نادي قريش، ورسول الله جالس في ناحية المسجد فقال: يا معشر قريش، مَنْ يُعديني على أبي الحكم بن هشام، فإني غريب، وابن سبيل، وقد غلبني على حقي.

فأشار أهل المجلس إلى رسول الله ﷺ يهزأون به، لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم في «كتاب صفة القيامة» (٢٧٩٧)، وأحمد في «مسنده» (٨٨١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٦٩).

(٢) **صحيح**: رواه الحاكم (٤٧٤٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٥٠٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٧٦٢)، وصححه أحمد شاكر (٢٢٨/٣)، والهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٢٨)، وفي «سنن سعيد بن منصور» (٢٩١٣).

من العداوة ، قالوا للأراشي: اذهب إليه فهو يؤيدك عليه، فأقبل الأراشي، حتى وقف على رسول الله ﷺ فأخبره، فقام معه إلى أبي جهل، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل منهم: اتبعه، فانظر ما يصنع، فذهب رسول الله ﷺ حتى وقف على باب دار أبي جهل، فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: «**محمد، فاخرج**» فخرج إليه وما في وجهه قطرة دم، وقد انتقع لونه، فقال: «**اعط لهذا الرجل حقه**».

قال: لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل وأتى بحق الرجل، ودفعه إليه، ثم انصرف رسول الله، وقال للأراشي: «**إلحق لشأنك**».

فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيرًا فقد أخذت الذي لي.

وجاء الرجل الذي بعثوا وراءه يستتبع الأمر، فقالوا: ماذا رأيت؟ قال: عجبًا من العجب! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج وما معه روحه، فأمره أن يعطيه حقه، فدخل وأتى به، وأعطاه إياه.

ثم جاء أبو جهل، فقالوا: ويلك ما لك؟ فوالله ما رأينا مثل ما صنعت؟

فقال أبو جهل: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي وسمعت صوته، فملئت رعبًا، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته، ولا قصرته، ولا أنيابه، فوالله لو أبيت لأكلني[1].



(١) «السيرة النبوية» للإمام ابن كثير (١/ ٤٧٠) ط. الحلبي.

شجاعة الرسول في الحرب والقتال

أخي المسلم..

١- وقد ظهرت شجاعته ﷺ القتالية منذ مطلع شبابه، وهو في العشرين من عمره، شهد حرب الفِجار - بكسر الفاء - وسميت بذلك لانتهاكم حرمة الشهر الحرام فيها، وكانت بين قيس وكنانة، وشهدها النبي ﷺ وكان ينبل فيها على أعمامه أي يجمع لهم النبل للرمي.

٢- وشهد حلف الفضول في نفس هذه السنة التي كان فيها حرب الفجار، أي قبل المبعث بعشرين سنة، وسمى بذلك لأن الداعي إليه ثلاثة من أشرافهم اسم كل واحد منهم «فضل» ويسمى بحلف المطيبين، قال عنه ﷺ: **«شهدت مع عمومتي حلف المطيبين، فما أحب أن أنكثه، وإن لي حمر النعم»**(١).

وفي رواية: **«لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حُمر النعم، ولو دُعي به في الإسلام لأجبت»**(٢).

٣- وفي السنة الثانية من الهجرة، كانت غزة بدر الكبرى، ويومها نظر إلى المشركين، وكانوا ألفًا، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، فاستقبل القبلة، ثم مدَّ يديه، وجعل يهتف بربه: **«اللهمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، فلا تعبد في الأرض»** فما زال يهتف بربه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه..

حتى صور فارس الفرسان عليّ بن أبي طالب ﷺ شجاعة الرسول الأعظم فقال: «لقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبي ﷺوهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس بأسًا»(٣).

---

(١) صحيح رواه أحمد وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه (٢٨٧٠)، ورواه أبو يعلى (٨٤٥)، والبيهقي في «الكبرى» (١٣٣٥٦).

(٢) صحيح رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٣٥٦).

(٣) صحيح رواه أحمد في «مسنده» (٥٦٥)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» برقم (٥٥) بإسناد صحيح.

وقال أيضًا عن شجاعته: «كنَّا إذا احمر البأس ولقى القومُ القومَ اتقينا برسول الله ﷺفما يكون منا أحد أدنى من القوم منه»[1].

٤- وفي غزوة أُحُد تجلت ألوان من شجاعته ﷺ، فحين علم النبي بمقدم الأعداء من قريش، خيَّر أصحابه أن يقيموا بالمدينة، وأن يدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا عليهم المدينة، قاتلوهم فيها، وكان النبي ﷺ ممن لا يرى الخروج إليهم، لكن جماعة من الصحابة - رضوان الله عليهم - وخاصة الذين لم يشاركوا في غزوة بدر الكبرى، آثروا الخروج، ولم يزالوا برسول الله ﷺ حتى دخل بيته، فلبس لامته وتقلد سيفه، ثم خرج إليهم، فندموا وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد، فماذا قال سيد الشجعان ﷺ؟

قال: «**ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته** - أي درعه - **أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**»[2]. ثم خرج في ألف من أصحابه.

وتظهر هذه الشجاعة الباسلة في أمور:

١- استجابته لحماسة الذين آثروا الخروج للقاء العدو، ولذا سارع في لبس درعه، واستعداده للخروج.

٢- رفضه أن يستجيب لدعوة البقاء بعد أن أعد عدته، وإصراره على أن يخرج إلى الأعداء ليقاتلهم.

٣- جعل ظهر الجيش خمسين من الرماة، كما روى البراء بن عازب ﷺ وقال لهم: «**إنْ رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أُرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**».

قال: فهزمهم الله تعالى، قال: فأنا والله رأيت النساء يُسندن على الجبل فقال أصحاب

---

(١) صحيح رواه أحمد في «مسنده» (١٣٤٦) (١٥٦/٢) وصححه أحمد شاكر وأبو الشيخ (٥٦).

(٢) صحيح رواه الحاكم (٢٥٨٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١٤١/٢)، ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٥٦٤) في [كتاب النكاح] (١٥٦/١٠).

عبد الله بن جبير - قائد الرماة على الجبل - : الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟

فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة؟ فأتوهم، فصُرفت وجوههم، وأقبلوا منهزمين[1].

فلما نزل الرُماة لأجل الغنائم، وسيطر حب الدنيا على قلوبهم، باءوا بالفشل، واضطربت صفوف الجيش الإسلامي، واضطرب نظامهم، ففر من فر، ولم يبق غير اثنى عشر رجلاً من المسلمين.

في هذا المأزق، وفي هذا الموقف العصيب، وقف أعظم الشجعان ﷺ ثابتًا جلدًا، يرمي عن قوسه، ويشجع أصحابه مثل سعد بن أبي وقاص، فكان يقول له: «**ارم فداك أبي وأمي**»[2]. وغيره.

وفي هذه الغزوة كُسرت رباعيته، وشُج في وجهه، وجرحت شفتيه، وسال دمه على وجهه[3].

٤- ولما قدم اللعين أُبي بن خلف على فرسه ينشد النبي ﷺ ليقتله، ويقول: أي محمد لا نجوتُ إن نجوتَ!

فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منّا؟

فقال رسول الله: «**دعوه**» فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فانتفض بها، انتفاضة تطاير الصحابة رضي الله عنهم تطاير الشعراء عن ظفر البعير إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه في عنقه، طعنة تدأدأ منها - أي جعل يتدحرج - عن فرسه مرارًا، وقيل: بل كُسر ضلع من أضلاعه، فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد، وهم يقولون: لا بأس عليك، فقال: لو كان بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال لي: «**أنا أقتلك**» والله لو بصق عليَّ لقتلني، فمات وهو في طريق عودته.

---

(١) **صحيح** رواه البخاري في «الجهاد» وأبو داود وأحمد والنسائي في «سننه الكبرى» (١١٠٧٩).

(٢) **صحيح** رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٣) **صحيح** رواه الترمذي (٣٠٠٢) وقال: حسن صحيح، ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٥٧٤).

٥- **وأما في غزوة الخندق:** فقد بلغ من شجاعته ﷺ أنه كان يقوم بنفسه بحراسة ثلمة كانت في الخندق، كان يخشى أن يقتحمها المشركون، فكان يقوم بحراستها بنفسه، غير خائف من المشركين أن يقتلوه، بقوس أو سهم، مع أنه يعلم بأنه هو المقصود من كل ذلك، ولكن الشجاعة الكاملة في قلبه جعلته لم يخف من ذلك.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ في غزوة الخندق يتردد على ثلمة في الخندق يحرسها بنفسه، حتى إذا آذاه البرد، جاءني فأدفأته، فإذا دفئ عاد إليها يحرسها».

٦- **وفي غزوة حنين:** ضرب رسول الله ﷺ أروع مثل في الشجاعة الإنسانية، فقد كانت هوازن وثقيف قومٌ رماة، وقد سئل أحد شهود العيان في هذه المعركة - وهو البراء بن عازب رضي الله عنه - أفررتم عن رسول الله يوم حنين؟ فقال في أدب جم نافيًا الفرار عنه ومثبتًا شجاعته التي لا نظير لها: «لكنَّ رسول الله لم يفر، إنَّ هوازن كانوا قومًا رماة، فلما لقيناهم حملنا عليهم، فانهزموا، فأقبل المسلمون على الغنائم، واستقبلنا هوازن بالسهام».. ثم يؤكد شجاعته مرة أخرى فيقول:

«فأما رسول الله ﷺ فلم يفر، فلقد رأيته وإنه على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بلجامها، والنبي يقول: **«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»**»(١).

٧- **وفي ذات ليلة:** فزع أهل المدينة، فانطلق ناس من قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ، في عنقه السيف، وهو يقول: **«لم تراعوا، لم تراعوا»**(٢).

فتأمل أخي المسلم عظم شجاعة الحبيب المصطفى ﷺ حيث ذهب إلى مكان الخطر وحده، قبل أن يتحرك الناس إليه، وقد كان كثيرًا ما يشيد بشجاعة نفسه، فيقول:

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن حبان.

(٢) صحيح: متفق عليه رواه البخاري ومسلم والترمذي وتكملته: ثم قال: «وجدناه بحرًا أو إنه لبحر» يعني الفرس، وكان فرسًا بطيئًا.

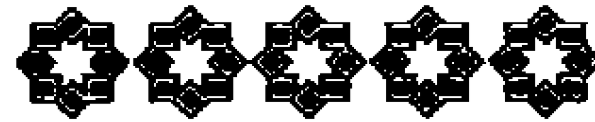
«فضلتُ على الناس بأربع: السخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع، وشدة البطش»[1].

كانت هذه الشجاعة لإعلاء كلمة الله، والدفاع عن الحق، ونصرته، ولم تكن للمباهاة، ولا للمفاخرة بين الناس، ولا شجاعة الثائر المهتاج الذي أشعله الغضب من غير حق، بل كانت الشجاعة المُثْلى التي لا يُقصد منها إلا إعزاز دين الله، وإعلاء كلمته، والدفاع عن الحقوق الشرعية، لذلك لما جاءه أعرابي يسأله قائلاً: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله، فقال ﷺ:

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

ومع هذه الشجاعة العظيمة التي كان يتحلى بها إمام المتقين، وقائد الغر المحجلين إلا أنها كانت مشوبة بالرحمة، لذلك لم يستعملها إلا في مواطن الجهاد في سبيل الله، هذا جعل السيدة عائشة – رضي الله عنها – تقول عنه:

«ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده، ولا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله».



(١) رجاله ثقات: رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٨١٦) وقال الهيثمي: رجاله موثقون (٢٧٣/٨).

الرسول ﷺ يحث أمته على الشجاعة

أخي المسلم .. أختي المسلمة..

لقد حثنا سيد الشجعان ﷺ على الشجاعة والثبات، وحبب هذا الخلق العظيم إلى أمته، بأحاديث كثيرة منها:

١- ففي حديث أبي بكر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**»[١].

٢- وفي حديث سعيد بن زيد مرفوعًا: «**من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد**»[٢].

٣- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال لما سُئل أي الناس أفضل؟ قال: «**مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله**»[٣].

٤- ومثل الذي يُدافع عن شرفه، ويدافع عن دينه، ويجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القائم، فقال: «**مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه، وأن يدخله الجنة، أو يرجعه مع أجر أو غنيمة**»[٤].

٥- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»[٥].

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٦٤)، و«صحيح الجامع» (١٩٧٣)، وأبو داود والترمذي وفي «صحيح الترغيب» (٢٣١٧).

(٢) صحيح: صححه الألباني في «الإرواء» (٧٠٨)، و«صحيح سنن أبي داود» (٤٧٧٢)، و«صحيح سنن الترمذي» وابن ماجه (٢٥٨٠).

(٣) صحيح: متفق عليه، وصححه الألباني في «الإرواء» (١١٩٣)، و«صحيح الجامع» (١١٣١).

(٤) صحيح: رواه البخاري والترمذي وابن ماجه والألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٥١)، و«المشكاة» (٣٧٨٨).

(٥) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

٦- وقال: «**إنَّ في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجة إلى الدرجة الأخرى كما بين السماء والأرض**»(١).

٧- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لا يُكلمُ أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يُكلم في سبيله - إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثغب دمًا، اللون لون الدم، والريح ريح المسك**»(٢).

٨- وعن أبي قتادة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر أنَّ الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالله أفضل الأعمال، قال: فقام رجل، فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله، أتكفر عني خطاياي كلها؟

فقال رسول الله ﷺ: «**نعم إن قُتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر**» ثم قال رسول الله: «**كيف قلت؟**» قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله، أتكفر عني خطاياي كلها؟ فقال: «**نعم، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدين، فإن جبريل** عليه السلام **قال لي ذلكَ**»(٣).

٩- وجعل النبي ﷺ القوة في الرمي، كما في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا إنَّ القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إنَّ القوة الرمي**»(٤).

١٠- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل**»(٥).

وغير ذلك من الأحاديث التي رغبت في الشجاعة والثبات في ميادين القتال، وقد كان لمثل هذا الترغيب الأثر الكبير في أصحاب القلوب المرهفة من أصحاب رسول الله ﷺ حيث كانوا يُقدمون على خوض المعارك بكل شجاعة، وثبات وجلد، مثل ذلك:

---

(١) صحيح: رواه البخاري.

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٣) صحيح: رواه مسلم.

(٤) صحيح: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني في «الإرواء» (١٥٠٠)، و«المشكاة» (٣٨٦١)، و«صحيح الترغيب» (١٢٧٩).

(٥) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

١- **أنس بن النضر** ﷺ يقول عنه أنس بن مالك:

غاب عمّي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون قال: اللهمَّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين -.

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنَّة وربِّ النضر، إني لأجد ريحها من دون أُحُد.

قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة بالرمح، أو رمية بسهم، ووجدنا قد قُتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد، إلا أخته ببنانه[1].

وقد روى كذلك أنّ أنس بن النضر مرَّ يومَ أُحُد على جماعة فيهم عمر بن الخطاب ﷺ فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم جالد بسيفه، حتى قُتل ﷺ[2].

٢- وهذا رجلٌ يحضره أبو موسى الأشعري ﷺ وقد منه سمع وهو بحضرة العدو قول رسول الله ﷺ: «**إنّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**» فيقول له: أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجع الرجل إلى أصحابه وقال لهم: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه، فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب به حتى قُتل.

٣- وهذا هو **حنظلة بن عامر** ﷺ عندما سمع منادي الجهاد: «يا خيل الله اركبي» فتحمله شجاعته وثباته وإقدامه أن يترك زوجته بعد أن قضى معها ليلة العُرس، يخرج من بين أحضان زوجته، فيخرج يوم أُحُد فيقاتل حتى يستشهد في سبيل الله، فيمر عليه رسول الله ﷺ فيقول: «**إنّ صاحبكم تغسله الملائكة**» فسألوا صاحبته - زوجته - عنه، فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة - أي الصيحة بالجهاد - وهو جنب، فقال

---

(١) صحيح رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٢) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/٢٧٥) ط. دار الفكر.

رسول الله ﷺ: «**لذلك غسلته الملائكة**».

٤- شجاعته ﷺ وحثه عليها، جعلت **عمرو بن الجموح** ﷺ وكان ذو عرجة، يود أن يخرج مع الجيش الإسلامي حين ندب رسول الله ﷺ إلى الخروج إلى غزوة بدر، لكن أبناءه منعوه لشدة عرجه، فلما كان يوم أُحُد قال لبنيه: منعتموني الخروج إلى بدر، فلا تمنعوني الخروج إلى أُحد.

فقالوا: إن الله قد عذرك، فأتى رسول الله، فشكا له أولاده، ثم قال: والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «**أما أنت فقد عذرك الله، ولا جهاد عليك**» وقال لبنيه: «**لا عليكم أن تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة**».

فأخذ سلاحه وولَّى قائلاً: «اللهمَّ ارزقني الشهادة، ولا تردني إلى أهلي خائبًا»، فاستجاب الله ﷻ له، فاستشهد في سبيل الله، فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته**»(١).

وهذا قليل من كثير، وغيض من فيض.

تحذيرالنبيّ ﷺ أمته من الجبن:

١- وقد رهب النبي ﷺ من ضد هذا الخلق - وهو الجبن - حتى جعله الرسول ﷺ من الكبائر، ومن الموبقات، فقال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: «**الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات**»(٢).

فالتولي يوم الزحف إلى المعركة جبن، وهو كبيرة من أكبر الكبائر.

٢- وقد كان النبي ﷺ كثيرًا ما يستعيذ من الجبن، فكان يقول: «**اللهمَّ إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل...**»(٣).

---

(١) حسن: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٠٢٤).

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

وكان يقول: «**اللهمَّ إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين**»[١].

٣- وجعلها - أي صفة الجبن - شر صفة يتصف بها الرجل، فقال: «**شر ما في الرجل، شح هالع، وجبن خالع**»[٢].

٤- ومنع أن يكون موصوفًا بهذه الصفة، فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: بينما أنا مع رسول الله ﷺ ومعه الناس، مقبلاً من حنين، فأوقفه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، لو كان عدد هذه العضاة نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً وكذوبًا، ولا جبانًا**»[٣].

مواقف من شجاعة السلف:

ومواقف العلماء في الشجاعة أكثر من أن تحصى، لأنهم لما قرأوا أحاديث الشجاعة، وعلموا شجاعة نبيهم ﷺ وشجاعة أصحابه - رضوان الله عليهم - تأسوا بهم، ومن تلك المواقف ما يلي:

١- عن الأصمعي قال: دخل عطاء بن أبي رباح - رحمه الله - على عبد الله بن مروان، وهو جالس على سريره، وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما نظر إليه وأجلسه على السرير وقعد بين يديه، قال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟

قال عطاء: يا أمير المؤمنين، اتق الله في حرم الله، وحرم رسوله، فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فأنت بهم أجلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصن المسلمين، وتعاهد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق الله فيمن على بابك، ولا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك.

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسند» وصححه الشيخ أحمد شاكر ورواه الخرائطي في «المساوئ».

(٣) صحيح: رواه البخاري ومالك في «الموطأ» وابن حبان والبيهقي في «السنن» وأحمد في «المسند» وأبو يعلى والطبراني في «الأوسط» وعبد الرزاق في «مصنفه».

فقال له: أفعل، ثم نهض، فقبض عليه «عبد الملك» فقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة[1].

٢- ولو تأملت هذا الحوار المبارك بين هذا الحاكم، وهذا الواعظ الشجاع لرأيت الشجاعة في أعلى معانيها...

بعث سليمان بن عبد الملك إلى أبي حازم - الواعظ المشهور - فجاءه، فقال:

يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟

قال: لأنكم خربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخرب.. قال: صدقت، فكيف القدوم على الله ﷻ؟

قال: أما المحسن، فكالغائب يُقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، فبكى سليمان، وقال: ليت شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟

قال: أعرض نفسك على كتاب الله ﷻ، فإنك تعلم ما لك عند الله.

قال: يا أبا حازم وأنّى أصيب ذلك؟

قال: عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

فقال سليمان: وأين رحمة الله؟

قال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال: ما تقول فيما نحن فيه؟

قال: اعفني من هذا.

قال سليمان: بل نصيحة تلقيها إليّ.

قال أبو حازم: إنَّ آباءك غصبوا الناس هذا الأمر فأخذوه عنوة بالسيف من غير مشورة من المسلمين ولا اجتماع من رأيهم، فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا، ثم

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/٨٤، ٨٥).

ارتحلوا عنها، فليت شعري ما قالوا، وما قيل لهم؟ فقال بعض جلسائه: بئس ما قلت يا شيخ.

قال أبو حازم: كذبت، إن الله تعالى أخذ على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

قال سليمان: يا أبا حازم، اصحبنا ونصحبك، تُصب منَّا، ونصب منك.

قال: أعوذ بالله من ذلك.

تأمل هذا الحوار، وتأمل تلك العبارة الأخيرة، فإنها تدل على شجاعة هذا العالم الرباني العظيم.

٣- وهذا هو التابعي الجليل «الحسن البصري» - رحمه الله تعالى - يضربُ المثل الأعلى في الشجاعة، وكان لا يخشى في الله لومة لائم.. تأمل تلك الشجاعة..

عندما دعاه عمر بن هُبيرة هو وعامر بن شُرحبيل المعروف بـ «الشعبي» وقال لهما: «إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك قد استخلفه الله على عباده، وأوجب طاعته على الناس، وقد ولاني ما ترون من أمر العراق، ثم زادني فولاني فارس وهو يرسل إليَّ أحيانًا كتبًا يأمرني فيها بإنفاذ ما لا أطمئن إلى عدالته، فهل تجدان لي مخرجًا في الدين؟».

فأجاب الشعبي جوابًا فيه ملاطفة للخليفة، ومسايرة للوالي، والحسن ساكت.. فالتفت عمر بن هُبيرة إلى الحسن وقال: وما تقول أنت يا أبا سعيد؟

فقال: يا ابن هبيرة، خف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله، واعلم أنَّ الله ﷻ يمنعك من يزيد، وأن يزيد لا يمنعك من الله.

يا ابن هُبيرة، إنه يوشك أن ينزل بك ملك غليظ شديد، لا يعصي الله ما أمره، فيزيلك عن سريرك هذا، وينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك حيث لا تجد هناك يزيد، وإنما تجد عملك الذي خالفت فيه يزيد..

يا ابن هبيرة، إنك إن تك مع الله تعالى، وفي طاعته يكفك بائقة يزيد في الدنيا وفي الآخرة.. وإن تك مع يزيد في معصية الله فإن الله تعالى يكلك إلى يزيد.. واعلم أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. فبكى عمر..

فتأمل هذه الشجاعة، وهذا الثبات في الحق.. بل لقد بلغت شجاعته وثباته أنه وقف

في وجه جبار من الجبابرة الطاغين الظالمين، وهو الحجاج بن يوسف الثقفي السفاح، فماذا حدث..

٤- لما بنى الحجاج لنفسه قصرًا عظيمًا وشيده في مدينة البصرة، نادى على الناس أن يخرجوا كي يتفرجوا عليه، ويدعون له بالبركة، واجتمعت الجموع، فقام الحسن البصري منتهزًا الفرصة.. قام في شجاعة وثبات قائلاً:

«لقد نظرنا فيما ابتنى أخبث الأخبثين، فوجدنا أن فرعون اللعين شيَّد أعظم مما شيَّد، وبنى أعلى مما بنى، ثم أهلك الله فرعون، وأتى على ما بنى وشيَّد، ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه، وأنَّ أهل الأرض قد غروه..»

ومضى يتدفق على هذا المنوال، حتى أشفق عليه أحد السامعين من نقمة الحجاج، فقال له: حسبك يا أبا سعيد.. حسبك.

فقال الحسن: لقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم ليبيننه للناس ولا يكتمونه..

ولما بلغ الحجاج ذلك دخل إلى مجلسه، وهو يتميز غيظًا حتى قال لجلسائه: تبًّا لكم وسحقًا.. يقوم عبد من عبيد أهل البصرة، ويقول فينا ما يقول، ثم لا يجد فيكم من يرده أو ينكر عليه! والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء، ثم أمر بالسيف والجلاد فأحضرا، ثم أرسل إلى الحسن بعض شُرطه، وأمرهم أن يأتوه بالحسن، وما هي إلا دقائق معدودة حتى جاء الحسن، فأقبل على الحجاج بشجاعة وثبات، وعليه جلال المؤمن وعزة المسلم، ووقار الداعية، محركًا شفتيه بكلمات ناجى بها ربه، فلما رآه الحجاج هابه أشد الهيبة.. وظل يقول له: ها هنا يا أبا سعيد.. ها هنا ثم ما زال يوسع له، حتى أجلسه بجواره، ودعا بالطيب فطيب له لحيته، وقال له: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد.. وجعل يسأله عن بعض أمور الدين، والحسن يجيبه عن كل مسألة بجنان ثابت، وعلم واسع..

ومواقف الحسن كثيرة... - رحمه الله تعالى - .

٥- وهذا هو سلطان العلماء - الإمام عز الدين بن عبد السلام - ..

قال الشيخ الباجي: طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان أيوب الملك الصالح، في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه

يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته، وأخذ الأمراء يقبلون الأرض بين يديه، فالتفت الشيخ إلى السلطان، وناداه:

يا أيوب ما حجتك عند الله، إذا قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور؟

فقال: هل جرى ذلك؟

فقال: نعم... الحانة الفلانية يُباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعم هذه المملكة..

يناديه هكذا بأعلى صوته، والعساكر واقفون...

فقال: يا سيدي، هذا ما فعلته أنا، ولكنه من زمان أبي..

فقال له: أنت من الذين يقولون: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٢٢]، فأمر السلطان بإبطال تلك الحانة[1].

٦- وهذا هو العالم الجليل «بنان الحمّال» لما رأى أن أحمد بن طولون حاكم مصر في عهده ظلم وطغى وتكبر... فماذا حدث؟

لقد ذهب إليه بشجاعة العلماء وقال له: يا ابن طولون، اتق الله في الرعية، ولا تظلم أحدًا.. فأمر الملك بإيداعه في السجن، ثم أمر بأسد فجوعوه ثلاثة أيام، وأدخلوه على الشيخ في زنزانته، فماذا فعل الشيخ عندما رأى الأسد؟ وماذا فعل الأسد بالشيخ؟

ما خاف الشيخ ولا فزع، وكذلك الأسد لم يفزعه، بل كأنما وُكِّل الأسد بحراسته.. ولما بلغ التقرير إلى ابن طولون وعلم بأن الأسد لم يمسه بسوء، سُئل الشيخ: ماذا كنت تفكر؟ قال: كنت أفكر ساعتها في لعاب الأسد، هل هو نجس أم طاهرٌ فأصلي؟ قيل له: فماذا كان يدور بخاطرك؟ قال: كان يدور بخاطري قول الله تعالى:

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

٧- وهذا هو التابعي الجليل «سالم بن عبد الله بن عمر» كان شجاعًا مهابًا، يأمر

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني.

بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويصدع الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم.

فقد وقف في وجهه الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي عندما دفع إليه رجلاً ليقتله، فقال سالم للرجل: أمسلم أنت؟ قال: نعم، قال: هل صليت اليوم الصبح؟ قال: نعم، فردَّ إلى الحجاج، فرمى بالسيف، فقال: ذكر أنه مسلم، وأنه صلى الصبح، وأن رسول الله ﷺ قال: «**من صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله**»[1]، ولم يفعل ما أمره به الحجاج.



(١) صحيح: رواه مسلم.

المبحث الثاني

خلق الشورى

فما هي الشورى؟

الشورى لغة: اسم للمشاورة، وهي مصدر للفعل شاور، تقول: شاورته في الأمر مشاورة، وشوارًا، إذا طلبت منه المشورة، أي طلبت رأيه، واستخرجت ما عنده وأظهرته.

وفي «المصباح»: هي مصدر بمعنى التشاور، والمشورة، وشاوره في الأمر واستشاره بمعنى واحد... وفلان خير شَيِر: أي يصلح للمشاورة وجمعه شوراء.. والمُشيرة: الإصبع السبابة[(١)].

وقال الراغب في «مفرداته»: المشاروة هي: استخراج الرأي بمراجعة البعض الآخر[(٢)].

أو هي: استنباط الرأي من غيره فيما يعرض له من مشكلات الأمور[(٣)].

مأخوذة من قولهم: شار الدابة، إذا اختبر جريها، عندما تُعرض عليه لشرائها، أو من شار العسل، إذا استخرجه من موضعه، صافيًا نقيًّا من الشوائب.

وسميت المشاورة بذلك لأن بها يستخرج الحق والصواب، كاستخراج حال الدابة من الخير والشر، باختبارها.

---

(١) «المصباح المنير» للفيومي (ص٣٥١، ٣٥٢).

(٢) «المفردات» للراغب (ص٢٧٠).

(٣) السابق.

وفي الاصطلاح:

هي: استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه للتوصل إلى أقرب الأمور للحق.

أو هي: استطلاع رأي الأمة، أو من ينوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بها.

منزلة الشورى في الأخلاق:

والشورى خلقًا من أصول القواعد السياسية الإسلامية، وضرورة من ضروريات قيام الحكومة الإسلامية على العدل والنظام.

والإنسان مدني بفطرته، لا يكاد يستغني عن إخوانه، فإذا عُرض له أمر في حياته، لجأ إلى من هو أكثر خبرة منه.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن مشاورات تاريخية منها: مشاورة فرعون قومه في شأن سيدنا موسى عليه السلام، وكان فرعون قمة الاستبداد والطغيان، قال سبحانه حكاية عنه: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٤ - ٣٧].

فأشاروا عليه بما يوافق هواه من اتهام نبي الله موسى عليه السلام بالسحر، ورأوا أن يغالبوه بسحر مثله، لكن لما كان سيدنا موسى عليه السلام ليس بساحر، وعرف ذلك خبراء السحر من أتباع موسى وغيرهم، آمنوا بموسى عليه السلام، لأنهم رأوا أن ما أتى به من المعجزة التي بهرتهم، أمر خارج عن قوانين سحرهم، فيكون مرسل من عند الله، الذي أيده وصدقه بهذه المعجزة: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٤٥ - ٤٨].

وقد استشارت «بلقيس» ملكة سبأ قومها في شأن نبي الله سليمان عليه السلام، فقالت لقومها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النمل: ٣٢، ٣٣].

فقد عبرت عن المشورة بالفتوى، لكون ذلك حلٌ لما أشكل من الأمر عليها، وقد زادت في التأدب معهم، واستجلاب خواطرهم، ليمحضوها النصح، ويشيروا عليها بالصواب، فقالت: ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ فراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها، لترى ما فيه الأصلح لها ولهم.

وكفار قريش مع أنه لم يكن لهم ملك مطاع، ولا حكومة، فكانوا إذا حزبهم أمرٌ، أو نزل بهم خطب، اجتمعوا في دار الندوة، وتشاوروا فيه ليعملوا ما يتوصلون إليه من رأي صواب، وقول سديد، وقد قص القرآن الكريم طرفًا من مشاوراتهم في دار الندوة حيث اجتمعوا هناك بقيادة أبي جهل، للتخلص من الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ فمنهم من قال: نحبسه، فيدركه ما أدرك الشعراء، ومنهم من قال بنفيه خارج مكة، ولكن ذلك لم يكن موافقًا لهم، بل اتفقوا على قتله ﷺ قال سبحانه:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

لقد خلص إلى الرأي الأثيم الذي دلاّه عليهم إبليس بغرور، وهو الفتك بنبيه ﷺ وتوزيع دمه بين القبائل، حتى لا يستطيع بنو هاشم الأخذ بثأره، وأبرموا أمرهم على ذلك.. ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف: ٨].

الحث على التشاور:

أخي المسلم ... أختي المسلمة...

وحيث كانت الشورى ذات أثر عظيم، فإن القرآن الكريم لم يزل يحض عليها، وألزم الدولة الإسلامية تطبيقها، كما أشار بذلك على نبيه فقال سبحانه: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهذا عام فيمن يلي أمر أمته من بعده.

وقد حث عليها الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ في السُّنة المطهرة فقال ﷺ:

«من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره، فقد خانه»[(١)].

وقال: **«المستشار مؤتمن»**[(٢)].

وقال الحسن: والله ما استشار قوم قط، إلا هُدوا لأفضل ما بحضرهم، ثم تلا[(٣)]: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقد ورد في الأثر المروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - يرفعه: **«أما إنّ الله ورسوله لغنيان عنهما، ولكن جعلها الله تعالى رحمة لأمتي، فمن استشار منهم، لم يعدم راشدًا، ومن تركها لم يعدم غنيًّا»**[(٤)].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد[(٥)].

وقال عمر بن عبد العزيز: إنّ المشورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة، لا يضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم[(٦)].

وقال بعض الحكماء: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه.

وقال بعض الأدباء: ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار[(٧)].

---

(١) حسن: رواه الحاكم والبيهقي في «السنن»، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٦٥٧)، و «صحيح الجامع» (٦٠٦٨)، و«المشكاة» (٢٤٢).

(٢) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٥١٢٨)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٧٤٥)، والترمذي (٢٣٦٩)، و«صحيح الجامع» (٦٧٠٠)، و«الأدب المفرد» (١٩٣).

(٣) صحيح الإسناد: «صحيح الأدب المفرد» للألباني (١٩٥).

(٤) حسن: أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٥٤٣)، وحسنه السيوطي.

(٥) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٣٥٩، ٣٦٠).

(٦) المرجع السابق.

(٧) المرجع السابق.

صفة المستشار:

وتختلف صفة المستشار باختلاف المشورة، فإن كانت في أمر ديني، فلا يكون إلا من أهل العلم والتقوى والصلاح والعدالة.

أما إذا كانت المشورة في أمر من أمور الدنيا سواء كانت اقتصادية، أو سياسية أو حربية، فيُشاور فيها أهل الاختصاص في تلك المجالات ممن عُرفوا بالعقل والنصح والإخلاص..

وقد ذكر **الماوردي** في «أدب الدنيا والدين» صفات للمستشار منها:

١- عقل كامل مع تجربة سالفة:

قال عبد الله بن الحسن لابنه محمد: احذر مشاورة الجاهل، وإن كان ناصحًا، كما تحذر عداوة العاقل إذا كان عدوًا، فإنه يوشك أن يورطك بمشاورته.

وقال بعض الحكماء: من استعان بذوي العقول، فاز بدرك المأمول.

٢- أن يكون ذا دين وتقى:

فإن ذلك عماد كل صلاح، وباب كل نجاح، ومن غلب عليه الدين، فهو مأمون السريرة، موفق العزيمة.

٣- أن يكون ناصحًا ودودًا:

فإن النصح والمودة يصدقان الفكرة، ويمحضان الرأي..

قال بعض الأدباء: مشورة المشفق الحازم ظفر، وغيره خطر.

٤- أن يكون سليم الفكر، من همٍّ قاطع، وغم شاغل.

٥- أن لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه، أو هوى يساعده..

فإذا استكملت هذه الخصال في رجل كان أهلاً للمشورة، ومعدنًا للرأي، فلا تعدل عن استشارته[1]..

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٣٦٠ - ٣٦٢) ط. الريان.

مظاهر خلق الشورى في حياة الرسول ﷺ

أخي الحبيب..

لقد كان رسول الله ﷺ أعقل الناس مع ما كان يتمتع به الرسول ﷺ من التأييد الإلهي، فلم يتركه الله تعالى في أي مسألة من مسائل حياته، فلو ألم به مرض لتلقى الإلهام الإلهي بطريقة العلاج والشفاء، كما حدث في مسألة سحر لُبيد بن الأعصم له، فقد كان ﷺ على ارتباط وثيق بعالم الملكوت..

إذن: فما فائدة استشارته لأصحابه وحاله ما ذُكر من الكمال؟

لقد تعدد إجابات المفسرون في ذلك الأمر:

١- **قالت طائفة منهم**: إنَّ ذلك لتطييب نفوس أصحابه، ورفعًا لأقدارهم وتألفًا على دينهم، وإن كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوحيه.

وقالوا: كانت سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاورهم في الأمر، فإنَّ ذلك أعطف لهم، وأذهب لأضغانهم، وأطيب لنفوسهم، فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم(١).

٢- **وقال الحسن البصري** - رحمه الله - وغيره من السلف: إنَّ ذلك ليستن به من كان بعده..

وقالوا: ما أمر الله نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أمته من بعده(٢).

ويؤيد هذا ما جاء عن **ابن عباس** - رضي الله عنهما - قال:

لما نزلت ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال رسول الله ﷺ :

«أمَّا إن الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤/٢٤٠).

(٢) «تفسير الطبري» (٤/١٥٢).

يُعدم راشدًا، ومن تركها لم يعدم غنيًا»(١).

وقد ذكرت فوائد ووجوه أخرى لاستشارته لأصحابه - رضي الله عنهم - منها:

١- الاستظهار برأيهم ليزداد رأيه ﷺ قوة، إذا وافق رأيهم، وإن خالفوا ترك رأيهم من غير لوم، لاجتهادهم في طلب الحق، وتحري الصواب، وهم مأجورون بذلك، لأن العبرة بما يراه المعصوم ﷺ لا ما رآه غيره، لأن عمله مؤيد بالوحي، فإن حصل له وحيٌ اتبعه، وهناك لا يكون مجال للتشاور، إذ لا اجتهاد عند وجود النص.

٢- ومنها: تعليمه إياهم الاجتهاد، وتشجيعهم عليه، لما يرجِّيه لهم في مستقبل الإسلام، فيوطنهم لذلك لما يشحذ به عقولهم، ويفحص به قرائحهم، وهو بين ظهرانيهم، يهديهم ويسددهم.. فيتأهلون لذلك بعد غيابه عنهم، وقد اطمأنوا لإقرار النبي لهم في حياته.

وهذا كله إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على ما كان عليه الرسول الأعظم ﷺ من كريم الأخلاق، وجميل الصفات، وحسن العشرة مع من كان حوله من المجتمع المسلم، فلم يكن مستبدًا برأيه.. لم يكن دكتاتورًا يُصدر الأحكام، ويوجب الأوامر، لكنه كان عظيمًا في أخلاقه، عظيمًا في كل حياته، ولذا قال له مولاه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومظاهر الشورى في حياته كثيرة ومتعددة، حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيتُ أحدًا قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»(٢). ومن تلك المظاهر والصور ما يلي:

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» وتقدم تخريجه.

(٢) إسناده منقطع: رواه الترمذي في «الجهاد» والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠٩/١٠)، وذكره الحافظ ابن حجر في «الفتح» وقال: رجاله ثقات إلا أنه منقطع.

أولاً: مشاورته لهم يوم بدر:

وكان ذلك في عدة مواضع:

الموضع الأول: الاستشارة في القتال:

لما خرج النبي ﷺ إلى عير قريش والتي كان قائدًا لها أبو سفيان وكانت تحمل ثروات طائلة: ألف بعير موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً.

إنها فرصة ذهبية للمسلمين، ليصيبوا من أهل مكة بضربة اقتصادية قاصمة، تتألم لها قلوبهم على مر العصور، وربما كان ذلك تعويضًا للمهاجرين عما خلفوه في مكة من ديار وأموال.

فندب رسول الله ﷺ الناس للخروج إليها، وأمر من كان ظهره حاضرًا بالنهوض، ولم يحتفل بها احتفالاً بليغًا، لأنه لم يرد القتال، وإنما أراد العير، فخرج مسرعًا في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فقط، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان، وكان معهم سبعون بعيرًا، يتعقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد، فلما بلغ أبا سفيان خروج رسول الله ﷺ إليه استصرخ أهل مكة لنجدته، فنهضوا مسرعين ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب، وحشدوا قبائل العرب من حولهم، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي، فلم يخرج معهم منهم أحد، وخرجوا من ديارهم، كما قال سبحانه: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَـآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وأقبلوا بجدِّهم وحديدهم يُحادون الله ورسوله.

فلما علم الرسول الأعظم والنبي الأكرم ﷺ خروج القوم واستعدادهم للحرب والقتال، ولم يكن يقصد القتال، وإنما قصد العير، ولم يدر أنه سيواجه جيشًا كثيفًا، أكثر من ثلاثة أضعاف ما معه، حيث كان بين التسعمائة والألف، كما جاء في «البخاري»:

«إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «المغازي - باب قصة غزوة بدر».

فماذا يفعل رسول الله؟! إنه لو نزل المعركة دون أن يستشير ما كان عليه لوم، فهو المعصوم.. لكنه استشار أصحابه في مواجهة هذا الموقف..

فقام أبو بكر الصديق ﷺ وقال خيرًا، وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فنحن معك، ووالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «برك الغماد» لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه[١].

فسُرَّ النبي ﷺ بذلك ودعى له بخير، غير أنه لم يقنعه كلام المهاجرين لأن قتالهم معه أمر لا يشك فيه، فقد باعوا أنفسهم لله، وخرجوا من ديارهم وأموالهم فرارًا بعقيدتهم، ونصرة نبيهم، وقد كانوا قلة، لكن الأنصار كانوا أكثر فأراد النبي أن يتعرف على رأيهم فقال: **«أشيروا عليَّ أيها الناس»** ففطن إلى ذلك قائد الأنصار، وحامل لوائهم سعد بن معاذ ﷺ فقال: والله كأنك تريدنا يا رسول الله؟

فقال: **«أجل»** فقال له سعد: لقد آمنَّا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنَّا لصبرٌ في الحرب، صُدّق في اللقاء، ولعل الله يريك منَّا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد بن معاذ، ونشطه ذلك، ثم قال:

«سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»[٢].

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وابن هشام في «السيرة» (١٩٣/٢)، وابن الأثير في «أُسد الغابة» (٤/ ١٨٤). وبرك الغماد: وراء مكة بخمس ليالٍ مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن.

(٢) «مختصر سيرة الرسول» لابن عبد الوهاب (ص١١٢)، و«زاد المعاد» لابن القيم (١٥٣/٣)، و«سيرة ابن هشام» (١٩٤/٢)، و«أُسد الغابة» لابن الأثير (٣١٦/٢)، و «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير (ص١٢٨)، و«تاريخ ابن خلدون» (٤٢٤/٢)، و«إمتاع الأسماع» للمقريزي (ص٨١- ٨٣).

الموضع الثاني: الاستشارة في المكان:

أي المنزل الذي سينزل به القوم لمحاربة الكفار والمشركين، وتحرك الجيش الإسلامي حتى وصل إلى أدنى ماء من مياه بدر، فقام الحُباب بن المنذر كخبير عسكري، وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله تعالى، ليس لنا أن نتقدمه، أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**».

قال: يا رسول الله، فإنَّ هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغور ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضًا، فنملؤه ماء، ثم نقاتل، فنشرب ولا يشربون، فقال ﷺ: «**لقد أشرت بالرأي**»[1].

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش، حتى أتى أقرب ماء من العدو، فنزل عليه شطر الليل، ثم صنعوا الحياض، وغوروا ما عداها من القُلُب.

وهكذا نفذ الحبيب المصطفى ﷺ هذه المشورة الصادقة، التي اتخذها من رأي هذا الصحابي ذي العقل الحصيف، والرأي السديد، لأنه رأى أن المصلحة كل المصلحة في ذلك، فالماء عنصر من أهم عناصر الحياة، وخاصة في القتال، وفي هذا الجو الصحراوي القائظ، ولا أدل على مبلغ أهميته من عظيم امتنان الله تعالى على المسلمين بإنزال الغيث عليهم في هذه المعركة الكبرى، حيث قال سبحانه:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال: ١١].

والدليل على أن المشركين اغتاظوا من هذه الفكرة العظيمة، وهذا التخطيط السديد،

---

(١) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٦٧/٣) عن ابن عباس، وفيها الكلبي وهو متهم، وذكرها في «الفصول في السيرة» (١١٢/١)، وابن القيم في «زاد المعاد» وكلها من رواية ابن إسحاق في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣٦/٣)، بإسناد فيه جهالة ووصلها الحاكم في «المستدرك» (٤٨٢/٣) برقم (٥٨٠٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٧٤/١٣) برقم (١٨٦٣٣).

ما قاله الأسود بن عبد الأسود المخزومي: أعاهد الله، لأشربنَّ من حوضهم، أو لأهدمنَّه، أو لأموتن دونه، فشدَّ حتى دنا منه، فاستقبله حمزة ﷺ فأطنَّ قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض فوقع على ظهره، تشخب رجله دمًا، ثم حبا إلى الحوض، حتى اقتحم فيه يريد أن يبر قسمه، لكن حمزة ﷺ تابع عليه بضربات أخرى حتى قتله في الحوض، وكان ذلك إيذانًا ببدء المعركة.

الموضع الثالث: كان في شأن الأسرى:

ولما تم النصر لأهل الإيمان على أهل الكفر والطغيان، وانجلت المعركة أسفرت عن قتل سبعين فضلاً عن الغنائم الكثيرة، وأسر سبعين رجلاً منهم، فأراد النبي ﷺ أن يستشير ذوي الرأي والعقل من أصحابه الكرام..

فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة، والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم، فيكونوا لنا عضدًا.

ثم قال رسول الله ﷺ لعمر: «**ما ترى يا ابن الخطاب؟**».

فأجابه قائلاً: لا والله يا رسول الله، ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان – قريب لعمر – فأضرب عنقه، وتمكن عليًّا من عقيل بن أبي طالب، فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه، فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين.

فهوى رسول الله ﷺ ما قاله أبو بكر، ولم يهو ما قال عمر، وأخذ منهم الفداء، رأفة ورحمة بهم وبأهلهم.

يقول عمر: فلما كان من الغد، غدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عرض على أصحابك من**

أخذهم الفداء، لقد عُرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة»(١). وكانت شجرة قريبة من رسول الله، وأنزل الله قوله ﷻ:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

والكتاب الذي سبق من الله، هو قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد:٤].

وفي رواية أنه ﷺ استشار عبد الله بن رواحة، فقال: يا رسول الله، انظر واديًا كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم نارًا، وفي رواية أن رسول الله ﷺ دخل ولم يرد عليهم شيئًا.. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر.. وقال آخرون: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج رسول الله ﷺ عليهم فقال: **«إنّ الله ليلين قلوب رجال فيه، حتى تكون ألين من اللين، وإنّ الله ليشد قلوب رجال فيه، حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر، كمثل إبراهيم عليه السلام قال:**

﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] **ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال:** ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١١٨].

وإنّ مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦] **وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال:** ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ » [يونس: ٨٨].

ثم قال: «**أنتم عالة فلا ينفلتن منهم أحدٌ إلا بفداء أو ضربة عنق...**»(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم والترمذي وأبو داود وابن حبان.

(٢) حسن: رواه أحمد في «مسنده» بهذا السياق عن ابن مسعود وأخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» [كتاب المغازى ٧٦/٨ - باب غزوة بدر] برقم (٣٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى- كتاب قسم الفيء» (٩/ ٤٨٢) برقم (١٣١١٦).

وهكذا كانت غزوة بدر الكبرى، تلك المعركة التي نصر الله فيها الحق على الباطل، وأذل الله بها الكفر وأهله، وأعز بها الإسلام والمسلمين.

ثانيًا: مشاورته أصحابه يوم أُحُد:

لقد شاورهم النبي ﷺ في يوم أُحد في شأن الخروج لملاقاة الكفرة والجاحدين، وبين أن يمكث في المدينة ويقاتلهم فيها.

وقد رأى رسول الله ﷺ قبل أُحد رؤيا أفزعته، ورؤيا الأنبياء حق، فقد رأى أن معه سيف، فهزه فانقطع صدره، ثم هزه هزة أخرى فعاد أحسن ما كان، ويقول: «**وإني رأيت والله خيرًا، رأيت بقرًا**» وأول هزة سيفه الأولى بما أصاب المؤمنين يوم أُحد والأخرى بما جاء به الله من الفتح، وأول البقر برجال يتناطحون يوم أُحد[1].

وما لبث أن علم بمقدم المشركين إلى أُحد، فاستشار أصحابه في ملاقاتهم قائلاً لهم: «**إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا، أقاموا بشر مقام، وإنهم إن دخلوا علينا، قاتلناهم فيها**»[2].

وكان رأي عبد الله بن أُبي ابن سلول مع رأي رسول الله ﷺ فقد قال له: هذا هو الرأي، وقال: يا رسول الله، أقم بالمدينة، لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍ لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

غير أنَّ من لم يشهد غزوة بدر - خاصة الشباب - لم يزالوا يشيرون على رسول الله ﷺ بالخروج قائلين: كنَّا نتمنى هذا اليوم، وقد ساقه الله تعالى إلينا، وقرب المسير، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته ولبس لامته - أي درعه - ثم خرج عليهم، وقد ندم هؤلاء الصحب، وقالوا: استكرهنا رسول الله ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد يا رسول الله،

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٢) «سيرة ابن هشام» (١٤٩/٣)، والقصة رواها أحمد في «مسنده» والحاكم (١٢٨/٢)، وصححها ووافقه الذهبي وابن كثير في «البداية والنهاية» (١١/٤) من حديث ابن عباس وجابر.

فقال ﷺ : «ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يُقاتل»[1]. لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ثالثًا: مشاورته أصحابه يوم الأحزاب:

يوم تحزب الأحزاب على المدينة، وجمعت جموع الشرك والوثنية أمرهم، يريدون أن يستئصلوا شأفة المسلمين، وأن يقضوا على الإسلام والمسلمين وكان حال المسلمين، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

فشاور النبي ﷺ أصحابه الكرام: أيبرز من المدينة، أم يكون فيها ويخندق عليها، أم يكون قريبًا والجبل وراءهم؟

فأشار سلمان الفارسي ﷺ بفكرة الخندق، فأعجبت رسول الله هذه الفكرة، وأخذ رسول الله برأي سلمان، فركب فرسًا له، ومعه عدد من المهاجرين والأنصار، فحددوا المكان الذي سيكون فيه الخندق، فتبادر المسلمون في العمل، وقد استعاروا من بني قريظة آلات كثيرة كالفؤوس والمجارف ونحوها، واستمروا في حفره مدة ستة أيام، وحفر معهم الحبيب المصطفى ﷺ فكان يحمل التراب معهم، وكان التراب يواري بياض بطنه، وفي رواية: شعر صدره، وهو يرتجز برجز عبد الله بن رواحة:

والله لــــولا أنـــت مـــا اهتديــــنا ... ولا تصـــــــدقنا ولا صـــــــلينا

فــــأنزلن ســـكينة عليـــــنا ... وثبــــت الأقـــدام إن لاقيــــنا

إن الألى قـــد بغـــوا عليــــنا ... وإن أرادوا فتـــــنة أبيــــنا

وفي «سنن الترمذي» من حديث سهل بن سعد، فيمر بنا رسول الله ﷺ وهو يقول: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة**».

وفي بعض الروايات أن المهاجرين والأنصار كانوا يقولون: نحن الذين بايعوا محمدًا

---

(١) انظر السابق.

على الجهاد ما بقينا أبدًا.. حتى أتموا حفر الخندق.

وظل المسلمون بعد حفر الخندق شهرًا كاملاً، حتى زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، فماذا يفعل رسول الله ﷺ؟!

لقد استشار أصحابه - رضوان الله عليهم - تخطيطًا لمجابهة الأمر الراهن، وانقاذًا لما رآه.. فماذا حدث؟

قال أبو هريرة ﷺ جاء الحارث الغطفاني إلى رسول الله، فقال: يا محمد، شاطرنا ثمر المدينة، فقال: «**حتى أستأمر السعود**» فبعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد ابن الربيع، وسعد بن خيثمة، وسعد بن مسعود، فقال: «**إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وإن الحارث سألكم أن تشاطروه ثمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوه عامكم هذا حتى آمركم بعد؟**».

فقالوا: يا رسول الله، أوحيٌ من السماء، فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك وهواك، فرأينا تبعًا لهواك ورأيك؟ فإنْ كنت تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منَّا ثمرة إلا شراء أو قرىً، فقال رسول الله ﷺ يخاطب الحارث الغطفاني:

«**هو ذا، تسمعون ما يقولون....**»(١).

وبذلك استطاع الرسول ﷺ أن ينقذ الجيش الإسلامي، وأن يَصُد أعداء الله، ويبعث الأمل في قلوب اليهود والأحزاب، وأرسل الرسول ﷺ برقيته العاجلة إلى من خلق الكون كله، فقال:

«**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب...**»(٢). وقد سمع الله تعالى دعاء نبيه، فدبت الفرقة في صفوف المشركين، وسرى بينهم التخاذل وأرسل الله عليهم جنودًا من الريح، فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لها قدرًا إلا وقد كفأتها، ولا خيمة إلا قلعتها، ولا نارًا مضطرمة إلا أطفأتها.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٥٤٠٩).

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وابن حبان وابن ماجه.

رابعًا: مشاورته يوم الحديبية:

لما خرج النبي ﷺ عام الحديبية، في بضع عشر مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة، قلد الهدي، وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عينًا له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى بغدير الأشطاط، أتاه عينه.. قال: إنَّ قريشًا جمعوا لك جموعًا وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك.

ماذا يفعل رسول الله ﷺ وقتها؟

لقد جمع الناس وخطب فيهم قائلاً: «**أشيروا عليّ أيها الناس، أترون أن أميل إلى عيالهم، وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا، كان الله ﷻ قد قطع عينًا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين**»(١).

قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت، لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه..

قال: «**امضوا على اسم الله**».

خامسًا: مشاورة أم المؤمنين أم سلمة - رضي الله عنها -:

وتأمل كيف أنقذت مشاورة امرأة أُمة، وأخذ الرسول بما أشارت عليه، لما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب - الذي فيه شروط الصلح - مع سهيل بن عمرو قام رسول الله إلى أصحابه، فقال لهم: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**»(٢).

قال عمر: فوالله ما قام منهم أحد، حتى قال رسول الله ذلك ثلاث مرات.. فلمَّا لم يقم منهم أحدٌ دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس.. فماذا حدث؟

لقد أشارت عليه أم سلمة - رضي الله عنها - بقولها: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج لا تكلم أحدًا منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك، فيحلقك، فأخذ الرسول ﷺ برأيها ومشورتها، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا

(١) صحيح: البخاري وأحمد والنسائي والبيهقي في «السنن» وعبد الرزاق في «مصنفه».

(٢) صحيح: رواه البخاري وأبو داود وأحمد والبيهقي والطبراني.

حالقه، فحلقه، فلما رأوا ذلك، قاموا فنحروا وجعل بعضهم يلحق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا[(١)].

وبهذه المشورة الصادقة المخلصة نجا أصحاب رسول الله ﷺ من غضب الله عليهم بسبب عصيانهم لأمر الرسول الأعظم ﷺ.

سادسًا: مشاورته في حادثة الإفك:

وقد شاور أصحابه الكرام في تلك الشائعة التي أشاعها وروج لها المنافقون ومن خُدع بهم، في شأن السيدة الطاهرة العفيفة الصديقة بنت الصديق، عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - .

لما كثر القيل والقال في شأنها، أراد أن يستأنس بآراء أصحابه - رضوان الله عليهم - حول ما دار في هذا الشأن، فشاور عليًّا، وأسامة، وبريرة مولاتها.. ففي «البخاري» من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت:

«ودعا رسول الله ﷺ عليًّا بن أبي طالب، وأسامة بن زيد- رضي الله عنهما - حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله.

قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال: أهلك، ولا نعلم إلا خيرًا..

وأما عليٌّ فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك.. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: **«أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟»**.

فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيتُ عليها أمرًا قط أغمصه، غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.....»[(٢)].

وسرعان ما ظهرت آثار بركة المشاورة هذه، إذ لم يلبث رسول الله ﷺ حتى

(١) صحيح: رواه البخاري وأحمد والبيهقي في «السنن الكبرى»، والطبراني في «الكبير».

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو يعلى.

استوثق في نفسه براءة أهله، فقام من يومه خطيبًا فقال:

«أمَّا بعد، فأشيروا عليّ في أناس أَبَنُوا أهلي - أي ذكروهم بسوء- **وايم الله، ما علمت على أهلي من سوء قط، وأَبَنُوهم بِمَنْ؟ والله ما علمت عليه من سوء قط، ولا دخل بيتي قط إلا وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلا وغاب معي....»**.

ثم لم يمكث إلا قليلاً، حتى نزلت براءها من فوق سبع سموات في عشر آيات من آيات الله البينات من سورة النور من قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النور: ١١- ٢٠].

سابعًا: مشاورته بريرة في شأن مغيث:

ففي «البخاري» أن السيدة عائشة - رضي الله عنها - أرادت أن تشتري أمة تسمى بريرة، فأبى مواليها، إلا أن يشترطوا الولاء، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال لها: **«اشتريها واعتقيها، فإنما الولاء لمن أعتق»**.

فاشترتها عائشة - رضي الله عنها - وأعتقتها، وكان لها زوج عبدًا، فخُيِّرت بين زوجها، لأنه صار من حقها أن تختار ، إما أن تبقى تحت زوجها الذي هو دونها في الحرية، وإما أن تختار الفراق، فاختارت الطلاق، وكان زوجها مغيث يحبها حبًّا شديدًا، كان يمشي وراءها في سكك المدينة، يبكي، فلما رآه رسول الله ﷺ على هذه الحال، قال لعمه العباس ﷺ: **«يا عباس، ألا تعجب من حُب مغيث بريرة، وبغض بريرة مغيثًا»**.

ثم قال لها: **«يا بريرة، لو راجعتيه...»**.

قالت: يا رسول الله، أتأمر؟

قال: **«إنما أنا أشفع»**[١].

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري في «كتاب الطلاق»، والبيهقي في «سننه الكبرى» [كتاب النكاح - باب الأمة تعتق وزوجها عبد] برقم (١٤٦٠٥).

فتأمل رحمك الله قولها: أتأمر، أم تشفع؟ أتأمر يا رسول الله، فلا يحق لي أن أخالف أمرك، أم تشفع، فأرى رأيي؟ فلما علمت من الرسول أنه يشفع لمغيث، قالت: لا حاجة لي فيه..

سبحان الله! أمة تفهم أن هناك فرقًا بين الأمر والشفاعة، أو الشورى...

أمةٌ تعلم بأنه لو كان أمرًا ما وسعها إلا تنفيذه، دون إبطاء أو تسويف حتى لو كان هذا ضد رغبة في نفسها.

لكنها لما علمت أن النبي العادل، والرسول الأعظم يشاورها في شأن رجوع مغيث إليها، وأنه يشفع له، رفضت ذلك..

أخي الحبيب:

ومن خلال هذه النماذج الحية، وسواها كثير، تعلم أن الشورى كانت قاعدة من قواعد حياته ﷺ السياسية والعسكرية والاجتماعية والأسرية، وقد طبقها على نحو لم يشهد لمثله التاريخ مثيلاً، طبقها تطبيقًا لم يفعله عظيم من العظماء مع أنه كان غنيًّا عنها بالوحي الإلهي، والفطنة والعقل ولكن ذلك ليكون قدوة لأصحابه، بل ولأمته كلها، فلا يحيدون عنها في جميع شئون حياتهم وشئونهم.

من مشاورات أصحاب رسول الله ﷺ :

١- فعن عمرو بن شعيب قال: كتب أهل منبج، ومن وراء بحر عدن إلى عمر بن الخطاب ﷺ يعرضون عليه أن يدخلوا بتجارتهم أرض العرب، ولهم العشور منها، فشاور عمر في ذلك أصحاب النبي ﷺ وأجمعوا على ذلك فهو أول من أخذ منهم العشور.

٢- وعن معقل بن يسار أن عمر بن الخطاب ﷺ شاور الهرمزان وكان قد أسلم وحسن إسلامه في فارس وأصبهان، وأذربيجان فقال له: أصبهان الرأس، وفارس وأذربيجان الجناحان، فإن قطعت أحد الجناحين مال الرأس بالجناح الآخر، وإن قطعت الرأس،

وقع الجناحان، فابدأ بالرأس...»[١].

٣- وقد شاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ في الحدود وغيرها ففي «السنن الكبرى» للبيهقي: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ؓ فقال: يا أمير المؤمنين، إني غبت عن امرأتي سنتين، فجئت وهي حبلى، فشاور عمر ؓ أناسًا في رجمها، فقال معاذ بن جبل ؓ: يا أمير المؤمنين، إن كان لك عليها سبيل، فليس لك على ما في بطنها سبيل، فاتركها حتى تضع، فتركها فولدت غلامًا قد خرجت ثنيتاه، فعرف الرجل الشبه فيه، فقال الرجل: ابني ورب الكعبة.

فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ، لولا معاذ لهلك عمر[٢].

قال البيهقي: وهذا إن ثبت ففيه دلالة على أن الحمل يبقى أكثر من سنتين.

٤- وأُتي لعمر بن الخطاب ؓ بامرأة جهدها العطش، فمرت على راع، فاستسقت، فأبى أن يسقيها، إلا أن تمكنه من نفسها، ففعلت، فشاور الناس في رجمها، فقال عليٌّ ؓ: هذه مضطرة، أرى أن تُخلي سبيلها، ففعل[٣].

٥- وشاورهم في شارب الخمر، كما في حديث أنس ؓ أن النبي ﷺ كان يضرب في الخمر بالنعال والجريد أربعين، وأبو بكر ضرب أربعين، فلما ولى عمر الخلافة، سئل عن ذلك، فشاورهم، فقال ابن عوف ؓ: أرى أن تضربه ثمانين، فضربه ثمانين[٤].

٦- وعن عمرة قالت: استب رجلان على عهد عمر بن الخطاب، فقال أحدهما: ما أمي بزانية، ولا أبي بزان، فشاور عمر القوم في ذلك، فقالوا: مدح أباه وأمه، فقال: لقد كان لهما من المدح غير هذا، فضربه أي على سبيل التعزيز لا الحد[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/٢٢) «كتاب التاريخ».

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه الكبرى» (١١/٤٢٩) [كتاب العدد - باب ما جاء في أكثر الحمل] برقم (١٥٩٧٤).

(٣) أخرجه البيهقي في «سننه الكبرى» (١٢/٤٦٧) [كتاب الحدود- باب من زنى بامرأة مستكرهة] برقم (١٧٥٢٦).

(٤) رواه مسلم والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٨٠٢٤) [كتاب الأشربة].

(٥) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٣/٢٠٩) في [الحدود والديات] (٣٧٦).

٧- وطلب عمر بن الخطاب من علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - أن يتزوج ابنته أم كلثوم، فشاور عليٌ في هذا الأمر، ففي «الطبراني» من حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال: دعا عمر رضي الله عنه عليًا بن أبي طالب رضي الله عنه فساره، ثم قام عليٌ فجاء الصُفة، فوجد العباس، وعقيلاً والحسين، فشاورهم في تزويج أم كلثوم عمر، فغضبت عقيل، ورفض هذا الأمر.. [1].

وهذا قليل من كثير، فالمقام هنا لا يتسع لسرد مشاورات الصحابة - رضوان الله عليهم - .



(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/٤٤) برقم (٢٦٢٣).

المبحث الثالث

خُلق العدل

والعــدل أنــت وضعت ثابت ركنه
ومضــى عــلى ســنن لــك الخلفاء
وإذا قضــيت فــلا ارتــياب كأنمــا
جــاء الخصــوم مــن الســماء قضاء

لا تظــلمن إذا مــا كنــت مقــتدرًا
فالظــلم آخــره يأتــيك بالــندم
تــنام عيــناك والمظلــوم منتــبه
يدعــو عليــك وعــين الله لم تــنم



خلق العدل

فما هو العدل؟

العدل في اللغة:

مصدر عدل يعدل عدلاً، وهو خلاف الجور.

والعدل: الحكم بالحق، قال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق: ٢].

وقال سعيد بن المسيب: ذوي عقل.

ويقال: عدل في الحكم: لم يجر فيه، وعدل عليه في القضية: أنصفه، وعدل عن الحق: أي جار.. وعدل عن الشيء: حاد عنه.

وعدل إليه: أي رجع.

وهو بمعنى المساواة، يُقال فلان يعدل فلانًا: أي يساويه..

وفي الاصطلاح:

عرفه **الجرجاني**؛ فقال: هو الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط[(١)].

وقال الجاحظ: العدل هو القسط اللازم للاستواء... وقال: هو استعمال الأمور في مواضعها، وأوقاتها، ووجوهها ومقاديرها من غير سرف، ولا تقصير، ولا تقديم، ولا تأخير[(٢)].

وقال المناوي: هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله ﷺ لا الحكم بالرّأي المجرد[(٣)].

وقال الفيروزآبادي: العدل هو القسط على سواء، وعلى هذا روى: بالعدل قامت

---

(١) «التعريفات» للجُرجاني (ص١٥٣).

(٢) «تهذيب الأخلاق» (ص٢٨) للجاحظ.

(٣) «فتح القدير» (١/٤٨٠).

السموات والأرض[١].

وعرف ابن مسكويه العدل: بأنه فضيلة للنفس، تحدث من اجتماع الفضائل الثلاث: الحكمة والعفة والشجاعة، وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض، واستسلامها للقوة المميزة، حتى لا تتغالب، ولا تتحرك نحو مطالبها على سوم طبائعها، ويحدث للإنسان بها سمة يختار بها أبدًا الأنصاف من نفسه على نفسه أولاً، ثم الإنصاف والانتصاف من غيره وله[٢].

منزلة هذا الخلق العظيم:

هذا الخلق المبارك طريق موصل إلى الجنة في الآخرة، ورضا الرب تبارك وتعالى قبل رضا الخلق عن العادل، وصاحبه آمن في دنياه وأخراه..

والعدل اسم من أسماء الله تعالى، وصفة من صفاته العلا، ومن أراد أن يفهم وصفه تعالى بالعدل، فينبغي له أن يحيط بأفعال الله تعالى، من ملكوت السموات والأرض، إلى منتهى الثرى.. حتى إذا لم يجد في خلق الرحمن من تفاوت، ثم رجع إليه بصره، فما رأى من فطور، ثم رجع مرة أخرى فانقلب إليه البصر خاسئًا وهو حسير، وقد بهره جمال ما رأى، وحيّرهُ اعتداله وانتظامه، فعند ذلك يعبق بفهمه شيء من معاني عدله سبحانه..

ولينظر الإنسان إلى بدنه، فإنه مركب من أعضاء مختلفة، فقد ركبه من العظم واللحم والجلد، وجعل العظم عمادًا مستبطنًا، واللحم صوانًا له، مكتنفًا إياه، وكذلك جعل الجلد صوانًا للحم، فماذا لو عَكس هذا الترتيب.. لاختل العدل[٣].

العدل من أخلاق القرآن الكريم:

والعدل من أخلاق القرآن الكريم، وقد عبر القرآن الكريم عنه بكلمات ثلاث هي: العدل – والقسط – والميزان.

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي.

(٢) «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه.

(٣) بتصرف واختصار من «المقصد الأسنى» للغزالي (ص٩٨، ٩٩).

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

فقد نادى على أهل الإيمان بنداء الكرامة: يا من آمنتم بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا ورسولاً، التزموا بالعدل في أموركم صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها.. لما يترتب على العدل من صلاح الدين والدنيا، للفرد والمجتمع.

وقد أكد الله سبحانه هذه الأوامر، كما في قوله سبحانه وتعالى لنبينا محمد ﷺ:

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقد أمر به ونهى عن ضده في قوله جل في علاه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال سبحانه مبينًا نعمة من أجل نعمه على عباده: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

العدل من أخلاق الأنبياء والمرسلين:

فقد خاطب الله تعالى به نبيه داود عليه السلام، فقال: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦].

يقول ابن كثير - رحمه الله - :

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه، فيضلوا عن سبيله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد، والعذاب الشديد.

قال الوليد بن عبد الملك لأبي زرعة، وكان قد قرأ الكتاب الأول والقرآن: أيحاسب

الخليفة؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله تعالى أم داود عليه السلام؟ إنّ الله جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده إن لم يحكم بالحق والعدل[١]، فقال له: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

وقد روى لنا سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين شيئًا من عدل داود، فقال ﷺ: «**بينما امرأتان معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئب، فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى، فخرجتا، فدعاهما سليمان عليه السلام فقال: هاتوا السكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: يرحمك الله، هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى**»[٢].

وقال مخاطبًا حبيبه ومصطفاه ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: ١٠٥].

نزلت الآية في رجل من الأنصار يُقال له: أبيرق، وقد سرق منه درع من حديد بيد رجل يهودي.

وقال عن قوم موسى عليه السلام: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

وما ذاك إلا لأن الله تعالى يحب العادلين، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ وقد تكرر ذكر هذه الجملة في القرآن ثلاث مرات [المائدة: ٢٤، والحجرات: ٩، والممتحنة: ٨]، وهذا ترغيب عظيم في التخلق بهذا الخلق الرفيع، لأنه يكسب العبد محبة الله تعالى له، وأي مزية ينالها العبد أعظم من أن يكون محبوبًا له سبحانه وتعالى، لأنه إن نال ذلك فقد نال خيري الدنيا والآخرة، لما يترتب على محبة الله تعالى من جزيل الإكرام والإنعام والأمان.

مجالات العدل:

والعدل مطلوب في كل الأمور، كما ذكرنا في الأقوال والأفعال، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

---

(١) «تفسير ابن كثير».

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن حبان وأحمد والبيهقي في «السنن».

فقد أمر الله بالعدل في الفعال والمقال، على القريب والبعيد، ومع هذا العموم الشامل لجميع صور العدل كما ذكرنا في الآيات السابقة، إلا أن الله ﷻ قد خص بعض أفراد هذا العموم، وصوره بالذكر، لما يترتب عليها من حقوق، ولما ينبني عليها - أي العدل فيها - من صلاح تلك الصور، واستقامة أمرها، وحفظ كل ذي حق حقه منها:

١- العدل في الكتابة، قال تعالى: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] لما في الكتابة بالعدل من تحري الحق، ومن فقد العدالة ففيها ضياع الحق.

٢- العدل في إملاء المملي لمن يكتب له، ما يريد كتابته له، أو لوليه، قال تعالى: ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وذلك لما يترتب على الإملاء بالعدل من كتابة العدل والحق، ومن عدم ذلك من الخيانة، وإضاعة الحقوق.

٣- العدل في الولاية على اليتامى، قال سبحانه: ﴿ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [النساء: ١٢٧] أي بالعدل.

٤- العدل في الكيل والميزان، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٥- العدل بين الزوجات، لأنه سبحانه علم ضعف عباده عن الوفاء به لدقته، وعظيم خطره، فأرشدهم فقال: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء: ٣]، وقال أيضًا في بيان خطره ودقته: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ [النساء: ١٢٩].

٦- العدل في الصلح بين المتنازعين من طائفتين أو فردين، فقد ناطه الله تعالى بالعدل حيث قال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ ﴾ [الحجرات: ٩].

٧- العدل في الشهادة: وتكون عن النساء المطلقات وهن في العدة، قال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق: ٢].

وتكون في الشهادة على الوصية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٦].

ويأمر القرآن الكريم كذلك بالعدل في تقدير الجزاء المطلوب شرعًا في حالة اعتداء الحاج على الصيد، وهو محرم، فيقول سبحانه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة: ٩٥].

وهكذا رأيت أخي الحبيب أن القرآن الكريم دعا إلى الاستمساك بالعدل في شتى مناحي الحياة، فهي دعوة شاملة واسعة النطاق.

وإذا كان العدل هو وضع الأمور في نصابها، وإعطاء كل ذي حق حقه فإن القرآن الكريم حذر من الظلم، الذي هو وضع الشيء في غير موضعه ونفاه أولاً عن نفسه، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وحذر منه فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٦٥].

فاحذر الظلم وتجنبه، فإن عاقبته وخيمة أليمة.

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلم آخره يأتيك بالندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم



مظاهر العدل في حياة الرسول ﷺ

كان سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين المثل الأعلى في العدل كان عادلاً مع أصحابه، عادلاً مع زوجاته، عادلاً حتى مع أعدائه، مع كل من حوله، كأن العدل غريزة متأصلة في شخصيته ﷺ وها نحن نلتقط صورًا من صور عدله ﷺ لنوقظ بهما الغفلان، ونعظ بها من كان مسئولاً في هذا المجتمع، ونعلي بها الهمم، ومنها:

١- اشتراكه ﷺ في حلف تعاهد أصحابه على أن يقاموا الظلم، وينصفوا المظلومين.. إنه حلف الفضول.

وقد شهد هذا الحلف قبل البعثة بعشرين عامًا، حتى قال عنه ﷺ: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حُمر النَّعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**»[(١)].

٢- ويتجلى عدله مع أهل بيته، بل مع أقرب الناس إليه، وأحبهم له ويتضح ذلك جليًّا حين سرقت امرأة مخزومية، فأحزن قريش شأنها قالوا: ومن يُكلم فيها رسول الله ﷺ؟ ومن يجترئ إلا أسامة بن زيد - الحب ابن الحب - ؟ فلما كلمه أسامة ﷺ ماذا حدث؟

لقد غضب النبي العادل، والرسول الفاضل ﷺ وقال له: «**أتشفع في حد من حدود الله؟!**» ثم قام يخطب، وكان مما قال: «**إنما هلك من كان قبلكم، لأنهم إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، وإن سرق فيهم الشريف تركوه، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطع محمد يدها**»[(٢)].

وحاشا لله أن تسرق فاطمة بنت الحبيب..

٣- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا،

---

(١) صحيح رواه الحاكم وصححه (٢/٢٣٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٣٧٣)، وأحمد في «مسنده» وأبو يعلى.

(٢) صحيح رواه البخاري وابن ماجه والحاكم وابن أبي شيبة في «مصنفه».

فأتاه رجل يسمى «ذو الخويصرة» وهو من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل.

فقال رسول الله ﷺ: **«ويلك ومن يعدل إن لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل..»**.

فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي أن أضرب عنقه.

فقال ﷺ: **«دعه، فإن له أصحابًا، يحقر أحدكم صلاته مع صلاقم وصيامه مع صيامهم...»**[(١)].

ومن يعدل إذا لم يعدل رسول الله وحبيبه ﷺ؟!

٤- وفي رواية أن رسول الله ﷺ أعطى يوم حنين «الأقرع بن حابس» مائة من الإبل، فقام رجلٌ، فقال: والله إن هذه قسمة ما عُدل فيها، وما أريد بها وجه الله.

فقال ﷺ: **«فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟!»**[(٢)].

٥- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم قسمًا، أقبل رجل، فأكبَّ عليه - أي التزمه - فطعنه رسول الله ﷺ بعرجون - عود أصفر فيه شماريخ عذق النخل - كان معه فجرح بوجهه، فقال رسول الله ﷺ: **«تعال، فاستقد»** أي اقتص مني، فقال الرجل: بل عفوت يا رسول الله[(٣)].

٦- وفي يوم بدر حين كان يُعدل صفوف المسلمين، وكان في يده قدح، يُعدل به القوم، فمرَّ بسواد بن غُزيّة - حليف بني عديّ بن النجار - وهو متقدم عن الصف، فطعنه الحبيب المصطفى في بطنه بالقدح، وقال له: **«استو يا سواد»** فقال: يا رسول الله، وجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني منك يا رسول الله... فماذا حدث؟

لقد كشف النبي العادل عن بطنه، وقال: **«استقد»** أي اقتص مني، لكن سواد قَبّل بطن الرسول الأعظم، فقال رسول الله: **«ما حملك على هذا يا سواد؟»**.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في «المناقب» ومسلم في «الزكاة»، وسعيد بن منصور في «سننه»، والنسائي في «السنن الكبرى».

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وابن حبان وأبو يعلى والطبراني.

(٣) صحيح: «صحيح سنن أبي داود» للألباني (٤٥٣٦)، و«صحيح سنن النسائي».

قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ ودعا له بخير[(١)].

٧- وبعد غزوة حنين قال قائل لرسول الله ﷺ: أعطيت عُيينة مائة بعير، والأقرع بن حابس مائة بعير، وتركت جُعيل بن سراقة، فقال رسول الله ﷺ: «**أما والذي نفس محمد بيده، لجُعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض، كلهم مثل عُيينة والأقرع، ولكني تألفتهما، ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه**»[(٢)].

أي كانوا حديثي عهد بالإسلام، فتألفهم بهذه الأموال، ليدخلوا في الإسلام.. صلوات ربي وتسليماته عليك يا رسول الله.

٨- بعد أن انتهى رسول الله ﷺ من غزوة حنين، وذهب يقسم الغنائم التي حصل الجيش الإسلامي عليها، فقسم الرسول ﷺ الغنائم، فأعطى المهاجرين وغيرهم، ولم يعط الأنصار شيئًا..

فقالت الأنصار: إذا كانت شدة فنحن نُدعى، ويعطى الغنيمة غيرنا؟!

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجمعهم، وخطب فيهم يقول:

«**يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وموجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟**».

قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل.

قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم، ولصُدِّقتكم، أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فواسيناك! أوجدتم يا معشر الأنصار في لُعاعة من الدنيا، تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟**

ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟

(١) ذكره ابن إسحاق في «السيرة» (٣/٨٣)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/٢٧١)، وابن الأثير في «أُسد الغابة» (٢/٤٠٠).

(٢) ذكره ابن إسحاق في «السيرة النبوية» (٤/١١٠)، وابن الأثير في «أُسد الغابة» (١/٣٢٤).

فوالذي نفسي بيده، لولا الهجرة لكنت امرىء من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا(١).

٩- وتأمل عدالته مع زوجاته - رضي الله عنهن - تقول السّيدة عائشة - رضي الله عنها - كان النبي ﷺ ما من يوم إلا وهو يطوف علينا جميعًا امرأة امرأة، فيدنو ويلمس من غير مسيس، حتى يُفضى إلى التي هو يومها، فيبيت عندها(٢).

وعنها - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ يُقسم بين نسائه، فيعدل، قال عفان: ويقول: «**هذه قسمتي**» ثم يقول: «**اللهمّ هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»(٣). وكان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها(٤).

١٠- وتأمل عدل الحبيب المصطفى ﷺ حين قدم عليه حارثة بن شرحبيل، وأخوه كعب يطلبان زيد بن حارثة، الذي اختطف وهو ابن ثمان سنوات، ثم بيع عبدًا بالشام، فاشتراه حكيم بن حزام ﷺ، ولما قدم به مكة وهبه لعمته خديجة بنت خويلد - أم المؤمنين رضي الله عنها - فأهدته للنبي ﷺ ولما علم أبوه أنه في مكة عند محمد ﷺ قدما إليه يطلبان فكاكه، وفداءه من الرق وقالا له: يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومك، أنتم جيران الله، تفكون العاني، وتطعمون الجائع، وقد جئناكم في ابننا عبدك، لتحسن إلينا في فدائه.. فماذا فعل النبي العادل ﷺ ؟

لقد قال: «**أو غير ذلك؟**».

فقالا: وما هو؟

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن حبان والدارمي وأحمد والحاكم.

(٢) حسن صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٧٩)، وفي «صحيح سنن أبي داود» برقم (٢١٣٥)، ورواه أحمد في «مسنده».

(٣) ضعيف: ضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» والترمذي والنسائي.

(٤) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢١٣٨)، وابن ماجه (١٩٧٠)، و«صحيح الجامع» (٤٦٦١).

قال: «**ادعوه، وأخيره، فإن اختاركما فذاك، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدًا**».

قالا: لقد زدتَ على النَّصفِ[١].. فدعاه رسول الله ﷺ فلما جاء قال: «**من هذان؟**» قال: هذا أبي حارثة بن شرحبيل، وهذا عمي كعب بن شرحبيل، فقال النبي ﷺ: «**لقد خيَّرتُك، إن شئت ذهبت معهما، وإن شئت أقمت معي**».

فقال: بل أقيم وأبقى معك يا رسول الله..

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله.. هكذا عامَلَ القوم، حتى شهدوا بعدله وإنصافه، عن خبرة وتجربة، لا عن سماعٍ وأخبار..

ولذلك لما اختار زيد رسول الله ﷺ على أبيه قالا له: أتختار العبودية والرق على الحرية، وعلى أبيك وأهل بيتك؟

قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئًا، فما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا، فلما رأى الرسول ﷺ منه ذلك، أخرجه إلى الحجر، ونادى قائلاً: «**يا من حضر، اشهدوا أن زيدًا ابني، يرثني وأرثه**» ولم يكن التبني قد حُرِّم بعد.. فلما رأى ذلك أبوه وعمه، طابت نفوسهما[٢].

١١- ولم يكن هذا حاله وخُلُقه ﷺ فحسب، بل كان عدله منذ بزوغ شمس أنواره على هذه البسيطة، وقد شهد بذلك مرضعته حليمة السعدية تقول: لقد أعطيته ثديي الأيمن، فأقبل عليه بما شاء من لبن فحولته إلى الأيسر، فأبى - أي رفض - وكانت تلك حاله بعد.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وكأنَّ الله ﷻ أعلمك أن لك شريكًا فألهمك العدل حتى في رضاعتك..

١٢- ومن عدله ﷺ أنه كان يُقدم رضا مولاه على هوى نفسه فكانت ترغب نفسه في

(١) النَّصف: أي العدل والإنصاف.

(٢) ذكره ابن سعد في «الطبقات» (٢٨/٣)، والقرطبي في «التفسير»، وابن الأثير في «أُسد الغابة» (٢/ ٢٣٩)، وابن حجر في «الإصابة» (٥٦٣/١)، و«سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٢٨٧/١).

الشيء وهواه، غير أنه لم يُؤذن له فيه، فلا يتجاوز ما علمه عن الله تعالى إلى ما يهواه، لما هاجر إلى المدينة ظل متوجهًا في صلاته سبعة عشر شهرًا نحو بيت المقدس، مع أنه كان يتطلع ويهوى أن يتوجه إلى بيت الله الحرام، ولكن هواه ذلك لم يوافق إرادة الله ﷻ والحكمة أرادها، قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] وأيضًا لتأليف قلوب من جاوره في المدينة من اليهود، وظل هذه المدة حتى أكرمه الله بما كان يهوى ويحب، فأمره بالتوجه نحو البيت الحرام بقوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

١٣- كان النبي ﷺ عند إحدى أمهات المؤمنين فأرسلت أخرى بقصعة فيها طعام، فضربت يد الرسول، فسقطت القصعة فانكسرت، فأخذ النبي ﷺ الكسرتين، فضم إحداهما إلى الأخرى فجعل يجمع فيها الطعام، ويقول: «**غارت أمكم.. كلوا ...**» فأكلوا، فأمسك حتى جاءت بقصعتها التي في بيتها، فدفع القصعة الصحيحة إلى الرسول، وترك المكسورة في بيت التي كسرتها[1].

وفي رواية للنسائي من حديث عائشة قالت: ما رأيت صانعة طعام مثل صفية، أهدتْ إلى النبي ﷺ إناءً فيه طعامٌ.. تقول: فما ملكت نفسي أن كسرته..

فسألت النبي عن كفارته: فقال: «**إناء كإناء وطعام كطعام**»[2].

١٤- ومن عدله ﷺ ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - عن الفضل قال: جاءني رسول الله ﷺ فخرجت إليه، فوجدته موعوكًا، قد عصب رأسه، فقال: «**خذ بيدي يا فضل**» فأخذت بيده حتى انتهى إلى المنبر، فجلس عليه، ثم قال: «**صح في الناس**» أي ناد فيهم - فصحت في الناس، فاجتمعوا إليه، فحمد الله ﷻ، وأثنى عليه، ثم قال:

«**يا أيها الناس، إنه قد دنى مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهرًا**

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٥٦٧)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٣٤).
(٢) صحيح: «صحيح سنن النسائي» للألباني (٣٩٥٥)، و«المشكاة» (٢٩٤٠).

فهذا ظهري، فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا، فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالاً، فهذا مالي فليستقد منه، ولا يقولن رجل إني أخشى الشحناء من قبل رسول الله، ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتي ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إليَّ من أخذ حقًا إن كان، أو حللني فلقيت الله، وأنا طيب النفس» فقام رجلٌ وقال: يا رسول الله، إن لي عندك ثلاثة دراهم، قال: **«أما إنا لا نكذب أحدًا، ولا نستحلفه، فيم صارت لك عندي؟»** قال: تذكر يوم أنْ مرَّ بك مسكين، فأمرتني أن أدفعها إليه؟! قال: **«ادفعها إليه يا فضل»**(١).

وفي رواية لأبي يعلى: **«من كنت أصبت من عرضه، أو من شعره، أو من بشره، أو من ماله شيئًا، فهذا عرض محمدٍ وشعره، وبشره وماله، فليقم، فليقتص....»**(٢).

فتأمل أخي الحبيب مدى حرصه أن يلقي ربه، وليس لأحد عنده مظلمة، بأبي هو وأمي ﷺ فيقوم رجل يُطالبه بثلاثة دراهم، لم يأخذها الرسول لنفسه، وإنما أخذها فأعطاها لفقير أو مسكين محتاج إليها...

١٥- وتأمل عدله ﷺ يوم أن خرج إلى أول قتال مسلح بينه وبين الفئة الكافرة - يوم بدر الكبرى - قال ابن مسعود ﷺ: كانوا يوم بدر بين كل ثلاثة نفر بعيرٌ، وكان زميل النبي ﷺ عليٌّ بن أبي طالب، وأبو لبابة، فكان إذا جاء دور النبي في المشيء قالا له: اركبْ حتى نمشي عنك، فماذا كان يقول النبي ﷺ؟

لقد كان يرفض، ويقول لهم: **«ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما»**(٣).

ما أراد رسول الله ﷺ أن يظلمهما في الركوب على الدابة، وما ذاك إلا لحرصه الشديد على العدل.

---

(١) ضعيف: ضعفه الألباني في «فقه السيرة» (٤٦٤)، وقد رواه الطبراني في «الكبير» (٧١٨)، و«الأوسط» (٢٦٥٠).

(٢) رواه أبو يعلى (٦٨٢٤)، وفيه عطاء بن مسلم صدوق يخطئ، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٨٠٤٣).

(٣) حسن: حسنه الألباني في «فقه السيرة» وفي «الصحيحة» برقم (٢٢٥٧)، و«المشكاة» (٣٩١٥)، ورواه أحمد في «مسنده».

١٦- وتأمل عدله في القضية التي حكم فيها ﷺ فقد دخلت ناقة للبراء بن عازب ﷺ حائطًا، فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها[١]... صلوات ربي وتسليماته عليك يا رسول الله.

١٧- ولما جاءه بشير أبو النعمان وقد وهب للنعمان ابنه هبة، وقالت له أمه عمرة بنت رواحة: أشهد عليها رسول الله ﷺ فلما ذهب به إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله، إنَّ أم هذا الغلام، سألتني أن أهب له هبةً، فوهبتها له، فقالت: أشهد عليها رسول الله، فأتيتك لأشهدك، فقال ﷺ: «**رويدك، ألك ولد غيره؟**».

قال: نعم.. قال: «**كلهم أعطيته مثل ما أعطيته؟**».

قال: لا، قال: «**فلا تُشهدني إذًا فإني لا أشهد على جور، وإن لبنيك عليك من الحق، أن تعدل بينهم**»[٢].

فمن عدله الذي لا نظير له، أنه سأله قبل أن يشهد هل أعطيت سائر ولدك هبة، أو عطية مثل النعمان؟ فأجاب بشير ﷺ بـــ «لا» فرفض رسول الله الشهادة على العطية، ثم أمره بالعدل بين أولاده.

١٨- وفي حديث ابن مالك الأشجعي لما خرج في غزوة مؤتة مع زيد بن حارثة وغيره من الأصحاب، وكان معه رجل من اليمن، ليس معه غير سيفه، فنحر رجل من المسلمين جزورًا، فسأله الرجل المددي[٣] اليمني طائفة من جلد هذا البعير، فأعطاه إياه، فاتخذه كهيئة الدَّرق - أي كهيئة الجرة التي لها عروة - ومضينا فلقينا جموع الروم، وفيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وسلاح مُذهب، فجعل الرومي يغري المسلمين، فقعد له اليمني خلف صخرة، فمرّ به الرومي، فعرقب فرسه - أي ضربه - فسقط، فعلاه، فقتله، وحاز فرسه وسلاحه، فلما فتح الله للمسلمين،

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه ومالك في «الموطأ» وابن حبان وأحمد والبيهقي في «الكبرى».

(٢) صحيح: رواه أحمد واللفظ له، ورواه البخاري ومسلم والنسائي.

(٣) المددي: أي الذي جاء مددًا للجيش الإسلامي.

بعث إليه خالد بن الوليد، فأخذ منه السلب[1].

قال عوف: فأتيته، فقلت: يا خالد، أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل؟! قال: بلى، ولكني استكثرته، قلت: لتردنه إليه، أو لأعرفناكها عند رسول الله ﷺ فأبى خالد أن يرد سلب الرجل المددي اليمني.

قال عوف: فاجتمعا عند رسول الله ﷺ فقصصت عليه قصة المددي وما فعله خالد، فقال رسول الله: **«يا خالد، ردَّ عليه ما أخذته منه..»**[2].

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله..



(١) السلب: بفتح السين واللام، هي ثياب القتيل وما عليه من درع ونحوه.

(٢) صحيح: رواه مسلم وأبو داود.

حضه ﷺ على العدل ونهيه عن الظلم

ولقد حث النبي العادل ﷺ على العدل، ونهى عن الظلم حتى في أقواله ومن ذلك:

١- جعل العدل من الأمور التي تنجي صاحبها يوم القيامة، فقال: «**ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات: فأمَّا المنجيات: فالعدل في الرضا والغضب، وخشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى...**»[(١)].

٢- بينما يحذر من الظلم، لأنه يوبق صاحبه، ويكون وبالاً عليه فيقول: «**إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»[(٢)].

٣- وبيَّن مكانة أهل العدل يوم القيامة، فقال: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين عرش الرحمن ﷻ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم**»[(٣)].

٤- وقال: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب، لكل ذي قربى، ومسلم عفيف متعفف، ذو عيال**»[(٤)].

٥- وقال: «**ما من أمير عشرة، إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً، حتى يفكه العدل، أو يوبقه الجور**»[(٥)].

٦- سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «**إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ (أو ألحن) من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها، أو ليتركها**»[(٦)].

---

(١) صحيح: «صحيح سنن أبي داود» (٢٧١٩) للألباني، ورواه البيهقي في «الشعب»، والطبراني في «الأوسط».

(٢) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (٨٥٨)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٣٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد والنسائي عن عبد الله بن عمر، والألباني في «صحيح الجامع» (١٩٥٣)، و«المشكاة» (٣٦٩٠) للألباني، و«صحيح الترغيب» (١٩٥٠).

(٤) صحيح: رواه مسلم وابن حبان وأحمد وعبد الرزاق والبيهقي في «الشعب»، و«السنن الكبرى».

(٥) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» والدارمي في «سننه» وأبو يعلى وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٧١).

(٦) صحيح: رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ومالك في «الموطأ».

٧- كما أمر الإنسان بالعدل مع نفسه، فإذا انقطع شراك إحدى نعليه، خلع الأخرى، قال: **«لينعلهما معًا، أو ليحفهما معًا»**(١).

٨- وبيَّن الرسول ﷺ أن الله تعالى يبغض أربعة أصناف من الناس منهم الإمام الجائر الظالم، الذي لا يعدل فقال: **«أربعة يبغضهم الله تعالى: البياع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر»**(٢).

٩- وقال: **«أشد الناس عذابًا يوم القيامة إمام جائر»**(٣).

١٠- وبيَّن للأمة أن الإمام الظالم لن تنالهُ شفاعة الحبيب المصطفى ﷺ يوم القيامة فقال: **«صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وكل غالٍ مارق»**(٤).

١١- وكان النبي ﷺ يستعيذ من الظلم، فيقول: **«اللهم إني أعوذ بك أن أزل أو أُزل، أو أضل أو أُضل، أو أجهل أو يُجهل عليّ، أو أظلم أو أُظلم»**.

١٢- ونفى أن يكون الظلم خلقًا بين المسلمين، فقال: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يُسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله يوم القيامة»**.

١٣- ونفى الله تعالى الظلم عن نفسه، فقال سبحانه: **«يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا»**.

١٤- وحذرنا من دعوة المظلوم، فقال ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: **«اتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»**.

١٥- وجعل من الدعوات التي لا ترد دعوة المظلوم والإمام العادل، فقال: **«ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»**.

---

(١) صحيح: رواه مالك في «الموطأ» وأحمد في «المسند» وابن حبان في «صحيحه».

(٢) صحيح: رواه البيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة والنسائي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٩٣).

(٣) حسن: رواه أبو يعلى والطبراني وأبو نعيم في «الحلية»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠١٢).

(٤) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٩٢)، و«الصحيحة» (٤٧٠).

رجال تخرجوا في مدرسة العدل المحمدية

ولقد تأسى أصحاب النبي العادل ﷺ به في خُلُقِ العدل، بعدما تعلموه نظريًّا وتطبيقيًّا في مدرسة العدل المحمدية، فتخلقوا به في حياتهم وحتى مماتهم، ومن أولئك:

١- الصدِّيق العادل - أبو بكر الصديق - :

فرضي الله عنه وأرضاه، فقد عاش العدل مع أحب الناس إليه رسول العدل ﷺ وسار على نهجه ودربه ﷺ حتى مات... فوصفه علي بن أبي طالب ﷺ قائلاً:

«لم يكن لأحد فيك مهمز، ولا لقائل فيك مغمز، ولا فيك طمع، ولا عندك هوادة لأحد، الضعيف الذليل عندك قوي، حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ذليل، حتى يؤخذ منه الحق، والقريب والبعيد في ذلك سواء»(١).

فمن عدله ﷺ أنه سوى بين رعيته في العطاء، وقسمة المال، واعتبر أن سابقة بعضهم في الخيرات، إنما يثاب عليها في الآخرة عند الله..

تقول عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – : «قسم أبي أول عام (الفِيء) (٢)، فأعطى الحُرَّ عشرة، والعبد المملوك عشرة، والمرأة عشرة، وأمتها عشرة، ثم قسم في العام الثاني، فأعطاهم عشرين عشرين»(٣).

وعنها – رضي الله عنها – قالت:

«إنَّ أبا بكر حين حضرته الوفاة قال: انظروا، ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي، فإني كنت أستحله..».

وفي رواية: استصلحه جهدي، وكنتُ أصيب من الودك نحوًا مما كنت أصيب في التجارة..

---

(١) حسن: «مجمع الزوائد» للهيثمي (٩/٤٨).

(٢) الفيء: هو المال الذي حصل للمسلمين من الكفار بلا قتال ولا إيجاف خيل.

(٣)حسن لغيره: أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/١٩٣).

قالت عائشة - رضي الله عنها -: فلما مات نظرنا، فإذا عبدٌ نوبيٌّ، كان يحمل صبيانه، وإذا ناضح[1] كان يسقي بستانًا له، فبعثنا بهما إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: رحمة الله على أبي بكر، لقد أتعب من بعده تعبًا شديدًا[2].

٢- بعدل عمر يُضرب المثل:

عمر بن الخطاب ﷺ يُضرب به المثل في العدل.. فقد كان يقول: «ويلٌ لديان الأرض من ديان السماء يوم يلقونه، إلا من أمر بالعدل، فقضى بالحق، ولم يقض عن هوى، ولا على قرابة، ولا على رغبة ولا رهب، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه»[3].

وكان يقول: إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم، من كان غنيًّا فليستعفف، ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف[4].

إنه يتلقى هدية من الحلوى ذات يوم، ولا تكاد توضع بين يديه، حتى يسأل الرسول الذي جاء يحملها: ما هذا؟

قال: حلوى صنعت في أذربيجان، وقد أرسلني بها إليك عتبة بن فرقد - وكان واليًا على أذربيجان - فذاقها عمر، فوجد لها مذاقًا شهيًّا، فعاد يسأل الرسول: أكُل المسلمين هناك يطعمون هذا؟

قال الرجل: لا... إنما هو طعام الخاصة.

فقال عمر للرجل: أين بعيرك؟ خذ جملك هذا، وارجع به لعتبة، وقل له: عمر يقول لك: اتق الله، واشبع المسلمين مما تشبع منه[5].

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: اشتريت إبلاً، وارتجعتها إلى الحمى فلما سمنت، قدمتُ بها، قال: فدخل عمر بن الخطاب ﷺ السوق فرأى إبلاً سمانًا، فقال

(١) ناضح: الجمل الذي كان يحمل عليه قرب الماء للشرب.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (١٩٢/٣).

(٣) صحيح: صححه الألباني في « مختصر العلو » (ص١٠٣).

(٤) صحيح: أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٢٧٦/٣)، وابن أبي شيبة (٧١٠/٢).

(٥) صحيح: أخرجه ابن سعد.

لمن هذه؟

قيل: لعبد الله بن عمر.. قال: فجعل يقول: يا عبد الله بن عمر، بخ بخ، ابن أمير المؤمنين، قال: فجئته أسعى، فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟

قال: ما هذه الإبل؟ قلت: إبلٌ أنضاء - أي كانت هزيلة فاشتريتها وبعثت بها إلى الحمى، أبتغي ما يبتغي المسلمون.

قال: فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين! يا عبد الله بن عمر، اغد على رأس مالك، واجعل باقيه في بيت مال المسلمين(١).

ولما أرسل قيصر الروم رسولاً إلى عمر بن الخطاب، لينظر أحواله ويشاهد أفعاله، فلما دخل المدينة، سأل أهلها، وقال: أين ملككم؟

فقالوا: ما لنا ملك، بل لنا أمير، قد خرج إلى ظاهر المدينة، فخرج في طلبه، فرآه نائمًا في الشمس على الأرض، فوق الرمال الحارة، وقد وضع يده تحت رأسه كالوسادة، والعرق يتساقط من جبينه، فلما رآه على هذه الحال، وقع الخشوع في قلبه، حتى قال: عدلت، فأمنت، فنمت يا عمر أشهد أن دينك هو الدين الحق، ولولا أني أتيت رسولاً لأسلمت، ولكني أعود، لأسلم.

وعن عبد الله بن أرقم ﷺ قال: أُتي عمر بابن له يُحمل، يُقال له: عبد الرحمن فقال: يا أبتاه، هب لي خاتمًا، فقال: اذهب إلى أمك تسقيك سويقًا، وما أعطاه شيئًا(٢).

وقدم بريد ملك الروم على عمر بن الخطاب ﷺ فاستقرضت امرأة عمر دينارًا، فاشترت به عطرًا، وجعلته في قوارير، وبعثت به مع البريد إلى امرأة ملك الروم، فلما أتاها فرّغتهن وملأتهن جواهرًا، وقالت: اذهب به إلى امرأة عمر بن الخطاب..

فلما أتاها، فرغتهن على البساط، فدخل عمر، فقال: ما هذا؟ فأخبرته الخبر، فأخذ عمر الجواهر، فباعها، ودفع إلى امرأته دينارًا، وجعل ما بقى من ذلك في بيت مال

(١) صحيح: «سيرة ومناقب عمر» لابن الجوزي.

(٢) صحيح: أخرجه ابن عساكر وابن أبي الدنيا في «الأشراف» (١٩٦).

المسلمين[١].

لله درك يا أمير المؤمنين، ما أعدلك؟ وما أنصفك للمظلوم!

فمن يباري أبا حفص وسيرته ... أو من يحاول للفاروق تشبيها

٣- علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

رضى الله عن أبي الحسن، فقد كان يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، وكانت حظوظه مع نفسه في طهرها وعدلها، وتقاها رابية ووافية، وكان عدله سامقًا يبقى على مر الزمان منارًا لذوي الرشد والنهي، وكان ولاؤه للعدل ولاء مطبوعًا.

فعن علي بن الأرقم عن أبيه قال: رأيتُ عليًّا وهو يبيع سيفًا له في السوق ويقول: من يشتري مني هذا السيف، فوالذي فلق الحبة لطالما كشفت به عن وجه رسول الله ﷺ ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته[٢].

ولله در أبي الأسود الدؤلي حيث قال في عدل عليٍّ:

يقيم الحق ولا يرتاب فيه ... ويعدل في العدى والأقربينا

٤- عبد الله بن رواحة:

كان رسول الله ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر، فيخرص بينه وبين يهود، فجمعوا حليًّا من نسائهم، فقالوا: هذا لك وخفّف عنا، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، والرشوة سحت..

فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض[٣].

٥- معاوية بن أبي سفيان:

ترجم له الذهبي بقوله: أمير المؤمنين ملك الإسلام معاوية بن أبي سفيان أعدل الملوك

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٢/٢٧٧، ٢٨٧).
(٢) صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/١٥٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٨٣).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١/٢٣٧).

وأحلمهم[١].

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: ما رأيت أحدًا بعد عثمان أقضى بحق من معاوية.

وقال عنه السيوطي في «تاريخ الخلفاء»: كان من خيار ملوك بني أمية، وكان مؤثرًا للعدل محبًّا للغزو.

٦- عمر بن عبد العزيز:

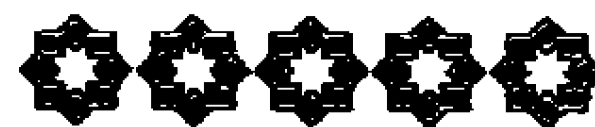
قال سفيان الثوري: أئمة العدل خمسة: أبو بكر وعمر، وعثمان وعلي، وعمر بن عبد العزيز.

وقال عمر لجلسائه: «من صحبني منكم، فليصحبني بخمس خصال: يدلني من العدل إلى ما لا أهتدي له، ويكون لي على الخير عونًا، ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ولا يغتاب عندي أحدٌ، ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس، فإذا كان كذلك فحيَّ هلا به، وإلا فهو خرج من صحبتي...»[٢].

وقال مالك بن دينار - رحمه الله - : لما ولي عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - الخلافة، قالت رعاة الشاء في زروة الجبال: من هذا الخليفة الصالح، الذي قد قام على الناس؟

فقيل لهم: وما علمكم بذلك؟

قالوا: إنا إذا قام على الناس خليفة صالح عادل، كفَّت الأسد عن شأننا[٣].



(١) المرجع السابق.

(٢) «سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي (ص٧٣). دار الكتب العلمية. بيروت.

(٣) «سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي (ص٨٧).

المبحث الرابع

خُلق الحكمة

ما هي الحكمة؟

الحكمة لغة: مصدر قولهم: حكُم أي صار حكيمًا وهو مأخوذ من مادة (ح ك م) التي تدل على المنع.

ومن هذا الأصل أُخذ (الحُكْمُ) في معنى المنع من الظلم.

وحكمة اللجام: لأنها تمنع الدابة عما لا يريده صاحبها.. والحكمة تمنع صاحبها من الجهل..

والحكيم: العالم.. وصاحب الحكمة، والمتقن للأمور.. وقد حَكُم أي صار حكيمًا.. وقد عُرف لقمان عليه السلام بالحكيم.. ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾.

وفي «المفردات» **للراغب:** الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل.

ويختلف معنى الحكمة باختلاف من يتصف بها، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء، وإيجادها على غاية الإحكام.

ومن الإنسان: معرفة الموجودات، وفعل الخيرات[1]..

واصطلاحًا:

١- **عند المفسرين:** الحكمة معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، وهو التكاليف الشرعية.

٢- **وعند المحدثين:** قال ابن حجر: اختلف في المراد بالحكمة، فقيل: **الإصابة في القول..**

---

(١) انظر: «المفردات» للراغب (ص١٢٦)، و«لسان العرب» لابن منظور (٩٥١) ط. دار المعارف.

وقيل: الفهم عن الله.

وقيل: ما يشهد العقل بصحته.. وقيل: سرعة الجواب بالصواب.

٣- **وعند أهل السلوك:** هي معرفة آفات النفس، والشيطان، والرياضيات.

منزلة هذا الخُلُق بين الأخلاق:

وهذا الخلق الكريم من أعظم الأخلاق وأجلها، وأرفعها، وكفى به شرفًا وفضلاً أن يتصف به الحكيم الخبير جل في علاه، وقد ورد ذكر هذا الاسم في القرآن الكريم، في حوالي أربع وتسعون مرة لفظ «حكيم»، وكفى الحكمة شرفًا وفضلاً أن الله تعالى يهبها لمن شاء من عباده، قال تعالى:

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد ذكر علماء التفسير أن الحكمة في القرآن الكريم على ستة أوجه:

١- **الموعظة:** ومنه قوله تعالى: ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝ ﴾ [القمر: ٥].

٢- **السُنَّة:** ومنه قوله جل في علاه: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

٣- **الفهم:** ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان: ١٢].

٤- **النبوة:** ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠].

٥- **الدليل القاطع:** ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ [النحل: ١٢٥].

٦- **علوم القرآن:** ومنه قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٩٦].

أخي الحبيب:

ورسولك محمد ﷺ قد أعطى تلك المعاني كلها، فقد أعطى الموعظة الحسنة، والسنة

المطهرة، كما في قوله ﷺ: **«ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه»**[1]، وأعطى النبوة، بل كان خاتم الأنبياء والمرسلين، وأعطى الفهم الصحيح والعلم كله، وما سوف نوضحه هنا، ونتناوله بالتفصيل هي حكمة الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى، وحسن تصرفه، وحسن سياسته مع من حوله ﷺ، فهيا بنا لنقتطف زهرات مباركات من سيرته ﷺ توجهنا إلى حكمته الرشيدة، وتصرفاته الواعية..



(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وصححه

مظاهر خُلق الحكمة في حياة الرسول ﷺ

أخي الحبيب:

ومن حكمة الرسول الأعظم ﷺ أنه عرف الناس، وعرف ميولهم تجاه الدعوة الإسلامية، فرأى أن منهم من يطلب الحكمة والمعرفة الحقة، ويبحث عنها، ومنهم من تغلب عليه المخاصمة والمشاغبة فهؤلاء يحتاجون إلى الجدال والحكمة.. قال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

والنوع الثالث وهم الواسطة، وهم الذين ظلوا على الفطرة الأصيلة والسلامة الخلقية، والحديث مع هؤلاء لا يكون إلا بالموعظة الحسنة، وهي الخطابات المقنعة، والعبر النافعة..

النوع الأول: وهم الباحثون عن الحقيقة..

١- عندما نزل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ﴾ [النور: ٥٨].

استغرب بعض الصحابة هذا الاستئذان على القرابة القريبة، فأخذ النبي يُعلم أصحابه بالحكمة، لما جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أستأذن على أمي؟ فقال: «**نعم**» فقال الرجل: إني معها في البيت؟ فقال رسول الله ﷺ: «**استأذن عليها**».

فقال الرجل: يا رسول الله، إني خادمها؟

فقال ﷺ: «**استأذن عليها، أتحب أن تراها عارية؟**».

قال: لا، قال: «**فاستأذن عليها**»[1].

إنه أسلوب حكيم استطاع به النبي ﷺ أن يقنع صاحبه..

---

(١) صحيح رواه مالك في «الموطأ» والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥٣) وصححه الألباني.

٢- وبمثل هذا الأسلوب البليغ أقنع هذا الشاب الذي أتى إليه، ودماء الشهوة تفور في عروقة، وهو يقول له: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا.

فأقبل عليه القوم يزجرونه، فماذا يفعل الرسول الحكيم تجاه هذا الشاب؟ وماذا يفعل مع القوم الذين هموا به زجرًا؟

قال لهم: «**ادنه مني**»، فدنا منه قريبًا، وجلس أمام الرسول ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**أتحبه لأمك؟**».

قال: لا والله، جعلني الله فداك.

فقال النبي ﷺ: «**كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم**»، ثم قال: «**أتحبه لأختك؟**».

فقال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك.. لا أحبه.

فقال: «**كذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم، أتحبه لعمتك؟**».

قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك.. لا أحبه.

قال: «**كذلك الناس لا يحبونه لعماتهم، أترضاه لخالتك؟**».

قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك.. لا أحبه، ولا أرضاه.

قال: «**كذلك الناس، لا يحبونه لخالاتهم**». ثم وضع يده على صدره، ثم قال: «**اللهمَّ اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه**»(١). فلم يكن شيء بعد ذلك أبغض إليه من الزنا.

لقد عالج النبي ﷺ الموقف بحكمة ولطف، وأقنع الشاب بأسلوب قياسي حكيم، فهل رأيت مربيًا فاضلاً، ومعلمًا حكيمًا يقنع إنسانًا بهذه السهولة، وفي هذا الوقت القصير، إلا من اصطفاه الله، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم، وهو أعظم مربي، وأكرم رسول سيدنا محمد ﷺ .. سيدي يا رسول الله.

الحق أنت وأنت إشراق الهدى ۞ ولك الكتاب الخالد الصفحات

من يقصد الدنيا بغيرك يلقها ۞ تيهًا من الأهوال والظلمات

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» والبيهقي في «الشعب» والطبراني في «الكبير»، والهيثمي في «المجمع» وعزاه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

لمـا أراد الله جـل جلالـه أن يخـرج الدنـيا مـن العـثرات
أهـداك ربـك للـورى يـا سـيدي فيضًـا مـن الخـيرات والـنفحات

٣- وبهذا الإقناع العجيب، والحكمة البالغة عالج جهل الأعرابي الذي لم يفرق بين الصحراء التي يعيش فيها الكلاب والوحوش، وبين بيت الله الذي تُقام فيه الشعائر والصلوات، وذلك حين دخل أعرابي، ووقف يبول في جانب من مسجد الرسول ﷺ فقام الصحب الكرام ليزجروه، ويمنعوه، بل ويعاقبوه على هذه الفعلة الشنيعة، فعالج الموقف قائلاً: «**لا تزرموه**» – أي لا تقطعوا عليه بولته- فتركوه حتى بال وانتهى، فدعاه المعلم الأكرم، والنبي الأعظم ﷺ ليعلمه، ويرشده بالحكمة، فقال:

«**إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله تعالى، وقراءة القرآن، والصلاة**» ثم أرشد الصحابة كيف يزيلوا هذه النجاسة، فقال:

«**أريقوا على بوله سجلاً من ماء**»، وفي رواية: «**فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**»(١).

فتأمل هذه الحكمة الراشدة، والأسلوب الأمثل في التعليم والتوجيه لو ترك أصحابه يضربون الأعرابي، لأدى ذلك إلى أمرين: لحوق الضرر به لو قطع بوله، وبعثرة بوله في المسجد كله، لو أصر على التبول، فيعسر بعد ذلك تطهيره كله، ولربما نفر الأعرابي عن الهداية التي حلت في قلبه وأتى إلى النبي ﷺ لأجلها، لكنه بذكائه وفطنته وحكمته استطاع أن يتجنب هذه المفاسد، وأن يعلم الأعرابي حرمة المساجد، وما ينبغي للمسلم نحوها، وعلم الصحابة كيف يعالجون مثل هذه المواقف.

٤- وبهذا الأسلوب العظيم، وبهذه الحكمة البالغة استطاع أن يقنع هذا الذي أتاه يجادله في شأن امرأته، والتي ولدت له ولدًا، ليس على شاكلته، وارتاب في نسبة الولد إليه، فصور الموقف قائلاً:

يا رسول الله، إنَّ امرأتي ولدت غلامًا أسود، وأني أنكرته، فقال له رسول الله ﷺ:

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

«هل لك من إبل؟».

قال: نعم يا رسول الله.. قال له: **«فما ألوانها؟»**.

قال: حُمْر.. قال: **«هل فيها أورق؟»** - أي من لونه أسمر -

قال: نعم.. قال: **«فأنّى ترى ذلك جاءها؟»**

قال: يا رسول الله، لعله نزعة عرق.. أو قال: عرق نزعها.

فقال ﷺ: **«لعل ابنك هذا نزعة عرق!»**[(١)]. ولم يرخص له انتفاء الولد.

فتأمل يرحمك الله.. هذا الأمر الخطير.. رجل يشك في زوجته، ويشك أن يكون هذا ابنه فاستطاع النبي الأكرم، والمعلم الأول بحكمته وإقناعه وقياسه العجيب أن يقنع الرجل، وأن يزيل من قلبه الشكوك والوساوس.

الحكمة مع النوع الثاني: من لا يريدون العلم ولا المعرفة:

وهؤلاء تحوي قلوبهم الكبر والعناد، والمجادلة بالباطل، ويقصدون من وراء ذلك إثارة الشغب والخصام..

فقد كان ﷺ بحكمته وفطانة عقله، يلزمهم الحجة، ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويعاملهم بالرفق واللين، وهذه الحكمة، وذلك الأسلوب يسكن غضبهم، ويوضح شغبهم، ثم يفحمهم بالحجة الدامغة، والبرهان الساطع، الذي يكون بعده التسليم والإذعان، ومن أمثلة ذلك:

١- حكمته ﷺ مع ابن الزبعري، شاعر قريش في الجاهلية، وقد سمع بقول مولانا تباركت أسماؤه، وتعالت عن الأضداد صفاته:

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠].

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

قال: أما والله لو وجدتُ محمدًا لخصمته، فسلوا محمدًا: أكل ما يُعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبدُ عزيرًا، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم، فعجب الحاضرون مما قاله ابن الزبعري، ورأوا أنه قد خصم رسول الله ﷺ وغلبه، فقال النبي ﷺ: «**إنَّ كل من أحبَّ أن يُعبد من دون الله، فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرهم بعبادته**»(1).

فأنزل الله تصديقًا لنبيه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء: ١٠١- ١٠٣].

فتأمل هذه الإجابة المفحمة، والردَّ المقنع، الذي لم يترك للجدل نافذة حيث أخبره أن الملائكة والرسل لم يأمروهم بعبادتهم، إنما الذي أمرهم بذلك إنما هو الشيطان، ولو رضوا بذلك لكان الحكم عامًّا.

٢- ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وترك كفار مكة، وجد هناك بالمدينة: اليهود، أولئك الشرزمة التي طبعت قلوبهم على المكابرة، والعناد، والشقاق، ومساوئ الأخلاق، أولئك الذين لا يهدفون إلى الوصول إلى الحق، وإنما إلى اتباع الهوى والضلال، فماذا حدث؟

ما إنْ وصل الرسول ﷺ حتى جاءهُ أحبار من اليهود يجادلونه بالباطل يقولون: يا محمد، أرأيت قولك: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. إيانا تريد، أم قومك؟

فقال النبي ﷺ: «**كُلاً أردت**».

قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك، أنَّا قد أوتينا التوراة فيها بيان لكل شيء، فقال

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (١٩٨/٣)، و«سيرة ابن هشام» (١٠٦/٢)، وذكره ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية (٩٠/٩)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٦٥/٣)، والبيضاوي في «تفسيره» (١٠٨/١)، والقرطبي (٣٠٠/١١).

رسول الله ﷺ: «**التوراة قليل من كثير**» أو قال: «**إنما في علم الله قليل، وعندكم في ذلك ما يكفيكم، لو أقمتموه**».

فأنزل الله تعالى فيما سألوه عنه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾[1] [لقمان: ٢٧].

فأفحمهم الرسول ﷺ فانقطعوا وبهتوا.

٣- وجاءوا إليه مرة أخرى، وقالوا: يا محمد، أخبرنا عن أربع نسألك عنهن، فإن فعلت ذلك، اتبعناك، وصدقناك وآمنا بك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقونني؟**» قالوا: نعم.

قال: «**فاسألوا ما بدا لكم**».

قالوا: فأخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزل التوراة؟

وأخبرنا كيف ماء الرجل وماء المرأة؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟

وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم، ومن وليه من الملائكة؟

فقال رسول الله ﷺ: «**عليكم عهد الله لئن أنا أنبئتكم لتتابعني**» فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق..

فقال: «**ناشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة، فأيهما علت صاحبه كان الشبه.**

ثم قال: **أنشدكم بالله وأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه كان أحب الطعام إلى إسرائيل ألبان الإبل ولحومها، وأنه اشتكى شكوى، فعافاه الله منها، فحرَّم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه، شكرًا لله..**

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٢٠/١٠)، والقرطبي (٧٠/١٤)، وابن كثير (٥٩٦/٣)، والبغوي (٢٩١/١)، والبيضاوي (ص٣٥٠).

قالوا: اللهمَّ نعم، قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ وأخبرنا من وليك من الملائكة، فعندها نفارقك أو نتابعك؟

قال: «**إن وليي جبريل عليه السلام، ولم يبعث الله نبيًّا قط إلا وهو وليه**».

فقالوا: لو كان وليك سواه من الملائكة لصدقناك وتابعناك، لأنه عدونا.. فأنزل الله قوله:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٩٧ - ١٠٢]. فعندها باءوا بغضب على غضب[1].

فقد أقام الرسول ﷺ عليهم الحجة بالحكمة، ومع ذلك أصروا على العناد والطغيان، ونكثوا ما عاهدوا الله عليه من قبل، بعد أن أعطوه العهد والميثاق أن يتابعوه، وقامت الحجة عليهم، ورأوا الحق ناصعًا كالشمس في رائعة النهار، وكما قال الله عنهم:

﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

النوع الثالث: وهم أصحاب الفطر السليمة:

فهؤلاء يؤثر فيهم الكلام الحسن، وكان هؤلاء كثير، وقد خاطب الله رسوله بقوله: ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣].

كمال حكمته في تصريف الأمور السياسية:

إنَّ المتأمل والباحث في سيرة النبي المصطفى، والرسول المجتبى ﷺ يرى صورة واضحة تدل على كمال حكمته، وعظيم سياسته في تصريف الأمور، وحل المشاكل،

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٢٤٧١)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (١٢٣/٣)، والطبراني في «الكبير» (١٣٠١٢)، وذكره ابن جرير في «التفسير» (٤٧٦/١)، وابن كثير (١٨١/١).

ومواجهة المواقف بحكمة، وبُعد نظر.. فتأمل:

١- لما جاء النبي إلى المدينة كان الأوس والخزرج حديثو عهد بواقعة «بعاث» وكانت بينهما عداوات قديمة، واليهود يؤججون نار الفتنة، ويشعلونها كما هي عادتهم، وكما هو طبعهم منذ القدم، فتناول الرسول ﷺ الموقف بحكمته وحسن تدبيره، وكمال عقله، فشرع في الحال ببناء المسجد، وفيه كانت الأسس التي وضعها لصلاح الدين والدنيا، فأصبح مكانًا للعبادة، ومركزًا للقيادة، وفيه يتربى المؤمنون على أكمل الخلال في أشرف الأحوال.. وغير ذلك.

٢- ومن حكمته السياسية أيضًا في حياته الأولى في المدينة، أنه لما رأى عدم تجانس أفراد المجتمع، لاختلاف عقائدهم، شرع في وضع نظام يضمن حقوق الجميع، ويكفل حرية العقيدة، وحرمة الدماء والأموال والأعراض، وتجعلهم جميعًا مكلفين بالدفاع عن البلاد أمام أي اعتداءات، فسطر في ذلك صحيفة وكتب كتابًا يتضمن أن أمة الإسلام أمة واحدة، وأن لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، وأن من تبع المسلمين من اليهود فإن له النصر والأسوة، وتقرر الصحيفة أن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

وبهذه الصحيفة انقادت إلى النبي ﷺ سلطة يثرب، وقضى رسول الله ﷺ على الفوضى، والإباحة للقوة، وجعل مرجع إقامة الحدود إلى شريعته.

٣- ومن حكمته الرشيدة الرائعة تلك الفتنة التي حدثت بين رجل من الأنصار، وأجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك في غزوة بني المصطلق، فاستنصر الأنصاري بالأنصار، واستنصر الأجير بالمهاجرين، وكادت تقع حرب ضروس، أراد أن يشعلها أُبي ابن سلول رأس المنافقين، فقام واستغل الموقف، وكان عنده زيد بن أرقم غلام بالغ يقول: أو قد فعلوها؟ قد كاثرونا وناقرونا في بلادنا، ما مثلنا معهم، إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل..

فنقل ابن أرقم هذه المقالة إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: مر بقتله يا رسول الله، فقال

السيد الحكيم: «**فكيف يا عمر، إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟!**»، ولكنه اكتفى بأن أمر بالرحيل، فرحل الرسول ﷺ بالجيش في وقت لم يكن يرحل فيه، وسار بهم يومهم ذلك، حتى أمسى، وليلهم حتى أصبح، ويومهم التالي، حتى آذتهم الشمس وأعياهم الجهد، ونال منهم التعب، ثم نزلوا بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض، حتى وقعوا نيامًا.

وكان غرض النبي الحكيم من موالاة السير ليلاً ونهارًا، أن لا يشغلوا أنفسهم بما وقع من إثارة الفتنة، وزعزعة القلوب، فبذلك وقاهم شرها.

انظر في ذلك «سيرة الرسول في غزة بني المصطلق»، فموضعها هناك..والله أعلم.



البابُ الخامس

الأخلاق الاجتماعية

وفيه مباحث:

المبحث الأول: حسن العشرة.

المبحث الثاني: الإحسان.

المبحث الثالث: معاملة ذوي القربى.

المبحث الرابع: الفكاهة والمزاح.

المبحث الخامس: البشاشة.

المبحث الأول

حسن العشرة

ما هي العِشْرة؟

هي في اللغة: اسم من المعاشرة.. وعاشر فلانٌ فلانًا: أي خالطه.

والعشيرة أهل الرجل الذين يتكثر بهم، أي يصيرون له بمنزلة العدد الكامل، قال تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وعشير المرأة زوجها، لأنه يعاشرها وتعاشره.. ومنه قول النبي ﷺ: «**إنكن أكثر أهل النَّار**».

فقيل: لِمَّ يا رسول الله؟ قال: «**لأنكنَّ تكفرن العشير**»[1].

والعشيرة: قيل: القبيلة، والجمع عشائر.

وفي الاصطلاح:

والعشرة في الاصطلاح لا يختلف معناها عن المعنى اللغوي، الذي هو المخالطة والمداخلة في أمور الحياة..

فإذا تعلقت العشرة بالنساء كان المراد بها ما يتعلق بأمور المبيت والنفقة، والتحدث مع الزوج، وغير ذلك من أمور الحياة، فالمراد توفية حق المرأة من المهر والنفقة، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وألا يكون فظًا، ولا غليظًا، ولا مظهرًا ميلاً إلى غيرها.

وقيل: حسن العشرة مع المرأة أن يتصنع لها كما تتصنع له.

---

(١) **صحيح:** صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٠٠٣)، و«صحيح سنن النسائي» (١٥٧٥)، و«صحيح الجامع» (٧٩٨٠)، و«المشكاة».

وإذا تعلقت العشرة بعامة الناس، فقد قالوا: إذا أردت حسن المعاشرة فالق عدوك وصديقك بالطلاقة - أي طلاقة الوجه - والبشاشة، ولا تنظر في عطفيك - أي إعجابًا وكبرًا - ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تتكبر على أحد، وتحفظ من تشبيك أصابعك ومن العبث بلحيتك، وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس، وفي الصلاة، وليكن مجلسك هادئًا، ولا تشجع أحدًا على الظلم، وإذا خاصمت فانصف، وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر في حجتك[١]..

حث القرآن الكريم على معاملة الزوجات بالمعروف:

والقرآن الكريم قد حث الأزواج على حسن معاملة الزوجات في جميع مراحل الحياة الزوجية، قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

وفي بداية أول مرحلة لبناء الأسرة، وهو بذل المهر حيث أمر ببذله بالمعروف، كما قال سبحانه: ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ٢٥].

أي من غير مماطلة، أو إضرار أو نقصان.

وعند تعذر الحياة الزوجية، واختيار أبغض الحلال إلى الله، وهو الطلاق كما قال سبحانه: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

قال البيضاوي: الإمساك بالمعروف: هو المراجعة، وحسن العشرة، والتسريح بالإحسان أو بالمعروف يكون بالطلقة الثالثة، وبأن لا يراجعها حتى تبين[٢].

---

(١) «المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشيهي.

(٢) «تفسير البيضاوي».

وعند اختيار الطلاق يرشد المولى ﷻ عباده، ألا يكون الطلاق هو سيف القطيعة الصارم، فأرشدهم إلى المتعة التي تخفف من صولة الوحشة بين الزوجين، فقال:

﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وقال: ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقال: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤١].

وعند اختيار الزوجين العودة إلى حياتهما الزوجية بعد أن تفرقا بالطلاق أرشد المولى ﷻ الأولياء إلى أن لا يكونوا حجر عثرة عن العودة إلى الألفة، والاجتماع الأسري، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

إلى غير ذلك من الآيات الحاثة على خُلُق المعروف، وحُسْن العشرة في الحياة الزوجية، في كل أطوارها وأحوالها..

ثم إن حُسن العشرة هي الأصل في الحياة الزوجية، التي بناها الله تعالى في كتابه الحكيم على المودة والرحمة، كما قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ ﴾ [الروم: ٢١].

فمن اتصف بها فقد حقق الحياة الزوجية السعيدة.

على أن حُسن العشرة لا يعني فقط كف الأذى عنهن، بل احتماله منهن اقتداء بسيد الأولين والآخرين ﷺ فقد كان يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة، فهي التي تطيب قلوب النساء.. وقد حكى القرآن الكريم شيئًا من ذلك، فقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [التحريم: ١].

فقد روى البخاري من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها فواطيت[١] أنا وحفصة على أيتـ

(١) فواطيت: أي تظاهرت.

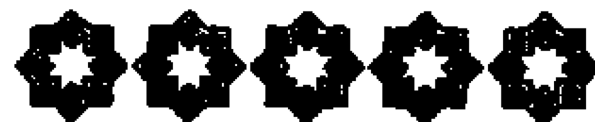
دخل عليها، فلتقل له: أكلت مغافير، إني أجد منك ريح مغافير.. قال: «**لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحدًا**»[(١)].

قال ابن كثير: المغافير شبيه بالصمغ يكون في الرمث فيه حلاوة، وكان لهذا ريح غير طيبة، وكان ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح الخبيثة، ولهذا قلن له: أكلت مغافير، لأن ريحها فيه شيء.

وفي بعض الروايات من حديث زيد بن أسلم قال: أصاب رسول الله ﷺ مارية (أم إبراهيم) في بيت بعض نسائه، فقالت: أي رسول الله، في بيتي وعلى فراشي؟! فجعلها عليه حرامًا، فقالت: أي رسول الله، كيف تحرم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله أن لا يصيبها، فأنزل الله[(٢)]: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾.

وقيل: كان ذلك في بيت حفصة وفي نوبتها، فوجدت عليه حفصة وقالت: يا نبي الله، لقد جئت إليَّ شيئًا ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي، وفي دوري، وعلى فراشي، قال: «**ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها**» قالت: بلى، فحرمها، وقال لها: «**لا تذكري ذلك لأحد**» فذكرته لعائشة[(٣)].

كل هذا يدل على حث القرآن الكريم والسنة المطهرة على حسن العشرة، فهيا بنا لنتعرف على مظاهر ذلك في حياة أستاذ البشرية ﷺ.



(١) صحيح: رواه البخاري في [كتاب التفسير - باب (يا أيها النبي لم تحرم..)].

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/٤٩٥).

(٣) إسناده صحيح: قاله ابن كثير، ثم قال: ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في «المستخرج».

مظاهر حُسن العِشْرة في حياة الرسول ﷺ

أخي الحبيب..

لقد كان ﷺ جميل العشرة، دائم البشر مع أهله، ومع أصحابه... في بيته، وخارج بيته.. في سفره وفي حضره، فهيا بنا لنتعرف على شيء من حسن عشرته ﷺ مع أهله:

أولاً: حسن عشرته ﷺ مع أهله:

١- وهذه أقرب الناس إليه، وأحبهم إلى قلبه، تقول:

كنت مع النبي ﷺ في سفر، فسابقته، فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم، سابقته، فسبقني، فقال لي: «**هذه بتلك**»[١].

٢- فكان يداعب أهله، ويتلطف معهم، ويضاحكهن، وأصواتهن ترتفع بحضرته، وكان يجمع نساءه التسع كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ كما دل عليه حديث أنس رضي الله عنه قال:

«كان للنبي ﷺ تسع نسوة فكنَّ يجتمعن كل ليلة في بيت التي يأتيها، فكان في بيت عائشة، فجاءت زينب، فمد يده إليها، فقالت: هذه زينب، فكفَّ النبي يده»[٢]..

يقول النووي - رحمه الله تعالى - في هذا الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من حسن الخلق، وملاطفة الجميع.

٣- وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد، يضع على كتفيه الرداء وينام بالإزار، تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها- : كان رسول الله ﷺ يباشرني في شعار واحدٍ، وأنا حائض، ولكنه كان أملككم لإربه، أو يملك إربه[٣].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» والنسائي في «عشرة النساء» وصححه الألباني في «سنن أبي داود، وابن ماجه» والعراقي في «الإحياء».

(٢) **صحيح**: رواه مسلم.

(٣) **صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٥٥٠).

٤- كان ﷺ يداعب زوجاته، محاولاً إرضاءهن، ففي «الصحيحين» من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ لها: «**إني لأعرف غضبك ورضاك**» فقلت: وكيف تعرف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إنك إذا كنت راضية، قلت: بلى ورب محمد، وإذا كنت ساخطة، قلت: لا ورب إبراهيم**» فقلت: أجل، لست أهجر إلا اسمك يا رسول الله[1].

وفي «صحيح ابن حبان»: «**ما يخفى عليّ حين تكونين غضبى، وحين تكونين راضية، إذا كنت غضبى، قلت: لا ورب إبراهيم، وإذا كنت راضية، قلت: لا ورب محمد**» فقالت السيدة عائشة - رضي الله عنها - صدقت، إنما أهجر اسمك، ثم قالت: يا رسول الله، أرأيت لو نزلت واديًا فيه شجر كثير قد أُكل منها، ووجدت شجرة لم يؤكل منها، في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «**في الذي لم يرتع فيها**»[2]، تريد أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها، ففي هذا دليل على حسن معاشرته لأهله ﷺ.

٥- وكان ﷺ من حسن معاشرته لأهله أنه كان يلاعبهن وتحدثنا عن ذلك السيدة عائشة - رضي الله عنها - فتقول:

«كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمَّعن - أي يتغيبن منه - فيُسرِّ بهن إليَّ، فيلعبن معي»[3].

وفي رواية لأحمد في «المسند»: «كنت ألعب باللُعب، فيأتيني صواحبي، فإذا دخل رسول الله ﷺ فررن منه، فيأخذهن رسول الله، فيردهن إليَّ»[4].

٦- وعند ابن حبان أنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب باللُعب، فرفع الستر، وقال: «**ما هذا يا عائشة؟**».

فقلت: لُعب يا رسول الله، قال: «**ما هذا الذي أرى بينهن؟**».

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٢) **صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه».

(٣) **صحيح**: رواه البخاري في «الأدب - باب الانبساط إلى الناس».

(٤) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» بإسناد صحيح.

قلت: فرسٌ يا رسول الله، قال: «**فرس من رقاع له جناح؟**»[(١)].

فقالت: ألم يكن لسليمان بن داود خيلٌ لها أجنحة؟ فضحك رسول الله ﷺ

٧- وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقال:

«**يا عائشة، أتعرفين هذه؟**».

قالت: لا يا نبي الله.

فقال: «**هذه قينة** - أي مغنية - **بني فلان، تحبين أن تغنيك؟**».

قالت: نعم.. قال: فأعطاها طبقًا، فغنَّتها، فقال النبي ﷺ: «**قد نفخ الشيطان في منخريها**» يعني لما اشتدت نشوة غنائها[(٢)].

٨- وعن عائشة - رضي الله عنها - أنَّ أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تُدففان وتضربان، والنبي ﷺ متغش في ثوبه، فانتهرها أبو بكر، فكشف النبي ﷺ عن وجهه فقال: «**دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد**» وتلك الأيام أيام منى[(٣)].

٩- ومن حسن عشرته مع أهله، أنه كان يسمح لها أن تنظر إلى الأحباش وهم يلعبون في المسجد، كما في حديث السيدة عائشة - رضي الله عنها - قالت: رأيتُ النبي ﷺ يسترني، وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد، فزجرهم عمر رضي الله عنه فقال النبي ﷺ: «**دعهم، أمنًا بني أرفدة**» من الأمن[(٤)].

وفي لفظ قالت: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بحرابهم، في مسجد رسول الله ﷺ يسترني بردائه، لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي، حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو».

---

(١) صحيح: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٨٦٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، والنسائي في «الكبرى» والطبراني في «الكبير»، والهيثمي في «المجمع» (١٣٣/٨).

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٤) صحيح: رواه البخاري في «العيدين» ومسلم كذلك.

١٠- ومن حسن عشرته ﷺ وكريم خلقه ما ذكرته أيضًا السيدة عائشة - رضي الله عنها - قالت:

«كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ، وأتعرَّقُ العَرْق - وهو العظم الذي عليه اللحم - وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فِيَّ»(١).

وهذا كله تلطفًا بهن، وتأنيسًا لهن، لكريم عشرته، وعظيم رأفته ورحمته.

١١- وتأمل تلطفه ﷺ وحسن عشرته، كما يفهم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال:

«كنَّا معشر قريش، نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار، إذا قومٌ تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار.. قال: فصخبت عليَّ امرأتي، فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني.. قالت: ولم تنكر أن أراجعك؟ فوالله إنَّ أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم إلى الليل، قال: فأفزعني ذلك، وقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن.

قال: ثم جمعتُ عليَّ ثيابي، فنزلت، فدخلتُ على حفصة، فقلت لها: أي حفصة، أتغاضبُ إحداكن النبي ﷺ اليوم حتى الليل؟

قالت: نعم.. قال: فقلت لها: قد خبتِ وخسرتِ، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ فتهلكي»(٢).

فتأمل كيف انزعج عمر ﷺ من مراجعة بسيطة، راجعته بها زوجته، مع أنَّ النبي ﷺ بلطفه وتحمله وحسن عشرته يقبل مراجعة نسائه، بل ويتحمل غضبهن عليه، حتى يهجرنه من الكلام..

فداك أبي وأمي يا رسول الله.. ما أعظمك؟ وما أكرمك؟ وما أحسن عشرتك؟ وما

(١) صحيح: رواه مسلم في «الحيض- باب جواز غسل الحائض رأس زوجها» (٣٠٠).

(٢) سبق تخريجه.

أنبل خلقك؟!

١٢- وتأمل أخي الحبيب ما رواه النعمان بن بشير ﷺ قال:

جاء أبو بكر ﷺ يستأذن على النبي ﷺ فسمع عائشة - رضي الله عنها - وهي رافعة صوتها على رسول الله ﷺ، فأذن له، فدخل، فقال: يا ابنة أم رومان - وتناولها - أترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟! قال: فحال النبي ﷺ بينه وبينها.. قال: فلما خرج أبو بكر، جعل النبي ﷺ يقول لها - يترضاها - : «**ألا ترين أني قد حُلت بين الرجل وبينك**».

قال: ثم جاء أبو بكر، فاستأذن عليه، فوجده يضاحكها، فأذن له، فدخل فقال له أبو بكر: يا رسول الله، أشركاني في سلمكما، كما أشركتماني في حربكما[1].

حثه الأمة على حسن عشرة النساء:

١- قال ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإذا ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج**»[2].

قال النووي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

وفي الحديث ملاطفة النساء، والإحسان إليهن، والصبر على عوج أخلاقهن واحتمال ضعف عقولهن، وكراهة طلاقهن بلا سبب، وأنه لا يطمع باستقامتها[3]..

٢- وقال ﷺ: «**لا يفرك** - أي لا يبغض- **مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلقًا، رضي منها خلقًا آخر**»[4].

وهذا إذا رجحت كفت حسناتها على كفة سيئاتها، والصابر على سوء خلقها هنا مأجور.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٩٠١).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» بشرح النووي.

(٤) **صحيح**: رواه مسلم وأحمد وأبو يعلى والبيهقي في «السنن الكبرى».

٣- وقال: «**اتقوا الله في النساء، فإنهن عوانٌ عندكم**»(١).

٤- وقال: «**حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(٢).

ثانيًا: حسن عشرته مع أصحابه:

١- فهذا خادمه أنس بن مالك ﷺ يشهد له بحسن العشرة، وسماحة الخلق، يقول: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أخذ أبو طلحة بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أنسًا غلامٌ كيسٌ، فليخدمك.. قال: فخدمته في الحضر والسفر، فوالله ما قال لي لشيء صنعته لِم صنعته هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه لِم لم تصنع هذا هكذا.

٢- ويقص أنس عليك موقفًا له مع رسول الله ﷺ يدل على حلمه ورفقه، وحسن عشرته، وعظمة أخلاقه فيقول:

«كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمرَّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «**يا أُنيس، اذهب حيث أمرتك**» قال: قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله»(٣).

٣- ومن حسن عشرته ﷺ أنه جاء إلى فاطمة - رضي الله عنها - في بيتها، فلم يجد عليًّا، فقال لها: «**أين ابن عمك؟**».

فقالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني، فخرج، فلم يقل - أي لم ينم في القيلولة- عندي، فقال رسول الله ﷺ لإنسان: «**انظر أين هو؟**» فجاء، فقال: يا رسول الله هو في

---

(١) **صحيح**: رواه البيهقي في «الشعب» (٥٢٦٢)، والنسائي في «الكبرى»، والألباني في «الإرواء» (٢١٥٦).

(٢) **صحيح**: رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم (٢/١٧٤)، وأحمد في «مسنده»، والبيهقي في «السنن الكبرى»، وقال الألباني في «صحيح سنن النسائي»: حسن صحيح (٣٩٣٩)، و«صحيح الجامع» (٣١٢٤)، و«المشكاة» (٥٢٦١).

(٣) سبق تخريجه.

المسجد راقد، فجاءه رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه، فأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه، ويقول له: «**قم أبا تراب، قم أبا تراب**»(١).

فقد لاطفه النبي ﷺ وهو غضبان، ومازحه، ومشى إليه ليسترضيه ويصالحه، وهو ﷺ سيد الأولين والآخرين.

٤- وعن عبَّاد بن شُرحبيل قال: أصابني سنة - أي جدب وقحط - فدخلت حائطًا من حيطان المدينة - أي بستانًا - ففركت سنبلاً، فأكلتُ وحملت في ثوبي، فجاء صاحبه، فضربني، وأخذ ثوبي، فأتيتُ رسول الله ﷺ فقال له: «**ما علمت إذ كان جاهلاً، ولا أطعمت إذ كان جائعًا**» وأمره فردَّ عليَّ ثوب، وأعطاني وسقًا ونصف وسق من طعام(٢).

٥- ويقول عنه سيدنا عثمان ﷺ وهو يخطب يومًا: «إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا ويواسينا بالقليل والكثير، وإنَّ ناسًا يعلموني به عسى أن لا يكون أحدهم رآه قط»(٣).

٦- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنَّ النبي ﷺ لما قدم مكة استقبله أُغيلمة بني هاشم.. قال: فحمل واحدًا بين يديه، وآخر خلفه(٤).. صلوات ربي وتسليماته عليك يا رسول الله.

٧- وتأمل حسن معاملته ولطفه في المعاملة حتى مع الأطفال والصغار فعن أبي رافع بن عمرو الغفاري قال: كنت غلامًا أرمي نخل الأنصار، فأتى بي النبي ﷺ فقال:

«**يا غلام، لم ترمي النخل؟**».

قال: آكل.. قال: «**فلا ترم النخل، وكل مما يسقط في أسفلها**» ثم مسح رأسه، فقال: «**اللهمَّ أشبع بطنه**»(٥).

---

(١) صحيح: رواه مسلم وأحمد وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٦٥٨).

(٢) صحيح: رواه أبو داود وصححه الألباني.

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» بإسناد صحيح.

(٤) صحيح: رواه البخاري والنسائي والبيهقي في «السنن الكبرى» والطبراني في «الكبير».

(٥) ضعيف: رواه ابن ماجه، وأبو داود، (٢٦٢٢)، والترمذي وضعفه الألباني وأحمد في «مسنده» والبيهقي.

ثالثًا: حسن عشرته حتى مع أعدائه من اليهود:

ومن عظم خلقه ﷺ حسن عشرته حتى مع اليهود، فعن أبي هريرة رضي الله عنه وعكرمة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له - أي ابن صوريا - : «**أذكركم بالله الذي نجاكم من آل فرعون، وأقصعكم البحر، وظلل عليكم الغمام، وأنزل عليكم المنَّ والسلوى، وأنزل عليكم التوراة على موسى، أتجدون في كتابكم الرجم؟**».

قال: ذكرتني بعظيم، ولا يسعني أن أكذبك[1].

ففيه لطف النبي ﷺ وحسن معاملته حتى مع اليهود.

رابعًا: حسن معاشرته مع الخدم والعبيد:

١- ولقد كان ﷺ حَسن المعاشرة حتى مع الخدم والعبيد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ امرأة سوداء كانت تقم المسجد - أي تنظفه وتكنسه - ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها.. فقالوا: ماتت، فقال: «**أفلا كنتم آذنتموني**» أي أعلمتموني بموتها فكأنهم صغروا أمرها، فقال: «**دلوني على قبرها**». فدلوه، فصلى عليها، ثم قال:

«**إنَّ هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإنَّ الله تعالى ينورها لهم بصلاتي عليهم**»[2].

فتأمل لما علم الرسول بموت هذه الخادمة، ماذا فعل وهو سيد الأولين والآخرين، ومع ذلك كله ذهب إلى قبرها بعد أن صارت جيفة.. ودعا لها، وصلى عليها..

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إذا كنت صليت على هذه المرأة لينور الله لها قبرها، فمن يصلي علينا لينور الله قبورنا؟!

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه، ثم جاء به، وقد ولي حره ودخانه، فلتقعد معه، فليأكل، فإن كان الطعام قليلاً، فليضع في يده منه أكلة أو أكلتين**»[3]. قال أبو داود: أي لقمة أو لقمتين.

٣- وعن ضمرة بن حبيب أنَّ النبي ﷺ قال: «**أعظم القوم أجرًا خادمهم**»[4].

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٦٢٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صحيح: رواه مسلم وغيره.

(٤) رواه سعيد بن منصور في «سننه» برقم (٢٤٠٦).

حث الرسول أتباعه على حسن العشرة

أخي الحبيب...

إن أقوال أطيب الناس عشرة ﷺ في حسن العشرة كثيرة فيها حث وحض على أن يتخلق المسلم بهذا الخلق العظيم، ومنها:

١- قال ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقي أخاك بوجه طلق**»(١).

٢- وقال ﷺ: «**ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»(٢). وإفشاء السلام يدل على المودة والمحبة، وطيب العشرة، لذلك أوصانا به في أحاديث متعددة.

٣- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(٣)، فالأنانية ليست من الأخلاق.

٤- وقال: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»(٤).

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من عُرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيب الريح**»(٥).

٦- ومن حسن العشرة أن يطلب المسلم ماله برفق، وأن يتجاوز عن المعسر، إذا أعسر، قال ﷺ: «**من أنظر معسرًا، أو وضع له، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه، يوم لا**

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم والترمذي وأحمد وابن حبان والبيهقي في «الشعب» والبخاري في «الأدب المفرد» والطبراني في «الأوسط».

(٢) **صحيح**: رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد وابن حبان والحاكم.

(٣) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن حبان.

(٤) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد والترمذي وابن حبان والحاكم.

(٥) **صحيح**: رواه مسلم وأبو يعلى في «مسنده».

ظل إلا ظله»(١).

٧- قال ﷺ: «**حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرًا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال الله ﷻ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»**(٢).

وفي رواية من حديث أبي هريرة ﷺ:

«**كان رجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه، لعل الله يتجاوز عنَّا، فلقي الله فتجاوز عنه»**(٣).

٨- وصلة الرحم، والإحسان إلى من أساء منهم، من حسن العشرة، فقد جاء رجل إلى حبيب القلوب ﷺ يشكو إليه قائلاً: يا رسول الله، إنَّ لي قرابة، أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فماذا قال له الحبيب؟

قال: «**لئن كنت كما قلت: فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله تعالى ظهير عليهم، مادمت على ذلك»**(٤).

٩- ومن حسن العشرة أن لا يتناجى رجلان دون الثالث، لأن ذلك يحزن الثالث، وهو أدب رفيع أرشد إليه رسول الله ﷺ في قوله: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر، حتى يختلطوا بالناس، فإن ذلك يحزنه»**(٥).

١٠- ومن حسن العشرة وآدابها، ألا يظن المسلم بأخيه ظن سوء، ولا يكذب عليه، ولا يتجسس، وقد جمع الرسول ﷺ ذلك كله في قوله:

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب، وابن ماجه والدارمي وابن حبان وأحمد والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) **صحيح**: رواه مسلم وأحمد والترمذي والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٣) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن حبان والحاكم وأحمد والبيهقي.

(٤) **صحيح**: رواه مسلم وأبن حبان وأحمد والبيهقي في «الشعب» والبخاري في «الأدب المفرد» والطبراني في «الأوسط».

(٥) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن حبان وأحمد.

«إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»(١).

١١- وعن حسن عشرة المرأة لزوجها أرشد الرسول إليها حين سأله رجل: أي النساء خير يا رسول الله؟

قال: **«هي التي تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره»**(٢).

١٢- وعن حسن عشرة الرجل لزوجته يقول أعظم الناس خَلقًا وخُلُقًا:

«أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت»(٣).

١٣- وقال: **«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يُعرض هذا، ويُعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»**(٤).



(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٢) حسن صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٩٨)، و«الصحيحة» (١٨٣٨)، وفي «إرواء الغليل» (١٧٨٦)، و«المشكاة» (٣٢٧٢)، وقال في «صحيح سنن النسائي»: حسن صحيح (٣٢٣١).

(٣) حسن صحيح: رواه ابن ماجه وأحمد في «مسنده» وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» : حسن صحيح (٢١٤٢).

(٤) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم.

المبحث الثاني

خلق الإحسان

ما هو الإحسان؟

أما في اللغة: فهو ضد الإساءة.. والمحاسن في الأعمال: ضد المساوئ.

ويُقال: حسنت الشيء تحسينًا: أي زينته.

وقد يطلق على الإتقان، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [التغابن: ٣].

وفي الشرع:

فسره النبي ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام بقوله: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**(١).

فأراد بالإحسان: الإشارة إلى المراقبة، وحسن الطاعة، فإنَّ من راقب الله تعالى، أحسن عمله.

وقال الفيروزآبادي: الإحسان يُقال له على وجهين:

الأول: الإنعام على الغير، فيقال: أحسنْ إلى فلان.

الثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا عمل عملاً حسنًا، أو علم علمًا حسنًا(٢).

وقال المناوي - رحمه الله - : الإحسان: إسلام ظاهر، يُقيمه إيمان باطن، يكمله إحسان شهودي.

---

(١) صحيح: رواه مسلم.

(٢) «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (٢/٤٦٥، ٤٦٦)، بتصرف يسير.

وقال الراغب: الإحسان فعل ما ينبغي فعله من المعروف[١].

وقال الكفوي: الإحسان هو فعل «الإنسان» ما ينفع غيره، بحيث يصير الغير حسنًا به، كإطعام الجائع، ونحوه[٢].

منزلة هذا الخلق بين الأخلاق:

يقول **الإمام ابن القيم** في «مدارج السالكين» عن منزلة الإحسان:

وهذه المنزلة هي لبُ الإيمان وروحه، وكماله، وهي جامعة لما عداها من المنازل، فجميعها منطوية فيها، ومما يشهد لهذه المنزلة قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

إذ الإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، وهو في الآية الكريمة كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - :

المراد بالأول قول: «لا إله إلا الله».

والمراد بالثاني: الجنة. والمعنى: فهل جزاء من قال: «لا إله إلا الله» وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة.

وقد جاءت مادة «الإحسان» ومتعلقاتها فيما يقرب من أربعين موضعًا في كتاب الله ﷻ، وهذا يدل على مكانة هذا الخُلُق المبارك، الذي يُعد مجمع الأخلاق، ولذلك جعله رسول الله ﷺ فوق مرتبة الإسلام والإيمان.

وقال أحد المعاصرين: الإحسان من عناصر التربية الواعية، نأخذه من قوله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

والإحسان في صورته العليا، صفة رب العالمين، لأن الإساءة - وهي ضد الإحسان - تنتج عن الجهل والعجز والقصور، وما إلى ذلك من أوصاف مستحيلة.

---

(١) «المفردات» للراغب (ص١١٩).

(٢) «الكليات» (ص٥٣) بتصرف.

ميادين الإحسان كما جاءت في القرآن الكريم:

لقد فصل هذه الميادين كلام رب العالمين، القرآن الكريم، والسنة المطهرة، سنة النبي الأمين، ومن أهمها:

١- **مواجهة الملمات بالصبر عليها**؛ قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود: ١١٥].

٢- **أداء الدية لولي القتيل**؛ قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

٣- **معاملة المطلقات**؛ أو من ينوي طلاقهن، قال تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وقال: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

٤- **الحرب والجهاد**؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٥- **مجاهدة النفس**: بكظم الغيظ، ومحاربة الشح، وكبح شهوة الانتقام؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

٦- **الحوار الفكري، والتواصل الثقافي**؛ وقد جاء ذلك في قوله: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

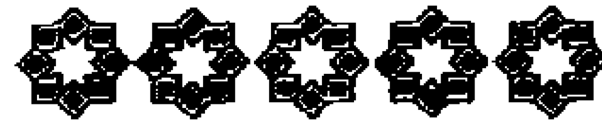
٧- **التحاور بين المسلمين وأهل الكتاب**؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

٨- **الخصومة والخلافات**؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت: ٣٤].

٩- **معاملة اليتامى والضعفاء**؛ قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

١٠- **العلاقات الاجتماعية كرد السلام ونحوه**؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦].

١١- **العلاقات الاقتصادية**؛ قال تعالى في قصة قارون: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: ٧٧].



مظاهر خلق الإحسان

في حياة الرسول الأعظم ﷺ

والإحسان بما يحويه من معان، وبكل ما يشتمل عليه كان في خلق الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ وصدق من قال:

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له حد ... فيُعرب عنه ناطق بفم

فكان محسنًا مع جيرانه، كان محسنًا مع الأيتام والأرامل، وكان محسنًا مع كل الخلائق، فهيا بنا لنتعرف على قليل من كثير من مظاهر هذا الخلق العظيم، الذي كان يتصف به رسولنا ﷺ:

أولاً: إحسانه إلى الجيران:

لقد كان خُلقه مع جيرانه على النحو الذي يريده الله تعالى من عباده وتقتضيه الأعراف الفاضلة، كما دلت على ذلك أحاديثه ﷺ ومنها:

١- فعن عائشة - رضي الله عنها - أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»**[١]. أي سيجعل له نصيبًا في الميراث.

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»**[٢].

ولا شك أنه ﷺ قد برهن على ذلك بنفسه أولاً، كما هي شيمته وأخلاقه، في

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وأصحاب السنن.

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

المبادرة إلى كل ما هو خير يدعو إليه بقوله، حيث كان يندب إلى ذلك بفعله، لتكون أفعاله مصدرًا للتأسي به، كما تكون أقواله مؤكدة لأفعاله، وداعية إلى الامتثال به.

٣- وكما ندب إلى البرهنة على الإيمان بالإحسان إلى الجيران وغيره، فقد ندب إلى البرهنة عليه بكف الأذى عن الجار، وكأنه يريد أن يوضح للأمة أن الإحسان فقط لا يكفي إذا ما كدره أي نوع من الإيذاء، فقال: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يؤمن جاره بوائقه**»[(١)]. أي شره وأذاه.

وفي هذا الحديث دلالة على عظيم شعوره ﷺ بحق الجار ما يكفي للاستدلال على حسن مجاورة النبي ﷺ لجيرانه، لأن من أعظم الإحسان إلى الجار أن يأمن جانب جاره على نفسه وماله وأهله، فيعيش في بيته آمنًا، غير خائف، ولا قلق، فيعيش هادئ البال، قرير العين.

وأقواله ﷺ في الجيران وحقوقهم وآدابهم كثيرة غير ما تقدم ومنها:

١- ما جاء عن أبي ذر ﷺ قال: أوصاني خليلي رسول الله ﷺ: «**إذا طبخت مرقًا، فأكثر ماءه، ثم انظر أقرب أهل بيت من جيرانك، فأصبهم منها بمعروف**»[(٢)].

٢- وقال: «**يا نساء المؤمنات، لا تحقرن جارة لجارتها، ولو فرسني شاة**»[(٣)]. أي ظلفها.

٣- وقال: «**لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره**» ثم قال أبو هريرة ﷺ: «ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأرمين بها بين أكتافكم»[(٤)]، ففيه حث على التساهل مع الجيران، والتسامح معهم.

٤- وقد حدد الأولى بالبذل والإحسان على غيره، حين سألته السيدة عائشة - رضي الله عنها - قالت: يا رسول الله ﷺ، إنَّ لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إلى أقربهما منك بابًا**»[(٥)].

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح: رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٤) صحيح: رواه البخاري في «المظالم» ومسلم في «المساقاة» وأحمد في «مسنده».

(٥) صحيح: رواه البخاري في «الأدب - باب حق الجوار» وفي «الأدب المفرد».

٥- ومن تعظيمه لحقوق الجيران قال كما روى عنه أنس بن مالك ﷺ: **«ما آمن بي من بات شبعانًا، وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم»**(١).

٦- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع»**(٢).

٧- وبيَّن أن عاقبة من يؤذي جاره النار - والعياذ بالله - فقد جاء إليه رجل، وقال له: يا رسول الله؟ إن فلانة تكثر من صلاتها، وصدقتها، وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، فقال: **«هي في النار»**، قال: يا رسول الله ﷺ، فإنَّ فلانة يُذكر من قلة صيامها وصلاتها، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها، قال: **«هي في الجنة»**(٣).

٨- وشدد في الاعتداء على زوجة الجار، عندما سأل أصحابه، قائلاً: **«ما تقولون في الزنا؟»** قالوا: حرام حرَّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره»** ثم قال: **«ما تقولون في السَرقة؟»** قالوا: حرمها الله ورسوله، فهي حرام، قال: **«لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره»**(٤).

٩- ووضح أنَّ شهادة الجيران لها مكانتها عند الله تعالى فعن عبد الله بن مسعود ﷺ: قال رجل: يا رسول الله كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت؟

قال: **«إذا سمعت جيرانك يقولون: قد أحسنت، فقد أحسنت، وإن سمعتهم يقولون: قد**

---

(١) حسن: رواه البزار والطبراني والمنذري وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب».

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني وأبو يعلى والمنذري وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٨٢)، و«الصحيحة» (١٤٩)، وفي «الأدب المفرد» للبخاري و«صحيح الترغيب» (٢٥٦١).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» وابن حبان والبزار والحاكم وصححه في «المستدرك» وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥٦٠)، و«المشكاة» (٤٩٩٢).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد والطبراني في «الكبير والأوسط» والمنذري والهيثمي وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٥)، و«صحيح الترغيب» (٢٥٤٩).

أسأت، فقد أسأت»(١).

١٠- وقال: **«ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنين، أنهم لا يعلمون منه إلا خيرًا، إلا قال الله تبارك وتعالى: قد قبلت قولكم.. أو قال: بشهادتكم، وغفرت له ما لا تعلمون»(٢).**

قال الشيخ الألباني معلقًا:

«اعلم أنَّ هذه الشهادة لا تختص بالصحابة، بل هي أيضًا لمن بعدهم من المؤمنين، الذين هم على طريقتهم في الإيمان، والعلم، والصدق.. وبهذا جزم ابن حجر في الفتح».

ثانيًا: إحسانه إلى اليتامى والأرامل:

وكيف لا يحسن إلى اليتامى، وقد وُلد يتيمًا؟ ولذلك ذكره ربه بنعمه عليه، فقال:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ ﴾ [الضحى: ٦ - ١٠].

ولرب العزة والجلال حكمتهُ في وجود اليتيم بالنسبة له ﷺ ولقد قام الحبيب المصطفى ﷺ بواجبه نحوهم حق القيام، بقوله وفعله وهديه.. يقول ﷺ :

«سألت ربي مسألة وددت أني لم أسأله، فقلت: يا رب، كانت قبلي رسلٌ منهم من سخرت له الرياح، ومن كان يحيي الموتى، وكلمت موسى، قال ﷻ: ألم أجدك يتيمًا فآويتك؟! ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ووضعت عنك وزرك؟ فقلت: بلى يا رب»(٣).

١- تأمل ما فعله بأولاد جعفر بن أبي طالب ؓ حين استشهد هذا البطل الرأبال في

---

(١) **صحيح** : رواه ابن ماجه وصححه الألباني (٤٢٢٣)، و«الصحيحة» (١٣٢٧)، و«صحيح الجامع» (٦١٠).

(٢) **صحيح لغيره** : رواه الحاكم في «المستدرك» وقال: صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه (١٣٩٨) في «الجنائز» (١/٥٣٤)، والبيهقي في «الشعب» برقم (٩٥٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٥١٥)، «وتلخيص أحكام الجنائز» (ص٢٦).

(٣) **صحيح** : صححه الألباني في «الصحيحة» (٢٥٣٨).

معركة مؤتة، فكان يقول لأهله: «**اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فقد أتاهم ما يشغلهم**»[1].

وفي «مسند الإمام أحمد» أن رسول الله ﷺ لما أتاهم - أي آل جعفر - قال: «**لا تبكوا على أخي بعد اليوم، أو غدٍ، ادعوا لي ابني أخي**».

قال عبد الله بن جعفر: فجيء بنا كأنَّا أفراخ، فقال: «**ادعوا إليَّ الحلاّق**» فجيء بالحلاق فحلق رءوسنا، ثم قال: «**أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فيشبهني خلقًا وخُلقًا**» ثم أخذ بيدي فقال: «**اللهم اخلف جعفر في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه**» - قالها ثلاث مرات - .

قال عبد الله: فجاءت أُمنا، فذكرت له يتمنا، فقال لها: «**العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟!**»، وفي «مصنف ابن أبي شيبة»: «**أتخشين عليهم الضيعة...؟**»[2].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أعظم خلقك!

٢- وتأمل فعله بأولاد أبي سلمة «عبد الله بن عبد الأسد المخزومي» ﷺ حين مات في العام الرابع الهجري عن أولاد صغار، وزوجة كريمة هي «أم سلمة» هند بنت أمية، فصارت امرأة أيم، وأطفالها أيتامًا، فكفلهم رسول الله ﷺ فكيف كان ذلك كذلك؟

«لما انقضت عدة أم سلمة بعث إليها أبو بكر يخطبها، فلم تزوجه، فبعث إليها رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ يخطبها، فقالت: أخبر رسول الله ﷺ أني امرأة غيرى - أي غيورة - وأني امرأة مصبية - أي لي صبيان كثير - وليس أحد من أوليائي شاهد.

فأتى عمر رسول الله ﷺ فأخبره، فقال له: «**ارجع إليها، فقل لها: أما قولك: إني امرأة غَيْرَى، فسأدعو الله لك، فيذهب غيرتك، وأما قولك: إني امرأة مصبية، فستكفين صبيانك...**»[3]. فرضيت، وتزوجها النبي ﷺ وعال أيتامها.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٧٥٠)، وصححه أحمد شاكر (٣٦٦/٢)، ورواه ابن أبي شيبة (٨/ ٥٤٨)، وهو في «تاريخ ابن كثير» (٢٥١/٤)، وفي «مجمع الزوائد» (١٥٦/٦).

(٣) صحيح: رواه النسائي في «النكاح» (٨١/٦)، وصححه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٤٥٩/٤).

٣- ولما فتح الله على رسوله، وأفاء عليه، كان يتولى أمر كل مسلم يموت، وله عيال، ويقول: «**أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك دينًا، أو كلاً، أو ضياعًا** - أي عيالاً - **فعليَّ وإليَّ، ومن ترك مالاً فلورثته**»(١).

وهناك أحاديث كثيرة فيها حث على الإحسان إلى اليتامى، والعناية بهم، منها:

١- قوله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما(٢).

وفي رواية: «**كافل اليتيم له، أو لغيره، أنا وهو في الجنة كهاتين**» وأشار مالك - راوي الحديث - بالسبابة والوسطى(٣).

٢- ولما جاءه ﷺ رجلٌ يشكو إليه قسوة قلبه، ماذا قال له؟

قال له مرشدًا إلى العلاج: «**امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين**»(٤).

وفي رواية: «**إن أردت أن تُلين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح على رأس اليتيم**»(٥).

وفي رواية أخرى: «**ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك**»(٦).

٣- وقال: «**من ضم يتيمًا بين مسلمين في طعامه وشرابه، حتى يستغنى عنه، وجبت له الجنة البتة، ومن أدرك والديه أو أحدهما ثم لم يبرهما دخل النار، فأبعده الله، وأيما مسلم أعتق رقبةً مسلمةً كانت فكاكه من النار**»(٧).

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) صحيح: رواه البخاري وأبو داود والترمذي.

(٣) صحيح: رواه مسلم ومالك في «الموطأ».

(٤) صحيح بشواهده: رواه أحمد في «مسنده» (٨٩٩٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٦٣/٨): رجاله رجال الصحيح.

(٥) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (٨٥٤).

(٦) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠) عن أبي الدرداء.

(٧) صحيح لغيره: رواه أحمد في «مسنده» وأبو يعلى والطبراني والمنذري في «الترغيب» (٣٤٧/٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٠٤٣).

٤- وفي «مسند أبي يعلى» من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**أنا أول من يفتح باب الجنة، فإذا امرأة تبادرني** - أي لتدخل معي، أو تدخل على أثري - **فأقول: من أنت؟ فتقول: أنا أمرأة تأيمتُ على أيتام لي**»(١).

قال ابن حجر في «الفتح» تعليقًا على حديث: «**أنا وكافل اليتيم...**»:

قال ابن بطال: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به، ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الجنة أفضل من ذلك.

٥- وحذر ﷺ من الإساءة في حق اليتيم، أو التقصير في حقه فقال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قالوا: وما هن يا رسول الله ؟

قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»(٢).

ففي هذا الوعيد ما يكفي زجرًا لمن تسول له نفسه التفريط في أموال اليتامى إذ لا طاقة لأحد بعذاب الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠].

٦- ولما كان ﷺ يدرك عظيم العقاب المترتب على فعل ذلك، وهو الرءوف الرحيم بأمته، الناصح لهم، قال لأبي ذر ﷺ: «**يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمَّرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم**»(٣).

ثالثًا: إحسانه إلى الأرامل:

وكان إحسانه ﷺ بالأرامل لا يقل شأنًا عن إحسانه وعنايته باليتيم، وحث عليه في أقواله فقال:

«**الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله**» قال راوي الحديث: أو أحسبه

---

(١) حسن: رواه أبو يعلى في «مسنده» (٦٦٥١)، وحسن إسناده ابن حجر في «الفتح» (١٣/٤٨).

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٣) صحيح: رواه مسلم وأبو داود.

قال: «**وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر**»[1].

وقد وردت رواية تؤكد هذا الشك، يقول فيها المصطفى ﷺ: «**الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار**»[2]. والساعي هو الذي يسعى لكي يُحصِّل ما ينفع للأرملة والمسكين من طعام أو شراب أو لباس، أو نحوه.

فتأمل هذا الأجر العظيم، الذي أرشد إليه النبي الكريم، والرسول الأمين ﷺ .. فمن يقدر على مواصلة الصيام بحيث لا يفطر؟ أم من ذا الذي يقدر على القيام ثم لا يفتر فيه؟!

إنه لا طاقة لأحد على نيل هذا الأجر، إلا عن طريق ما أرشد إليه النبي الكريم ﷺ من السعي على الأرملة والمسكين.

وهذا بالنسبة لأقواله، أما بالنسبة لأفعاله فقد كان يتزوج الأرامل، مثل: سودة بنت زمعة - رضي الله عنها - التي كانت قد تأيمت من السَّكران بن عمرو، وكان لها فضل السبق في الإسلام والهجرة إلى الحبشة.

وكما في قصة زواجه ﷺ من حفصة بنت عمر - رضي الله عنهما - لما تأيمت من خنيس بن حذافة السهمي الذي توفى شهيدًا من جراحات أصابته ببدر.

رابعًا: إحسانه إلى الفقراء والمساكين:

ولقد كان سيد النبيين وإمام المرسلين يحب الفقراء والمساكين ويجلس معهم، ويأكل معهم، وكان يداعبهم، حتى إنه القائل:

«**اللهمَّ أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين**».

وتأمل لما مرَّ الملأ من قريش على رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ وكان عنده من الصحب الكرام: خباب، وصهيب، وبلال، وعمار، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء - أي الفقراء والضعفاء من العبيد - فنزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح: رواه البخاري وأحمد والألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٨٠).

رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ٥١].

وفي رواية أنهم قالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقيل: إنها نزلت في شأن ستة من أصحاب النبي ﷺ منهم ابن مسعود ﷺ قال: كنّا نستبق إلى رسول الله ﷺ وندنو منه، فقالت قريش: تدني هؤلاء دوننا؟! فنزلت الآية.

ومن عناية القرآن الكريم بهؤلاء الفقراء، أنه أرشد رسول الله ﷺ فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال القرطبي: نزلت في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم، فكان إذا رآهم، بدأهم بالسلام..

مكانة الفقراء والمساكين عند رسول الله ﷺ:

لذلك كان هؤلاء الضعفاء أهل المكانة العليا عند رسول الله ﷺ فيما ثبت عنه:

١- ففي «صحيح مسلم» عن عائذ بن عمرو:

أنَّ أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ونفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها.

قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «**يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم، لقد أغضبت ربك**».

فأتاهم أبو بكر، فقال: يا إخوتاه، أغضبتكم؟ فقالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي[1].

فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم.

(١) صحيح: رواه مسلم في «فضائل الصحابة» ورواه أحمد والنسائي في «الكبرى» والطبراني في «الكبير».

قال **الإمام النووي** في شرح الحديث: وهذا الإتيان لأبي سفيان، كان وهو كافر في المدينة بعد صلح الحديبية، وفي هذا فضيلة ظاهرة لسلمان ورفقته هؤلاء وفيه: مراعاة قلوب الضعفاء، وأهل الدين وإكرامهم وملاطفتهم(١).

٢- ومن إحسانه إليهم أنه بشرهم بالجنة في الآخرة، وأنهم يسبقون الأغنياء فقال: «**يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، نصف يوم**»(٢).

لأن الله يقول: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].

٣- وكان يطمئن قلوبهم حين يدعو الله تعالى أن يجعله ممن يحبون الفقراء والمساكين فيقول: «**اللهمَّ إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة قوم فتوفَّني غير مفتون، وأسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك**»(٣).

٤- وعن أسامة عن النبي ﷺ قال: «**قمتُ على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين.. وقمت على باب النار، فإذا عامة من دخلها النساء**»(٤).

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - كما في «الصحيحين»:

«**اطلعت في الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار، فرأيت أكثر أهلها النساء**»(٥).

٥- وعن أبي ذر ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ : «**انظر أرفع رجل في المسجد**» قال: فنظرت، فإذا رجل عليه حُلّة، قلت: هذا. قال: قال لي: «**انظر أوضع رجل في المسجد**»

---

(١) «صحيح مسلم» بشرح النووي.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن حبان وأحمد وغيرهم وصححه الألباني.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» والحاكم (١٩٣٢)، وقال: صحيح على شرط البخاري، والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٤) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن حبان والبيهقي في «الشعب» والطبراني.

(٥) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وابن حبان والنسائي في «الكبرى»، والطبراني في «الأوسط» و«الكبير».

قال: فنظرتُ، فإذا رجلٌ عليه أخلاق - أي ثياب خَلقةٌ بالية - فقلت: هذا، فقال رسول الله ﷺ: **«لَهَذا أخيرُ عند الله يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا»**(١).

وفي رواية البخاري من حديث سهل قال:

مرَّ رجلٌ على رسول الله ﷺ فقال: **«ما تقولون في هذا؟»** قالوا: حريٌّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يُشفع، وإن قال أن يستمع.. قال: ثم سكت، فمرَّ رجل من فقراء المسلمين، فقال: **«ما تقولون في هذا؟»** قالوا: حريٌّ إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال لا يستمع - أي لقوله - .

فقال رسول الله ﷺ: **«هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»**(٢).

٦- وعن مصعب بن سعد قال: رأى سعد ﷺ أنَّ له فضلاً على من دونه فقال له النبي ﷺ: **«هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»**(٣).

وعند الترمذي من حديث أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ابغوني ضعفاءكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»**(٤).

٧- وعن حارثة بن وهب ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتلٍ جواظ مستكبر»**(٥).

فتأمل هذا التنويه العظيم بهؤلاء الضعفاء في نظر البشر، تجد أنهم أهل الرِّفعة الرفيعة، والمكانة العالية عند الله ورسوله، في الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» وصححه الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٦١) وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) صحيح: رواه البخاري وابن ماجه في «سننه» والبيهقي في «الشعب» والطبراني في «الكبير».

(٣) صحيح: رواه البخاري والبزار في «مسنده».

(٤) صحيح: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح وأبو داود والنسائي وأحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي في «السنن الكبرى» وصححه الألباني.

(٥) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

خامسًا: إحسانه إلى الفقراء والمساكين بنفسه:

إنَّ الرسول الأكرم، والنبي الأعظم ﷺ كان الأب الحاني، والمربي المعلم، والمعيل الكافي لهذه الطائفة من المؤمنين حيث كان يأوي إليه جم غفير من فقراء المهاجرين، يسمون بأهل الصُفة، الذين قال عنهم أبو هريرة رضي الله عنه: «**وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل، ولا مال، ولا على أحد، فكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وكان إذ أتته هدية، أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها**»(١).

وكان ﷺ يكفيهم بنفسه، أو يأمر من يستطيع ذلك من أصحابه – رضي الله عنهم – كما قال زعيمهم أبو هريرة رضي الله عنه: «كنتُ من أهل الصُفة، وكنَّا إذا أمسينا حضَرَنا رسول الله، فيأمر كل رجل فينصرف برجل أو أكثر، فيبقى من بقى، عشرة أو أقل أو أكثر، فيأتي النبي ﷺ بعشائه، فنتعشى معه، فإذا فرغنا قال: «**ناموا في المسجد**»(٢).

وقال ذات يوم لأصحابه: «**من كان عنده طعام اثنين، فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة، فليذهب بخامس أو سادس**» أو كما قال.

وأنَّ أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة(٣)...

وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال:

«بتنا مع رسول الله ﷺ في الصُفة، فجعل يوجه الرجل من المهاجرين مع الرجل من الأنصار، والرجلين، والثلاثة، حتى بقيت في أربعة، ورسول الله ﷺ خامسنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**انطلقوا بنا**» فلما جئنا قال: «**يا عائشة، عشينا**» فجاءت بجشيشة – أي بطعام مصنوع من الحنطة والتمر – ثم قال: «**يا عائشة، أطعمينا**»، فجاءت بحيسة – وهو طعام متخذ من التمر والسمن – فأكلنا، فقال: «**يا عائشة، اسقينا**» فجاءت بجريعة من لبن، فشربنا(٤).

---

(١) صحيح: رواه البخاري والترمذي.

(٢) حسن: عزاه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦٧/١٤) إلى ابن سعد.

(٣) صحيح: رواه البخاري في «علامات النبوة».

(٤) حسن: أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣٣/٢) وله شواهد تقويه.

فهذا جانب من إكرامه وإحسانه ﷺ بالفقراء والمساكين والضعفاء.

- وعن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال: كنَّا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ فجاءه قومٌ عُراة، مجتابي النِّمار، أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مُضر، بل كلهم من مُضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ - أي تغير لونه - لما رأى بهم الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً، فأذَّن، وأقام، فصلى، ثم خطب فقال:

« ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١]، والآية التي في سورة الحشر: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨].

تصدق رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره.. حتى قال: ولو بشق تمرة.

قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصُرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ تهلَّل كأنَّه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «**من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(١).

- فانظر إلى عظيم أثر قول الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ في نفوس أصحابه، حيث بادروا بالجود بما عندهم، لإخوانهم من الفقراء، حتى سدوا حاجتهم.. وقد كان ذلك في ميزان حسنات الرسول ﷺ لأنه هو الذي دلهم على هذا الخير، والدال على الخير كفاعله، كما قال..

- ومثل هذا ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ، قال: دخل رجلٌ المسجد، فأمر رسول الله ﷺ

(١) صحيح: رواه مسلم في [الزكاة - باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة]، والنسائي كذلك.

أن يطرحوا ثيابًا، فطرحوا، فأمر له منها بثوبين، فحث على الصدقة أيضًا، فطرح أحد الثوبين، فصاح به رسول الله ﷺ : «خذ ثوبك»(١).

فلم يرض رسول الله ﷺ من ذلك المحتاج، صاحب الحس المرهف، الذي لم يكد أن يسد حاجته، حتى تأثر بحض النبي على الصدقة، فبادر إلى التصدق بنصف ما امتلكه من الثياب، فلم يرضى منه النبي الجود والصدقة به، لأنه يريد أن يغنيه، ويسد حاجته.

أحاديث عامة في الإحسان:

وقد ذكرنا أن الإحسان مجالاته واسعة، فهو يدخل في كل الأمور التي تتعلق بالإنسان وغيره، حتى قال ﷺ:

١- «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وليريح ذبيحته**»(٢).

٢- وقال: «**من أحسن في الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام، أُخذ بالأول والآخر**»، وهذا القول المبارك قاله رسول الله ﷺ حين سأله رجلٌ: يا رسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية(٣)؟

٣- وقال لأحد أصحابه موصيًا إياه، بل موصيًا الأمة كلها في شخصه: «**صل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، وقل الحق ولو على نفسك**»(٤).

٤- وقال: «**من أحسن فيما بقي، غُفر له ما قد مضى، ومن أساء فيما بقي، أُخذ بما مضى، وبما بقي**»(٥).

٥- وقال عن الإحسان إلى الوالدين عندما جاءه رجل يقول له: يا نبي الله، جئت أبايعك

---

(١) حسن: رواه النسائي وأبو داود وحسنه الألباني.

(٢) صحيح: رواه مسلم وأحمد، الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٩٥).

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه والدارمي وابن حبان وغيرهم.

(٤) صحيح: صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩١١).

(٥) حسن: حسنه الألباني في «الصحيحة» (٣٣٨٩)، والترغيب (٣١٥٦).

على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله تعالى.

قال: «**فهل من والديك أحد حيٌّ؟**» قال: نعم، بل كلاهما.

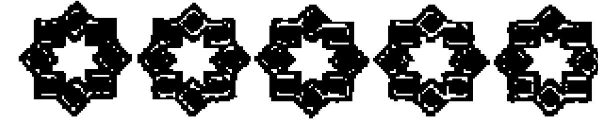
قال: «**أفتبتغي الأجر من الله؟**» قال: نعم.

قال: «**فارجع إلى والديك، فأحسن صحبتهما**»(١).

٦- وقال عن الإحسان إلى البنات: «**من ابتلى بشيء من البنات، فأحسن إليهن، كنَّ له سترًا من النار**»(٢).

٧- وقال عن إحسان المسلم في صلاته: «**خمس صلوات افترضهن الله تعالى، من أحسن وضوءهن، وصلاهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وخشوعهن، كان له على الله أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه**»(٣).

ولو تتبعنا أحاديث رسول الله ﷺ في هذا الشأن لطال بنا المقام، وما وسعتنا هذه السطور، لكن أسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، أن يكتبنا الله من المحسنين.



(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) صحيح: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٣١٤٣).

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٥)، و«صحيح الجامع» (٣٢٤٢)، و«صحيح الترغيب والترهيب».

المبحث الثالث

خلق معاملة ذوي القربى والأرحام

ذوو القربى والرحم في اللغة:

ذوو القربى: هم الأقارب الذين تجمعهم رحم واحدة، سواء كانوا من جهة الأب، أو من جهة الأم، ويُسمَّون بالأرحام، لأن الرَّحم اسم لمكانة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره.

قال **الراغب** عند تفسيره للرحم: «ومنه استعير للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة» فعُلم أن الأقارب والأرحام بمعنى واحد.

والرحم: مشتق من مادة (ر ح م) التي تدل على الرقة والعطف والرأفة.

يُقال: رحمته، وترحمتُ عليه (لنت له، وتعطفت عليه).

وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضًا.

الرحم اصطلاحًا:

قال **النووي:** اختلفوا في حد الرحم التي يجب وصلها، فقيل: كل رحم محرم، بحيث لو كان أحدهما أنثى والآخر ذكرًا حُرمت مناكحتهما.

وقيل: هو عام في كل رحم من ذوي الأرحام في الميراث يستوي فيه المحرم وغيره، وهذا هو الصحيح لقوله ﷺ: **«إنَّ أبر البر أن يصل الرجل أهل ودِّ أبيه»**.

وحقيقة صلة الأرحام: العطف والرحمة.

أما صلة الله تعالى لمن وصل رحمه فهي عبارة عن لطفه تعالى بهم ورحمته إياهم وعطفه عليهم، بإحسانه وإنعامه، أو صلتهم بأهل ملكوته الأعلى، وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته.

حكم صلة الرحم:

قال القاضي عياض: لا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة، والأحاديث الشريفة تشهد بذلك.

القرآن الكريم حث على الإحسان إلى الأقارب والأرحام:

والقرآن الكريم حث على حسن معاملة الأقارب والأرحام، لعظم شأنها بين المؤمنين، وكما قال **الفخر الرازي** – رحمه الله – :

«لأن القرابة مظنة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة، فلو لم يحصل شيء من ذلك، لكان أشق على القلب وأبلغ في الإيلام...».

ولا يتم ذلك إلا بالإحسان إليهم، والصبر على ما يجري منهم، والحلم عن إساءتهم، وإظهار الود لهم.. وتأمل حديث القرآن وحثه على هذا الخلق..

١- فقد جعل هذا الخلق من أخلاق أصحاب العقول النيرة.. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ [الرعد: ٢١ – ٢٣].

وقبل ذلك يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩] من هم يا رب؟ وما علاماتهم، وما هي أوصافهم؟

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ .... ﴾

وقد وضح ثوابهم العظيم، وهو دخول جنات عدن، وتنعمهم فيها بقوله:

﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وجعل الإحسان في شرع من قبلنا، قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقد نص القرآن الكريم على بعض صور الإحسان إلى الأقارب، وبرهم، والاهتمام بهم في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ [النساء: ٨].

فهي تأمر أهل الإيمان عند قسمتهم للميراث، أن يصلوا أرحامهم بشيء من الوصية لهم، فإن لم يكن العطاء عن طريق الوصية، فبإعطائهم شيئًا من هذا المال، ليجعلوا في قلوبهم المودة والرحمة.

وقد حث القرآن الكريم على مثل هذا العطاء في أكثر من آية ففي سورة النحل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ .... ﴾ [النحل: ٩٠].

فمعناه هنا إعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه مهما كان، طالما أن هناك مقدرة لعموم الإيتاء المأمور به.

وقد سماه الله تعالى حقًا، فقال: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الروم: ٣٨].

فكأنهم يُعطونه على سبيل الاستحقاق.

والإمام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية قال: اختلف في هذه الآية، فقيل: إنها منسوخة بآية المواريث، وقيل: لا نسخ، بل للقريب حق لازم في البر على كل حال، وصحح هذا الرأي ثم نقل عن مجاهد وقتادة قولهما: صلة الرحم فرض من الله ﷻ[1].

والقرآن الكريم حث على صلة الرحم، والإحسان إلى الأقارب حتى ولو كانوا على غير دين الإسلام، فقال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ

(١) «تفسير القرطبي».

يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨].

ذكر **الواحدي** في أسباب النزول: أن سبب نزول هذه الآية فيما يرويه الزبير بن العوام ﷺ قال: قدمت قُتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ بهدايا، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبلها، وأن تدخل بيتها، حتى سألت النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية، فأمرها رسول الله ﷺ أن تقبل هديتها، وأن تُدخلها بيتها[1]. وعند البخاري أن النبي قال لها: «**صلِي أمك**»[2].

عقوبة قاطع الرحم:

وقطع الرحم: أي التفريط في حقوقهم، والبخل عليهم بما يحتاجون إليه من أمور الدنيا، فإذا قصر المسلم في حق رحمه، كان قد عرض نفسه لغضب الله ﷻ، وسخطه، كما دل عليه الوعيد الشديد، الوارد في كتاب الله ﷻ مثل قوله جل في علاه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد: ٢٥].

فقد توعده الله ﷻ بالطرد من رحمته حيث لعنه، وبسوء المصير عند القدوم إليه، حيث هيأه له، وقد تكرر هذا الوعيد بأسلوب أقسى، ففي سورة محمد يقول الله ﷻ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

قال ابن كثير: وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا، قال: بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال، وبذل الأموال.

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص٣٥٦)، وابن كثير في «تفسيره» (٣٤٩/٤)، والسيوطي في «لباب النقول».

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد.

مظاهر إحسان الرسول ﷺ إلى أقاربه

أمّا إحسانه ﷺ بأقاربه، فهو إحسان عظيم، وبرّ كريم، يستوجب التأسي به ﷺ والسير على منهجه، كما هو حاله في جميع ما شرع لأمته.

وقد كان الإحسان إلى الأقارب والأرحام خلقًا عامًّا فيه صلوات ربي وتسليماته عليه، نشأ عليه، وعرف به قبل أن يُبعث بالرسالة السمحة التي حثته على مكارم الأخلاق، ومنها هذا الخلق المبارك..

وليس أدل على ذلك من حرصه الشديد على دعوتهم إلى شرع الله، فقد بذل جهده في ذلك، ومن ذلك:

١- لما نزل قوله جل في علاه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا رسول الله ﷺ قريشًا، فاجتمعوا، فعم وخص، وقال:

«يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار..

يا بني عب مناف، أنقذوا أنفسكم من النار..

يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار..

يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار.. فإني لا أملك لك من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا، سأبلها ببلالها...»(١).

وكان لهذا الإحسان أثر عظيم في هداية من كتب الله له الهداية، حيث أسلم أكثر الناس من أقاربه، وذوي رحمه، بينما تخاذل آخرون كأبي لهب، وأبي طالب لحكمة أرادها الله تعالى وقضاها، لا تخفى على ذوي الألباب.

٢- ومع ذلك حزن الرسول ﷺ حزنًا شديدًا على عدم إسلام عمه فأنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝ ﴾ [القصص: ٥٦].

وقد أخرج مسلم وغيره من حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال لعمه: «قل لا إله إلا الله، أشهد لك يوم القيامة» قال: لولا أن تعيرني نساء قريش، يقلنَّ: إنه حمله الجزع، لأقررت بها عينك. فأنزل الله هذه الآية..

وأخرج النسائي وابن عساكر عن أبي سعيد بن رافع قال: سألت ابن عمر عن هذه الآية: أفي أبي جهل، وأبي طالب؟

قال: نعم.. وقد كان عمه يحوطه وينصره، ويقوم في صفه، ويحبه حبًّا شديدًا، طبعيًّا لا شرعيًّا.. فلما حضرته الوفاة، وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان، والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر..

وقد ورد في بعض الروايات أنه ﷺ قال لعمه: «يا عمِّ، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال له أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان له بتلك المقالة، حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ : «والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك» فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة: ١١٣].

٣- ومع خذلانهم وصدهم عن سبيل الله، ومعاداتهم له، فإنهم لم يحرموا من بره وإحسانه، لأنهم لما استعصوا عليه ﷺ دعا عليهم بسنين كسنين يوسف، فأصابهم قحط وجهد، حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ﴾ [الدخان: ١٠، ١١].

فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله ﷺ، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت..

قال: «لمضر؟ إنك لجرئ» فاستسقوا ، فسقوا..

٤- ومنه إحسانه لمن تابعه وآمن به من أقربائه:

كبرِهِ وإحسانه إلى عمه العباس بن عبد المطلب ﷺ في يوم بدر قال لأصحابه - رضوان الله عليهم -: «**من لقي منكم العبَّاس، فليكف عنه، فإنه مُكره**» فأسره رجل من الأنصار يُدعى أبو اليسر، وهو كعب بن عمرو الأنصاري السُلمى، وكان العباس ﷺ يُنكر أن يكون هو الذي أسره ويقول: «لقد أسرني رجل أجلح، من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق، ما أراه في القوم، فلما ادعى الأنصاري ذلك، قال له النبي ﷺ: «**اسكت فقد أيدك الله بملك كريم**».

فلما كان من الليل سهر النبي ﷺ ليلته، فقال له بعض أصحابه: ما يسهرك يا نبي الله؟ قال: «**أنين العباس**» فقام رجل من القوم، فأرخى من وثاقه، فقال رسول الله ﷺ: «**ما لي لا أسمع أنين العباس؟**» فقال رجل من القوم: إني أرخيت من وثاقه شيئًا..

فقال النبي ﷺ: «**فافعل ذلك بالأسرى كلهم**».

٥- ثم بعد أن أسلم العباس ﷺ كان رسول الله ﷺ يبره ويحسن إليه، ويعظم شأنه، فقد حدث ذات يوم أن أوذي العباس ﷺ في أبيه، فصعد النبي ﷺ على المنبر، ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ﷻ ولرسوله ﷺ**» ثم قال: «**يا أيها الناس، من آذى العباس، فقد آذاني، إنما عم الرجل صنو أبيه**».

فانظر كيف أن النبي ﷺ كرم العباس أعظم تكريم، وجعل حبه من تمام الإيمان بالله وبرسوله.

٦- ومن بره بأقاربه، وإحسانه لهم، ما كان لحمزة بن عبد المطلب ﷺ فإنَّ أول لواء عقده الرسول حين قدم المدينة أعطاه له، ليتجه إلى سيف البحر - أي ساحله - في ثلاثين راكبًا من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقى أبا جهل بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهما مجديٌّ بن عمرو الجهني، وكان موادعًا للفريقين، ولم يكن بينهم قتال.

٧- وتأمل ما كان منه لعلي بن أبي طالب ﷺ حيث احتضنه فربَّاه، وأحسن تربيته، فلما شبَّ زوجه من ابنته، أحبِّ الخلق إليه (فاطمة الزهراء رضي الله عنها) وهذا يدل على

تكريم الرسول له أعظم تكريم، ولم يقتصر على ذلك، وإنما وطّد هذه الصلة بقوله:

١- **«من كنت وليّه فعليٌّ مولاه، اللهمَّ والِ من والاه، وعاد من عاداه»**.

٢- وبقوله: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي»**.

٣- وقال: **«لأعطين الراية غدًا لرجل يحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ويفتح على يديه»** وفي بعض الروايات: **«لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار»** فتشرف لها أصحاب النبي ﷺ فأعطاه رسول الله إياها يوم خيبر.. وكان يومها يشكو رمدًا في إحدى عينيه، فتفل فيها رسول الله ﷺ داعيًا ربه: **«اللهم أذهب عنه الحر والبرد»** يقول عليٌّ: فما وجدتُ حرًّا، ولا بردًا من حينها.. وقال عنه عبد الرحمن بن أبي ليلى: كان عليٌّ يلبس ثياب الصيف في الشتاء، وثياب الشتاء في الصيف.

وهكذا كان بره ﷺ وإحسانه إلى أقاربه، وذوي رحمه على هذا النحو فضلاً وإحسانًا، كما يدل على ذلك قول عمته صفية بنت عبد المطلب - رضي الله عنها - في مرثاة لها فيه ﷺ:

ألا يــا رســول الله كنــت رجاءنــا ... وكنــت بــنا بــرًّا ولم تــك جافــيًا
وكــان بــنا بــرًّا رحــيمًا نبيــنا ... ليــبك علــيك الــيوم مــن كان باكيًا
لعمــري مــا أبكــى النــبي لموتــه ... ولكــن لهــرج كــان بعــدك آتــيًا

إلى أن قالت:

صــبرت وبلغــت الرســالة صــادقًا ... ومــتَ صــليب الديــن أبــلج صافيًا
فلــو أن رب العــرش أبقــاك بيننــا ... ســعدنا ولكــن أمــره كــان ماضــيًا
علــيك مــن الله الســلام تحــية ... وأُدخلــت جــنات مــن العــدن راضيًا

الرسول يحث الأمة على الإحسان بقرابته وإكرامهم:

ولم يُعف الرسول ﷺ الأمة الإسلامية، من أن يوجه لها حثًا مباشرًا، وحضًا بالغًا على الإحسان إلى قرابته ﷺ ليبالغوا في ذلك، فتقر عينه بقرابته وأمته، لأن إكرام القرابة، إكرام له ﷺ فقال ﷺ:

١- «**ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي، فأُجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به**» فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال:

«**وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**» قال حصين بن سبرة - راوي الحديث عن زيد بن أرقم رضي الله عنه - :

ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس.

قال: كل هؤلاء حُرم الصدقة؟ قال: نعم[١].

٢- وفي رواية أخرى قال: «**ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما: كتاب الله عز وجل، هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة...**»[٢].

ونقل **الإمام النووي** عن العلماء قولهم: سُميا ثقلين لعظمهما، وكبير شأنهما، وقيل: لثقُل العمل بهما[٣].

وقال ابن الأثير[٤]: سمى النبي ﷺ القرآن العزيز، وأهل بيته ثقلين لأن الأخذ بهما، والعمل بما يجب لهما ثقيل، وقيل: العرب تقول لكل نفيس ثقل، فجعلهما ثقلين إعظامًا

---

(١) صحيح: رواه مسلم في «فضائل الصحابة» والدارمي في «فضائل القرآن».

(٢) صحيح: رواه مسلم.

(٣) «شرح مسلم» للنووي.

(٤) «جامع الأصول» (١٥٩/٩).

لقدرهما، وتفخيمًا لشأنهما.

٣- وعن زيد بن أرقم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلوا بعدي أبدًا، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»**(١).

٤- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: **«أحبوا الله لما يغذوكم به، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي»**(٢).

٥- وعن أم سلمة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ غطى الحسن والحسين وعلي وفاطمة كساء، ثم قال: **«اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي، وخاصتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا»**(٣).

قالت أم سلمة - رضي الله عنها -: وأنا معهم يا رسول؟ قال: **«إنك إلى خير»**.

٦- وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، وقال: **«اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي»**(٤).

والأحاديث في ذلك كثيرة، خاصة وعامة، وكلها تدل على عظيم حقوق قرابة النبي ﷺ على أمة الإسلام، وتوجب لهم الرعاية والأدب.

ولا عجب أن تنال قرابته ﷺ هذه العناية الكبيرة، فإن ذلك إنما كان تبيانًا للقرآن الكريم، وإيضاحًا لآياته، حيث أشار إلى مكانتهم عند الله تعالى في قوله جل في علاه:

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» والترمذي وصححه الألباني.

(٢) حسن: رواه الترمذي وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «الشعب»، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٨٩)، وصححه ووافقه الذهبي (٣/١٥٠)، وضعفه الشيخ الألباني.

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٢٠٥)، و«السنة» (١٣٥١)، وقال الترمذي: هو أحسن شيء في هذا الباب.

(٤) صحيح: رواه مسلم وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٦١٢٦).

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والرجس هو الذنب الذي يلوث الجسم بأقذار الخطايا الموجبة للإثم، وقد طهرهم من ذلك تطهيرًا بليغًا.

والله جل في علاه يريد للمؤمنين كلهم ذلك، ولكنه يريد ذلك لأهل البيت على وجه الخصوص، لأنهم بيت النبوة.

وقد كان السلف الصالح - رضوان الله عليهم - من أحرص الناس على الإحسان إلى قرابة الرسول ﷺ منهم على قرابتهم الخاصة، كما قال سيدنا أبو بكر صديق هذه الأمة: «ارقبوا محمدًا في أهل بيته».

وورد أنه قال لعليٍّ ﷺ: «والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي».

وقال سيدنا عمر - فاروق هذه الأمة - للعباس بن عبد المطلب ﷺ: «والله لولا إسلامك يوم أسلمت، كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك، كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب».

قال الحافظ ابن كثير:

«فحال الشيخين - رضي الله عنهما - أي أبو بكر وعمر، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، قال: ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، وعن سائر الصحابة أجمعين».

ومع هذه المكانة الرفيعة، والمنزلة العالية، فإن سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين، يشفق عليهم من الحساب يوم القيامة، لأنه لا يسعد إلا المتقون ولا يفوز إلا الصالحون، فيقول لهم:

«اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئًا.. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله، لا أغنى عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا»[1].

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وغيرهم.

قال سبحانه: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وهذا أطول الناس عمرًا نوح عليه السلام حين أغرق الله قومه ونجاه الله والمؤمنون، يخاطب ربه قائلاً: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥] فيجيبه الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [هود: ٤٦] ، وفي قراءة ﴿عَمِلَ﴾ بكسر الميم ﴿غير صالح﴾ أي كانت أعماله غير صالحة.

ولما طاف **الإمام الأصمعي** - رحمه الله - ليلة بالكعبة المباركة، وجد شابًّا متعلقًا بأستار الكعبة، وهو يناجي ربه قائلاً:

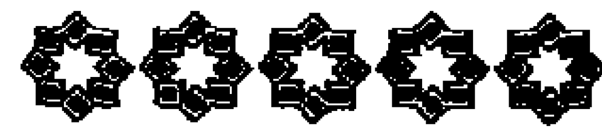
ألا أيها المقصود بكل حاجة ... شكوت إليك الضر فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أن تكشف كربتي ... فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتيت بأعمال قباح رديئة ... وما في الورى عبدٌ جنى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي فيك؟ أين مخافتي؟

قال الأصمعي: وما زال هذا شأنه، يبكي ويتضرع حتى خر مغشيًّا عليه، فدنوع منه لأخفف عنه وطأة الحزن، وأخذت رأسه، فجعلتها في حجري، وتأملت في وجهه، فإذا هو زين العابدين من آل بيت رسول الله ﷺ فلما أحس قال: من هذا الذي يتهجم علينا في خلوتنا بحبيب قلوبنا؟

فقلت له: عبدك الأصمعي، وأخذتُ أروح عن نفسه ما يجد من الهول والخوف وقلت له: سيدي ما هذا البكاء؟ وما هذا الحزن، وأنت من أهل بيت النبوة والرسالة؟ أليس الله قد أخبركم أنه قد أذهب عنكم كل رجس، وطهركم تطهيرًا؟ ألم ينزل في حقكم قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، فقال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فاشتد بكاؤه، وقال: هيهات هيهات يا أصمعي، إن الله خلق الجنة، وأعدها لمن

أطاعه، ولو كان عبدًا حبشيًّا، وخلق النار وأعدها لمن عصاه، ولو كان حرًّا قرشيًّا، أو ما قرأت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٤].



المبحث الرابع

الفكاهة والمزاح

فما هي الفكاهة؟

جاء في مختار الصحاح أن الفكاهة - بالضم-: المزاح، وبالفتح: مصدر فكه الرجل من باب سلم، فهو فكهٌ، إذا كان طيب النفس مزّاحًا.

والفاكه: المزاح، ففي حديث أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ من أفكه الناس.

وفي حديث زيد بن ثابت ﷺ: «أنه كان من أفكه الناس، إذا خلا مع أهله».

ويقُال: فاكهتُ القوم مفاكهة، أي مازحته بملح الكلام.

وأما المزاح فهو: الدعابة، نقيض الجد.. يُقال: مزحَ يمزحُ مزحًا.

وقد مازحه ممازحة ومُزاحًا، إذا داعبته.

والمزاح: هو المباسطة إلى الغير على جهة التلطف والاستعطاف، دون أذية.

والمزاح المعتدل بلسم للهموم، ومرهم للأحزان، وله قوة عجيبة في فرح الروح وجذل القلب.. وتأمل ما حدثنا به أحد أصحاب النبي ﷺ وكان يسمى (حنظلة) يقول: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة رقَّت لها القلوب، وذرفت منها العيون، وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلي، فدنت مني امرأتي فجرى بيننا من حديث الدنيا، فنسيت ما كنَّا عليه عند رسول الله ﷺ وأخذنا في الدنيا، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي: قد نافقت، حيث تحول عني ما كنت فيه من الخوف والرقة، فخرجت وجعلت أنادي: نافق حنظلة.. فدخلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول: نافق حنظلة.. فقال رسول الله ﷺ: **«كلا، لم ينافق حنظلة»**.

فقلت: يا رسول الله ﷺ، كنا عندك، فوعظتنا موعظة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، وعرفنا أنفسنا، فإذا رجعنا إلى بيوتنا، عافسنا الأزواج والضيعة، ونسينا كثيرًا.. فماذا قال النبي الأكرم والرسول الأعظم؟

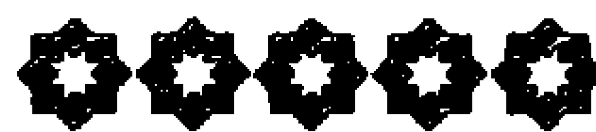
قال ﷺ: «**لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي، لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم.. ولكن يا حنظلة.. ساعة وساعة**»(١).

فالإسلام بُني على الوسطية والاعتدال في العقائد والعبادات، والأخلاق والسلوك، فلا عبوس مخيف قاتم، ولا قهقهة مستمرة عابثة، ولكنه جدّ وقور، وخفّة روح واثقة.

وعكس المزاح والتبسم: انقباض الوجه والعبوس، وهو علامة على تذمُّر النفس، وغليان الخاطر، وتعكر المزاج.

والنفس الباسمة ترى الصعاب فيلَذُّها التغلب عليها، تُنظرها فتتبسَّم، وتعالجها فتتبسم، وتتغلب عليها فتتبسم.

فهيا بنا لنرى طبيب القلوب ﷺ كيف كانت تواجهه الصعاب والجراح والآلام والأحزان، فيبتسم، وربما يضحك حتى تبدو نواجذه..



(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥١٤)، وفي «غاية المرام» (٣٧٣)، و«المشكاة» (٢٢٦٨).

مزاح النبي ﷺ

ومزاح النبي ﷺ قد وردت به أخبار كثيرة، كما سيأتي بيانه:

قال الخطابي - رحمه الله تعالى - :

سُئل بعض السلف عن مزاحه ﷺ فقال: كانت له مهابة، فلذا كان ينبسط للناس بالدعابة.

وقال ابن قتيبة: إنما كان يمزح لأن الناس مأمورون بالتأسي به، والاقتداء بهديه، فلو ترك الطلاقة والبشاشة، ولزم العبوس والقطوب لأخذ الناس أنفسهم بذلك على ما في مخالفة الغريزة من المشقة والعناء، فمزح ليمزحوا[(١)].

لكن كان مزاحه ﷺ من الطراز الرفيع اللائق به، فقد كان يمزح، ولكنه لا يقول إلا حقًّا، قال أبو هريرة رضي الله عنه : يا رسول الله، إنك تداعبنا.

فقال: «**إني لا أقول إلا حقًّا**»[(٢)].

ولهذا نجد الفكاهة المروية عنه ﷺ كلها من الكناية أو التورية ولم يكن مزاحه ﷺ ولا فكاهته يدخل في مجال الاستهزاء بالغير أو تحقيرهم، أو تجريحهم، أو تسفيههم، ولم يكن يعتمد على الكذب كوسيلة لإضحاك الغير، لقد كان بعيدًا عن هذا كل البعد، ولذلك وضع أساسيات للمزاح في أكثر من حديث.. فقال ﷺ : «**ويل للذي يُحدِّث القوم، ثم يكذب ليضحكهم، ويلٌ له، ويلٌ له**»[(٣)].

وقال: «**إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا، إلا ليضحك بها القوم فإنه ليقع منها أبعد من السماء**».

---

(١) «جمع الوسائل في شرح الشمائل» للقاري (٢/٢٩).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري في «الأدب المفرد» وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٢٦)، و«صحيح الجامع» (٢٤٩٤).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧١٣٦).

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها من أبعد من الثُريا»**.

كما علَّم أصحابه الكرام عدم الضحك بترويع المسلم، فقد كانوا يسيرون معه يومًا من الأيام، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى نبل معه فأخذها، فلما استيقظ الرجل، فزع، فضحك القوم، فقال رسول الله ﷺ : **«ما يضحككم؟»** فقالوا: لا، إلا أنّا أخذنا نبل هذا ففزع.

فقال رسول الله ﷺ : **«لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا»**.

وعلَّمهم أن الضحك الذي يكون فيه استهزاء بالمسلم، أو تحقيره، أو السخرية به، أو الضحك من خلقته لا يصح، ولا ينبغي أن يفعله مسلم..

ففي الحديث أن ابن مسعود ﷺ كان يجتنى سواكًا من الآراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال ﷺ : **«ممَّ تضحكون؟»** قالوا: يا رسول الله من دقة ساقيه.

فقال: **«والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من جبل أُحُد»**.

ورغم أن النبي ﷺ كان يمزح، إلا أنه مزاح لا يجعل الناس يستخفون بصاحبه، فلذلك كان ﷺ جليلاً في عيون أصحابه حبيبًا إلى قلوبهم، ولذلك قال عليٌّ بن أبي طالب ﷺ في وصفه:

«من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه».

وقال أحد الواصفين له: « لم أر قبله ولا بعده مثله».

وقال عمرو بن العاص ﷺ وهو في آخر لحظات حياته، وهو يودع الحياة، محدثًا ابنه:

«ما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه».

وقد استرعت هذه المهابة نظر عروة بن مسعود قبل أن يُسلم، فإنه كان فيمن سفروا

بين النبي ﷺ وقريش، يوم الحديبية، فعاد إلى قريش، قائلاً لهم:

«والله ما أمر أمرًا إلا ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يمدون إليه النظر تعظيمًا له، ولقد وفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، فما رأيتُ ملكًا قط يعظمه أصحابه مثل ما يعظم محمدًا أصحابه».

وذكر ابن مسعود ﷺ أنَّ رجلاً قام بين يديه، فأُرعد - من مهابته - فقال له رسول الله ﷺ : «هونْ عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة، كانت تأكل القديد».



أمثلة من فكاهة النبي ﷺ ومزاحه

أخي المسلم.. أختي المسلمة..

علمت مما سبق أن النبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا الحق فهيا بنا لنقطف من بستان السنة المطهرة زهرات عبقات من ورود فكاهته:

١- عن أنس ﷺ أنَّ رجلاً استحمل رسول الله ﷺ قائلاً له: يا رسول الله، احملني، فقال له: «**إني حاملك على ولد ناقة**»، فقال: يا رسول الله ﷺ، وما أصنع بولد الناقة؟ قال ﷺ «**وهل تلد الإبل إلا النوق؟!**»(١).

٢- وعنه ﷺ قال: ربما قال لي النبي ﷺ: «**يا ذا الأذنين**»(٢)، أراد أن يمازحه، فقال له: «**يا صاحب الأذنين السميعتين الواعيتين لما سمعتا**» وفي هذا مدح لذكائه وفطنته.

٣- وكان لأنس بن مالك ﷺ أخ يُقال له: عُمير، وكان له نغرٌ - أي طائر صغير - يلعب به، فمات، فدخل رسول الله ﷺ يومًا فوجده حزينًا، فقال: «**ما شأنه؟**» قيل: مات نغره، فقال: «**يا أبا عمير، ما فعل النغير؟**» أراد أن يسري عنه، وأن يمازحه(٣).

٤- كان رسول الله ﷺ يُباسط أصحابه، وكان من البادية رجل يسمى (زهير) فكان يُهادي النبي ﷺ بما يستطرف من البادية، والنبي ﷺ يهديه بما يستطرف من الحاضرة. وقد جاء النبي ﷺ إلى السوق يومًا، فوجد زهيرًا قائمًا، فجاءه من قبل ظهره، وضمه بيده إلى صدره، فأحس زهير بأنه الرسول ﷺ فجعل يمسح ظهره في صدره، رجاء بركته، وجعل الرسول ﷺ يقول: «**من يشتري العبد؟**»، قال زهير: إذن تجدني كاسدًا يا رسول الله فقال ﷺ: «**لكنك عند الله لست بكاسد**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه البخاري في «الأدب المفرد» وصححه الألباني (٢٠٢)، و«صحيح سنن أبي داود» (٤٩٩٨)، وفي «مختصر الشمائل» (٢٠٣)، و«مشكاة المصابيح» (٤٨٨٦).

(٢) صحيح: «صحيح سنن الترمذي» (٣٨٢٨) ألباني، و«صحيح سنن أبي داود» (٥٠٠٢)، و«المشكاة» (٤٨٨٧).

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأبو داود، والترمذي وابن ماجه

(٤) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٢٥٨٥)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٦٨)، والألباني في «الصحيحة» (٢٠٨٧)، وذكره البيهقي في «سننه الكبرى» (٦/١٩٦).

٥- قال زيد بن أسلم: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إنَّ زوجي يدعوك، فقال ﷺ: «**ومن هو؟ أهو الذي بعينيه بياض؟**» قالت: والله ما بعينه بياض؟ فقال ﷺ: «**بلى إن بعينيه بياضًا**» فقالت: لا والله! فقال: «**ما من أحد إلا وبعينيه بياض**»(١). وأراد به البياض المحيط بحدقة العين.

٦- وذكروا أن أبا بكر خرج تاجرًا إلى بُصرى، ومعه نعيمان بن عمرو الأنصاري، وسويبط بن حرملة - وكلاهما بدري - وكان سويبط على زاد أبي بكر فجاءه نعيمان وقال له: أطعمني.. فقال: لا، حتى يأتي أبو بكر..

وكان نعيمان مزَّاحًا، فكهًا، صاحب دعابة. فقال لسويبط: لأغيظنك.. فمروا بقوم، فقال لهم نعيمان: تشتروا مني عبدًا لي؟ قالوا: نعم، فقال: إنه عبدٌ له كلام، وسيقول لكم لستُ بعبد، وإنما أنا رجل حرٌ، فإذا كنتم ستصدقونه فلا تشتروه، ولا تفسدوا عليَّ عبدي.. قالوا: بل نشتريه، ولا ننظر في قوله، فاشتروه منه بعشر قلائص، فأقبل بها يسوقها، وأقبل بالقوم حتى عقلها، ثم قال: دونكم، هو هذا، فخذوه، فجاء القوم، وقالوا له: قد اشتريناك، فقال: هو كاذب، أنا رجلٌ حرٌ.

فقالوا له: قد أُخبرنا بخبرك، فطرحوا الحبل في عنقه، وذهبوا به، فلما جاء أبو بكر أخبره نُعيمان، فذهب هو وأصحابه إلى القوم، وأخبروهم أنَّ نعيمان كان يمزح، فردوا عليهم قلائصهم، واستردوا سويبطًا منهم.

ثم قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر، فضحك رسول الله ﷺ حولاً كاملاً(٢).

٧- وعن الحسن قال: أتت عجوز، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال ﷺ: «**يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز**»، قال: فولت المرأة تبكي، قال ﷺ لأصحابه: «**أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾**»(٣) [الواقعة: ٣٥ - ٣٧].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والزبير بن بكار في [كتاب الفكاهة والمزاح] والغزالي في «الإحياء» (٣/٢٠٠٤).

(٢) حسن: رواه أحمد في «مسنده» (٢٦٥٦٦)، وحسنه حمزة الزين (١٧/٢٩٨)، ورواه ابن ماجه وابن الأثير في «أسد الغابة» (٤/٢٥٠)، وفي سنده زمعة بن صالح ضعفه أحمد وابن معين.

(٣) حسن: حسنه الألباني في «غاية المرام» (٣٧٥)، وفي «مختصر الشمائل» (٢٠٥).

٨- كانت سويداء تضحك السيدة عائشة - رضي الله عنها - فيضحك رسول الله ﷺ ثم إنه افتقدها، فقال: «**يا عائشة، ما فعلت السويداء؟**» قالت: إنها مريضة.. فذهب إليها يعودها، فوجدها في الموت.. فأمر أهلها إذا ماتت أن يخبروه، فلما توفيت أخبروه، فشهدها، وصلى عليها، وقال: «**اللهم إنها كانت حريصة على أن تضحكني، فأضحكها فرحًا**»[1].

٩- وعن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ كان جالسًا وشاتان تقترنان، فنطحت إحداهما الأخرى، فأجهضتها، فضحك رسول الله ﷺ فقيل له: ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال: «**عجبت لها، والذي نفسي بيده، ليُقادن لها يوم القيامة**»[2].

١٠- وتأمل ما حدث بين عائشة - رضي الله عنها - وسودة بن زمعة زوجا رسول الله ﷺ وهو حاضر بينهما:

تقول عائشة: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة، فصنعتُ خزيرة[3]، وجئت به، فقلت لسودة: كُلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكُلِنّ أو لألطِّخنَّ به وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته..

فأخذت بيدي من الصحفة شيئًا منه، فلطخت به وجهها، ورسول الله جالس بيني وبينها، فخفض لها رسول الله ﷺ ركبتيه، لتسقتدَّ مني، فتناولت من الصحفة شيئًا، فمسحت به وجهي، وجعل رسول الله يضحك[4].

١١- وهذه هي آخر ابتسامة للرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ كما روى عنه خادمه أنس بن مالك ﷺ قال: كان أبو بكر الصديق ﷺ يصلي بهم في وجع رسول الله ﷺ الذي تُوفِّيَ فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين، وهم صفوف في الصلاة، كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة، فنظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف[5]، ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكًا.. الحديث.. وفي آخره، فتوفي رسول الله ﷺ من يومه ذلك[6].

---

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي (٣/٣٠٧)، ولم أجده في كتب السنة.
(٢) حسن: رواه أحمد في «مسنده» (٢١٤٠٣).
(٣) خزيرة: حساء من دقيق ولحم.
(٤) إسناده صحيح: أخرجه أبو يعلى والنسائي في «الكبرى» والزبير بن بكار في «الفكاهة»، والذهبي في «سير أعلام النبلاء».
(٥) مصحف: أي من الصفاء والحسن والجمال البارع للبشرة.
(٦) صحيح: رواه مسلم (٤١٩).

الحمد لله.. يا إلهي..

يا منزل الآيات والفرقان ... بيني وبينك حرمة القرآن
اشرح به صدري لمعرفة الهدى ... واعصم به قلبي من الشيطان
يسر به أمري واقض مآربي ... وأجر به جسدي من النيران
واحطط به وزري وأخلص نيتي ... وأشدد به أزري وأصلح شأني
واكشف به ضري وحقق توبتي ... وأربح به بيعي بلا خسران
طهر به لبي وصفِّ سريرتي ... أجمل به ذكري وأعلِّ مكاني
واقطع به طمعي وشرف همتي ... كثر به روعي واحيي جناني
أسهر به ليلي وأظم جوارحي ... أسبل بفيض دموعها أجفاني
أمزجه يا رب بلحمي مع دمي ... واغسل به قلبي من الأضغان
أنت الذي صورتني وخلقتني ... وهديتني لشرائع الإيمان
أنت الذي علمتني ورحمتني ... وجعلت صدري واعي القرآن
أنت الذي أطعمتني وسقيتني ... من غير كسب يد ولا دكان
وجبرتني وسترتني ونصرتني ... وغمرتني بالفضل والإحسان
أنت الذي آويتني وحبوتني ... وهديتني من حيرة الخذلان
وزرعت لي بين القلوب مودة ... والعطف منك برحمة وحنان
ونشرت لي في العالمين محاسنًا ... وسترت عن أبصارهم عصياني
وجعلت ذكري في البرية شائعًا ... حتى جعلت جميعهم إخواني
والله لو علموا قبيح سريرتي ... لأبى السلام عليَّ من يلقاني
ولأعرضوا عني وملوا صحبتي ... ولبؤت بعد كرامة بهوان
لكن سترت معايبي ومثالبي ... وحلمت عن سقطي وعن طغياني
فلك المحامد والمدائح كلها ... بخواطري وجوارحي ولساني
ولقد مننت عليَّ ربي بأنعم ... ما لي بشكر أقلهن يدان

المبحث الخامس

خلق البشاشة

فما هي البشاشة؟

البشاشة في اللغة:

البشاشة مصدر بش ومعناها: اللقاء الجميل، والضحك إلى الإنسان سرورًا.

بش يبش بشاشة: طلاقة الوجه، والبش: اللطف في المسألة، والإقبال على الرجل..

وقيل: هو أن يضحك له.. وقيل: فرحُ الصديق بالصديق، ولقاؤه لقاءً جميلاً.

ويُقال: رجل هش بش: أي طلق الوجه طيب.

والبشاشة في اللقاء: الفرح بالمرء، والانبساط إليه، والأنس به.

واصطلاحًا:

هي سرور يظهر في الوجه يدل به على ما في القلب من حب اللقاء والفرح بالمقابلة.

وقد جاءت هذه المادة (ب ش) في القرآن الكريم بمعناها، كما في قوله تعالى:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

وقال: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الغاشية: ٨، ٩].

وقال: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المطففين: ٢٤].

وقال: ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الانشقاق: ٩].

وإذا كان البشر حميدًا فهو أحمد من رسول الله ﷺ أحمد، لأنه نشأ على الأخلاق الكريمة، ورباه مولاه أسمى تربية، وعلمه أحسن تعليم.

كان رسول الله ﷺ سمح النفس، طاهر القلب، عظيم الصبر، راسخ الحلم، كثير العفو، جمَّ التواضع، موصول الرحمة، حلو الشمائل كلها..

مظاهر خلق البشاشة

في حياة الرسول ﷺ

وكان رسولنا ﷺ ضحوكًا بشوشًا، طلق الوجه، بسَّامًا، كان أجمل الناس ودًّا، وأحسنهم وفاءً وعهدًا، وأوفرهم للحقوق ذكرًا، وأكثرهم تواضعًا، وأجزلهم عفة وصيانة، وأنضرهم بهجة، وأصدقهم لهجة، وأجملهم سرًّا وإعلانًا، وأغزرهم فضلاً وإحسانًا، ذا مروءة وافرة.

لم يكن بالجافي ولا المهين، وسع الناس بسطه وخلقه، فصار للجميع أبًا وأخًا، وصاروا عنده في الحق سواء، يصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، يقبل عذر المعتذر، ويأمر بالحسنة ويدني أهلها، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكنه يعفو ويصفح، ويتجاوز عن المسيء ويسمح، ويدفع بالتي هي أحسن، ويأتي بالمعروف ما أمكن[(١)].

كان وافر الحلم والاحتمال، كثير الفضل والإفضال: يصل من قطعه، ويعطي من منعه، ويبذل لمن حرمه، ويعفو عمن ظلمه، ويُغضى طرفه عن القذى، ويحبس نفسه عن الأذى.. لا يزيد مع أذى الجاهل إلا صبرًا وحلمًا، ولم يقابل من شتمه، ولا من أراده بسوء طولاً وفضلاً..

شهادة أصحابه له بأنه كان بشوشًا ضحوكًا:

١- شهدت له أقرب الناس إليه، السيدة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - فقالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا[(٢)] قط، ضاحكًا حتى أرى منه لهواته[(٣)]، إنما كان يبتسم[(٤)].

---

(١) «محمد المثل الكامل» بتصرف محمد أحمد جاد المولى، ط/ عالم الكتب.

(٢) مستجمعًا: أي مبالغًا في الضحك.

(٣) لهواته: أي اللحمة التي بأعلى الحنجرة من أقصى الفم.

(٤) صحيح: رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والحاكم والطبراني في «الأوسط».

٢- وقال جابر ﷺ: كان رسول الله ﷺ طويل الصمت، قليل الضحك[١].

وفي رواية أنه:

٣- لما سئل جابر ﷺ أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، فكان طويل الصمت، قليل الضحك، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر، وأشياء من أمورهم، فيضحكون، وربما تبسم[٢].

٤- وقال جرير بن عبد الله البجلي ﷺ: ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي.. وفي رواية عنه: إلا ضحك[٣].

٥- وفي حديث عبد الله بن الحارث الزبيدي، قال: ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ[٤]. وفي رواية: ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسمًا[٥].

٦- وابن عباس - رضي الله عنهما - يقول: كان رسول الله ﷺ حسن المضحك، وقال: كان أجود الناس أبش[٦].

٧- وقال كعب بن مالك ﷺ: كان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، كأنَّه قطعة قمر، وكنَّا نعرف ذلك منه[٧].

والذي يظهر من مجموع هذه الأقوال، أنه ﷺ كان في معظم أحواله لا يزيد على التبسم، وربما زاد على ذلك فضحك، والمكروه من ذلك هو الإكثار منه، أو الإفراط فيه، لأنه يذهب الوقار.

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده».

(٢) حسن صحيح: رواه الترمذي (٢٨٥٠)، وقال: حسن صحيح، و«مختصر الشمائل» (٢١١)، و«السلسلة الصحيحة» (٤٣٤)، و«الثمر المستطاب» (٨٣٢/٢).

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٤) صحيح: رواه البيهقي في «الشعب» (٨٠٤٧)، وأحمد في «مسنده» والترمذي، وصححه الألباني في «مختصر الشمائل» (١٩٤).

(٥) صحيح: صححه الألباني في «مختصر الشمائل» (٢٢٥).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مسنده» (٤٤٦/٧).

(٧) صحيح: رواه البخاري في «المناقب».

قال ابن بطال: والذي يُقتدى به من فعله ما واظب عليه من ذلك، ففي حديث أبي هريرة ﷺ رفعه إلى النبي ﷺ : «**لا تكثر من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب**»[(١)].

مواقف ضحك فيها الرسول ﷺ :

١- عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنَّ يهوديًّا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إنَّ الله يمسك السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع ثم يقول: أنا الملك..

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر: ٦٧]، ضحك تعجبًا وتصديقًا[(٢)].

٢- وعند الترمذي: أنَّ اليهودي قال: يا أبا القاسم، إذا وضع الله السموات على ذه، والأرضين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه - ويشير إلى أصابعه - فضحك رسول الله ﷺ[(٣)].

٣- ولما جاءته سهلة بنت سهيل فقالت: يا رسول الله، إني أرى في وجه أبي حذيفة من دخول سالم شيء - أي من الغيرة - وهو حليفه، فقال النبي ﷺ لها: «**أرضعيه**».

قالت: كيف أرضعه، وهو رجل كبير.. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**قد علمت أنه رجل كبير**» ثم ضحك رسول الله ﷺ[(٤)].

٤- وعن عبد الله بن مغفل ﷺ قال: أصبتُ جرابًا[(٥)] من شحم يوم خيبر، فالتزمته، فقلت: لا أعطي اليوم أحدًا من هذا شيئًا، فإذا رسول الله ﷺ مبتسمًا[(٦)].

---

(١) حسن: حسنه الترمذي والألباني.

(٢) صحيح: رواه البخاري.

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٢٤٠).

(٤) صحيح: رواه مسلم في [كتاب الرضاع].

(٥) جرابًا: أي إناء من الجلد يوضع فيه الزاد.

(٦) صحيح: رواه مسلم وأحمد وأبو داود والدارمي.

٥- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال ﷺ: «**أتدرون مما أضحك؟**» فقال الصحابة - رضوان الله عليهم -: الله ورسوله أعلم.

قال ﷺ: «**من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ فيقول الله: بلى، فيقول العبد: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، فيقول الله تعالى: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا.**

قال: فيختم على فِيه فيُقال لأركانه - أي جوارحه - : **انطقي، فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام.**

فيقول العبد لأركانه: بُعدًا لكُنَّ وسُحقًا، فعنكن كنتُ أناضل»(١).

٦- وعن أبي ذر الغفاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيُقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه.. فتُعرض عليه، ويخبأ عنه كبارها، فيُقال: عملت يوم كذا وكذا، وهو مقرٌ لا ينكر، وهو مشفق من الكبار..**

فيقال: أعطوه مكان كل سيئة حسنة..

قال: فيقول: إنَّ لي ذنوبًا ما أراها؟!»(٢).

قال أبو ذر: فرأيتُ رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

٧- وعن أنس ﷺ قال: حدثتني أم حرام أنَّ النبي ﷺ قال يومًا في بيتها - أي نام وقت الظهيرة - فاستيقظ وهو يضحك، قالت: يا رسول الله ما يضحكك؟

قال: «**عجبت من قوم من أمتي يركبون البحر كالملوك على الأسرة**».

فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم: فقال: «**أنتِ منهم**».

ثم نام، فاستيقظ، وهو يضحك، فقال مثل ذلك مرتين، أو ثلاثًا، قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فيقول: «**أنتِ من الأوَّلين**».

---

(١) صحيح: رواه مسلم وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٥٥٤)، و«صحيح الترغيب» (٣٦١٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم وأحمد في «مسنده» وذكره الألباني في «الصحيحة» (٣٠٥٢)، و«سنن الترمذي» و«مختصر الشمائل المحمدية»، و«مشكاة المصابيح».

فتزوج بها عُبادة بن الصامت رضي الله عنه فخرج بها إلى الغزو، فلما رجعت قُربت دابةٌ لتركبها، فوقعت، فاندقت عنقها(١).

٨- وعن أنس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟

قال: «**أنزلت عليَّ آنفًا سورة**، فقرأ: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ » [الكوثر: ١ - ٣].

ثم قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**» فقلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم**»(٢).

٩- ولما قدم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من أرض الحبشة، لقيه رسول الله ﷺ فقال له: «**حدثني بأعجب شيء رأيته بأرض الحبشة**» فقال: مرتْ امرأة على رأسها مكتل فيه طعام، فمرَّ بها رجلٌ على فرس فأصابها، فجعلت تنظر إليه، وهي تعيده في مكتلها، وهي تقول: ويل لك من يوم يضع الملك كرسيه، فيأخذ للمظلوم من الظالم، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال:

«**كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفها من شديدها حقه، وهو غير متعتع**»(٣).

١٠- وعن زيد بن أرقم قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ فجاء رجل من اليمن، فقال: إنَّ ثلاثة نفر من أهل اليمن أتوا عليًّا يختصمون إليه في ولد، وقد وقعوا على امرأته في طهر واحد، فقال لاثنين منهما: «**طيبا بالولد**» فغليا، فقال: «أنتم شركاء متشاكسون إني مقرع بينكم فمن قرع فله الولد؛ وعليه لصاحبيه ثلثا الدية» فأقرع بينهم، فجعله لمن قرع.. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه(٤).

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٤٩٠)، وابن ماجه (٢٧٧٦) ألباني، والترمذي (١٦٤٥) ألباني، والنسائي والمشكاة (٥٨٥٩)، و«صحيح الترغيب» (١٣٤٢).

(٢) صحيح: حسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٧٤٧)، وصححه في «سنن النسائي» (٩٠٤).

(٣) صحيح: صححه الألباني في «تخريج السنة» (٥٨٢).

(٤) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٢٦٩)، ورواه النسائي وابن ماجه.

١١- وضحك حتى بدت نواجذه حين جاءه رجل أفطر في نهار رمضان، وقال له: هلكت يا رسول الله، قال: «**وما أهلكك؟**». قال: جامعت زوجتي في نهار رمضان، فأمره النبي ﷺ أن يعتق رقبة، أو يصوم شهرين متتابعين، أو يطعم ستين مسكينًا، فقال: لا أجد فقال له رسول الله ﷺ : «**اجلس**» فأتاه بعرق فيه تمر فقال: «**خذ هذا فتصدق به**» فقال: يا رسول الله، ما أحد أحوج مني.. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت أنيابه(١).

١٢- وضحك من الأعرابي الذي دخل مسجده المبارك، فقال: اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد معنا، فضحك وقال له: «**لقد احتظرت واسعًا**»(٢).

١٣- وضحك من الرجل الذي ظاهر من امرأته - أي قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي - ثم غشيها قبل أن يُكفِّر، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له.. قال: «**ما حملك على ذلك؟**» قال: يا رسول الله، رأيت بياض حجليها في القمر، فلم أملك نفسي أن وقعت عليها.. فضحك رسول الله، وأمره أن لا يقربها حتى يكفر(٣).

١٤- وضحك حين شكى إليه أصحابه أن عمرو بن العاص ﷺ صلى بهم وهم في غزوة ذات السلاسل، بعدما احتلم، فأشفق على نفسه من الاغتسال لبرودة الماء، فقال ﷺ: «**يا عمرو، صليتَ بأصحابك وأنت جنب؟**» فأخبره، ثم قال: إني سمعت الله يقول(٤): ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

١٥- وتبسم من صهيب ﷺ عندما قدم على النبي ﷺ وكان بين يديه خبزٌ وتمر، فقال له النبي ﷺ : «**ادن، فكُل**» يقول: فأخذت آكل من التمر..

فقال النبي ﷺ: «**تأكل تمرًا، وبك رمدٌ**» قال: فقلت: إني أمضغ من ناحية أخرى، فتبسم رسول الله ﷺ(٥).

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٣٩٢).

(٢) حسن صحيح: قاله الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» للألباني (٥٢٩).

(٣) حسن: حسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٦٥)، والترمذي و«المشكاة» (٣٣٠٢).

(٤) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٣٤)، و«الثمر المستطاب» (٣٨/١).

(٥) حسن: حسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٤٣).

١٦- وتبسم ضاحكًا من عائشة - رضي الله عنها - حين رجع إليها من جنازة كان يشيعها إلى البقيع، فوجدها تتألم من الصداع، وتقول: وارأساه، فقال: «**بل أنا يا عائشة وارأساه؟**» قال: «**وما ضرك لو مت قبلي، وغسلتك وكفنتك، وصليت عليك، ودفنتك؟**» قلت: لكأني بك، والله لو فعلت ذلك لرجعت إلى بيتي فعرست فيه ببعض نسائك، فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم بدئ في وجعه الذي مات فيه[1].

١٧- وعن عثمان بن عفان ﷺ أنه دعا بماء، فتوضأ، فتمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثًا، وذراعيه ثلاثًا، ومسح برأسه، وظهر قدميه، ثم ضحك، فقال لأصحابه: ألا تسألوني عمَّا أضحكني؟

فقالوا: ممَّ ضحكت يا أمير المؤمنين؟

قال: رأيت رسول الله ﷺ دعا بماءٍ قريبًا من هذه البقعة، فتوضأ، كما توضأت، ثم ضحك، فقال: «**ألا تسألوني ما أضحكني؟**» فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟

فقال: «**إنَّ العبد إذا دعا بوضوء، فغسل وجهه حطَّ الله عنه كل خطيئة أصابها بوجهه، فإذا غسل ذراعيه، كان كذلك، وإن مسح برأسه كان كذلك، وإذا طهر قدميه كان كذلك**»[2].

وفي رواية أخرى أنه قال: «**هل تدرون مما ضحكت؟**».

فقالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**إنَّ العبد إذا توضأ فأتم وضوءه، ثم دخل في صلاته، فأتم صلاته، خرج من صلاته، كما خرج من بطن أمه من الذنوب**»[3].

١٨- وضحك ﷺ من حال الشيطان حين يغفر الله تعالى لعباده يوم عرفة، فقد دعا ﷺ عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة، وأكثر الدعاء، فأجابه الله تعالى، أن قد فعلت،

---

(١) حسن: حسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٩٧١).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٤١٥)، وصححه أحمد شاكر (٣٤٠/١)، وذكره المنذري في «الترغيب» (٩٤/١)، وقال: رواه أحمد بإسناد جيد وأبو يعلى والبزار بإسناد صحيح.

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٤٣٠)، وصححه أحمد شاكر (٣٤٨/١).

وغفرت لأمتك.. ثم دعا غداة المزدلفة، وأكثر الدعاء، ثم تبسم النبي ﷺ فقال بعض أصحابه: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ضحكت في ساعة لم تكن تضحك فيها، فما أضحكك أضحك الله سنك؟

قال ﷺ: **«تبسمتُ من عدو الله إبليس حين علم أن الله ﷻ استجاب لي في أمتي، وغفر للظالم، أهوى يدعو بالثبور والويل، ويحثو التراب على رأسه، فتبسمتُ مما يصنع جزعه»**[1].

١٩- وضحك من القوم حين أخبروه ﷺ أنَّ ناسًا من أصحابه أتوا على حي من أحياء العرب، فلم يضيفوهم، فبينما هم كذلك إذ لُدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء، أو راقٍ؟

فقالوا: إنكم لم تضيفونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم قطيعًا من الشاء، فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه، ويتفل، فبرأ، فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ فسألوه، فضحك.. وقال: **«وما أدراك أنها رقية؟! خذوها واضربوا لي بسهم»**[2].

وعند الترمذي أنها كانت ثلاثين شاة، وأنه قرأ سورة الفاتحة سبع مرات، وكذا عند ابن ماجه في سننه.



(١) حسن رواه أحمد في «مسنده» (١٦١٥٩)، وحسنه حمزة الزين (٤٩١/١٢)، ورواه ابن ماجه وضعفه الألباني لكنه حسن، فأبو إسحاق البصري ثقة له أوهام وهو أحسن من غيره وحديثه يرقى إلى الصحيح.

(٢) صحيح رواه البخاري والترمذي وأبو داود وأحمد وابن ماجه.

البابُ السادس

جملة من أخلاق الرسول ﷺ

جملة من أخلاق الرسول ﷺ

أخي المسلم ... أختي المسلمة..

والرسول الأعظم، والنبي الأكرم قدوة لأهل الإيمان في جميع شئون حياته في نومه، وفي يقظته، وفي سفره، وفي إقامته، وفي عبادته، وفي مأكله ومشربه، وكل شيء، والمؤمن الفطن اليقظ هو الذي يتتبع أحوال رسوله وحبيبه ﷺ قال تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

كيف كان نومه؟

عن البراء ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يتوسد يده، عند منامه، تحت خده، ويقول: «**اللهمَّ قني عذابك، يوم تبعث عبادك**»[١].

وكان يضع يده اليمنى تحت خده الأيمن، وينام على جنبه الأيمن، فعن عبيدة بن عبد الله عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ : إذا اضطجع لينام، وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن، وقال: «**اللهمَّ قني عذابك يوم تجمع عبادك**»[٢].

وكان يدعو الله تعالى قبل النوم، كما في حديث البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام قال: «**باسمك أحيا، وباسمك أموت**» وإذا أصبح أو قام من فراشه قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور**»[٣].

وكان كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - إذا آوى إلى فراشه، نفث في كفيه

(١) صحيح بشواهده: رواه أحمد والترمذي وأبو الشيخ في «أخلاق النبي».

(٢) صحيح: صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود.

بقل هو الله أحد، والمعوذتين جميعًا، ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده[١].

كيف كان أكله ﷺ؟

يوضح لنا أبو هريرة رضي الله عنه ذلك فيقول: «ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه»[٢].

وكان يأكل من بين يديه.. قال عبد الحكم: رآني عبد الله بن جعفر، وأنا غلام وأنا آكل من ههنا، ومن ههنا، فقال: إن رسول الله ﷺ كان إذا أكل لم تعد يده بين يديه[٣].

وكان إذا بدأ في الطعام سمَّ الله تعالى في أوله، وحمد الله في آخره.

وكان يقول: «**إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله، فليقل: بسم الله أوله وآخره**»[٤].

وكان لا يأكل متكئًا قط، كما في حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: ما رُئي رسول الله ﷺ يأكل متكئًا قط[٥].

وكان إذا أكل لعق أصابعه، كما في حديث جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا أكل لعق أصابعه[٦]. وكان يأكل بثلاثة أصابع.. وكان يأكل بيده اليمنى، لأن الشيطان هو الذي يأكل بشماله، وكان يحث أصحابه على ذلك، كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله**»[٧].

وكان لا يأكل طعامًا فيه ثوم ولا بصل، ونهى عن أكلهما، فقال: «**من أكل ثومًا أو**

---

(١) صحيح: رواه البخاري.

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود.

(٣) صحيح: رواه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤/٤٥٥٩).

(٤) صحيح: رواه مسلم والألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٧٧٦).

(٥) صحيح: رواه مسلم والألباني في «صحيح سنن أبي داود» للألباني (٣٧٧٠).

(٦) صحيح: رواه مسلم بنحوه وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» (٥٩٥).

(٧) صحيح: رواه مسلم وأبو داود.

بصلاً، فليعتزلنا»(١).

وكان يأكل القثاء بالرطب(٢)، وكان يأكل البطيخ بالرطب، ويقول: «نكسر حرَّ هذا ببرد هذا، وبرد هذا بحرَّ هذا»(٣).

وكان يحب التمر والزبد(٤).

وكان إذا أكل أو شرب قال: «الحمد لله الذي أطعم وسقى، وسوّغه، وجعل له مخرجًا»(٥). وكان يأكل السمن والجبن، ولا يأكل الضب..

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: أُهدي لرسول الله سمنٌ وأقط وضبٌ، فأكل من السمن والأقط، ثم قال عن الضب: «إن هذا لشيء ما أكلته قط، فمن شاء أن يأكله فليأكله»(٦).

كيف كان شربه ﷺ؟

كان يمسك بيده اليمنى، ويسم الله، ويشرب، وكان يتنفس في الإناء ثلاثًا، ويقول: «هو أهنأ وأبرأ وأشفى»(٧)، ويحمد الله تعالى بعد كل نفس لحديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النبي ﷺ كان يشرب في ثلاثة أنفاس، إذا أدنى الإناء من فيه، يسم الله، فإذا أخرجه حمد الله، يفعل ذلك ثلاثًا(٨).

وكان لا ينفخ في الإناء، ونهى عنه، كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس في الإناء - أي في داخله - أو ينفخ فيه(٩).

---

(١)صحيح : «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٢٢)

(٢)صحيح : رواه البيهقي وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٣٥).

(٣)حسن : حسنه الألباني في «الصحيحة» (٥٧) و«سنن أبي داود» (٣٨٣٦).

(٤)صحيح : صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٣٧).

(٥)صحيح : صححه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٦١)، و«صحيح سنن أبي داود» (٣٨٥١).

(٦)صحيح : رواه مسلم وأبو داود والبخاري وأحمد.

(٧)صحيح : رواه مسلم وأبو داود.

(٨)حسن : رواه الطبراني في «الأوسط» وذكره ابن حجر في «الفتح» (٥٦٣١/١٠).

(٩)صحيح : رواه مسلم وأبو داود وغيرهما.

وكان إذا شرب أو أكل طعامًا يقول: «**اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيرًا منه**» إلا اللبن. لحديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «**إذا أكل أحدكم طعامًا، فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا خيرًا منه، وإذا سقي لبنًا، فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه**»(١).

وكان إذا شرب ومعه أحد، أعطى الأيمن فالأيمن، لحديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أُتي بلبن قد شيب بالماء، وعن يمينه أعرابي، وعن يساره أبو بكر، فشرب رسول الله ﷺ ثم أعطى الأعرابي، وقال: «**الأيمن فالأيمن**»(٢).

وكان يشرب قائمًا أو قاعدًا، فعن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ شرب قائمًا(٣).

وعن عائشة بنت سعد، عن أبيها، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائمًا(٤)، وهذا محمول على الجواز، أما النهي الوارد كما في الحديث الآتي، فمحمول على الكراهة التنزيهية.. فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن يشرب الرجل قائمًا(٥).

وكان أحب الماء إليه البارد الحلو، كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ البارد الحلو»(٦).

وكان يستعذب له الماء من بيوت السقيا(٧).

وكان لا يرد اللبن، ولذلك قال: «**ليس يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن**»(٨).

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - موثوقًا: «**ثلاثة لا تُرد: اللبن، والوسادة،**

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه وأبو داود وحسنه الألباني.

(٢) صحيح: رواه البيهقي وأبو داود وصححه الألباني (٣٧٢٦).

(٣) حسن: رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في «الأوسط» وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/٨٠): رجال البزار رجال الصحيح.

(٤) رجاله ثقات: رواه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» (٧١١)، والهيثمي في «المجمع».

(٥) صحيح: رواه مسلم وأبو داود.

(٦) صحيح: رواه أحمد والترمذي وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي» و«صحيح سنن أبي داود».

(٧) حسن: رواه ابن حبان وأحمد وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٧٣٥).

(٨) حسن: رواه ابن ماجه وأحمد وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨١)، و«صحيح سنن أبي داود» (٣٧٣٠).

والدهن»[1]. وأنشد بعضهم:

قد كان من سيرة خير الورى صلى عليه الله طول الزمن
أن لا يرد الطيب والمتكا واللحم أيضًا يا أخي واللبن

قال ابن القيم: ولم يكن يشرب على طعامه لئلا يفسده، ولاسيما إذا كان الماء حارًّا، أو باردًا.

فكيف كان ثيابه؟

كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص[2].

وعن قتادة قال: قلنا لأنس بن مالك: أي اللباس كان أحب إلى رسول الله ﷺ أو أعجب إلى رسول الله؟ قال: الحبرة[3].

والحبرة: نوع من البُرد مصنوع من القطن يمني.

وعن أبي سعيد قال: كان إذا استجد ثوبًا سماه باسمه، إزارًا كان أو قميصًا، أو عمامة، ثم يقول: «**اللهمَّ لك الحمد كما كسوتني هذا، أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له**»[4].

أو كان يقول كما روى عنه أنس بن مالك ؓ: «**الحمد لله الذي كساني هذا الثوب، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة**»[5].

وكان لا يطيل ثيابه، بل كانت إلى نصف ساقه، قيل لعثمان بن عفان ؓ أسبل كما يُسبل قومك، قال: هكذا يأتزر صاحبنا إلى نصف ساقيه[6].

---

(١) **حسن:** رواه الترمذي وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٤٦).

(٢) **صحيح:** صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٢٥).

(٣) **صحيح:** رواه البيهقي وصححه الألباني في «سنن أبي داود» (٤٠٦٠).

(٤) **صحيح:** رواه الترمذي وأبو داود وأحمد وابن حبان وصححه الألباني في «مختصر الشمائل» (٥٠).

(٥) **حسن:** حسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٢٣).

(٦) **صحيح:** صححه الألباني في «مختصر الشمائل المحمدية» (٩٨)، رواه أبو الشيخ (٢٧٠).

وعن الأشعث بن سليم قال: سمعت عمتي تحدث عن عمها: أنه رأى إزار رسول الله ﷺ أسفل إلى نصف الساق[1].

وجوز أن يكون الثياب إلى الكعبين، وهما العظمتان البارزتان أسفل القدم، وحرم ما زاد على ذلك، فقال:

«إزرة المؤمن إلى نصف الساق، ولا جناح فيما بينه وبين الكعبين، ما كان أسفل من ذلك فهو في النار، ما كان أسفل من ذلك فهو في النار، ومن جر إزارهُ خُيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[2].

ورأى أحد أصحابه طويل الإزار، فقال له: **«ارفع إزارك، فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك، أما لك فيَّ أسوة»**[3].



(١) **صحيح بشواهده**: صححه الألباني في «مختصر الشمائل» (٩٧)، و«الصحيحة» (١٤٤١).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» وابن ماجه ومالك في «الموطأ» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٢٠).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٠٢).

البابُ السابع

شهادة الفلاسفة والمفكرين للرسول الأعظم ﷺ بمكارم الأخلاق

شهادة الفلاسفة والمفكرين للرسول الأعظم ﷺ بمكارم الأخلاق

ويجدر بنا أن نسوق الأدلة الساطعة لبيان ما كان لهذه الأخلاق العظيمة من شذى فواح، وصدى بالغ الأثر حتى عند غير المسلمين، فإنها أبلغ في الدلالة على المقصود، لأن الفضل ما شهدت به الأعداء، فما من أحد من باحثي الشرق والغرب[1] يقرأ سيرة الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ بروح نزيهة، بعيدة عن التعصب والكراهية إلا شهد له شهادة الحق، واعترف للرسول الأعظم بجلال العظمة الخِلقية، والخُلقية..

سيدي يا رسول الله... يا من :

تعـلم الحكمـاء مـن نفحاتـه	**شـتى المعـارف وارتـوى الظمـآن**
وبنيـت عـلى الأخلاق من أعظم دولة	**قانونهـا وعمادهـا القـرآن**
فازدانـت الدنـيا بـأبهى حلـة	**مـن نسـجها وخـيوطها العمـران**
والكـون أضـحى مشـرقًا من بعد ما	**عـبدت بـه الأحجـار والـنيران**
فهـذا ابـن عـبد الله أعظـم مصلح	**وأجـل مـن دانـت له التـيجان**
فهـو الأسـاس لكـل ملـك خـالد	**لم يسـتقم مـن غـيره سـلطان**

لما عرفوا حقيقة أخلاقه أعلنوا أنهم ما عرفوا أخلاقًا بهذه العظمة، وبهذا الجلال وهذه قطوف من كلامهم..

١- **المستشرق البريطاني «وليم موير» قال في كتابه «حياة محمد»:**

«ومن صفاته الجديرة بالتنويه والإجلال: الرقة والاحترام اللتين كان يعامل بهما

(١) راجع كلامهم في «أخلاق النبي في القرآن والسنة» د. أحمد عبد العزيز قاسم الحداد و«حديث من القلب» للشيخ عبد الحميد كشك، و«الرسول في كتابات المستشرقين» لنذير حمدان.

أتباعه، حتى أقلهم شأنًا، فالتواضع والرأفة الإنسانية وإنكار الذات والسماحة والإخاء تغلغلت في نفسه، ووثقت به محبة كل من حوله».

٢- **الفيلسوف «كارليل»** يقول في كتابه «الأبطال»:

وإني لأحب محمدًا، لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي، لا يعول إلا على نفسه، ولا يدعي ما ليس فيه، وإلا فما كان ملاقيًا من أولئك العرب الغلاظ توقيرًا واحترامًا، وإكبارًا وإعظامًا وما كان يمكنه أن يقودهم، ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثًا وعشرين عامًا، وهم ملتفون به، يقاتلون بين يديه، ويجاهدون حوله.. لولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل، لما خضعوا له، ولا أذعنوا له.. ولقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة، وكانوا حماة الأنوف، وأباة الضيم، فمن قدر على رياضتهم، وتذليل جانبهم، حتى رضخوا له، فذلكم وايم الله بطل كبير...

٣- **العلامة «هوار»** أستاذ الألسن الشرقية بباريس:

وصحاب كتاب «تأريخ العرب» قال: تواترت الأخبار على أن محمدًا كان في الدرجة العليا من شرف النفس، وكان يُلقب بالأمين، إذ كان المثل الأعلى في الاستقامة.

٤- **ألبروفيسور «جارسون دي تاس»**:

قال في كتابه «الإسلام»: إنَّ محمدًا رسول الله ﷺ كان منذ نعومة أظافره، مجانبًا للرذيلة، محبًّا للفضيلة، حتى أطلق عليه بنو قومه «الصادق الأمين».

٥- **الكاتب الأوروبي البروفيسور «ليك»** يقول:

كان محمد ﷺ رحمة حقيقية لليتامى، وأبناء السبيل، والمنكوبين والمديونين، وجميع الفقراء والمساكين والعمال ذوي الكد والعناء، ولقد بعث الله محمد ﷺ رحمة لجنس النساء، الذي كان يُعامل كالأمتعة لا أكثر، وذلك في جميع الدنيا.

٦- **البروفيسور «كارادي فو»**:

قال في كتابه «المحمدية»: كان محمد بشوشًا، تقيًّا، لطيف المعاشرة، وكان النبي الملهم، والمؤسس، ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا التي كان عليها، ومع ذلك فإنه

لم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر، أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين، إن شعور المساواة والإخاء الذي أسسه محمد بين أعضاء الكتلة الإسلامية، كان يُطبق عمليًا، حتى على النبي نفسه.

٧- اللورد «هيدلي»:

قال منوهًا بعظمة أخلاق رسول الله ﷺ :

تلك الأخلاق الربانية، التي أظهرها النبي ﷺ أقنعت العرب بأن حائزها يجب أن لا يكون إلا من عند الله، وأن يكون رجلاً على الصراط المستقيم حقًا، وكراهيتهم المتأصلة في نفوسهم، حولتها تلك الأخلاق الشريفة إلى محبة صادقة مثبتة... ثم قال:

ونحن نعتبر أن نبي العرب الكريم ذو أخلاق متينة، وشخصية حقيقية.

ثم يقول: وحياة محمد كمرآة تعكس علينا التعقل الراقي، والسخاء، والكرم والشجاعة، والإقدام، والصبر، والحلم، والوداعة، والعفو، وباقي الأخلاق الجوهرية، التي تكوِّن الإنسانية.

٨- دائرة المعارف البريطانية:

جاء فيها ما نصه: «كان كل نبي من الأنبياء آية في جميع السجايا، وجاء ليسمو بأخلاق الناس كلهم، وكان المثل الأعلى للإنسان الكامل...».

٩- المستشرق الأمريكي «باسودث سمتث»:

قال: إنَّ ما قيل عن العظماء في مباذلهم، لا يصح على الأقل في محمد رسول الإسلام، إنَّ أعظم الناس لا يأذن لزوجه بأن تُحدث الناس عن جميع ما تراه من حليلها، لكن رسول الله ﷺ كانت له في وقت واحد: تسع زوجات، وكان كل منهن في إذن من الرسول بأن تقول عنه للناس كل ما تراه منه في خلواته..

فهل عرفت الدنيا كهذا الرجل يثق بنفسه كل هذه الثقة؟!

١٠- الفرنسي «دولا مارتين»:

قال هذا الفونس يشهد بعظمة الرسول ﷺ :

إن محمدًا فوق البشر، ودون الإله، إي أنه نبي، فهو رسول بحكم العقل، ودلالات المعجزات تعضد ذلك...

سيدي يا رسول الله ﷺ...

علمتنا سر الحياة وقدتنا ... للخير والتوفيق والبركات

جنبتنا الزلل الكبير وصنتنا ... من شهوة تطغى ومن نزوات

إن شرق القوم الكبار وغربوا ... فإليك حتمًا منتهى الخطوات

ضلت علومهم برغم نبوغهم ... وتعرضوا لمهالك خطرات

وتنكبوا سبل السلام وأقبلوا ... يتشدقون بأجوف الكلمات

لو أحسنوا فهم السلام لأسلموا ... ما غير دينك سُلَّم لنجاة



مراجع الكتاب

١- القرآن الكريم

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

كتب التفاسير

١- تفسير ابن كثير. ابن كثير.

٢- الجامع لأحكام القرآن. القرطبي.

٣- التفسير الكبير. الفخر الرازي.

٤- روح المعاني. الألوسي.

٥- فتح القدير. الشوكاني.

٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل. البيضاوي.

٧- تفسير البغوي. البغوي.

٨- تفسير الطبري. لابن جرير الطبري.

كتب الحديث وعلومه

١- صحيح البخاري. البخاري.

٢- صحيح مسلم. للإمام مسلم.

٣- المسند الإمام أحمد.

٤- شعب الإيمان. للبيهقي.

٥- السنن الكبرى. للبيهقي

٦- السنن الكبرى. للنسائي.

٧- المستدرك. الحاكم.

٨- الموطأ. مالك.

٩- مسند أبي يعلى. لأبي يعلى.
١٠- صحيح ابن حبان. لابن حبان.
١١- سنن الدارمي. للإمام الدارمي.
١٢- مصنف ابن أبي شيبة. لابن أبي شيبة.
١٣- مصنف عبد الرزاق. عبد الرزاق.
١٤- السلسلة الصحيحة. الألباني.
١٥- السلسلة الضعيفة. الألباني
١٦- صحيح الجامع. الألباني
١٧- ضعيف الجامع. الألباني
١٨- صحيح سنن أبي داود الألباني
١٩- صحيح سنن الترمذي. الألباني
٢٠- صحيح سنن ابن ماجه. الألباني
٢١- صحيح سنن النسائي. الألباني
٢٢- إرواء الغليل. الألباني
٢٣- مشكاة المصابيح الألباني
٢٤- الأدب المفرد للبخاري تحقيق الألباني.
٢٥- مختصر الشمائل للترمذي. تحقيق الألباني.
٢٦- صحيح الترغيب والترهيب. تحقيق الألباني.
٢٧- ضعيف الترغيب والترهيب. تحقيق الألباني.
٢٨- الترغيب والترهيب. المنذري
٢٩- الثمر المستطاب. الألباني.
٣٠- صحيح السيرة النبوية. الألباني

٣١- صحيح ابن خزيمة.	الألباني
٣٢- التوسل.	الألباني
٣٣- السنة.	الألباني

كتب السيرة النبوية

١- سيرة ابن هشام.	لابن هشام.
٢- السيرة النبوية.	لابن كثير.
٣- البداية والنهاية.	لابن كثير.
٤- شمائل الرسول.	لابن كثير.
٥- أُسد الغابة.	لابن الأثير.
٦- حياة الصحابة.	الكاندهلوي.
٧- الروض الأنف	السهيلي.
٨- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية.	القسطلاني.
٩- مختصر سيرة الرسول.	محمد بن عبد الوهاب.
١٠- الفصول في سيرة الرسول.	لابن كثير.
١١- تاريخ ابن خلدون.	عبد الرحمن بن خلدون.
١٢- إمتاع الأسماع.	المقريزي.

كتب الأخلاق

١- أخلاق النبي ﷺ .	لأبي الشيخ.
٢- نضرة النعيم.	مجموعة من العلماء.
٣- محمد المثل الكامل.	محمد أحمد جاد المولى.
٤- محمد الإنسان الكامل.	محمد علوي المالكي.
٥- من أخلاق النبي ﷺ .	الحوفي.
٦- أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة.	أحمد بن عبد العزيز الحداد.
٧- تهذيب الأخلاق.	الجاحظ.

٨- تهذيب الأخلاق. لابن مسكويه.

٩- مكارم الأخلاق. الخرائطي.

١٠- مكارم الأخلاق. لابن أبي الدنيا.

١١- التوكل. لابن أبي الدنيا.

١٢- حسن الظن بالله. لابن أبي الدنيا.

١٣- التواضع والخمول. لابن أبي الدنيا.

١٤- العيال. لابن أبي الدنيا.

١٥- الشكر لله. لابن أبي الدنيا.

١٦- الحلم. لابن أبي الدنيا.

كتب الرقائق

١- حلية الأولياء. لأبي نعيم.

٢- سير أعلام النبلاء. الذهبي.

٣- لطائف المعارف. لابن رجب.

٤- خلق المسلم. للغزالي.

٥- الفضيلة والفضائل في الإسلام. د/ أحمد السايح.

٦- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء. لابن حبان.

٧- زاد المعاد. ابن القيم.

٨- الآداب الشرعية. لابن مفلح.

٩- مفتاح دار السعادة. لابن القيم.

١٠- مدارج السالكين. لابن القيم.

١١- الفوائد. لابن القيم.

١٢- الزهد. للإمام أحمد.

١٣- الزهد. لابن المبارك.



الفهرس

